علوم القرآن وأصول التفسير
الكتاب الأول



البيان في إعجاز القرآن

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي



البيان في إعجاز القرآن

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار عمار
عمان - الأردن


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ للَّه ، نحمدُه ونستعينُه ونستهديه ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا . من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضللْ فلا هاديَ له . وأشهد أن لا إلّـه إلاَّ الله ، وحدَه لا شـريك لـه . وأشهد أن محمـداً عبدُه ورسـولُه . صلوات الله وسلامه عليه .

أما بعد :

فإن القرآنَ الكريم هو الآيةُ الأولى للرسول ﷺ، وهو معجزتُه الكبرى التي قدَّمها للناس ، واعتبرَه دليلاً على نبوَّته ورسالته للعالمين ، وإن القرآنَ هو وحيُ الله إليـه ، فهو كلامُ الله سبحانهِ ، وايس من تأليف محمد ﷺ .

وإن القرآنَ قد تحدّى الكافرين ، وطالَبهم أن يقدِّموا مِنْ بيانهم وكلامِهم مثلَه ، أو مثلَ سورة منه ، أو مثلَ عشْر سوَرٍ منه . ولكنهم لم يقْدِروا على ذلـك ، وبذلـك عجزوا عن معارضتِه ، ووقفوا عاجزين أمامه ، وبذلك كان القرآن معجِزاً لهم ، وهذا هو معنى « إعجاز القرآن » .

فإعجازُ القرآن حقيقةٌ قاطعة ، وبدهيَّةٌ مقرَّرة ، أَقرَّ بهَا المسلمون والكافرون ، المسلمـون بتدبُّـرِهم للقرآن ، وتـذوُّقِهم له ، وإيمـانِهم به . والكـافرون بـإقـرارِهم بعجْزِهم عن معارضته ، واعترافِهم بإعجازه لهم .

إن «إعجازَ القرآن» وسيلةٌ إلى هدف عظِيمٍ وغايةٍ سامية ، وليس هـدفاً بحدِّ ذاته ، أو غايةً يُرادُ تحقيقُها . إن الهدفَ من دراسةِ الإعجاز هو إثباتُ مصـدرِ القرآن

الجرجانيّ، صاحبُ النظرية الرائدة « نظريةَ النظْم القرآني » .

وظهر في القرن الرابع عشر ، علماءُ عظماء من أمثال : مصطفى الرافعي ومحمد رشيد رضا ، لكنَّ أعظمَ مَنْ خدمَ فكرةَ الإعجاز ، الدكتورُ محمد عبد الله دراز في كتابه « النبأ العظيم »، وسيد قطب صاحبُ النظرية الرائدة « نظرية التصوير الفني في القرآن » .

وقد تباينَت الآراءُ في تعليلِ « إعجاز القرآن » وفي بيان : بماذا كان القرآنُ معجزاً . ومن ثَمَّ اختلفَ العلماءُ في بيانِ وعَدِّ وُجوهِ الإعجاز .

لقد أجمعوا على القول بالإعجاز البياني ، وأن القرآنَ معجزٌ ببيانِه وفصاحتِه وبلاغتِهِ وأسلوبِه ، وأجمعوا على اعتبارِ هذا الوجهِ هو أبرزُ وأظهرُ وأشهرُ وجوه الإعجاز . وأنه بهذا يقدِّمُ شهادةً للمسألةِ الأساسية ، وهي إثباتُ أن القرآن كلامُ الله .

واكتفى علماءُ محققون بالإعجاز البياني ، واعتبروهُ هو الوجهُ الوحيد لإعجاز القرآن، وأنَّ القرآنَ به تحدَّى المنكِرين الجاحدين، وطالَبَهم بالإتيانِ بسوَرٍ مثلِ القرآن في بيانه وبلاغته وفصاحته ، فعجزوا عن ذلك البيان القرآني .

واعتَبَر هؤلاء المحققون ، ما يقدِّمه غيرهُم من العلماء الآخرين ، مِنْ وجوهٍ أخرى للإعجاز ، ليستْ وجوهاً للإعجاز ، وأنها ليس فيها تحدٍّ ، وأنَّ القرآنَ لم يطالِب الجاحدين الإتيانَ بها أو بمثلها . لكنهم لم ينكِروها ، ولم يرفُضوها ، بل اعتبروها أدلةً تدلُّ على مصدر القرآن الرباني ، وأنه كلامُ الله ، وأنَّ وجودها في القرآن ، وتوفُّرَها فيه ، يجعلُ من المستحيل اعتقادُ أنه كلام بشر . إنَّ تلك الوجوه عند المحقِّقين من العلماء دارسي الإعجاز ، تقفُ أدلةً على مصدر القرآن بجانبِ الإعجاز ، أكبرِ الأدلة وأعظمِها وأوضحِها ، وليستْ وجوهاً للإعجاز ، تندرجُ تحتهَ .

من العلماءِ الذين على هذا الرأي ، رائدُ الإعجاز « عبد القاهر الجرجاني » ومن المعاصرين : الأساتذة : محمود شاكر ، والدكتور عدنان زرزور ، والدكتور محمد لطفي الصباغ .

وأنا مع هؤلاء في فهْمِ الإعجاز ، وأَعِدُ ـ إن شاء الله ـ بإصدارِ دراسةٍ قادمة ،

أعرضُ فيها ـ بإيجاز ـ أَدلـةَ مصدر القـرآن ، وأرتِّبُها تـرتيباً مـوضوعيـاً ، وأبيِّنُ موقـعَ الإعجاز بينها ، وأناقشُ جمهورَ الباحثين في اعتبارِها وجوهاً للإعجاز.

إنه رغمَ كثرةِ الكتب والأبحاث ـ القديمة والمعاصرة ـ التي تبحثُ في « إعجاز القـرآن » ورغْمَ ما في معـظمِ هذه الكتب من فـوائـد ونـظراتٍ وتحليـلات ، إلا أنَّ أَصحابَها لم يرتِّبوا فيها مادةَ الإعجاز ، ولم يصنِّفوها تصنيفاً موضوعيّاً منهجياً .

ولذلك كانتْ دراسةُ مـادة « إعجاز القـرآن » في الجامعـاتِ وكلياتِ المجتمـع والمعاهد العلمية متعبةً للطلبة الدارِسين ، ومتعبةً محيِّرة للأساتذة المدرِّسين .

يحتارُ المدرِّس في اختيارِ مراجع المادة ، وإحـالةِ طَلَبَتـه عليها ، لأنـه لا يجدُ مرجعاً حَوى معظمَ مباحثِ وجزئيّات المادة ، ورَتَّبها ترتيباً علمياً موضوعياً منهجياً .

وأَنْ يَقومَ هو بإعدادِ المادة من عدةِ مراجع ، وتلخيصِها في دفتره ، ثم إملائِها على طَلَبَته ، هذا غيرُ مقبولٍ في الدراسة العلميَّة في الجامعـات والمعاهـد وكليات المجتمع .

ونظراً لهذا الأمر ، رأيتُ الحاجةَ ماسَّةً لكتابة كتابٍ في الإعجاز ، يجمعُ مسائلَه المتناثرة ، وينسِّق بينَ خيوطِه المتداخلة المتشابكة .

ولستُ بعيداً عن « إعجاز القرآن » سواءٌ كان في عالَم البحث والدراسة ، أو في عالَم التعليم والتدريس ـ ولله الحمد على نِعَمِه وأَفْضاله ـ.

فرسالتي التي نِلْتُ بها الماجستير في التفسير ـ عام ١٩٨٠ من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض ـ كانتْ عن نظريةٍ بيانيةٍ جماليةٍ إعجازية ، وهي « نظرية التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب » ـ وهي مـطبوعـةٌ متداوَلَة ـ.

وقد دَرَّسْتُ مادَّةَ « إعجاز القرآن » أكثرَ من مرَّةٍ لطلبةِ كلية الشريعة في الجامعة الأردنية ـ عندما كنتُ محاضِراً غيرَ متفرِّغ في الكليَّة ما بينَ أعوام ٨٢ ـ ١٩٨٥ .

كما درَّسْتُ مادةَ « إعجاز القرآن » أكثر من مرة ، لطلاب كلية العلوم الإسلامية ـ التي أقومُ بالتدريس فيها منذ ١٩٨١ وحتى الآن ، ولله الحمد والشكر والمنَّة ـ

الرباني ، وأنه كلامُ الله سبحانه، وليس كلامَ محمد ﷺ، والإقرارُ برسالة ونبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنَّ الله بعثه رسولاً ونبياً ورحمة للعالمين .

وهو دليلٌ واضحٌ بارزٌ مِنْ أدلةٍ كثيرة ، على نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى أن القرآن هو كلام الله سبحانه ، وليس الإعجازُ هو الدليلُ الوحيد على هذه القضية العظمى .

ويجبُ إقامةُ الدليل على إعجاز القرآن ، وإثباتُ ذلك بالأدلّة والشواهد ، فإذا ثبتَ إعجازُه ـ وهو ثابِت ـ ثبتَت الدعوى ، وهي أن القرآن هو كلامُ الله سبحانه .

إن المعادلةَ يجب أن تكونَ هكذا : القرآنُ معجز ، فهو كلام الله . وكَمْ أخطأَ الذين عَكَسوا المعادَلة ، وقالوا : القرآنُ معجز ، لأنه كلام الله .

وقد تطورتْ مسألةُ الإعجاز في التاريخ الإسلامي ، من كوْنِ الإعجازِ دليلاً على النبوة ، وشاهداً على مصدرِ القرآنِ الرباني ، ليتحَوَّل « إعجازُ القرآن » إلى علْمٍ مستقل ، قائم بذاته ، يُدْرَسُ كما يدرسُ أيُّ علمٍ من علوم العربية .

وتعددَّت «المدارسُ» والاتجاهاتُ في دراسة «إعجاز القرآن» ، فظهرتْ مدرسةُ المعتزلة ، ومدرسةُ المتكلمين ، ومدرسةُ المفسرين ، ومدرسةُ الأدباء ، وتنوعَتْ النظرات ، واختلفتْ التحليلات ، وتباينتْ الآراء ، وتوسَّعَتْ مسألةُ « إعجاز القرآن » توسُّعاً كبيراً .

وظهرت الكتبُ الكثيرة ـ القديمة والمعاصرة ـ التي بحثتْ في الإعجاز ، وقدَّم أصحابُها أفكاراً وآراء ونظرات ، وأضافوا على مَنْ سبقوهم إضافاتٍ كثيرةً نافعة ، كما وقعَ كثيرٌ ممَّنْ بحثوا في الإعجاز في التاريخ الإسلامي في التكرار ، وإعادةِ كلام مَنْ سبقوهم عن الإعجاز .

وكان القرنان : الخامسُ والرابعُ عشر الهجرييَّنْ ، هما العصران الذهبيّان لفكرة إعجاز القرآن ، نظراً لظهور علماءَ أعلامٍ أفذاذ ، بحثوا في مسألة الإعجاز ، وقدَّموا لها الآراءَ العظيمة ، والنظراتِ الثاقبة .

ظهرَ في القرْن الخامس الإمامان : أبو بكر الباقلاني ، وعبدُ القاهر

وكمْ واجهتْنا صعوباتٌ في مراجعِ المادة .

حتى عندَما أردْنا اعتمادَ مادةِ الإعجاز ومراجعِها ، لم نجدْ أفضلَ من كتابِ « فكرةِ إعجاز القرآن : منذ البعثة النبوية وحتى العصر الحاضِر » لنعيم الحمصي ، فاعتمدْناه ـ على ما بِهِ من نقْصٍ وقُصور ، لكنه كانَ أفضلَ الموجود في المكتبات .

هـذا وقد أَقَرَّتْ وزارةُ التعليم العالي عام ١٩٨٨ مناهجَ المواد والمقرَّرات الدراسيّة لكل كلياتِ المجتمع العامة والخاصة ، ومن ضمنها مادة « إعجاز القرآن » للبرنامج الأكاديمي ، تخصُّص الشريعةِ الإسلامية وغيرِها . لكنَّ مراجعَ المادة كانتْ كثيرة ، ومعظمُها غير متوفِّر ، وبعضُ جزئيات وحدات المادة غيرُ موجودة فيها .

لـذلك صحَّ عَزْمي على إصدار كتابٍ شامل في مادةِ « إعجاز القرآن » يلبِّي هذه الحاجات ، ويحقِّقُ تلك الأغراض .

لم ألتزمْ في هذا الكتاب تصنيفَ الوحدات والفقرات في المنهاج الذي اعتمدَتْه الخطةُ الدراسية للمادة ، بل رتبْتُ فصولَ الكتاب ومباحثَه ، وفْقَ طريقةٍ رأيتُها أكثـرَ ترتيباً وتنظيماً ، وألصَقَ بالبحث العلمي الموضوعي .

كما أنني لم أكتفِ بوحداتِ وفقراتِ منهاج المادة المقرَّر ، لم أكتفِ بِها لأنني رأيتُهـا غيرَ وافيةٍ بالمـادّة ، ولذلـك أضفْـتُ لتلك الوحـداتِ مباحثَ وفقـراتٍ رأيتُها ضـروريةً لفهم « إعجـاز القرآن » من خـلال تدريسي لتلك المـادة، ونظري فيهـا ، وبحثي لها ، وتعاملي معها .

ومـع أنني زدْتُ على وحداتِ المـادة المقرَّرة مـا رأيتُه ضـروريّاً ، إلاّ أنّني لم أُسقطْ من الوحداتِ المقـرَّرة شيئاً ، ولـم أُلْـغِ من مباحثها واحداً ، بـل بحثْتُ فيها كلِّها ، واعرضْتُ لها كلِّها . وفعـلتُ ذلك ليعمَّ النفعُ بالكتاب ، ويستفيـدَ منه طلبـةُ كلياتِ المجتمع العامة والخاصة، ويجدوا فيه جميعَ فقراتِ وجزئياتِ ووحداتِ المادة التي يدرسونها في كلياتهم ، ثم يقدِّمون فيها « الامتحان الشـامل » المعـروف . وقد أسعفْتُ هؤلاء الطلبة ، فذكرْتُ في أوَّلِ الكتاب موطنَ ومواضعَ منهاجِ مادة الإعجاز المقرَّرة المعتمدَة في فصولِ ومباحثِ هذا الكتاب .

وبما أنَّ من أهدافي من كتابَةِ هذا الكتاب : هدفٌ أكاديميٌّ تعليميٌّ تدريسيٌّ ،

ليجدَ فيه طلبةُ الجامعات وكليات المجتمع ما يحتاجون إليه أثناء دراسة المادة ، لذلك تابعْتُ جمهورَ الباحثين في اعتبار وجوهٍ أخرى للإعجاز ، بالإضافة إلى الإعجاز البياني ، فتكلمْتُ في الكتاب عن وجوهٍ خمسة للإعجاز ، هي : الإعجاز البياني ، والغيبي ، والعلمي ، والتشريعي ، والنفسي .

مع أنني مع المحقِّقين من الباحثين في الإعجاز ، في أن الوجهَ الوحيدَ للإعجاز ، هو الإعجازُ البياني الذي كان بهِ التحدي ، وأن ما قيلَ عن وجوهِ الإعجاز الأخرى في المضمون القرآني ، مثل الغيبي والعلمي والتشريعي والنفسي ، هي أدلةٌ صادقةٌ لمصدر القرآن الرباني . وأرجو الله أن يعينني للعودة إلى الكتابة في هذا الموضوع كما أشرْتُ .

فهذه الدراسةُ ـ بفصولها الأربعة ـ أضعُها بين أيدي القراء الكرام ، فَمَنْ وجَدَ منهم فيها فائدةً أو ترتيباً أو إضافةً ـ وسيجد إن شاء الله ـ فأرجو أن يتفضّل عليَّ بدعوةٍ صالحة .

ومَنْ وَجَدَ فيها مأخذاً أو تقصيراً ـ وسيجد ـ، ومَنْ خالفَني في رأي أو نظرةٍ أو تحليل، ـ وسيكون ذلك ـ فأرجو أن يقدِّم العذرَ وحسنَ الظنِّ والتأويلِ على غيرِه، وأرجو أن يتكرَّمَ عليَّ فيخبرني بذلك ـ على عنواني المثبت في الكتاب ـ إمّا هَاتفياً أو خطياً ، ولا أَعِدُهُ بأنْ أتابِعَه في رأيه لزاماً ، لكن أَعِدُهُ باحترامِ ملاحظتهِ ، وتقديرِ رأيه ، وإعادةِ النظرَ في المسألةِ موضوعِ الملاحظة من جديد ، فقد أكونُ معه في النهاية ، وقد أَبْقَى على ما رجحتُه وصرتُ إليه .

إنني أتوجَّهُ إلى الله بهذا الجهد ـ وبغيره ـ وأرجو أن يتقبلَه مني بقبولٍ حسن ، وأن يثيبني على ما فيه من إجادة وصواب، وأن يعفو عني لما فيه من نقصٍ وخطأٍ وزلل.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
صويلح ـ ص. ب: ٦٦٩
هاتف : ٨٤١٦٨٤

الاثنين ١/١١/١٤٠٩
١٩٨٩/٦/٥

ملاحظة هامة :

موقع منهاج مادة « إعجاز القرآن» المقررة في كليات المجتمع من هذه الدراسة :

أقرتْ وزارةُ التعليمِ العالي في الأردن عام ١٩٨٨ منهاج مادة « إعجاز القرآن» لطلبة كليات المجتمع .

وقد حرصْتُ على أنَ تشملَ هذه الدراسة كلَّ وحداتِ وفقَراتِ وجزئياتِ المادة وفْقَ المنهاج المقرَّر ، وذلك ليستفيدَ منها كلُّ طالبٍ وطالبة يدرسُون مادةَ « إعجاز القرآن » ويتقدَّمون للامتحان الشامل الذي تجريه وزارةُ التعليم العالي .

ولم ألتزمْ في ترتيبِ فصولِ ومباحثِ هذه الدراسة ، بوحداتِ المنهاجِ المقرَّر ، لأن لي نظرةً خاصةً في ترتيب الفصول ، على ما رتبْتُها عليه .

كما لم أشأْ أن اكتفي بالوحدات والفقرات المقرَّرَة في المنهاج ، لذلك أضفتُ بعضَ المباحثِ التي رأيتُها ضروريَّةً لفهم ودراسة الإعجاز .

لقد « تفرَّقَتْ» وحداتُ ومباحثُ المنهاج المقرَّر لمادة « إعجاز القرآن » في هذه الدراسة ، وتسهيلاً لطلبة كلياتِ المجتمع، أبيِّنُ فيما يلي موقعَ تلك الوحدات والمباحث من الدراسة :

الوحدة الأولى :

ـ فكرة المعجزة. وتأييد الأنبياء بالدليل الشاهد على نبوتهم .

ـ الفصل الأول : المبحث الخامس : بين معجزة محمد ﷺ ومعجزات الأنبياء السابقين. صفحات : ٤٧ ـ ٦٠

ـ معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً :

ـ الفصل الأول : المبحث الأول: مع كلمة « إعجاز » في اشتقاقاتها واستعمالاتها. صفحات : ١٧ ـ ٢٤

ـ تحدي القرآن للناس أن يأتوا بمثله :

ـ الفصل الأول: ال حث السادس : « مع آيات التحدي في القرآن » صفحات : ٦١ ـ ٧٠

ـ فكرة الإعجاز عند السابقين :

ـ الفصل الثاني : مع فكرة الإعجاز في مسيرتها التاريخية.

صفحات : ١٠١ ـ ١٣١

ـ الوحدة الثانية :

ـ نظرية النظم لعبد القاهر.

ـ الفصل الثاني : نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم القرآني :

صفحات : ١١٠ ـ ١١٤

ـ تحليل ابن القيم لسورة الكوثر :

ـ الفصل الأول المبحث التاسع : مكمن الإعجاز : تحليل لسورة الكوثر »

صفحات : ٩٤ ـ ٩٧

ـ الوحدة الثالثة :

ـ رأي الغزالي في احتواء القرآن على مبادىء العلوم.

ـ الفصل الثاني: الإعجاز في القرن السادس : الغزالي واحتواء القرآن على العلوم كلها : صفحات : ١١٥ ـ ١١٧

ـ المخالفون للغزالي ـ ومنهم الشاطبي :

ـ الفصل الثاني : الإعجاز في القرن الثامن : مع العلوي والشاطبي في نقض

التفسير العلمي : صفحات : ١١٨ ـ ١٢٠

ـ الوحدة الرابعة :

ـ الإعجاز البياني واللغوي :

ـ الفصل الثالث : الإعجاز في الأسلوب القرآني «الإعجاز البياني»

صفحات : ١٣٣ ـ ٢٢٤

ـ وهو صلب الدراسة ـ

ـ الأخبار المستقبلية :

ـ الفصل الرابع : الإعجاز في المضمون القرآني « وجوه الإعجاز الأخرى »

صفحة : ٢٢٥

الوجه الأول: الإعجاز الغيبي : ثالثاً: الأخبار المستقبلية : صفحات : ٢٥١ ـ ٢٥٨

ـ الإعجاز التاريخي :

ـ الإعجاز الغيبي : أولاً : غيب الماضي أو الإعجاز التاريخي :

صفحات : ٢٣٤ ـ ٢٤٧

ـ الإعجاز العلمي :

ـ الوجه الثاني : الإعجاز العلمي : صفحات : ٢٥٨ ـ ٣٢١

٦٢ .

ـ الإعجاز التشريعي :

ـ الوجه الثالث : الإعجاز التشريعي . صفحات : ٣٢١ ـ ٣٣١

ـ الإعجاز النفسي :

ـ الوجه الرابع : الإعجاز النفسي . صفحات : ٣٣١ ـ ٣٥١

ـ التناسق العددي :

ـ التناسق العددي . صفحات : ٣٥١ ـ ٣٧٩

ـ الوحدة الخامسة :

ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب .

ـ الفصل الثالث : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. صفحات : ١٨١ ـ ٢٢١

الفصل الأوّل

مقدمات لدراسة الإعجاز


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المبحث الأول

مع كلمة «إعجاز» في اشتقاقها واستعمالاتها

الجذر الثلاثي للكلمة :

معلومٌ أنَّ لكلِّ كلمةٍ عربيةٍ مشتقَّة ، جَذْراً ثلاثيّاً . أيْ أصلاً مكوَّناً من ثلاثةِ أحرف . اشتُقَّتْ منه الكلمة ، وظهرتْ لها صوَرٌ وتعريفات واستعمالات .

وكلُّ صُوَرِ وتعريفات واستعمالاتِ الكلمة ، يُلْحَظُ فيها بوضوحٍ معنى الجذرِ الثلاثي لها ، باعتبارِهِ هو الأصلُ والأساس .

وعلى مَنْ أَرادَ معرفةَ معنى كلمةٍ عربيةٍ في أصلها وفي تعريفاتها واستعمالاتِها ، أنْ يبدأ بمعرفةِ مادَّتِها الأساسية ، وجذْرِها الأصيل ، وتحديدِ معناهُ بدقَّة ، ثم ملاحظةِ ذلك المعنى الدقيق في كل الصُّوَرِ والتعريفات والاستعمالات .

ومن أَهَمِّ وأجودِ الكتبِ التي عليه أَنْ يعودَ إليها : « معجمُ مقاييسِ اللغة » لابن فارس . و « المفرداتُ في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني . و « الكليات » لأبي البقاء الكفَوي .

معنى كلمة « العجز » عند ابن فارس :

« عَجْز » هي الجذْرُ الثلاثيُّ لكلمةِ : إعْجاز . انبثقت منها كلُّ تعريفات الكلمة مثلِ : إعْجاز وأَعْجاز ومُعجزة وعاجِز وعَجوز، وغير ذلك .

قال ابنُ فارس في « معجم مقاييس اللغة » عن معنى العجز : « العينُ والجيمُ والزاءُ: أَصْلانِ صَحيحانِ: يدلُّ أحدُهما على الضَّعْف. والآخرُ على مؤخَّرِ الشيء.

فالأوّل: عَجِزَ يَعْجَزُ عَجْزاً، فهـو عاجِـز: أيْ ضَعيف. ويُقال: أَعْجَـزَني فلان: إذا عَجَزْتُ عَنْ طَلَبِهِ وإدْراكه. والعَجوزُ: المرأةُ الشَّيْخَةُ. ويُقال: عَجَزَتْ تَعَجيزاً. ويُقال: فلانٌ عَاجَزَ فلاناً: إذا ذَهَبَ فلم يُوصَلْ إليْه. والعِجْزَةُ آخِرُ وَلَدِ الشَّيْخ.

والثاني: العَجُزُ: مؤَخَّرُ الشَّيْء. والجمعُ أَعْجاز. وأَعْجازُ الأُمورِ أواخِرُها. وعجيزةُ المرأةِ إذا كانَتْ ضخمة. والعَجْزاءُ مِنْ الرَّمْلِ: رَمْلَةٌ مرتفعةٌ كأنَّها جَبَل»[1].

معنى «العجز» عند الراغب الأصفهاني:

قالَ الراغبُ في «المفردات» عنها:

العَجْزُ: أَصْلُهُ: التأخرُ عن الشيء. وحُصولُ الشيءِ عنـد عَجُزِ الأَمـرِ، أي مُؤَخَّرِه.

وصارَ في التعارف: اسْماً للقصورِ عن فعْلِ الشيء.

وهو ضِدُّ القدرة. قال تعالى: ﴿ **أَعَجَزْتُ أَنْ أكونَ مِثْلَ هذا الغُرابُ** ﴾ [سورة المائدة: ٣١].

وأَعْجَزْتُ فُلاناً، وعَجَّزْتُهُ، وعاجَزْتُه: جعلْتُه عاجِزاً. قال تعالى: ﴿ **وَاعْلَموا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّه** ﴾ [سورة التوبة: ٢] وقال تعالى: ﴿ **وَالّذِينَ سَعَـوْا في آياتِنـا مُعاجِزينَ** ﴾ [سورة الحج: ٥١].

والعَجـوزُ: سُمِّيَتْ لِعَجْزِهـا في كثيرٍ من الأمـور. قـال تعـالى: ﴿ **قـالَتْ: ياوَيْلَتا: أَأَلِدُ وَأَنا عَجوزٌ، وَهذا بَعْلي شَيخاً؟** ﴾[2] [سورة هو: ٧٢].

معنى العجز في «لسان العرب»:

أطالَ ابنُ منظورٍ في «لسان العرب» الكلامَ، حولَ معنى «العَجْزِ» واشتقاقـاتِها وتعريفاتها.

وخلاصةُ كلامه:

١ ـ العَجْزُ نقيضُ الحَزْم. تقول: عَجِزَ عن الأمر، يَعْجَزُ، عَجْزاً • فهو عاجِزٌ

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤: ٢٣٢ ـ ٢٣٤ باختصار.
(٢) المفردات للراغب: ٣٢٢. باختصار.

ويُقال: عَجَّزَ فلانٌ رَأْيَ فلان : إذا نسبهُ إلى خلافِ الحَزْم ، كأنه نَسَبه إلى العَجْز .
ويُقال : أَعْجَزْتُ فلاناً : إذا وجدتُهُ عاجزاً .

٢ ـ والعَجْزُ : الضَّعْفُ . تقول : عَجِزْتُ عن كذا ، أَعْجِزُ . أيْ ضعُفْتُ عنه .

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : ولا تُلِثُّوا بِدارِ مَعْجِزَةٍ . أي : لا تُقيموا ببلدةٍ تَعْجَزون فيها عن الاكتساب ، وتضعُفون عن العمل .

٣ ـ والتَّعجيزُ : التثبيطُ : تقولُ : عَجَّزَ الرجلُ غيرَه وعاجَزَهُ : أيْ : سَبَقَهُ ، فصارَ الآخر ضعيفاً عاجزاً عن متابعته .

٤ ـ والإِعْجازُ : هو الفَوْتُ والسَّبْقُ . يُقال: أَعْجَزَني فُلانٌ. أَيْ : سَبَقَني وفاتَني ، وجَعَلَني عاجزاً عن طَلَبِهِ وإِدْراكِهِ .

قال الأعشى :

فَذاكَ وَلَمْ يُعْجِزْ مِنَ المَوْتِ رَبَّهُ وَلٰكِنْ أَتاهُ المَوْتُ لا يَتَأَبَّقُ

أيْ : لم يفرَّ من الموتِ ، ولم يكنْ ربُّه عاجِزاً عن قَبْضِ روحِه .

وقال أبو جُنْدُبٍ الهُذَلِيّ :

جَعَلْتُ عُزانَ خَلْفَهُمُ دَليلاً وَفاتوا في الحِجازِ لِيُعْجِزوني

أي : فَرّوا إلى بلادِ الحجازِ ظَنّاً منهمْ أنهمْ يفوتونني ويسبقونَني .

٥ ـ أعجازُ الأمور : أواخِرُها . وعَجْزُ الشَّيءِ : آخرُه . والعَجُزْ : ما بَعُدَ الظهرُ منه . وجمْعُ العَجُز : أَعْجاز .

قال بعضُ الحكماء: لا تَتَدَبَّروا أعجازَ أُمورٍ قَدْ وَلَّتْ صُدورُها . أَعجازُ الأمورِ هي أواخرُها ، وصدورُها أوائلها . أيْ يحرِّضُ على تدبُرِ عواقبِ الأمور قبلَ الدخولِ فيها ، ولا يتَتَبَّعُها عند تولِّيها وفواتِها .

وعَجُزُ بيتِ الشِّعْر آخرُه ، أيْ الشطرةُ الثانيةُ منه . وصدْرُه : أوَّلُه . وهو شطرتُه

وعَجُزُ الرَّجُل : مؤخَّرُه . وجمعُه أعْجاز .
وعَجُزِ المرأةِ مؤخَّرتُها . والعجيزةُ هي المؤخَّرَةُ أيضاً .
ورَجلٌ أعْجَز ، وامرأةٌ عَجْزَاءُ : أيْ عظيما العَجيزة .
والعِجْزَةُ وابْنُ العِجْزَة : آخرُ وَلَدِ الشيخ .

قال الشاعر :

وَاسْتَبْصَـرَتْ فِي الحَيِّ أَحْـوى أَمْـرَدا عِـجْـزَةَ شَـيْـخَـيْـنِ يُـسَـمَّـى مَـعْـبَـدا

والعَجوزُ : المرأةُ الشيخُ الهرمة . لأنها تتأخرُ عن بعضِ الأشياء(١) .

العجز : الضعف والقوة :

خلاصةُ الأقوالِ في معنى « العَجْزِ » أنها تقومُ على أصلَيْنِ أساسيَّيْن ، يبرُزان بوضوحٍ في استعمالاتِها ، وفي تعريفاتها واشتقاقاتِها .

وهما ـ كما قال ابنُ فارس ـ :

١ ـ مؤخَّرُ الشيء . وهو المعنى الماديِّ المحسوس . ومنه : عَجُزُ الرجُل ، وعجيزةُ المرأة ، وعَجُزُ بيت الشعر ، وعِجْزَةُ الرجل ، وأعجازُ الليل ، والمرأةُ العجوز ، وأعجازُ النخل ، وأَعَجازُ الإبل .

٢ ـ الضعفُ عن فعلِ الشيء ، والتأخُّرُ عنه ، وعدمُ القدرة عليه . وهو الأمرُ المعنويُّ ، الذي يتولَّدُ من المعنى الماديِّ الأوّل . ومنهُ : العَجْزُ والعاجِزُ والتَّعجيزُ واستعمالاتُها .

وعندَ إمعانِ النظرِ في أصْلَي كلمة « العَجْز » وتعريفاتها واستعمالاتِها واشتقاقاتها نجدُ أنها تحمل معنيَيْن متضادَّيْن : العجزُ والقدرة !

وقد ذَكَرَ لي ذلِكَ أستاذُنا الدكتورُ همّامُ سعيدٍ ـ حفظه الله ـ عندما تذاكَرْنا معنى كلمةِ « إعْجاز » بعدَ صلاةِ فَجْرِ أَحَدِ الأيام في مسجد عبد الرحمن بن عوف في صويلح .

وكانتْ نَظْرتـه إلى أصْلِ معنى الكلمة ، وإلى التَّضادِّ بَيْنَ أَصْلَيْها ، عميقةً

(١) لسان العرب . مادة «عجز» ٥ : ٣٦٩ ـ ٣٧٣ بتصرف واختصار .

ونافذةٌ ، وأصيلةٌ رائعة ـ كباقي نظراتِهِ النّفَاذة حفظه الله ـ .

فالعَجْزُ ـ كما قال ـ هو العَجْزُ والقـوة . ومنه « عَجُـزُ الرَّجُـل » وهو مؤخَّـرَتُه . ومعلومٌ أن عَجُزَ الرجلِ هو أَقْوى ما فيه . لأنَّهُ يحملُ هيْكَلَ الرجل وجسْمَه . بما فيه من ظَهْرٍ وبَطْنٍ وجذْعٍ وعنق ورأس . بل إنَّ العمودَ الفقريَّ الأساسيَّ فيه ، مبنيٌّ على عظامِ العَجُزِ ، ومركَّبٌ عليها .

ووافقْتُـه على ملاحـظتِه وتحليله ، ورأيتُ أن معنى «القـوة» موجـودٌ في بـاقي استعمالاتِ وتعريفات المادة .

فأَعْجازُ النخْلِ : أواخِـرُها ، وهي أقوَى جزءٍ فيها ، لأنها تحمل كُلَّ ما فوقها . وأعجازُ الليل : أواخِرهُ ، وهي اللحظات التي تسبِقُ الفَجر ، وهي أشَدُّ أجزاءِ الليل ظَلاماً وحُلوكةً وسَواداً .

وأَعْجازُ الإبل أَقْوى ما فيها لأنها تَحملُ عليها الأحمالَ والأثقال .
وعَجُـزُ البيتِ أقْوى مِنْ صَـدْره ، لأنَّ فيه القـافية التي تـربطُه مـع باقي أبيـات القصيدة .

وعندما يتحدّى المتحدِّي الآخرين ، فإنه لا يتحدّى إلاّ الأقوياء • ومَنْ يـظنُّون أنَّ بمقدورِهم غلبتَه وتعجيزَه . إذْ أنه لو تحدّى الضعفاءَ فلا فَضْلَ له ولا فَخْرَ في غلبتِه لهم ، بل ربما كان هذا مأْخذاً يُؤخَذُ عليه .

وعندما يباري مَنْ هُمْ أقوى منه ، أو مِثْلَه في القوة ، ويغلبُهُم ، يكونُ له الفضلُ والفخر . لأنه حينئذٍ يكونُ قد غَلَبَ القويَّ وأعجزَه .

لذلك كان التحدّي بالقرآن موجَّهاً للأقوياءَ وليسَ للضعفاءِ • كان موجَّهاً لأقوى النـاس في البيانِ والفصـاحةِ والبَـلاغـة ، فلمَّـا عجـز هؤلاءِ الأقـويـاءُ الفصحـاءُ عن معارضته ، ثبتَ ضعْفُهم وعجزُهم ونَقْصُهم وتأخُّـرُهم . ولذلـك كانَ القـرآن معْجزاً لهم ، وهو مِنْ ثَمَّ معجِزٌ لغيرهم الذين هم دونَهم في الفصاحة والبَلاغة وقُوَّةِ المنطق ، والقدرةِ على التعبير والبيان . وبهذا يثبت إعْجازُ القرآن .

إنَّ التحدّي بالقرآنِ هو للأقوياء ، وإن القرآن قد أَعْجَزَ الأقوياء . لأنَّ التحدي

لا يكونُ إلا لصاحب القوة والقدرة . ولأنَّ العجز إنما هو عَجْزُ القويِّ القادِرِ المؤَهَّل ، وضعْفُهُ عن المواجَهَة أو الغلبةَ .

الرسول عليه السلام ينكر عجز القادرين :

ومما يدلُّ على أنَّ العجزَ يتضمنُ معنى القوة والقدرةِ ، أحاديثُ لرسول الله ﷺ كان ينكرُ فيها على المسلمين تعاجزَهم عن أداءِ بعضِ الأعمالِ التي يقْدرون عليها ، ويرفضُ عجْزَهم وضعفهم عنها ، من هذه الأحاديث :

١ ـ روى مسلمٌ عن أبي الدَّرْداء عن النبي ﷺ قال : « **أَيْعجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآن** ؟ قالوا : وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ القرآنِ ؟ قال : « **يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ فإنها تعدِلُ ثُلُثَ القرآن** »[1] .

فالمسلمُ قادرٌ على أنْ يفعل ذلك ، فلماذا يَتَعَاجَزُ عنه ؟

٢ ـ روى أحمد في مسنده عن سعدِ بنِ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أَيَعْجَزُ أَحَدُكُم أَنْ يَكْسِبَ فِي اليَوْمِ أَلْفَ حَسَنةٍ ؟**» قالوا : وَمَنْ يُطِيقُ ذلِك ؟ قال : « **يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَة . فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنة ، وتُمْحى عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَة** »[2] .

فهم قادرون على كسْبِ ألفِ حسنة في اليوم ، ولكنهم ظنوا أنهم عاجِزون عن ذلك ولا يطيقونه ، والرسول عليه الصلاة والسلام أَنْكَرَ عليهم تعاجُزَهُم ، وبيَّن لهم قدرتَهم على ذلك .

٣ ـ وروى أحمد في مسنده عن عُقْبَة بنِ عامر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **قال ربُّكم : أَتَعْجَزُ يا ابْنَ آدَمَ أَنْ تُصَلِّي أَوَّلَ النَّهارِ أَرْبَعَ رَكَعات ، أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِك ؟** »[3] .

---

(١) صحيح مسلم (٦) كتاب صلاة المسافرين . (٤٥) باب فضل قراءة «قل هو الله أحد» . حديث : ١/٨ .

(٢) مسند أحمد ١ : ١٧٤ .

(٣) مسند أحمد ٤ : ٢٠١ .

فكلُّ مُسْلم في مقدورِهِ واستطاعتِه صلاةُ أربع ركعات ، وغيرُ مقبولٍ منه ادعاؤه عَجْزَهُ عنها .

تعريف المعجزةِ :

عندَنا فِعْلان : أحدُهما ثلاثي ، والآخر رباعي .

الثلاثي ؛ عَجزَ . يَعْجَزُ . فهو عاجِز . وهذا للضعيف المهزومِ العاجزِ عن التَّحدي والمواجهة . ومصْدرُ الفعل هو : العَجْز .

أمّا الرباعي فهو : أَعْجَزَ. يُعْجِزُ . فهو مُعْجِز . وهذا للمنتصرِ القويِّ الذي غلبَ خصْمَه وأَعجَزَه . ومصْدرُ الفعل هو : الإعجاز .

المعجزُ إذن : هو اسم الفاعل من الفعل الرباعي : أعجز .

والمعجزةُ : هي اسمُ الفاعل المؤنَّث من ذلك الفعل .

فالتاءُ فيها هي تاءُ التأنيث . وليستْ « هاءَ المبالغة » كما قالَ بعض العلماء . لأنَّك تقول : مؤمِن ومؤمنة . ومبصِر ومبصرة ، كما تقول : معجزِ ومعجزة ـ والله أعلم ـ .

والمعجزةُ في الاصطلاح هي : الأمرُ الخارقُ للعادة ، السالمُ من المعارضة، يُجريه اللّهُ على يدِ النبي ، تصديقاً له في دعوى النبوة .

فهي خارقةٌ للعادة : أيْ غيرُ خاضعة للمقاييس البشرية ، والسُّننِ الكونية ، والأسبابِ المادية ، ولذلك لا يمكنُ تفسيرُها بالأسبابِ المادية ، ولا قياسُها بها .

وهي سالمةٌ من المعارضة ، أي لا يَقْدِر الناسُ المعارضون للنبي الذي أتى بها على معارضتِها وإزالتِها ونقضِها وإبطالِها . ولو استخدموا في ذلك كلَّ الأسباب المادية التي يَقْدِرون عليها .

فسحرةُ فرعون استخدموا عِلمهم وسِحرهم وحِبالهم وعصيَّهم لإبطال معجزة موسى ـ عليه السلام ـ وهي العصا ، ولمّا ألقى موسى عصاه انقلبت إلى حيةٍ تسعى، فلقفتْ ما أمامها من حبالهم وعصيهم .

التحدي ليس شرطاً في العجز :

بعضُ العلماءِ اعتبرَ التحدِّي شرطاً في المعجزة . ولذلكَ قالوا في تعريفها : هي الأمرُ الخارقُ للعادة ، المقرونُ بالتحدّي ، السالمُ من المعارضة .

ولسْنا معهم في هذا ، ولذلك أسقَطْنا « المقرونَ بالتحدِّي » من التعريف ، لأن شرطَ التعريفِ أن يكونَ « جامعاً مانعاً » ـ كما يقول العلماء ـ أي يجمعُ كلَّ أفرادِ وجزئيّاتِ المعرَّف ، ويمنعُ دخولَ أفراد وجزئيات غيره .

هل كلُّ المعجزاتِ مقرونةٌ بالتحَّدي ؟ أم أنَّ بعضَها خالٍ منه ؟ المعجزاتُ ـ في موضوعِ التحدّي ـ نوعان :

الأوَّل: هي المعجزاتُ الموجَّهة إلى الكفار، باعتبارِها دليلًا للنبيِّ ليؤمِنوا به ويتَّبعوه . وهذه مقرونةٌ بالتحدّي ، ولا بدَّ من التحدِّي فيها ، بحيث يتحدّاهم النبيُّ بها ، ويدعوهم إلى معارضِتها ـ إن استطاعوا ـ وطالما أنهم سيعجزونَ عن معارضِتها ـ ولهذا سُميتْ معجِزةً لَهم ـ فينبتُ لهم أن صاحبَها هو رسولٌ من عند الله .

من المعجزاتِ الموجَّهَة للكفارِ المقرونةِ بالتَّحَدي : ناقةُ صالح ، وإنجاءُ الله لإبراهيمَ من النار ، وعصا موسى ، وإحياءُ عيسى للميت ، والقرآنُ الذي أنزله الله على محمد ﷺ .

الثاني : معجزاتٌ ليس فيها تَحَدٍّ ، وهي تلكَ التي يراها أتباعُ النبي ، المؤمنونُ به ، المصدِّقون له . فلماذا يتحدَّاهم وهم مؤمنون مصدِّقون ؟ من هذه المعجزات : العيونُ الاثنا عشر التي فجَّرَها الله لنبي إسرائيل من الحجرِ ، بعصا موسى عليه السلام ، والمائدةُ التي أنزلها الله لعيسى ـ عليه السلام ـ والحوارييِّن، والجِذْعُ الذي حَنَّ لرسولِ الله محمد ﷺ ، والحصى الذي سبَّح بين يديه ، والماءُ الذي نَبع بين أصابعه ، والطعامُ الذي تكاثر أمامه ، وكأسُ اللَّبن الذي أروى الصحابة ، والذراعُ المسموم الذي كلَّمه ، وغيرُ ذلك . فماذا في هذه المعجزات من التحدي ؟

المبحث الثاني

كلمات قرآنية قريبة من معنى المعجزة

لم تذكر كلمة « إعجاز » في الكتاب والسنة :

لم تَـرْد كلمةُ « إعجـاز » ولا كلمـةُ « معجـزة » في القـرآن الكـريم ، كمـا أنَّ الكلمتَيْن لم تُذْكرا في حديثِ رسول الله ﷺ ولا في كلام الصحابة ولا التابعين !

وأولُّ استخـدامٍ لهاتينْ الكلمتَيْن ، بعـد منتصف القرنِ الثـالثِ الهجري ، أو مطلعِ القرنِ الرابع .

وَمَنْ كانَ في شكٍّ من ذلك . فليراجِعْ كلماتِ القرآن والحديثِ وأقوالَ الصحابة والتابعِين .

ورغْمَ أن الكلمتيْن لم تَرِدا في القرآن ، إلا أنَّ مادةَ « عَجْز » مـذكورةٌ فيـه ستّاً وعشرين مرة .

ولقدْ وردَ في القرآنِ كلمـاتٌ متقاربـةٌ مَعَ الإعجـازِ والمعجزة ، أيْ قـريبةٌ في معْناها من معنى المعجزة .

أقولُ : متقاربةٌ معها ، وليستْ مرادفةً لها ، لأنه لا ترادفَ في القرآن .

ألفاظ متقاربة مع الإعجاز والمعجزة :

أ ـ الآية :

ورد في القرآنِ كلمةُ « آية » قريبةً من معنى المعجزة . والآية : هي «العَلامـةُ

الظّاهرة»[1] فيكونُ ما يقدِّمهُ النبيُّ من الخوارقِ آيةً ، أيْ علامةً ظاهرةً على نبوَّته .

قالَ تعالى : ﴿ وَإلى ثَمودَ أخاهُمْ صالِحاً ، قالَ : يا قَوْمِ : اعْبُدوا اللَّهَ مَالكُمْ مِنْ إلهٍ غيْره ، قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَة ﴾[الأعراف : ٧٣] .

وقال فرعونُ لموسى ـ عليه السلام ـ ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقين ﴾ [الأعراف : ١٠٦] .

ب ـ البينة :

البَيْنُ هو : البُعْدُ والانكشافُ . وبانَ الشيءُ : إذا ظَهر[2] .

والبيِّنَة هي : «الدِّلالةُ الواضحة ، عقليةً كانتْ أو محسوسة »[3] .

قال صالحٌ لقومه : ﴿ قَدْ جاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَة ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

ونشير إلى أنَّ هذه الآية أوردتْ كلمتيْن : البيّنة ، والآية .

وقالَ موسى عليه السلام لفرعون وقومِه : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَني إِسْرائيل ﴾ [الأعراف : ١٠٥] .

جـ ـ البرهان :

البُرْهانُ هو : « بيَانٌ للحُجَّة . وهو أَوْكَدُ الأدلّة ، وهو الذي يقتضي الصِّدْقَ أبداً لا محالة »[4] .

قال اللَّهُ لموسى عليه السلام ، بعدما أعطاهُ العصا واليدَ آيتيْن : ﴿ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه . إِنَّهُمْ كانوا قَوْماً فاسِقين ﴾ [القصص : ٣٢] .

وقال الله عن القرآن : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ : قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبيناً ﴾ [النساء : ١٧٤] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١ : ١٦٨ . والمفردات للراغب : ٣٣

(٢) معجم مقاييس اللغة ١ : ٣٢٧

(٣) المفردات : ٦٨ .

(٤) المرجع السابق : ٤٥ .

د ـ السلطان

« السينُ واللامُ والطاء ـ سَلَطَ ـ هي القوَّة والقهر . والسَّلاطةُ من التَّسلُّط ، وهو القهر . ولذلك سُمِّيَ السلطانُ سلطاناً . والسُّلطانُ الحجة »(1) .

والسُّلطانُ عند الإمام الراغب من السَّلاطة : « وهي التمكُّنُ من القهر . يقال : سلَّطْتُهُ فتسَلَّط . وَسُمِّيت الحجةُ سلطاناً ، وذلك لما يلحق بها من الهجوم على القلوب »(2) .

قال الله عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ : ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنا موسى وَأَخاهُ هارونَ بآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبين . إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه** ﴾ [المؤمنون : ٤٥ ـ ٤٦] .

وقالَ اللَّهُ عن المواجِهةِ بينَ الأنبياءِ وبين أقوامهم الكافرين : ﴿ **قالُوا : إنْ أَنْتُم إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، تُريدونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ، فَأْتونا بِسُلْطانٍ مُبين . قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ، وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بِإِذْنِ اللَّه ، وَعَلى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ المؤْمِنون** ﴾ [سورة إبراهيم : ١٠ ـ ١١] .

هـ ـ البصيرة :

« البصيرةُ : البُرهان . وأَصْلُها : وُضوحُ الشيء . يُقال : رأيْتُهُ لَمْحاً باصِراً : أي ناظِراً بتحديقٍ شديد . ويُقال : بَصُرْتُ بالشيءِ : إذا صِرْتُ بِهِ بَصيراً عالِماً »(3) .

وقالَ الراغب : « يُقالُ لقوَّةِ القلب المدْرِكة بصيرةٌ . والباصِرَة : الجارِحَة الناظرة »(4) .

قالَ تعالى عن ناقةِ صالح ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَآتَيْنا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً، فَظَلَموا بِها** ﴾ [سورة الإسراء : ٥٩] .

---

(١) المعجم : ٣ : ٩٥ .

(٢) المفردات : ٢٣٨

(٣) معجم مقاييس اللغة ١ : ٢٥٤ .

(٤) المفردات : ٤٩ .

وقال تعالى عن آيات موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعونَ وقـومِهِ : ﴿ في تِسْـعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِه . إنَّهُمْ كانُوا قَوْمـاً فاسِقين . فَلَمَّـا جَاءَتْهُمْ آيـاتُنا مُبْصِـرَة ، قالوا : هَذا سِحْرٌ مُبين ﴾ [سورة النمل : ١٢ ـ ١٣] .

وقال الله عن القرآن : ﴿ قَدْ جاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ. فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها ﴾. [سورة الأنعام: ١٠٤].



المبحث الثالث

البدايات الأولى للمعجزة والإعجاز

قلنا إنَّ كلمةَ « إعجاز » و« معجزة » لم تُذْكَرْ في القرآن ـ وإنما ذُكِرَتْ فيه كلماتٌ متقاربةٌ معهما ـ كما لم تُذْكَر في الحديث النبوي ، ولا في أقوالِ الصحابةِ والتابعين .

ولقد مضى القرنُ الأوّل ، والقرنُ الثاني ، ولم تُستخدَمَ الكلمتانِ بمعناهُما الاصطلاحيِّ المعروف .

ولا نستطيعُ أن نحدِّد السَّنَةَ أو الفترةَ التي بدأَ فيها استخدامُ المعجزة والإعجاز ، بالمعنى الاصطلاحيِّ المعروف . لأننا لا نملكُ الدليلَ على بدايةِ ذلك الاستعمال[1] .

ولعلَّهُ بدأَ استعمالُ المعجزةِ والإعجاز بالمعنى الاصطلاحيِّ المعروفِ في الربْع الثاني من القرنِ الثالث ، أو بَعد منتصفه[2] .

المهمُ أنه في مطْلَعَ القرنِ الرابعِ ، كانت الكلمتانِ مستعملتينْ . بدليلِ أنَّ « محَمد بنَ يزيدِ الواسطيِّ » المعتزليِّ ألَّف كتاباً سمّاه « إعجازُ القرآن » ولعلَّه ألَّفه في أواخرِ القرنِ الثالث ، لأنه توفِّي في مطْلَع القرنِ الرابع ، في سنة ٣٠٦ هـ .

---

(١) فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي : ٧ .
(٢) المرجع السابق : ٥٠

وقفة سريعة مع علي الطبري :

نأخذُ شاهداً على أن كلمةَ المعجزة لم تُسْتخدم حتى الربعِ الثاني من القرنِ الثالث :

إنه كتابُ « الدينُ والدولةُ في إثباتِ نبوَّة محمّد ﷺ » ومؤلّفه هو : « عَلِيُّ بْنُ رَبْنِ الطَّبَرِيِّ » .

وكان « عليّ بْنُ رَبْنِ الطبريّ » نصرانيّاً متعمّقاً في الدين النَّصرانيّ . داعياً له . ولكنَّ اللَّهَ شرحَ صدْرَه للإسلام ، في خلافةِ الخليفةِ العبّاسي « المُتَوَكِّل » حيثُ دعاهُ المتوكل للإسلام فأسلمَ على يديْه . وكان له عمٌّ نصرانيّ متعصّب اسمهُ : يحيى بن النعمان ، وله تلاميذ ، يَدْعون إلى النصرانية فألَّف « عَلِيّ بْنُ رَبْن » كتاباً في الرد على عمه وتلاميذه ، وإثبات نبوة محمد ﷺ أسماه « الدين والدولة » .

وقد ألَّفَ الطبريُّ كتابَه في الرُّبعِ الثاني من القرنِ الثالث . لأنهُ أسْلَم في خلافةِ « المتَوكِّل » . وقد وَلِيَ المتوكلُ الخلافةَ سنة ٢٣٢ هـ . وتآمَرَ عليه المتآمِرون وقتلوه عام ٢٤٧ هـ[١] . وكانت وفاةُ « علي بن رَبْنِ الطبري » عام ٢٤٧ هـ[١] . فالطبريُّ ألَّف كتابه ما بين ٢٣٢ هـ و٢٤٧ هـ .

وقد عرضَ فيه لآياتٍ ونبواتٍ وحججٍ وبراهينَ قاطعة تدلُّ على نبوَّةِ محمّد ﷺ . وسجَّل فيه نبوءاتِ وبشاراتِ الأنبياء السابقين بالرسول عليه السلام .

والمهمُّ أنه لم يذكُر في كتابِ المذكور كلمةَ «معجزة» إطلاقاً . واستخدمَ بَدَلَهَا كلمةَ « آية » غالِباً ، وكلمات : حُجَّة وبرهان ونبوءة أحياناً .

فالبابُ الثالثُ هو : آياتُ النبي ﷺ ، التي ردَّها أهلُ الكتاب .

والباب الخامس هو : نبوءاتُ النبي عليه السلام التي تمَّتْ بعد وفاته .

والباب السابع هو : غلبةُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام آيةٌ من آيات النبوة[٢] .

---

(١) البداية والنهاية ١٠ : ٣٤٩

(٢) انظر فهرس الدين والدولة

قال في الباب الثالث : « وأنا ذاكِرٌ من آياتِه ـ عليه السلام ـ ما فيه بُرْهـانٌ لقوْم ينصفون . وأبدأ في هذا الباب بما في القرآن منه . لئلا يقول المخالف : أنه لو كان للنبي ﷺ آيةٌ لَذُكِرَتْ في القرآن ، كما ذُكر في التوراة والإنجيل آياتُ موسى وعيسى عليهما السلام . فمِنْ آياتِه التي ظهرتْ له عليه السلام في أيامه . وشهد بها القرآن . . . »[1] .

وقال في الباب السادسِ عن كونِ أمِّيَّتِه مع نزول القرآن عليه آيةً لنبوته : « ومن آياتِ النبي هذا القرآنُ . وإنما صارَ آيةً لمعانٍ ، لم أرَ أحداً من مؤلِّفي الكتب في هذا الفن فسَّرَها ، بل أطلق القولَ والدعوى فيه »[2] .

والكتابُ وثيقةٌ تاريخيَّةٌ هامّة ، حول بدايةِ استعمال مصطلحِ « معجزة». كما أنه من أهمِّ ما كُتِبَ في مقارنةِ الأديان ، وإثباتِ النبوة . وتبدو أهميته في كونهِ من أوَّل ما أُلِّف في هذا الموضوع في التاريخ الإسلامي . وفي كونِ صاحبه صاحبَ تجربة عمليَّة ، حيث اختارَ الإسلام بعد بحثٍ وجهاد . وفي كونِ المؤلِّف مطلَّعاً على خفايا ودقائق الإنجيل .

جواز استخدام « المعجزة» «والإعجاز » :

لا نفهمُ من عدمِ استخدامِ كلمةِ « معجزة » في الكتابِ والسنةِ وأقوالِ الصحابةِ والتابعين ، عدمَ جوازِ استخدامِها والقولِ بها ، ولا نلغي استعمالَها ، ولا نقولُ إنها بدعة .

يجوزُ استخدامُ كلمةِ « معجزة » وكلمةِ « إعجاز » في كلامنا وفي كتاباتِنا ، وإضافةُ المعجزةِ للرسول ﷺ ، وإضافةُ الإعجاز للقرآن .

يجوز : للتقاربِ في المعنى بين المعجزةِ وبين الألفاظِ القرآنية : « آية . وبيِّنة . وبرهان . وسلطان . وبصيرة » .

ويجوزُ : لصحة معنى المعجزة والإعجاز ، وانطباقِه على المضمون .

---

(١) المرجع السابق : ٣٥

(٢) المرجع السابق : ٥٠

ويبقى أن الأمرَ من باب « الاصطلاح » حيثُ اصطلح العلماءُ فيما بعد على تسميةِ آياتِ الرسل وحججِهم وبيِّناتهم بالمعجزات ، وعلى تسميةِ تحدّي القرآنِ للكفار وعجْزِهم عن المعارضة بالإعجاز . فقالوا : معجزةُ النبي ، وإعجازُ القرآنَ .

ولا مانعَ من استخدامِ هذا المصطلح ، فقديماً قال العلماء : لا مَشاحَةَ في الإصطلاح .

تعريف إعجاز القرآن :

عَرَفْنا أنَّ الإعجازَ مصدر ، وفعلَه رباعيٌّ هو « أَعْجَزَ » تقول : أَعْجَزَ . يُعْجِزُ . إعْجازاً . واسْمُ الفاعل « معجِز » .

أيْ أنَّ القرآنَ الكريمَ أعجزَ الكافرين عندما تحدّاهم بمعارضتِه . والاتيانِ بمثله ، أو سورةٍ من مثله . فكانوا عاجِزين عن ذلك ، وكان القرآنُ معجِزاً لهم . وبذلك ثبتَ إعجازُه أمامَهم ، وتعجيزُه لهم .

وعجْزُهَم أمامَ القرآن ، وإعجازُهُ لهم . دليلٌ على مصْدره ، وأنه كلامُ الله سبحانه ، وليسَ من تأليفِ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي ذلك ينتقلون من موقعِ الكفرِ والتكذيب إلى موقعِ الإيمانِ والتصديق .

وهذا معنى كونِ إعجازِ القرآن ، أقوى وأوضحَ وأهمَّ دليلٍ على مصْدرِ القرآن ، وحجةٍ للرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن أكثرِ التعريفاتِ للإعجازِ دقَّةً واختصاراً تعريفُ القاضي عبدِ الجبّار المعتزليّ . حيث عرَّفه في كتابه « المغني » بقوله : « مَعْنى قولنا في القرآن إنّه معجِز : أنْ يتعذَّرَ على المتقدِّمين في الفصاحة ، فِعْلُ مِثْلِهِ ، في القَدْر الذي اخْتَصَّ به »[1] .

وقال الإمام الجرجاني في كتابه القيِّم « التعريفات » في تعريفِ الإعجاز

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦ : ٢٢٦

عموماً : « الإعجازُ في الكلام هـو : أَنْ يُؤدّىٰ المعنى بطريقٍ ، هـوَ أبلغُ من جميع ما عداه من الطرق »[1].

ويعجبُني تعريفُ الأديبِ البليغِ مصطفى صادق الرافعي للإعجاز حيث قال : « وَإنّما الإعجازُ شيئـان :

١ ـ ضعْفُ القـدرَةِ الإنسـانِيـة في محـاولـةِ المعجـزة . ومـزاولتُـه على شـدَّةِ الإنسان ، واتّصَالِ عنايتِه .

٢ ـ ثم استمرارُ هذا الضعفِ على تَراخي الزَّمن وتقدُّمه .

فكأَنَّ العالَم كلَّه في العجْزِ إنسانٌ واحد ، ليسَ له غيرَ مدَّتِه المحدودة ، بالغةً ما بلغت »[2] .

ويمكنُ أن نعَرِّفَ إعجازَ القرآن قائلين :

هو عجْزُ العرب المعاصِرين لنزولِ القرآن ـ الذين كفروا به ـ عن معارضتِه، مـع توفُّر مَلَكَتِهِم البيانيّة ، وموهبتِهم البلاغيّة ، وقيامِ الـداعي عَلى المعارضـة ، ووجودِ الباعثِ وهو استمرارُ التحدي . واستمرارُ هذا العجز من الكافرين جميعاً على اختلافِ الأماكنِ والأقوام حتى قيام الساعة .



---

(١) التعريفات للجرجاني : ١٤

(٢) إعجاز القرآن للرافعي : ١٣٩

المبحث الرابع

مع مادة «العجز» في القرآن

وردَ في القرآن عدةُ استعمالاتِ لمادة «العجز» في عدةِ تعريفاتٍ وحالات .

وسوف نقومُ بجولةٍ سريعةٍ مع هذه المادّة في القرآن ، ننظر فيها نـظرةً سريعـة أيضاً ، ونسجلُ بعض ما فيها من إيحاءات ولطائف .

مرّات ذكرها وحالاتها :

ذُكِرت هذه المادةُ ستّاً وعشرينِ مرّة .

١ ـ فعلٌ ماضٍ : « أَعَجَزْتُ»: مرةً واحدة.

٢ ـ فعلٌ مضارع : نُعجِز . نعجِزُه. يُعجِزون . يعجزِه: أربعَ مرات .

٣ ـ اسم للمبالغة : عَجوز : أربعَ مرات .

٤ ـ جمعْ عَجُز: أَعْجاز : مرتين.

٥ ـ اسْمُ فاعل من عاجَزَ : معاجِزين: ثلاثَ مرات .

٦ ـ اسمُ فاعل من أَعْجَزَ للمفرد : مَعجِز: مرةً واحدة.

٧ ـ اسمُ فاعل من أَعْجَزَ للجمع : معجِزين : إحدى عشرة مرة.

الفعل الماضي « أَعَجَزْتُ »:

ذُكِرَ الفعلُ الماضي الثلاثي مسبوقاً بهمزةِ الاستفهام مرةً واحدة في القرآن .

فعندما قتلَ ابنُ آدم الظالمُ الباغي ، أخاه المؤمنَ المسالِم ، وتَركَهُ جثةً هامدة أمامَه. لم يدْرِ كيفَ يتصرفُ في الجثة ، وعجِزَ عن فعْلِ أيِّ شيءٍ فيها . فبعثَ اللّهُ

غراباً يبحثُ ويحفرُ في الأرضِ ليريَهُ كيف يواري سوأَةَ أخيه ، وكأنّهُ يدعوهُ ليقتديَ به في فعْلِه ، ويعلِّمُه كيفيَّةَ دفن الجثة .

ولما فهمَ عن الغرابِ إشارتَه وإيحاءَه ، شَعَر بخزْيٍ وندامةٍ ، وأنكرَ على نفسه عجزَها عن التصرُّف في الجثةِ وقال : ﴿ **يَاوَيْلَتا : أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ ، فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخي ؟** ﴾ [المائدة: ٣١].

وكأنّ ذلكَ القاتِل يقول : هل عجِزْتُ عن مواراةِ جثَّةِ أخي ؟ وهل ضعُفْتُ عن هذا العمل ، وأنا قويٌّ أقدِرُ عليه ! . ودليلُ قدرتِهِ عليه أنه وارى جثةَ أخيهِ فِعْلاً .

وهذه الكلمةُ « أَعَجَزْتُ » في هذا الموضع ، لا تخرجُ عن معنى العجزْ . وهو الضَّعْفُ والتأَخرُّ . أو هو : عَجْزُ القادِرِ على الفعل .

والعجْزُ هنا لم يَتحقق فِعْلاً ، لأنه قامَ وتصَرَّف بالأمر ، ولأنَّ اللَّهَ لا يريدُ له أن يعجزَ ، ولذلك بعثَ له الغرابَ ليزيل عجْزَه .

لم يتحقق العجزُ فعلاً لأنه لا يوجد تحدٍّ .

المادة في صورة الفعل المضارع :

وردتْ هذه الكلمةُ أربعَ مرات :

وردت مرتيْن على لسانِ الجن عندما استمعوا القرآن من الرسولِ ﷺ حيثُ آمنوا به وقالوا : ﴿ **وَأَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ في الأَرْض ، ولَنْ نُعْجِزَه هَرَباً** ﴾ [سورة الجن: ١٢].

وهي هنا منفيةٌ . حيث نَفَوْا قدرتَهم على إعجازِ الله وتعجيزِه ، لا في الأرضِ ، ولا في الهرب منها.

وهذا النفيُ بحرفِ «لن» الذي يدلُّ على تأبيدِ النفي .

واعترافُ الجن بأنهم لن يُعجزوا اللَّهَ ، وإخبارُهم الإنس بهذه الحقيقة، له أهميةٌ خاصة ، لأن الإنس يعلمون أن الجنَّ يتفوَّقون عليهم في قدراتِهم وطاقاتِهم ونشاطاتِهم ، فإذا كان أولئك الجنُّ ـ وهم أقوى من الإنس ـ لن يُعْجِزُوا اللَّهَ ، فإن الإنس عاجزون عن ذلك من باب أولى .

والمرةُ الثالثة في سورة الأنفال ، في قوله : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَروا سَبَقوا . إِنَّهُمْ لا يُعْجِزون ﴾ [الأنفال: ٥٩].

وهـذه الآيـةُ نفتْ عن الكـافـرينَ القـدرةَ على إعجـازِ اللَّه وتعجيـزِه. إنهم لا يُعجِزون اللَّهَ ولا أولياءَه وجنودَه.

ونلاحظ أن الآيةَ وردتْ في سياقِ المواجهة بين الحق والباطل ، والمعركةِ بين المؤمنين والكافرين ، وتوجيهِ المسلمين إلى طريق النصر على الكافرين :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللَّهِ الذّينَ كَفَروا ، فَهُمْ لا يُؤْمنون . الَّذين عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضونَ عَهْدَهُمْ في كُلِّ مَرَّة ، وَهُمْ لاَ يَتّقون . فإمّـا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرون . وَإِمّا تخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَـواء، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخَـائِنِين . ولاَ يَحْسَبَنَّ الـذّينَ كَفَـروا سَبَقـوا ، إِنَّهُم لا يُعْجِزون . وَأَعِدّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباط الخَيْل ، تُرْهِبونَ بِهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ ، وَآخَرينَ مِنْ دونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُـمْ ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٦٠] .

إن الذين كفروا سيحاربونَ دينَ الله وجنودَه وأولياءَه بكلِّ ما يستـطيعون ، وهم في ذلك يحارِبون اللَّهَ سبحانه . وهم يعتقدون أنهم سينجحون في حربِهِم لهذا الدين ، وسيتمكّنون من القضاءِ على المؤمنين .

فـالآيةُ تبـطلُ ظنَّهم ، وتبيِّن فشَلَهم في حربهم وفي تحقيق أهـدافِهم ، وتخبرُ أنهم ليســوا ســابقين للمؤمنين في حــربهم لهـم ، ولا منتصــرين عليـهم ، وأَنــهم لا يُعجِزون الله سبحانـه ، ومن ثم لا يُعْجِزون المؤمنين . إن الكفـارَ أضعفُ من أن يُعْجِزوا الله حين يطلبهم ، وأضعفُ من أن يُعْجِزوا المؤمنين لأن الله معهم .

والمرةُ الرابعةُ التي ذُكرتْ فيها الكلمةُ في صـورة الفعلِ المضـارع ، هي في سورة فاطر ، في قوله تعالى : ﴿ وما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ في السَّمٰواتِ وَلا في الأَرْض ﴾ [سورة فاطر: ٤٤].

حيثُ تنفي الآيةُ العجزَ عن اللَّهِ القويِّ سبحانـه ، وتقررُ أنـه لا يقْدِرُ شيءٌ في

السمٰوات ولا في الأرض على إعجازِ الله أو تعجيزه وإلحاقِ العجز به .

وهذه الآيةُ أيضاً في سياقِ مواجهةِ الكافرين للحق، ومحاربتهم لله، وكفرِهم به ، وبيان ما فعلَ الله بمَنْ قبلَهم من الكافرين من تعذيبٍ وهلاك : ﴿ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذيرٌ ما زادَهُمْ إلاّ نفوراً . اسْتِكْباراً في الأَرْضِ ، وَمَكْرَ السَّيِّء. وَلاَ يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاّ بِأَهْلِه . فَهَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلين ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْديلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْويلاً . أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرْضِ ، فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الذّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكانَوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَما كان اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ في السَّمٰواتِ وَلا فِي الأَرْض ، إِنَّهُ كَانَ عَليماً قَديراً ﴾[سورة فاطر: ٤٢ ـ ٤٤].

ولدى إمعانِ النظرِ في الآياتِ التي وردتْ فيها كلمةُ « العجز » في صورةِ الفعل المضارع . وفي سياقِ تلك الآياتِ ، وفي حالةِ الكلمة فيها ، سنخرجُ من ذلك ببعضِ اللطائفِ والإيحاءاتِ ، منها :

١ ـ أنَّ الكلمةَ رباعيةٌ وليست ثلاثية . أيْ أنَّ فعلَها الماضي «أعجزَ» وليس «عجز»، أي جعلَ غيرَه عاجزاً.

٢ ـ أن الكلمةَ في المرات الأربعة المتفرقة ، وردتْ في سياقٍ واحد، وهو المعركةُ بين الحقِّ والباطل ، ومحاربةُ الكافرين لله وللمؤمنين .

٣ ـ أنَّ الكلمةَ تدلُّ على جهودِ أولئكَ الكافرين ، في إعجازِ الله وتعجيزه ، عن طريقِ القضاءِ على دينه ، وإهلاكِ جنوده وأوليائه .

٤ ـ أنَّ الكلمة في مراتِ ورودها الأربعة جاءتْ منفيَّة ، حيث نفتْ العجزَ عن الله سبحانه ، ونفتْ قدرةَ الكافرين عن إعجازهم للّه .

٥ ـ أنَّ الكلمةَ تدلُّ على بذْل كل جهدهم لمحاربةِ الحق . وإلحاق العجز بالله ، ولكنهم سيفشلون في ذلك.

وهذا يصدِّقُ ما سبق أن قلناه من أنَّ الإعجازَ هو الضعف والقوة ، فالكفارُ يظنّون أنهم أقوياءُ على المواجهةِ والحرب والتحدي ، وقد منحهم الله أسبابَ القوة والتمكُّنِ ، من السيادةِ والسلطانِ والمالِ والعقل ، فاستخدموها في حرب الله ودينه

وأوليائه، بدل استخدامها في عبادته وشكره. ولكنهم فاشلون في استخدامها، مهزومون في المواجهة.

كلمة «العجوز» في القرآن:

وردتْ كلمةُ «عجوز» أربعَ مرات في القرآن.

مرتان في حالة الرّفع، وهي في هاتيْن المرتيْن، وردت على لسانِ امرأةِ إبراهيم - عليه السلام - وصفت بها نفسَها.

قال تعالى: ﴿ **قالَتْ يا وَيْلَتا: أَأَلِدُ وَأَنا عَجوزٌ وَهـٰذا بَعْلي شَيْخاً** ﴾ [سورة هود: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها، وَقالَتْ: عَجوزٌ عَقيم** ﴾ [الذاريات: ٢٩].

فكلمةُ «عجوز» في الآيتيْن، وَقَعتْ خَبَراً، لأنَّ امرأةَ إبراهيمَ أخبرتْ الملائكة بذلك مستغربة، عندما بشرَّتْها بأنها ستحملُ وتنجبُ غلاماً، فتعجبت: كيف ستحملُ به، مع أنها عجوزٌ عقيم؟: ﴿ **قالَتْ: يا وَيْلَتا: أَأَلِدُ وَأَنا عَجوزٌ وَهذا بَعْلي شَيْخاً؟ إنَّ هذا لَشَيءٌ عَجيب! قالوا: أَتَعْجَبينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟** ﴾ [سورة هود: ٧٢ - ٧٣].

ووردتْ كلمةُ «عجوز» مرتيْن في حالةِ النصْب، باعتبارها مستثنى، والمرَّتان في موضوع واحد، وهو امرأةُ نبي الله لوط - عليه السلام - حيث أخبرَ القرآنُ عن نجاةِ لوط - عليه السلام - وأهلِه لأنهم كانوا مؤمنين، إلا امرأتَه، فقد أُهلِكتْ مع الكافرين، لأنها كانت كافرة.

قال تعالى: ﴿ **فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعين. إِلاّ عَجوزاً في الغابِرين** ﴾ [سورة الشعراء: ١٧٠ - ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ **إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعين. إِلاّ عَجوزاً في الغابِرينْ** ﴾ [سورة الصافات: ١٣٤ - ١٣٥].

وعند النظرِ في استعمال كلمةِ «عجوز» في القرآن، نخرجُ ببعض الايحاءات:

١ ـ أُطلقتْ كلمـةُ «عجوز» على امـرأة إبـراهيم، وعلى امـرأة لـوط ـ عليهمـا السلام، وبينهما وبين النبيّين صلةٌ وقربٌ واتصال ، بينهما صلةُ قرابةٍ وقربى، وبينهما تقاربٌ واتصالٌ في الإقامة والسكنى في فلسطين . حيث كان إبراهيم مقيماً في منطقة القدس ، ولوط كان معاصِراً له مقيماً في شرق فلسطين .

٢ ـ كلمةُ «عجوز» جاءتْ تكريماً لامرأة إبراهيم عليه السلام ، لأنها جاءتْ خبراً للمبتدأ ، تخبرُ به المرأةُ عن نفسها ، عندما أخبرتْها الملائكـةُ بتكريم الله لهـا حيث سيهب لها على كبرها ولداً.

٣ ـ كلمةُ «عجوز» جـاءت في سياقِ إهـانةِ امـرأة لوط ـ عليـه السلام ـ وذمِّهـا وتعذيبها ، لأنها جاءتْ مستثنى ، حيث استُثنيَتْ من أهـلِهِ الأطهار الأبرار الناجين ، لتبقى مع القومِ الفاسدين المعذَّبين .

٤ ـ لا تخرجُ كلمةُ «عجـوز» عن معنى الإعجاز الـذي ذكرْنـاه ، وهو الضعفُ والقوة .

فامرأةُ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ عجوز ، عاجزةٌ عن الحمـل والإنجاب ، ولكنَّ الله منَحَها القوةَ بحيث قدرتْ على الحمل والإنجاب ، فتحولتْ بإذن اللّهِ من عجوزٍ عاجزة إلى عجوزٍ قوية ، لقد تمثلَتْ فيها « قوةُ العاجز ».

أما امرأةُ لوط ـ عليه السلام ـ فعلى العكس من امرأةِ إبراهيم ـ عليه السـلام ـ حيثُ كـان بمقدورِهـا أن تكونَ قـويةً ، وأن تلحق بـالركب المؤمن النـاجي ، لكِنها عجـزتْ عن ذلك وضعفتْ ، فبقيتْ مـع القوم الهـالِكين ، لقد أَعجـزَها كفـرُها عن النجاة . لقد تمثل فيها « عَجْزُ القوي ».

إن امرأةَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ عجوزٌ ، نموذجٌ لقوةِ العاجز.
وإن امرأةَ لوط ـ عليه السلام ـ عجوزٌ ، نموذج لعجز القوي .

كلمة « أَعْجاز » في القرآن :

وردتْ كلمةُ « أعجاز» مـرتيْن في القران ، وهي في كلتـا المرتيْن مضـافةٌ إلى

النّخل « أعجازُ نخل » وهي في سياقٍ واحـد ، وهو تصـويرُ حـالةِ قـومِ عاد بعـد أن أهلكهم الله :

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عادٌ. فَكَيْفَ كانَ عَذابي وَنُذُر ؟ إِنّا أَرْسَلْنـا عَلَيْهِمْ ريحاً صَرْصَراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِر . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُر ؟﴾ [سورة القمر: ١٨ ـ ٢١].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثمانِيَةَ أَيّامٍ حُسوما . فَترى القَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خـاوِيَة . فَهَـلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَة ؟﴾ [سورة الحاقة : ٦ ـ ٨].

وأعجازُ النخل هي أوائلُها التي على وجْهِ الأرضِ .

ووجْهُ تشبيهِ قومِ عادٍ بأعجازِ النخل ، هو ضخامَتُهم وطولُهم ، فقومُ عادٍ كانوا ذوي بَسْطَةٍ في الجسم والطول ، والنَّخلةُ من أطولِ الأشجار . قال هود عليه السلام لهم ﴿ وَاذْكُـروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْـدِ قومِ نـوحٍ ، وزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَة﴾ [سورة الأعراف: ٦٩].

وقد جاءتْ أعجازُ النخل مذكَّرةً في سورةِ القمر ، ووُصِف بها وصْفٌ مذكّر : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر ﴾ . وكانَ منظوراً فيهـا إلى مجموعِ النخـل ، وجموع التكسير يجوزُ تذكيرُها وتأنيثُها . تقول : جاءَ الرجال ، وجاءت الرجال .

بينما جاءَتْ أعجازُ النخل مؤنَّثة في سورةِ الحاقة ، ووُصِف بها وصْفٌ مؤنث : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة ﴾ حيث كان منظوراً فيها إلى أفرادِ النخل ، أيْ منظوراً فيها إلى كلِّ نخلةٍ على حدة ، والنخلة مؤنثة.

ويتمثـلُ في « أعجاز النخـل » معنى الاعجاز وهـو عجْزُ القـويْ ، أو اجتمـاعُ الضعف مع القوَّة. فعَجُزُ النخلةِ هو أقوى شيء فيها، لأنهُ يحملُ ما فوقَهُ من جسمها. ولكنَّ هذا العَجُزَ القويَّ يضعفُ ويعْجَزُ عن الثباتِ والصُّمود أمامَ العواصف الشديدة ، ولذلك ينْقَعِر ويسقطُ بما يحمل ، ويكونُ خاوياً ملقى على الأرض .

كلمة «معاجزين» في القرآن :

«مُعاجِزين» جمع «مُعاجِز». و«مُعاجِز» اسمُ فاعل من الفعل الرباعي «عاجَزَ» و«عاجَزَ» يدلُّ على المشارَكة والمفاعَلَة، لأن الألفَ فيه هي «ألفُ المفاعَلَة». أي أن المعاجَزَة كانت من طرفيْن، كلٌّ منهما «عاجَزَ» خصْمَه، وأراد إعجازَه وتعجيزَه، وإيقاعَه في العجزِ والضعفِ والتأخر.

وقد وردت كلمةُ «معاجِزين» ثلاثَ مرات في القرآن، في سياقٍ واحد، وفي حالةٍ واحدة، وعلى صورةٍ واحِدة:

١ ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ: يا أَيُّها النّاسُ إنَّما أَنَا لَكُمْ نَذيرٌ مُبين . فَالذّينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَريم . وَالذّينَ سَعَوْا في آياتِنا مُعاجِزينَ، أُولئِكَ أَصْحابُ الجَحيمِ ﴾ [سورة الحج: ٤٩ ـ ٥١].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الذّينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ، أولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَريم . وَالذّينَ سَعَوا في آياتِنا مُعاجِزين أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْز أَليم ﴾ [سورة سبأ: ٤ ـ ٥].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ إلّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، فأولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا، وَهُمْ في الغُرُفاتِ آمنون . وَالذّينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعَاجِزِينَ أولئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرونْ ﴾ [سورة سبأ: ٣٧ ـ ٣٨].

ويمكنُ أن نستخرجَ من هذه الآياتِ هذه الإيحاءاتِ والملاحظات:

١ ـ إنَّ المعاجزينَ همُ الكفار، وهم يبذلونَ جهدَهم في معاجزةِ الله، عن طريقِ سعيهم الحثيثِ في محاربةِ دينِه وآياتِه. وهم يظنّون أنهم بمعاجزتِهم لله، سينجحون في تعجيزِ الله سبحانه.

وهذه المعاجزة هنا تدلُّ على المفاعَلة، أيْ على المعركة بين الحق والباطل. وهم عاجِزونَ عن معاجَزَةِ الله سبحانه أو تعجيزِه، ولهذا نفتْ آياتٌ أخرى أن يكونوا مُعْجِزين لله.

٢ ـ إنَّ الكلمةَ في المراتِ الثلاث، مسبوقةٌ بأمريْن، ومُعَقَّبٌ عليها بأمرٍ آخر بعدها:

مسبوقةٌ أوَّلاً بـذِكْر مـا أعدَّ اللَّهُ للمؤمنينَ الصـالحينَ من مغفرةٍ ورزقٍ كـريم ، وجزاءِ الضِّعْفِ في غُرُفاتِ الجنة ، وفي هذا دعوةٌ للناس ليكونوا مثلَهم ، لينالوا مِثْلَ جزائِهم .

ومسبوقةٌ بكلمةِ « سَعَوْا» أو « يَسْعَوْنَ». وهذه الكلمةُ تدلُّ على بَذْلِ الكفارِ كلَّ جُهـودِهم في حَرْبِ الحقِّ ، فهم يستخـدمونَ كـلَّ الوسـائِلِ والأسـاليبِ في تحدِّي الحق ، ومحاولةِ تعجيزِ الله ، وفي معاجَزَتِه والصَّدِّ عن دينَه.

وهذه الكلمةُ « معاجِزين » مُعَقَّبٌ عليها في المواضِعِ الثلاثةِ بنتيجةِ معاجَزَتِهم لله ، ونهايةِ حربهم للحق ، وهي هزيمتُهم ، وإيقاعُ العذاب الأليم بهم .

٣ ـ إنَّ كلمةَ « معاجِزين » وَقَعَتْ في المواضِعِ الثلاثة « حالاً » منصوباً . فهي بيانٌ لحالِهم في معاجزةِ الله ومحاربةِ دينه.

وكلمةُ «معاجزين» تتضمنُ معنى الإعجاز ، وهو القوةُ والعجـزُ ، فهم يملكون كثيراً من مظاهرِ القوة ، من قوى وطاقاتٍ وقدرات ، ولكنهم اغترُّوا بها، فـظنّوا أنّهم ينتصرون بها في حربِهم لله ولدينِه وآياتِه وأوليائه، ولذلك استخدموها في الحـرب ، وسَعَوْا فيها معاجِزين لله .

وكانت النتيجةُ هي عجْزُهُم ـ وهم الأَقوياء ـ وفشلُهم ، ومصيرُهم إلى العذاب الأليم في نار الجحيم !

كلمة «معجز» في القرآن :

معْجِز: اسمُ فاعلٍ من الفعل الرباعي : أَعْجَزَ. أي: أنه معْجِز لغيره ، بحيث يجعلُه عاجِزاً أمامَه.

وقـد وردت «معْجِز» للمفـرَد مرةً واحـدة في القرآن . على لسـان الجنِّ الذين استمعَوا القرآنَ من رسول الله ﷺ فآمَنـوا وذهبوا إلى قـومِهم الجنِّ منذرين ، وطلبـوا منهم الإيمانَ بالله :

﴿ يا قَوْمَنا أَجيبوا داعِيَ اللَّهَ وَآمِنوا بِه ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ ، وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَليم. وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْض ، وَلَيْسَ لَـهُ مِنْ دونِهِ

أولياء . أولئِكَ في ضَلَالٍ مُبين ﴾ [الاحقاف: ٣١ ـ ٣٢].

إن الآيةَ تنفي قدرةَ أيِّ شخصٍ كافرٍ على تعجيزِ اللَّه سبحانه ، وتقررُ أنَّ هـذا الكافرَ الذي لا يُجيبُ داعي الله ، لن يكون معْجِزاً لله في الأرض .

واعترافُ الجنِّ ذوي الطاقات الهائلة والقدراتِ الضخمةِ ، يُضافُ إلى اعترافهم السابق في أنَّهم لن يُعْجِزا اللَّهَ سبحانه : **﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ ، وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ﴾**[الجن : ١٢] .

كلمة «معجزين» في القرآن :

كلمةُ « معْجِزين » هي جمعُ كلمةِ « معْجِز » التي تكلَّمْنا عليها قبل قليل.

وقد وردتْ هذه الكلمةُ إحدى عشرة مرة في القرآن :

مرَّتان منهما مضافةٌ إلى الله « مُعْجِزي الله » ، وتسعُ مرات مطلقة «معجزين» .

ونوردُ فيما يلي هذه المرات ، لننظُرَ فيها مجتمَعة ، ونسجلَ أهم لطائفها :

١ ـ في أولِ سورة التوبة، براءةُ اللَّهِ من المشركين ، وإعطاءُ المعاهِدين منهم لرسول الله ﷺ مهلةَ أربعةِ أشهر لتحسينِ أوضاعهم وترتيبها . قال تعالى : **﴿ فَسيحُوا في الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر . وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّه، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الكَافِرين ﴾** [سورة التوبة: ٢].

٢ ـ في نفسِ سورةِ التوبة ، وفي الآيةِ الثانية ، عودةٌ إلى تأكيدِ براءةِ الله من المشركين يومَ الحج ، وإلى تهديدِهم وبيانِ أنهم لن يُعجِزوا الله :

قال تعالى : **﴿ وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ إلى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَر : أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُه، فإنْ تُبْتُم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزي اللَّه ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَروا بِعَذابٍ أَليم ﴾** [سورة التوبة : ٣].

٣ ـ يخاطبُ القرآنُ الكافرينَ مبيِّناً لهم قدرةَ الله المطلَقَة ، فقد جعلهم خلفاً لآخرين ، وإنْ شاءَ أذهبهَم . والقادرُ على هذا ، قادرُ على أن يأتيهم بيوم القيامة :

قال تعالى : **﴿ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشاء ، كَما أَنْشَأَكُم مِنْ**

﴿ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخرين . إنَّ ما توعَدُونَ لآتٍ ، وما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٤ ـ ١٣٥] .

٤ ـ أمر اللَّهُ رسولَه ﷺ أن يجيبَ الكافرين على تساؤلهم وتشكُّكِهم حول البعث :

قال تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئونَكَ: أَحَقٌّ هُو ؟ قُلْ: إِيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحق ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزين﴾ [سورة يونس : ٥٣].

٥ ـ يخبر القرآنُ أن الكافرين الذين يصدّون عن سبيلِ الله ، عاجزون معذَّبون :

﴿ألا لَعْنَةُ اللّهِ على الظَّالِمين . الّذِينَ يَصُدّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ ، وَيَبْغونَها عِوَجاً ، وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافِرون . أُولئِكَ لَمْ يَكونَوا مُعجِزينَ في الأرْض ، وما كانَ لَهُم مِن دونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء﴾ [سورة هود: ١٨ ـ ٢٠].

٦ ـ وفي الحوارِ بين نوحٍ ـ عليه السلام ـ وبينَ قومِه الكفار ، حيثُ طلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب ، وردَّ عليهم بأن هذا بيَدِ الله ، وأنهم لا يُعْجزونَ اللَّهَ .

﴿قالوا : يا نوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقين . قالَ : إنَّما يَأتيكُم بِهِ اللَّهُ إنْ شَاءَ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزينْ﴾ [سورة هود : ٣٢ ـ ٣٣] .

٧ ـ يَهدّدُ القرآنُ الكفارَ بعذابِ الله ، واحتمالِ وقوعِه بهم في أَيَّةِ حالةٍ ، فهم غيرُ معْجِزين :

قال تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ الذّينَ مَكَروا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْض ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ، فما هُمْ بِمُعْجِزين ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف﴾ [سورة النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

٨ ـ طمأنَ القرآنُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام ـ وكلَّ مسلمٍ من بعدِه ـ إلى أنَّ مصيرَ الكُفار إلى ذلٍّ وهوان ، وأنهم غيرُ معْجِزين :

قال تعالى: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذّينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأَرْض ، وَمَأْواهُمُ النّارُ ، وَلَبِئْسَ المَصير ﴾ [سورة النور: ٥٧].

٩ ـ أمرَ القرآنُ الكافرين بالتَّفكر في خلق اللّهِ في الأرض ، ليخرجُوا بنتيجةٍ ثابتةٍ حوْلَ البعث ، وهدَّدهم بأنهم غير معجزين:

قال تعالى: ﴿ قُلْ سيرُوا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَة ، إنَّ اللّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير . يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإلَيْهِ تُقْلَبونَ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ ، وَمَا لَكُم مِنْ دونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصير ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠ ـ ٢٢].

١٠ ـ بيَّنَ القرآنُ أنَّ الكافرينَ مثْلُ مَنْ سَبَقَهُمْ من الكافِرين ، وأَنه سَيَحُلُّ بهم ماحَلَّ بالسابقين لأنَّهم ليسوا معْجِزين:

قال تعالى: ﴿ قَدْ قالَها الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أغْنى عَنْهُمْ ما كَانوا يَكْسِبون . فَأصابَهُمْ سَيِّئاتُ ماكَسَبوا ، وَالذّينَ ظَلَموا مِنْ هٰؤلاءِ سَيُصيبُهُمْ سَيِّئاتُ ماكَسَبوا ، ومَاهُمْ بِمُعْجِزينْ ﴾ [سورة الزمر: ٥٠ ـ ٥١].

١١ ـ يخبرُ القرآنُ الناسَ أنَّ ما أصابَهَم من مصائِبَ فهو بسببِ أعْمالهم ، وأنهم لا يُعجِزونَ الله ، وأنه ليس لهم إلا الله:

قال تعالى: ﴿ وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ ، وَيَعْفو عَنْ كَثير ، وَما أَنْتُم بِمُعْجِزينَ في الأَرْض ، وَما لَكُمْ مِنْ دونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصير ﴾ [سورة الشورى: ٣٠ ـ ٣١].

بعض دلالات ولطائف كلمة «معجزين»:

عندما ننظرُ في هذه المراتِ التي وردَتْ فيها كلمة «معجزين» نجدُ ما يلي:

١ ـ هيَ في هذهِ المراتِ كلِّها ، وردتْ في سياقٍ واحدٍ ، وهو كُفرُ الكفارِ بالله ، ورفضُهم الدخولَ في الدينِ الحق ، ومحاربتُهم له . وظنُّهم أنهم بذلك يكونون «مُعجزين» لله ، فنفتْ الآياتُ إعجازَهم لله .

٢ ـ هي في هـذهِ المراتِ كلِّهـا ، جاءتْ على صـورةٍ واحدة ، وهي النفيُ ، ﴿غيرُ معْجِزي الله﴾ ﴿ وما أنتم بمعجِزين ﴾ ﴿ لا تحسبنَّ الذين كفروا معْجِـزين ﴾ ﴿ لم يكونوا معجِزين ﴾ حيثُ نفتْ عنهم القدرة على تعجيزِ الله ، رغم بذْلهم كـلَّ ما يقْدرون عليه ، ليكونوا معجزين لله .

٣ ـ عندما أضيفَت الكلمةُ إلى الله ﴿ معْجِزي الله ﴾ مرتيْن ، وردتْ فيها على حالةٍ واحدة : ﴿ إنكم غيرُ مُعْجِزي الله ﴾ حيث جاءَ النفيُ بـالجملةِ الاسمية ، وهـو أبـلَغُ وآكدُ من النفيِ بالجملة الفعلية .

٤ ـ وردت الكلمـةُ تسعَ مـراتٍ مجرورة ، ومـرتين منصوبـة ، فهي في معظم الحالاتِ مجرورةٌ بحرفِ الجر «بمعجزين» .

٥ ـ يظهرُ في المرات كلِّها معنى العَجزِ والإعجازِ ، وهـو: ضعفُ القويّ ، أو اجتماعُ القوّة والضعفِ معاً .

فالكفارُ منحهمُ اللَّهُ كثيراً من مظاهرِ وأسبابِ وألوانِ القوة ، ولكنهم اغترّوا بها ، ولم يستخدِموها في تحقيقِ وظيفةِ اللَّهِ في الخلافة . لقدْ ظنّوا أنهم سينجحونَ بها في محاربةِ دينِ الله ، ولذلكَ وجَّهوها في حَرْب الله ـ سبحانه ـ ودينِه وجنودِه ، وحاوَلـوا تعجيزَ الله ـ سبحانه ـ . ولكنَّ قوَّتَهم انقلبت ضعفاً ، وصاروا عاجِزين بدلَ أن يكونوا مُعْجِزين !



المبحث الخامس

بين معجزة محمد عليه السلام ومعجزات الأنبياء السابقين

لكل نبي آية [معجزة] :

كلُّ نبيٍّ كان يطلبُ من قومه الإيمانَ بالله ، وحدَه ، والإخلاصَ في عبادته وحده : ﴿ **وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ : لا إِلهَ إِلاّ أَنا ، فَاعْبُدون** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولكنَّ قومَه كانوا يقابلونَه بالتكذيبِ والاستهزاءِ ، ويتَّهمونهُ بالاتهاماتِ الكثيرةِ الباطلة ، وكأَنَّ الأقوامَ جميعاً اتَّفقوا على هذا الموقف ، وتَواصَوْا بهِ على اختلافِ الزمانِ والمكانِ : ﴿ **كَذلِكَ مَا أَتى الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسولٍ إلاّ قالوا : ساحِرٌ أَوْ مَجْنون . أَتَواصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون** ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

وكانَ الأقوامُ يطلبون من رسلهم آياتٍ وبيناتٍ . ليؤمنوا بهم عندما يشاهدونها . فيردُّ الرسلُ عليهم بأن الآياتِ والبيناتِ بيدِ الله سبحانه ، يُجْريها على أيديهم عندما يشاء • فيقدمونها لهم :

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، قَوْمِ نوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ وَالّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلاّ اللّه ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ ، فَرَدّوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْواهِهِمْ ، وَقالوا : إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنّا لَفي شَكٍّ مِمّا تَدْعونَنا إِلَيْهِ مُريب . قالَتْ رُسُلُهُم : أَفي اللّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، يَدْعوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمّى . قالوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُريدونَ أَنْ تَصُدّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتونا بِسُلطانٍ مُبين . قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُم : إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ**

مِثْلُكُمْ ، وَلكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِباده . وَما كَانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بِإِذْنِ اللّه . وَعَلى اللّهِ فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمنون ﴾ [سورة إبراهيم: ٩ ـ ١١].

إن هذه الآياتِ تخبرُنا بما يلي :

١ ـ إنَّ الله بعثَ الرسلَ لأقوامهم بالبينات .

٢ ـ إن الأقوامَ كذَّبوا الرسل .

٣ ـ إن الأقوامَ طلبوا من رسلهم أن يأتوهم بسلطانٍ مبين .

٤ ـ إنَّ الرسلَ جعلوا السُّلطانَ بيدِ الله وحدَه ، فلا يأتونَهُمْ إلا بإذن الله .

كلُّ الرسلِ جاءوا قومَهم بالآياتِ البيِّنات . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجاءوهُمْ بالبَيِّناتِ ، فَانْتَقَمْنا مِنَ الّذينَ أَجْرَمُوا ﴾ [سورة الروم : ٤٧].

وكما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ ، وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالميزانَ ليقَومَ النّاسُ بالقِسْط ، وَأَنْزَلْنا الحَديدَ فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاس ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

وقد أنزلَ اللَّهُ تلكَ الآياتِ على رسله ، وأرسلَهُم بها إلى أقوامهم تأييداً لهم بِها ، وتصديقاً لنبوَّتِهم ، باعتبارِها شاهدةً من الله على نبوَّتهم ورسالَتهم .

ووجْهُ كونِ الآيةِ والمعجزةِ تصديقاً للنبي ، وشاهدةً على نبوته ، هو ما فيها من أَمرٍ خارقٍ للعادة ، خارجٍ عن طاقاتِ وقدراتِ البشر ، سالمةً من معارضةِ البشر ، لكونِهم عاجزين عن نقضها وإبطالِها .

فكأَنَّ اللَّهَ يقول : صَدَقَ عبدي ونبيِّي الذي يخاطبكم في رسالتِه ونبوَّته ، ودليلُ صدْقِه هذه المعجزةُ التي أجريتُها على يدَيْه ، والآيةُ التي أرسلْتُه لكم بها .

فقد أخبرنَا اللَّهُ أنه بعثَ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِهِ بآيَتَيْ العصا واليد . . ﴿ في تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقين ﴾ [سورة النمل : ١٢] .

ولما ذهبَ إلى فرعونَ ، جرى بينهما ما قصَّه القرآنُ : ﴿ وَقالَ موسى : يا فِرْعَوْنُ إنّي رَسولٌ مِنْ رَبِّ العالمين . حَقيقٌ على أنْ لا أقُولَ على اللّهِ إلاّ الحَقَ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَرْسِلْ مَعي بَني إسْرائيل . قَال : إنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقين . فَألْقى عصاه فإذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبين . وَنَزَعَ يَدَهُ فإذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرين ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٨].

معجزات السابقين مادية خارجة عن كتبهم :

كانتْ معظمُ معجزاتِ السابقين قريبةً ـ من حيثُ الظاهر ـ مما اشتهرَ فيه أقوامُهم ، ونبغوا فيه ، وأبرزُ ما يكون هذا عندَ أولي العزم من الرسل .

فمعجزةُ إبراهيمَ الأساسيةُ ـ عليه السلام ـ هي إنجاؤه من النار ، وعدمُ حرْقِها له بإِذْن الله ، بل تحوَّلَتْ إلى بَرْدٍ وسلام عليه . ولقد كان قومُه معْجَبين بالأسبابِ والقوى المادية الطبيعية ، وكانوا يجعلون لها القدرةَ الذاتية في الأفعال والأحداث ، ويعتبرونَ نتيجتها حتميةً لازمة . فالنارُ تحرق بذاتها لا محالة ، والماءُ يغرقُ بذاته لا محالة ، وهكذا .

فأمرَ اللّهُ النارَ ـ التي هي سببٌ في الإحراق ـ ألاّ تحرقَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليُبْطِلَ اعتقادَهم في القدرةِ الذاتيةِ للأسبابِ الماديّة . وليتوجَّهوا إلى الله المسبِّبِ المقدِّرِ الفاعِلِ المريدِ ـ سبحانه ـ .

وموسى ـ عليه السلام ـ بُعث إلى قوم يُتقنون فنَّ السحر، ويؤمنون به ويُمارسونَهُ ويعملونه . فكانت معجزتُه في العصا واليد ، مشابِهةً في الظاهرِ لسحْرِهم ، ولكنها مخالفةٌ له في الحقيقة ، ولذلك ابتَلَعَتْ عصاه حِبَال السحرَة وعصيَّهم ، وبطلَ ما كانوا يعملون .

وعيسى ـ عليه السلام ـ عاش في زمن تقدَّم فيه العلمُ والطبُّ والعلاج . وافتتن به الناسُ ومارسوه ، ولذلك جاءتْ معجزتُه مشابهةً ـ من حيثُ الظاهر ـ للطب والعلاج . مخالفةً له في الحقيقة ، فكان يبرِئُ الأكْمَهَ ـ وهو الذي وُلِدَ أعمى ـ والأَبْرَصَ ، ويحيي الموتى بإذن الله .

ومحمدٌ ﷺ بُعِثَ في العرب ، أمةِ البيانِ والإعـرابِ والفصاحـةِ والبـلاغـة ، ولذلك كانت معجزتُـه الأولى والأساسيـةُ في القرآن الكـريم ، وكانتْ معجـزةً بيانيـةً بلاغيّة ، وكان إعجازُ القرآن بيانياً بلاغياً .

من هذا نعرف أن معجزاتِ الأنبياءَ السابقين كانت ماديةً محسوسةً ، يشاهدُها أقوامُهُم بعيونِهم، ويتفاعلونَ معها بحواسِّهم . وهذا واضـحٌ في ناقـةِ صالـح ، ونارِ إبراهيم ، وعصا موسى ، ومائدةِ عيسى عليهم السلام .

أما معجزةُ محمد ﷺ الأساسية ـ القرآن الكريم ـ فلم تكن ماديةً محسوسة . بل كانتْ معنويَّة بيانيَّة ، تُدْرَك بالذوق لا بالحواس .

ثم إن معجزاتِ الأنبياءِ السابقين كانت خارجة عن كتبهِمُ السمـاوية ، النـازلةِ إليهم من عندِ الله . فلم تكنْ جزءاً منهـا ، ولـم تكن في ألفاظِهـا وكلامِهـا . فكتابُ موسى ـ عليه السلام ـ هو التوراة ، ومعجزتُه هي العصا واليد . وكتابُ عيسى ـ عليه السلام ـ هو الإنجيل ، ومعجزتُه هي إحياءُ الموتى وإبراءُ الأَكْمَهَ والأبرص باذن الله .

بينما معجزةُ محمد ﷺ الأولى ، كانت في كتابه المنزَّلِ عليه من الله ـ القرآن الكريم ـ كانت معجزتُه الأولى هي القرآنُ نفسه ، وكـانتْ في آياتِ القـرآن وألفاظِـه وتراكيبه ، ولم تكن خارجةً عنه في أمورٍ ماديةٍ محسوسة .

ولعلَّه لأجْلِ هذه المزايا لمعجزةِ الرسول ﷺ على معجزات الأنبياء السابقين ، كانت هذه المعجزةُ دائمةً مستمرةً لكل الناس حتى قيام الساعة .

رد القرآن على طلب قريش معجزات مادية :

إتخذتْ قريشُ هذه المزايا لمعجزةِ محمد ﷺ الأساسية ذريعةً لكفرها ، ووسيلةً لاطلاقِ الشبهاتِ والافتراءات على القرآن .

وكانت قريش تطلبُ من الرسول ﷺ أن يقدِّم لها معجزاتٍ مـاديةً محسـوسةً ، لتؤمنَ به وتتَّبِعه ، أليسَ هو رسولُ الله ؟ فلماذا لم يقدِّم لها معجزاتٍ ماديةً كمـا قدَّم الأَنبياءُ السابقون ؟ لقد كانت تطرح عليه طلباتٍ تعجيزيَّةً مستحيلةً وغيرَ معقولة .

وقد سجَّل القرآن طلباتِهم التعجيزية ، وردَّ عليها وأبطلَها ونقضَها :

قال تعالى : ﴿ وَقالوا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّه . قُلْ : إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللّه ، وَإِنَّما أنا نَذيرٌ مُبين ﴾ [العنكبوت : ٥٠].

وقال تعالى : ﴿ بَلْ قالوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، بَلْ افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ شاعِر . فَلْيَأْتِنا بآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الأَوَّلون . ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها . أَفَهُمْ يُؤْمِنون ؟ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥ - ٦].

أمَّا تسجيلُ طلباتِهم التعجيزيَّة من رسولِ الله ﷺ ففي مثْل قولِه تعالى : ﴿ وَقالوا ما لهذا الرَّسولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي في الأَسْواقِ ؟ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكونَ مَعَهُ نَذيرا . أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْز ، أَوْ تَكونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها . وَقَال الظّالِمون : إِنْ تَتَّبِعونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحوراً ! ﴾[سورة الفرقان: ٧ - ٨] .

وهذه طلباتٌ تعجيزية من أعجبِ ما طلبه قومٌ من نبي : ﴿ وَقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبوعاً . أَوْ تَكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفجيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفا . أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ . أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ . وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُه ! قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ؟ ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

وقد كشفَ لنا اللَّهُ في القرآنِ خبيئةَ نفوسِهم ، وحقيقةَ كفرهم ، وهدفَهم من طلباتِهم ، فليس سببُ كفرهم هو نقصُ الأدلة ، ولا عدمُ وجودِ آياتٍ ماديَّةٍ ومعجزاتٍ محسوسة ، بل هو العناد ، فهم يوقنون أن محمّداً عليه الصلاةُ والسلام ، هو رسولُ الله الصادقُ الأمين ، ولو جاءَتْهم آياتٌ ماديةٌ لما آمنوا ، لأنَّ الكفرَ عِناد !.

قال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقولون ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبونَك ، وَلكِنَّ الظّالِمينَ بِآياتِ اللَّه يَجْحَدون ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣].

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهم : لَئِنْ جاءَتْهُم آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها . قُل : إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنون . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّة ، وَنَذَرُهُمْ في طُغيانِهِمْ يَعْمَهون . وَلَو أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ المَوْتى ، وَحَشَرْنا عَلَيهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا ، ما كانوا لِيُؤْمِنوا

إلّا أنْ يَشاء اللّه ، وَلكِنَّ أكْثَرَهُمْ يَجْهَلون ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلّوا فيه يَعْرُجون ، لَقَالوا : إنَّما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحورون ﴾ [سورة الحجر: ١٤ ـ ١٥].

معجزات الرسول المادية ـ عليه الصّلاة والسلام ـ :

القرآنُ هو المعجزةُ الأولى الأساسيةُ للرسولِ ﷺ وهو دليلُه الأساسيُّ على أنـه رسول الله ، كما أنه يحملُ الدليلَ الذاتيَّ على أنهُ كلامُ الله .

والقرآنُ ليس معجزةً ماديةً محسوسة ، بل هو معجزةٌ معنويةٌ عقلية ، يقومُ على الفصاحةِ والبلاغةِ والبيان .

ولمّـا طلبَ كفارُ العـربِ من الرسـولِ عليه الصـلاة والسلام معجـزاتٍ ماديـةً حسية ، أرشدهم القرآنُ إلى أن يلاحظوا ما في القرآنِ من دلالةٍ على المعجزة ، وأن يكتفوا به شاهداً على النبوة :

قال تعالى: ﴿وَقالوا لَوْلا أُنْزل عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللّه ، وَإنَّما أنا نَذيرٌ مُبين . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلى عَلَيْهِم ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤمِنون ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

لكنَّ كونَ القرآنِ هو المعجزةُ الأساسيةُ للرسول عليه الصلاة والسلام . لا ينفي وجودَ معجزاتٍ مادية له .

لقد أجرى اللّهُ على يديْه معجزاتٍ ماديةٍ حسية ، وكانتْ تلك المعجزاتُ ثلاثة أنواع :

الأول : معجـزاتٌ موجَّهـةٌ إلى الكفار ، بـاعتبارِهـا آياتٍ لهم على رسـالته ، وشاهدةً له على نبوتِه ، وكانت تلك المعجزاتُ مقرونـةً بالتحـدي . مثل : إنشقـاقِ القمر ، وتكليمِ الشجرة له ، ومصارعتِه لِرُكَانة .

الثاني : معجزاتٌ موجَّهةٌ للصحابة ، رحمةً من الله بهم ، وتكريماً لهم ، وهذه المعجزاتُ خاليةٌ من التحدي ، لأنّ مشاهِديها مِنَ الصحابة مؤمنون متّبعون للرسولِ

عليه الصلاة والسلام . مثلُ : تسبيحِ الحصى ، وحنينِ الجذع ، وتكثيرِ الماء والطعام . وغير ذلك .

الثالث : معجزاتٌ خاصةٌ للرسول ﷺ ، تكريماً من الله له ، وهي ليست موجَّهة للكافرين ولا للمؤمنين ، ومن أبرزِها معجزةُ الإسراءِ والمعراج ، التي كانت إعزازاً خاصاً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورداً على طردِ قريش له من مكة ، واتفاقِها على عدم عودته لها ، وإيذاءِ أهلِ الطائف له !

إذن للرسولِ ﷺ معجزاتٌ ماديةٌ محسوسةٌ كثيرة ، أوردَها علماءُ الحديث والسيرة والتاريخ . وخصَّص لها بعضُ العلماء كتباً خاصة ، باعتبارِها دلائلَ للنبي عليه الصلاة والسلام . مثلُ كتابِ « دلائل النبوة» للماوردي . و« دلائل النبوة » للبيهقي ، الذي طُبع أخيراً محقَّقاً في سبع مجلدات ، حيث قدَّم فيه السيرةَ النبوية كلَّها .

ومن أجمع الكتب المعاصرة في المعجزات المادية كتابُ « المعجزات المحمدية » للشاعرِ وليدِ الأعظمي .

ولا نثبتُ من المعجزاتِ المادية إلا ما صحَّ سندُه ، وصحَّحهُ علماءُ الحديث .

وقد أوردَ الإمامُ البخاريُّ في كتابِ المناقب ـ رقم ٦١ ـ من صحيحِه طائفةً من تلكِ المعجزات ، في باب « علاماتِ النبوة في الإسلام » ـ رقم ٢٥ ـ وهي الأحاديث من ٣٥٧١ إلى ٣٦٣٥ .

من تلكَ المعجزاتُ الماديةِ ما كان تهديداً وتخويفاً ، وهي تلك الموجَّهة للكفار ، وتحملُ الدليلَ على نبوة الرسول عليه السلام .

ومنها ما كان تكريماً للمؤمنين من الله ، ورحمةً منه بهم ، وهي الموجَّهة للصحابة ـ رضوان الله عليهم .

والدليلُ على أن هذه المعجزاتِ كانت تكريماً ورحمةً وبركةً للصحابة ، ما رواه الإمامُ البخاريُّ في صحيحه ، عن عبدِ الله بنِ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال مخاطباً : « كُنّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكة ، وَأَنْتُم تَعُدّونَها تَخْويفاً . كُنّا مَعَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ ، فَقَلَّ

الماءُ ، فقالَ : أُطْلُبوا فَضْلَةً مِنَ الماءِ ، فجاءَوا بإناءٍ فيه ماءٌ قَليل ، فـأَدْخَلَ يَـدَهُ فِي الإناءِ ، ثُمَّ قَالَ : حَيَّ عَلى الطَّهورِ المُبارَك ، وَالبرَكَةُ مِنَ اللَّهِ . فَلَقَدْ رَأَيْتُ الماءَ يَنْبَعُ مِنْ بَيْنِ أَصابعِ رَسولِ الله ﷺ ، وَلَقَدْ كُنّا نَسْمَعُ تَسْبيحَ الطَّعامَ . وَهُوَ يُؤكَل »[1] .

إنَّ ابنَ مسعود ـ رضي الله عنه ـ يصحِّح للمسلمينَ نظرتَهم للآيات ـ وهي معجزاتٌ إذا جـرَتْ على يدِ الـرسولِ ﷺ ، وكـراماتٌ إذا جـرَتْ على أيدي الصحـابة والتـابعين والأولياءِ والصالحين ـ فكأنَّ المسلمين كانـوا يخافـونَ من تلكَ الآيات ، ويعتبـرونَها تخـويفاً من الله ، ولعلَّهم كـانوا يستنِـدون في هذا إلى قـوله تعـالى : ﴿ وَما نُـرْسِلُ بِالآياتِ إِلاَّ تَخْويفاً ﴾ [سورة الإسراء: ٥٩].

فبيَّن لهم أن الآيات التي تتعلقُ بالصحابة كانت بركةً من الله، ساقَها لهم على يدِ الرسول عليه الصلاة والسلام . تكريماً لهم ، وذكرَ ابنُ مسعودِ مِثالاً لذلك ، تكثيرَ الماءِ أمامَ الرسول عليه الصلاة والسلام ونَبْعَهُ على مرأى ومسمع الصحابة ، من بيْنِ أصابعِ الرسول المباركة ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودعوتَه الصحابة لشرْبِ ذلك الماء والانتفاعِ به : حَيَّ على الطَّهورِ المبارك ، والبركةُ من الله .

وذكرَ ابنُ حجر في شرحِهِ للحديث روايةً أخرى عن ابن مسعود ، أضافَ فيها قائلًا : « فَجَعَلْتُ أُبادِرُهُمْ إلى الماءِ ـ أي أُسابِقُ الصحابةَ للماء ـ أُدْخِلُهُ في جَوفي ، لقولِهِ : « البَرَكَةُ من الله »[2] .

وكذلك سماعُهُم تسبيحَ الطعام وهو يُؤكَل ، وقد ذكر ابنُ حجر عن ابن مسعود رواية أخرى صحيحة ، وهي قوله : « كنّا نأكلُ الطعامَ مـع النبيِّ ﷺ ، ونحنُ نسْمَعُ تسبيحَ الطَّعام »[2].

وابنُ مسعودٍ لا يعتبر جميعَ الآياتِ بركةً ، بـل بعضُها تخـويفٌ ـ وهو المـوجِّه

---

(١) صحيح البخاري : (٦١) كتاب المناقب . (٢٥) باب علامات النبوة في الاسلام . حديث : ٣٥٧٩

(٢) فتح الباري ـ طبعة السلفية ـ ٦ : ٥٩٢ .

للكفار كما قلنا ـ ولذلك قالَ الإمامُ ابنُ حجر في شرحِ الحديث : « الّذِي يظهرُ أنه أنكرَ عليهم عَدَّ جميعِ الخوارقِ تخويفاً ، وإلا فليس جميعُ الخوارق بركة . فإن التحقيقَ يقتضي عدَّ بعضها بركةً من الله ، كشبعِ الخلقِ الكثيرِ منَ الطعام القليل . وبعضِها تخويفاً من الله ككسوف الشمس ، والقمر ، كما قال الرسول ﷺ : « إن الشمسَ والقمرَ آيتانَ من آياتِ الله ، يخوِّفُ الله بهما عباده » وكأنَّ القومَ الذين خاطبَهم عبدُ الله بن مسعود بذلك تمسكوا بظاهر قوله تعالى : ﴿ وَما نُرْسِلُ بالآياتِ إلاّ تَخْويفاً ﴾.

وفي روايةٍ أخرَى عندَ الإسماعيلي ، ذكْرُ سببِ هذا التوضيح : « سمع عبدُ اللهبنُ مسعود بخسف ، فقال : كنّا أصحاب محمد نَعُدُّ الآيات بركة »[1].

موقع معجزاته المادية من معجزة القرآن :

لم تكنْ معجزاتُ الرسولِ الماديَّةِ الحسِّيَّة ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي المعجزاتُ الأساسيةُ له . بل كانتْ معجزاتٍ فرعيةٍ ثانوية . تابعةٍ لمعجِزَته الأولى ، وهي القرآنُ الكريم .

وموقعُ تلك المعجزاتِ من القرآن في الأمور التالية :

١ ـ كانت معجزاتٍ ثانويةً غير أساسيةٍ كما قلنا ، بعكس القرآن .

٢ ـ كان معظمُها مبنيّاً على معجزةِ القرآن ، فالإيمانُ بها وتصديقُها بعدَ الإيمانِ بالقرآن . فهي إذنْ مؤكِّدةٌ لمعجزةِ القرآن ، وعاملةٌ في زيادةِ الإيمان به .

وما أثرُها في المؤمن إلا كَأثَرِ معجزةِ إحياءِ الطيورِ لإبراهيمَ عليه السلام ، حيث زادتْ طمأنينةَ قَلْبِه : ﴿ وَإِذْ قالَ إبْراهيمُ رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحيي المَوْتى، قالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِن ؟ قال : بَلَى. وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي ﴾ [البقرة: ٢٦].

٣ ـ معظمُ هذه المعجزاتِ ليس فيها تحدٍّ . أما القرآنُ فقد كَانَ التحدّي به .

٤ ـ إنَّ القرآنَ الكريمَ هو آيةُ النبيِّ الأولى ـ عليه السلام ـ وهو دليلُ إثباتِ

(١) فتح الباري ٦ : ٥٩١

النبوة . أمّا تلكَ المعجزاتُ الماديةُ فهي فرعٌ للنبوة ، ناتجـةٌ عنها ، لاتُعْلَم إلا بَعْـدَ العِلمِ بها .

فالّذين جـاءوا بعدَ عصـرِ النبي ﷺ ، لـم يشاهِـدوا تلك المعجزات ، ولـذلك لا يقولون بها ولا يثبتونَها إلا بعدَ إثباتِ النبوة ، التي هي الأصْلُ لها ، والنبوةُ لا تثبت إلا بعد إثبات المعجزةِ الأولى للنبوة وهي القرآن الكريم .

فالقرآنُ هو دليلُ إثباتِ النبوة ، والنبوةُ فرعٌ له ، والمعجزاتُ فرعٌ للنبوة .

قال القاضي عبـد الجبار : « ولهـذه الجملةِ لم يعتمدْ شيـوخُنا في إثبـاتِ نبوّةِ محمد ﷺ على المعجزاتِ التي إنما تُعْلَمُ بعدَ العِلْم بنبوته ﷺ لأن ثبوتَ ذلك فـرعٌ على ثبوتِ النبوة ، فكيف يصحُ أن يُستَدَلَّ بـه على النبوة ؟ وجعلوا هـذهِ المعجزاتِ مؤكِّدةَ ، وزائدةً في شرْحِ الصدور ، فيمن يعرفُها من جهةِ الاستدلال . .

فأما مَنْ يشاهِدُ ذلك ـ مِمَّنْ عاصَروا النبيَّ ﷺ فحالُه فيها كحالِهِ مع القرآن ، في أنه يمكنُه الاستدلالُ بها . كمـا يمكنُه ذلـك في القرآن . لأن ثبـوتَها بـالمشاهـدَة . أخرجَها من أن يكونَ عِلْمُ المشاهِدِ لها كالفرعِ على النبوةِ ، فصحَّ أن يَستدلَّ بها على النبوة .

ولـذلـك اعتمـدَ شيـوخنـا في تثبيتِ نبـوةِ محمـدٍ ﷺ على القـرآن ، لأنَّ عِلْمَ المُخالِفِ به كعِلْمِ الموافِق ، من حيثُ ظهرَ نقلُه والتحدي به على وجْه الشِّياع »[1].

٥ ـ أثـرُ تلك المعجزاتِ فيمن شـاهدَهـا ، فبعضُ من شـاهـدوهـا أسلمـوا ، وبعضُهم ازدادوا عناداً، أما مَنْ لم يشاهِدْها، وقرأ عَنها أو سمع ، فإنها لا تُحْدِثُ في قلبه الإيمان ، فالمؤمِنُ قد حقّق الإيمانَ قبلَ إخبارِه بها ، والكافرُ يستغـربُ ويكذِّب بها . أما القرآنُ فأثَرَهُ مستمر ، فقد أَثَّرَ في الصحابة ، وفي الكافرينَ الذين عاصَـروا نزوله ، وبقي يؤثرُ في الناس ، وسيبقى يؤثرِّ فيهم حتى قيام الساعة .

---

(١) الاعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ ٤٩ ـ ٥٠ نقلاً عن المغني للقاضي عبد الجبار ١٦ : ١٥٢

٦ ـ هذه المعجزاتُ الماديةُ عند الكافرين، كمعجزاتِ الأنبياء السابقينَ الماديةِ سبيلٌ للهدايةِ وطريقٌ للإيمان ، أما المعجزةُ الأولى الكبرى ـ القرآن ـ فهي الهدايةُ نفسُها ـ كما قال شيخُنا الأستاذُ الدكتورُ همام سعيد حفظه الله ـ

فكما كانت العصا دليلاً لموسى عليه السلام أنه نبيٌّ أنزل الله عليه التوراة ، كان إنشقاقُ القمرِ للرسول ﷺ في مكة ، دليلاً وشاهداً له أمام المشركين أنه رسول من الله أنزلَ عليه القرآن .

أما القرآن فهو نفسُه موضوعُ الإيمانِ والهداية ، فيه طريقُها ومنهجُها وكيفيتُها .

ولذلك بقي معجزةً مستمرَّةً أبدَ الدهر .

لماذا كانت معجزة الرسول الأولى عقلية بيانية ؟

لقد شاءَ اللّهُ سبحانه أن تكونَ المعجزةُ الأولى والكبرى للرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ عقليةً معنويةً بيانيةً .

وقد أشارَ القرآنُ إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . إذاً لاَرْتَابَ المُبْطِلونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ . وَقَالُوا : لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللَّه ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا في السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٨ ـ ٥٢] .

وقد صرَّحَ رسولُ الله ﷺ ببعضِ الحِكَمِ من ذلك ، فقدْ روى مسلمٌ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال : « **مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَر . وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحى اللَّهُ إِلَيَّ . فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ القِيَامَةِ** »[١] .

---

(١) صحيح مسلم (١) كتاب الإيمان . (٧٠) باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملّته : ١٥٢ .

وهذا الحديثُ يوحي بما يلي :

١ ـ أَعْطى اللّهُ كلَّ نبيٍّ من السابقين آيةً أو آيات .

٢ ـ كانت آياتُ الأنبياء السابقين تناسبُ أقوامَهم، من حيثُ المستوى العقليّ والعلميّ والاجتماعي .

٣ ـ كانت آياتُ الأنبياءِ السابقين تناسبُ رسالةَ الأنبياءِ أنفسهم ، من حيثُ خصوصية الزمان والأقوام .

٤ ـ كانت آياتُ السابقين ماديةً محسوسة .

٥ ـ كانت آياتُهم خارجةً عن وحْي الله إليهم ، وكتابِه المنزَّل عليهم .

٦ ـ كانت آياتُهم سبباً في إيمانِ مَنْ آمَن بِهم من أقوامهم .

٧ ـ كان أتباعُ الأنبياءِ السابقين قليلين ، نظراً لخصوصيَّةِ الرسالةِ والآياتِ والزمانِ والمكانِ والأقوام .

٨ ـ آيةُ رسولنا محمد ﷺ ، هي الوحيُ الذي أوحاهُ الله إليه ، أيْ أنها في نفسِ وصُلْب كتاب الله الكريم .

٩ ـ آيةُ النبي ﷺ ليستْ ماديةً بل هي عقليةٌ معنوية .

١٠ ـ آيةُ النبي ﷺ مستمرةٌ للبشريةِ كلِّها على اختلافِ الزمانِ والمكانِ والأشخاصِ ، حتى قيام الساعة .

١١ ـ آيةُ النبي ﷺ العقليةُ المعنويةُ سببٌ في إقبالِ النَّاس على الإسلام ، واتِّباعِهِمْ لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك هو أكثرُ الأنبياءِ أَتْباعاً يومَ القيامة .

قال الإمامُ النوويُّ في شرحه للحديث :

« في الحديث أقوال :

أحدُها : إنَّ كلَّ نبيٍّ أُعطي من المعجزاتِ ما كان مثلُه لمن كانَ قبلَه من الأنبياءِ ، فآمَن به البشر . وأما مُعجزتي العظيمةُ الظاهرةُ فهي القرآن ، الذي لم يُعْطَ أحدٌ مثلَه ، فلهذا أنا أكثرُهم تابعاً .

الثاني : إنَّ الذي أوتيتُه لا يتطرقُ إليه تخييلٌ بسحرٍ وشُبهةٍ . بخلاف معجزةِ

غيري ، فإنه قد يُخيِّلُ الساحرَ بشيء مما يقارِب صورتهـا ، كما خَيَّلَت السحـرةُ في صورَةِ عصا موسى ﷺ .

والخيالُ قد يَرُوح على بعضِ العوام ، والفرقُ بين المعجزةِ والسحرِ والتخييل، يَحتاجُ إلى فكرٍ ونظر ، وقد يُخطىء الناظر فيعتقدهما سواء .

الثالث : إنَّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرَضَتْ بانقراضِ أعصارهم ، ولم يشاهِدْها إلَّا مَنْ حَضَرَهَا بحضْرَتهم ، ومعجزةُ نبيِّنا ﷺ القرآنُ المستمرُ إلى يوم القيامة »[1] .

ويمكنُ أنْ نسجِّلَ الحِكَمَ التاليـة ، إجابـةً على سؤال : لماذا كـانت معجزتُـه الأولى عقليةً بيانية ؟

١ ـ عمـومُ بعثتِه عليـه الصلاة والسـلام لكل النـاس ، واستمرارُهـا على طول تـاريخِ البشـرية حتى قيـام السـاعـة . فناسَبَ أن تكـونَ معجزتُـه الأولى محقِّقةً هـذا المعنى ، وتستمرُّ في أثَرِها حتى قيام الساعة .

٢ ـ غالبُ المعجزاتِ السـابقة قـريبةٌ ـ في الـظاهر ـ من جنسِ مـا اشتهرَ فيـه القومُ، وبما أن العـربَ قد اشتهـروا في البيانِ والفصـاحةِ والبـلاغةِ ، فلذلـك كانت معجزةُ الرسولِ الأولى بيانيةً بلاغيةً .

٣ ـ ونظراً لاستمرار مفعولِ المعجزةِ حتى قِيامِ الساعة ، فلا بد أن تكونَ في ذاتِ الرِّسالةِ وصُلْبها وموضوعِها ، وليس لأمرٍ خارجٍ عنها .

٤ ـ الناسُ في المعجزاتِ الماديةِ لا يتأثرون كثيراً إلَّا بما شـاهدوا بعيـونهم وأحسّوا بحواسِّهم ، فلو كانت معجزةُ الرسول الأولى ماديةً حسية ، لما أَثَّرتْ إلَّا في الذين عاشوا معه .

٥ ـ كـانت المعجزاتُ السـابقةُ المـاديـة ، تنـاسب المستـوى العقليَّ لأولئـكَ الأقوام ، وكأنهم كانوا في مرحلة « الطفولةِ العقلية » ـ إذا جازَ التعبير ـ ولذلك كانت

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : المجلد الأول. الجزء الثاني : ١٨٨ .

المعجزاتُ تناسِبُ هذه المرحلة ، ويغلبُ عليها اللونُ التخويفيُّ . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بالآيَاتِ إلَّا أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلُون ، وآتَيْنَا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إلَّا تَخْوِيفاً ﴾ .

أَمَّا فِي عَهْدِ نبيِّنا محمد ﷺ ، فقد بلغتِ البشريةُ مرحلة « النضج العقلي » بحيث تفكِّر وتتدبَّر وتعي وتُعْمِل عقلَها ، ولهذا كانت المعجزةُ المحمديةُ الخالدة تتناسبُ مع هذا المستوى العقليِّ المتقدم .

٦ ـ إن الناسَ في عصرِ البعثة ـ كما يقول أستاذنا الدكتور همام سعيد ـ قد اتجهوا إلى « التجريدِ العقلي » والتعامل مع الأمورِ المعنويةِ العقلية ، حيث ظهرَ الفلاسفةُ العقلانيون التجريديون ، مثلُ سقراط وأرسطو وفيثاغورس ، وكان العربُ أيضاً متأثرين بذلك التوجُّه، يميلونَ إلى التجريدِ العقلي ، ويمكنهُم التعاملُ مع معجزةٍ معنوية عقلية ، فيفهمون عنها ، وتلبي هذا المعنى عندهم وعند الآخرين .



المبحث السادس

« مع آيات التحدي في القرآن »

الكفار يطلبون من الرسول تبديل القرآن :

خاطبَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام الكفارَ بالقرآن ، واعتبرَه معجزتَهُ الأولى ، وآيتَه العظمى .

واعْتُبِرَتْ أميةُ الرسولِ عليه السلام دليلاً على أن القرآنَ كلامُ الله ، فكيفَ يقْدر الأمي على أن يأتيَ بهذا الكلام من عنده ؟ قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . إِذَنْ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

وقد طلبَ الكفارُ من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن يأتيهُم بقرآنٍ غيره ، وأن يبدِّل لهم آياتِه ، فردَّ عليهم بأنه عاجزٌ عن البديل والتبديل ، لأنه ليس كلامُه ، وما هو إلاَّ مبلِّغٌ لكلام الله .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالوا : لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا . قُل : إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي** ﴾ . [سورة الأعراف : ٢٠٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنا بَيِّنات ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجونَ لِقَاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذَا أَوْ بَدِّلْه . قُلْ : مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم . قُلْ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ . أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ فَمَنْ**

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٥ ـ ١٧] .

قال الإمامُ الزمخشريُّ في تفسيرِ آياتِ سورة يونس : غاظهم ما في القرآنِ من ذمٍّ عبادةِ الأوثان والوعيدِ للمشركين ، فقالوا : ائْتِ بقرآنٍ آخر ، ليسَ فيهِ ما يُغيظُنا . أَوْ بَدِّلْه ، بأن تجعلَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةً رحمة ، وتُسقطَ ذكْرَ الآلهة وذمَّ عبادتِها .

فأمره اللهُ أن يجيبَ على طلبِ التبديل ، لأنه داخِلٌ تحتَ قدرةِ الإنسان ، أمّا طلبُ التغييرِ ، والإتيانِ بقرآن آخر فلم يُجِب عليه ، لأنه لا يقْدِرُ عليه الإنسان .

قال لهم : ما يكونُ لي أن أبدِّلَه من تلقاءِ نفسي ، إن أتبعُ إلَّا مَا يُوحىٰ إليّ ، لا آتي ولا أَذَرُ شيئاً من ذلك ، إلَّا متبعاً لوحيِ الله وأوامره ، إن نُسخَتْ آيةٌ تَبعْتُ النَّسخ ، وإن بُدِّلتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ تَبعْتُ التبديل ، وليس إليَّ تبديلٌ ولا نسخ . إني أخافُ إنْ عصيتُ ربي ، بالتبديلِ والنسخِ من عند نفسي عذابَ يوم عظيم .

وقد طلَبوا من الرسول عليه السلام تبديلَ القرآنِ ، رغم ظُهورِ العجز عن التبديل لهم ، ولكنَّهم كانوا لا يَعترفون بالعجزِ ، ويَزعمون قدرتهم على الإتيانِ ببديل .

ويهدفون مِن طَلَبهم التبديلَ من الرسول عليه السلام ، الكيدَ والمكرَ .

أمّا اقتراحُهم إبدالَ قرآنٍ بقرآنٍ، ففيه أنه من عندِك أنت ، وأنتَ قادرٌ على مثله .

وأمّا اقتراحُهم التغييرَ في القرآنِ فلاختبار الحال ، فإنْ فعلَ ذلك ، فإمّا أن يهلكَه الله ، وإمّا أن لا يَهلِكَه فيسخروا منه ، ويجعلوا ذلك حجةً عليه .

وقولُه : لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ، معناه : إنَّ تلاوته ليست إلَّا بمشيئةِ الله . وإنَّ الأمرَ حدثٌ عجيبٌ ، خارجٌ عن العادات : وهو أنْ يخرجَ رجلٌ أميٌّ ، لم يتعلَّمْ، ولم يستَمِعْ ، ولم يشاهد العلماءَ ساعةً من عمره ، ولا نشأ في بلدٍ فيه علماء ، فيقرأ عليكُم كِتاباً فصيحاً يُبهرُ كلَّ كلامٍ فصيح ، ويعلو على كلِّ منثورٍ ومنظوم ، مشحوناً بعلومٍ من علوم الأُصول والفروع ، وأخبارٍ مما كان وما يكون ، ناطِقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلَّا الله . وقد بلغَ بين ظهرانيكم أربعينَ سنة ، تطَّلعون على أحواله ، ولا

يَخفى عليكم شيءٌ من أسرارِه ، وما سمعتُم منه حرفاً من ذلك [1] .

الكفار يزعمون قدرتهم على المعارضة :

ومن أساليب الكفار في محاربةِ هـذا القرآن ، والـوقوفِ في وجهـه ، وإطلاقِ الشبهات حولـه ، واستخدامِ المنـاورات ضده ، زعمُهم أن هـذا القرآنَ ليس كـلامُ الله ، بل هو من أساطيرِ الأولين ، أخذها محمدٌ ﷺ وتَلاها عليهم ، وزَعَمَ بها النبوة .

وبمـا أن القرآنَ أسـاطيرُ الأولين ، ومن كـلام البشر ، فهم غيـرُ عاجـزين عن معارضتِه ، والاتيـانِ بمثله، وهم لو شـاءوا لقالـوا مثله ، ولكنهم لا يريـدونَ ذلك ، لأنهم لا يريدون أن ينزلوا إلى مستواه !

وقد سجَّلَ القرآنُ هذا الزعمَ في قوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنا ، قالوا : قَدْ سَمِعْنـا ! لَـوْ نَشـاءُ لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذا ! إنْ هــذا إلاَّ أَسَاطيــرُ الأوَّلين ﴾ [سـورة الأنفال : ٣١] .

وسببُ نزولِ هذه الآية ـ كما روى الطبريُّ في تفسيرِهِ عن ابن جريج وابن جبير ـ هو أنَّ «النضرَ بن الحارث» كان تَاجِراً يذهبُ في تجارتهِ إلى فارس ، فيمرُّ في طريقه بالعِباد ـ وهم جماعةٌ من العرب الذين تنصَّروا وسكنوا قـربَ الحيرة ـ فيسمعُهم وهم يقرأونَ الإنجيل ، فلما جاءَ مكةَ وسمعَ القرآنَ من محمد ﷺ قـال : قَدْ سَمِعْنَـا . لو نشاءُ لقلنا مثلَ هذا .

وقد وقَعَ النضرُ بن الحارث أسيراً في معركة بدر ، وقَتَلَه رسولُ الله ﷺ صَبْراً مع عقبةَ بنِ أبي معيط ، وطعيمة بن عدي [2] .

وقال الإمامُ الزمخشريُّ معقِّباً على قولهم: « وهذه نفاجـةٌ منهم وصَلَفٌ تحتَ الرّاعدة ، فإنهم لم يتوانَوْا في مشيئتهم لو ساعدتهمُ الاستطاعة ، وإلاَّ فما منعهمْ إنْ كانوا مستطيعين أن يشاءُوا غلبةَ مَنْ تحدَّاهم وقرَعَهم بالعجـز ، حتى يفوزوا بـالقَدَح المعلَّى دونَه ، مع فَرْطِ أَنَفتِهم ، واستنكافهم أن يُغْلَبوا في بابِ البيان خاصة ، وَأَنْ

(١) الكشاف للزمخشري ٢ : ٢٢٨ ـ ٢٢٩ بتصرف واختصار وتهذيب .

(٢) جامع البيان للطبري بتحقيق محمود شاكر ١٣ : ٥٠٣ ـ ٥٠٤ باختصار .

يُمَاتِنَهُمْ واحد ، فيتعلّلوا بامتناعِ المشيئة ، ومع ما عُلِمَ وظَهَرَ ظُهورَ الشمس ، ومن حِرْصِهم على أن يَقْهَروا رسولَ الله ﷺ وتهالُكهم على أن يغمروه »[1] .

أما سيد قطب فيقول : « وما كانَ هـذا القولُ إلّا حلقـةً من سلسلةِ المناوراتِ التي كانوا يحاولونَ أن يقفوا بها في وجْهِ هذا القرآن ، وهو يخـاطبُ الفطرةَ البشـريةَ بـالحقِّ الذي تعـرفه في أعمـاقِها فتهتـز وتستجيبُ، ويواجـهُ القلوبَ بسلطانِه القـاهر فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك .

وهنا كان يلجأ العليةُ من قريشٍ إلى مثلِ هذه المناورات ، وهم يعلمونَ أنها مناورات »[2] .

آيات التحدي في القرآن :

تحـدّى القرآنُ المشـركين ، لأنهم زعموا قـدرتَهم على معارضتِـه، لو أرادوا ، فطلبَ منهم المعارضة ، وسمحَ لهم الاستعانة بكلٍّ من يريدون من البشر ، وطالَبهم أن يأتوا بمثلِه ، أو بسورة مثلِه .

وتفرقتْ آياتُ التحدي في سُورِ القرآن ، وشملتْ الفترتينْ المكية والمدنية من السيرة النبوية .

كان التحدّي في سوَر : يونس وهـود والإسراء والـطور المكية . كمـا كان في سورة البقرة المدنية .

وهذه هي آياتُ التحدي الخمسُ :

١ ـ قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُـوا شُهَـدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ . فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَـاتَّقُـوا النَّـارَ ، الَّتِي وَقُـودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَة ، أُعِـدَّتْ لِلْكَـافِـرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ : ١٥٥
(٢) الظلال ٣ : ١٥٠٢

٢ ـ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقولُونَ افْتَراه ، قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِه ، وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٣٧ ـ ٣٩] .

٣ ـ قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ، أَنْ يَقُولُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْز ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَك ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل . أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه ؟ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَات ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ﴾ [سورة هود : ١٢ ـ ١٤] .

٤ ـ قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . ثُمَّ لاَ تَجدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً . إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّك . إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً . قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ ، لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٦ ـ ٨٨] .

٥ ـ قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ . بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [سورة الطور : ٣٣ ـ ٣٤] .

من إيحاءات آيات التحدي :

نقفُ مع آيات التحدّي وقفةً سريعةً، لنستخلصَ أهمَّ دلالاتِها ، ونسجلَ أهمَّ إيحاءاتِها :

١ ـ توزعتْ هذه الآياتُ القرآنَ المكيَّ والمدني ، وفي ذلك استمرارٌ للتّحدي ، فحيثُما وُجدَ كافرٌ يطعنُ في مصْدر القرآن ، فيوجَّه له التحدي لمعارضتِه .

٢ ـ وردت الآيات كلُّها في سياقٍ واحد ، وهو النقاشُ والجدالُ مع الكافرين في أمرِ النبوةِ والرسالةِ ومصدرِ القرآنِ .

٣ ـ كان يسبقُ آيةَ التحدي إشارةٌ إلى شكِّ الكافرين في القرآن ، وزعْمِهم أنه

من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ كانَ يتبعُ آيةَ التحدي إشارةً إلى مصدرِ القران ، وإثباتِ أنه كلامُ الله .

٥ ـ كان التحدي في الآياتِ وسيلةً إلى غاية ، وليس هدفاً بحدِّ ذاته ، لقد اعتبَره القرآنُ وسيلةً إلى الإيمان ، وإثباتِ أن القرآنَ من عند الله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ﴾ .

٦ ـ إعطاؤهم مهلة ، يفكرون فيها طويلاً ، ويستعينون بكلِّ من يشاءون من البشر، من أعوانهم ومساعديهم وشهدائِهم، ومَنْ يَستطيعون دعوتَهم والاستعانة بهم.

٧ ـ وكأنَّ المقصودَ بدعوةِ كلِّ مَنْ يستطيعونَ ويريدونَ، هو إثباتُ عجزِ الجميع ، وتسجيلُه عليهم ، فإذا عجزوا عن معارضته، ثبتَ أنه كلام الله . وفي هذه الدعوةِ والمهلةِ حربٌ نفسيةٌ ضدَّهم ، ليزعزعَ ثقتَهم بقُدُراتهم وطاقات غيرهم .

٨ ـ تقررُ الآياتُ عجزَهم عن المحاولةِ والمعارضة ، وتعطيهم هذه الحقيقةَ لتثبِّطهم وتوقِعَ اليأسَ من الغَلَبة في قلوبهم ، وإذا شكُّوا في صِدْق هَذِهِ النتيجة فلْيُحَاوِلوا، وإذا حاولوا فسوفَ لن يستطيعوا .

٩ ـ جَزْمُ القرآنُ بعجزهم عندَ دعوتِهم للمعارضة : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ وتحقُّقُ هذا الجزم فِعْلاً بعد ذلك ، دليلٌ على مصدرِ القرآن . فلو كان من كلام الرسول ﷺ لما جَزَمَ هذا الجزم ، لأنه لا يعلمُ مقدارَ طاقة وقدرة خصمه ، ولو جزم ، فربما غلَبَهُ خصْمُه وكذَّبَه في جزمه .

قال سيد قطب : « والتحدِّي هنا عجيب ، والجزمُ بعدم إمْكَانِهِ أعجب ، ولو كان في الطاقةِ تكذيبُه ما توانَوا عنه لحظة . وما من شكٍّ أنَّ تقريرَ القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقُّقَ هذا كما قرَّرَه ، هو بذاته معجزة ، لا سبيلَ إلى المماراة فيها . ولقد كانَ المجالُ أمامهم مفتوحاً ، فلو أنهم جاءوا بما ينقُضُ هذا التقريرَ القاطعَ لانهارتْ حجيةُ القرآن . ولكنَّ هذا لم يقع ولن يقعَ كذلك ، فالخطابُ للناس جميعاً »[1] .

---

(١) الظلال ١ :٤٨

١٠ ـ يدل قوله : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ على أنَّ التحدي هو بألفاظِ وكلماتِ القرآن ، وليس بمعانيه وأخبارِهِ وعلومِه . فلْيُحَاوِلوا أن يأتوا بعشر سورٍ مثلِ القرآن في الفَصاحة والبلاغةِ والبيان ، ولو كانت مفتريات من حيثُ المعنى والموضوع والأخبار !

١١ ـ كَلمةُ «مثله» وردتْ في كلِّ آيات التحدّي ، فليس المطلوبُ الإتيانَ بنفسِ القرآنِ ، لأنه كلامُ الله . ولكنَّ المطلوبَ الإتيانُ بمثله ، والمِثْلِيَّة ليست المثلية في معانيهِ وأخبارِهِ وعلومِهِ وأحكامِه ، ولكنها المثلية في جُمَلِه ومفرداتِه وكلماتِه ، المثلية في أسلوبه وفصاحته وبلاغته .

١٢ ـ ذُكرتْ آيةُ التحدّي في سورةِ الإسراء بعدَ آيةِ الروحِ ، التي جعلتْ الروحَ من أمرِ الله ، ونفتْ عِلمَ البشر بحقيقتها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ . قُلْ : الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

وهناكَ حكمةٌ من ذِكْرِ عجزِ الإنسِ والجنِّ عن معارضةِ القرآن ، بعد آية الروح . أشارَ لها سيد قطب بقوله : « وَكَمَا أَنَّ الروحَ من الأسرارِ التي اختصَّ اللَّهُ بها ، فالقرآنُ من صنعِ اللَّهِ ، الذي لا يملكُ الخلقُ محاكاتِه ، ولا يملكُ الإنسُ والجنُّ ـ وهما يمثّلان الخلقَ الظاهرَ والخفيَّ ـ أن يأتوا بمثله ، ولو تظاهَروا وتعاونوا في هذه المحاولة »(١) .

الراجح في ترتيب آيات التحدي :

اختلف العلماءُ في قولِهم في ترتيبِ آياتِ التحدي ، وترتيبِ المقدارِ الذي كانَ به التحدّي . فهلْ تحدَّاهم بالإتيانِ بالقرآنِ كلِّه ، ثم تدرَّج إلى التحدِّي بعشرِ سور ، ثم تدرَّج إلى التحدِّي بسورةٍ منه ؟ وكيف يتم ترتيبُ السوَر التي فيها آيات التحدِّي ؟

أهم أقوالهم في ذلك ثلاثة :

١ ـ التحدي كانَ مرحلِيّاً متدرِّجاً : فقد تحدّى اللَّهُ النَّاسَ بالقرآنِ كلِّه في سورةِ

(١) الظلال ٤ : ٢٢٤٩

الإسـراء ، ثم تحدّاهم بعشـرِ سُوَرٍ في سـورةِ هود ، ثم تحـدّاهم بسورةٍ في سـورةِ يونس ، ثم عاد وتحدّاهم بسورةٍ واحدة في سورة البقرة .

وترتيبُ السورِ على هـذا القولِ ، أنَّ أوَّلَ مـا نزلَ سـورةُ الإسراء ، ثم سـورةُ الطور ، ثم سورةُ هود ، ثم سورةُ يونس ، ثم سورةُ البقرة .

وقد عقَّب الإمامُ محمـدُ رشيد رضـا على هذا القـول بقولـه : « وهذا تـرتيبٌ معقول ، لو ساعدَ عليه تاريخُ النزول »[1] .

وهذا هو قولُ جمهور علماءِ التفسير والبلاغةِ والكلام .

ونحنُ مع رشيد رضا في رفْضِ هذا القول ، لأنه لا يساعد عليه تاريـخُ نزولِ السور ، ولا ترتيبُها ، بل إن نزولَها يتناقض مع هذا الترتيب ، فسورةُ يونس نزلتْ قبلَ سورة هود ، وسورةُ يونس وهود نزلتا قبلَ سورة الإسراء .

وبما أنه لا يستندُ على أساسٍ صحيحٍ في ترتيب السور ، لذلك فهو يقوم على التحكُّم والافتراض .

٢)- رأيُ الإمامِ محمد رشيد رضا أن الترتيبَ مرحليٌّ متـدرِّجٍ ، فالتحـدي في سـورِ الإسراءِ والـطورِويونس وهـود لأهل مكـة ، والتحـدي في سـورة البقـرة لأهـل الكتاب .

قال في تفسير آية التحدّي في سورة البقرة : « والظاهرُ أن التحدي في سورتيْ يـونس وهود ، خَـاصٌّ ببعضِ أنواع الإعجـاز ، وهي ما يتعلق بـالأخبـار ، كقصص الرسل مع أقوامهم .

ولعلَّ وجه التحـدي بعشر سـور مفتريـات دون سورة واحـدة ، هو إرادة نـوعٍ خاص من أنواع الإعجاز، وهو الإتيان بالخبر الواحـد بأسـاليب متعددة متسـاوية في البلاغة .

ولما كان كفارُ المدينة الذين يوجَّه إليهم الاحتجاجُ أوَّلاً وبالـذات هم اليهود ،

---

(١) تفسير المنار ١ : ١٩٣

وهم يَعُدون أخبار الرسل في القرآن غيرَ دالة على علم الغيب ، تحدَّاهم بسورةٍ من مِثلِ النبي ﷺ في أمِّيَّته ، ليشمل ذلكَ وغيره، مع بقاء التحدي المطلقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه على إطلاقه »[1] .

٣ ـ رأيُ سيد قطب ، وهو أنَّ الترتيبَ غيرُ وارد ، ولا يوجَدُ دليلٌ صحيحٌ في نزولِ الآياتِ وترتيبِ السور يدلُّ عليه ، فالتحدّي كان يواجِهُ حالةَ الكافرين وينقضُ شبهاتِهم حول القرآن ، وكان مقدارُ التحدِّي حسبَ الحالة التي هم عليها ، فكان يتحداهم أحياناً بالقرآن ، وأحياناً بعشر سورمنه، وأحياناً بسورة واحدة، فالتحدّي بنوع القرآن لا بمقداره .

ونحن نُؤْثِرُ أن نوردَ كلامَه لنفاسَتِه :

« قال المفسرونَ القُدامى : إنَّ التحدّي كانَ على الترتيب ، بالقرآن كلِّه ، ثم بعشْر سور ، ثم بسورةٍ واحدة ، ولكنَّ الترتيبَ ليس عليه دليل . بل الظاهرُ أن سورةَ يونس سابقةٌ ، وسورة هود لاحقةٌ ، والتحدِّي فيها بعشر سور .

وحقيقةٌ إنَّ ترتيبَ الآياتِ في النزولِ ليس من الضروري أن يتبعَ ترتيبَ السور . فقد كانت تنزلُ الآية ، فتُلْحَق بسورةٍ سابقةٍ أو لاحقة ، إلَّا أنَّ هذا يحتاج إلى ما يُثْبِته . وليس في أسبابِ النزول ما يثْبت أن آيةَ يونس كانت بعدَ آية هود ، والترتيبُ التحكُميُّ في مثلِ هذا لا يجوز .

ولقد حاولَ السيد رشيد رضا في تفسيرِ المنار أن يجد لهذا العددِ « عشرَ سور » علة ، فأَجْهدَ نفسَه طويلاً ـ رحمة الله عليه ـ ليقول : إنَّ المقصودَ بالتحدِّي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراءِ يظهرُ أن السورَ التي كان قد نزلَ بها قصصٌ مطوَّل ، إلى وقتِ نزول سورة هود ، كانتْ عشراً . فتحدّاهم بعشر . . لأنَّ تحدِّيهم بسورةٍ واحدة فيه يُعجزُهم أكثرَ من تحدِّيهم بعشر ، نظراً لتفرُّقِ القَصص وتَعدُّدِ أساليبه ، واحتياج المتحدِّىٰ إلى عشر سور كالتي ورد فيها . ليتمكن من المحاكاة إن كان سَيُحَاكي . .

---

(١) تفسير المنار ١ : ١٩٣ ـ ١٩٤ بتصرف واختصار .

ونحسبُ ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسرُ من كلِّ هذا التعقيد وأن التحـدّي كان يلاحِظُ حالةَ القائلين وظروفَ القول ، لأن القرآن كان يواجهُ حالاتٍ واقعة محـدَّدة ، مُواجَهة واقعةً محددة . فيقول مرة : ائْتوا بمثلِ هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيبٍ زمني . لأن الغرضَ كان هو التحدّي في ذاتِه ، بالنسبة لأيِّ شيء من هذا القرآنِ ، كلِّه أو بعضِه أو سورةٍ منه على السَّواء . فالتحدِّي كـان بنوعِ هـذا القرآنِ لا بمقداره . والعجزُ كانَ عن النـوع لا عنِ المقدارِ . وعنـدئذٍ يستَـوي الكلُّ والبعضُ والسـورةُ ولا يلزمُ تـرتيب ، إنمـا هـو مقتضى الحـالـةِ التي يكـونُ عليهـا المخاطبون ، ونوعُ ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهُو الذي يجعلُ من المناسِبِ أن يُقالَ سورةٌ أو عشرُ سور أو هذا القرآن .

ونحنُ اليومَ لا نملكُ تحديدَ الملابساتِ التي لم يذكُرْها لنا القرآن[1] .

والراجحُ ـ والله أعلمُ ـ هو الرأي الثالثُ الذي ذكره سيد قطب ، لأننا لا نملكُ النصوصَ اليقينية على الترتيبِ المرحليِّ المتدرِّج ، وما قالَهُ السابقونَ فيه إنما هو نظرٌ واجتهاد ، ونزولُ الآياتِ والسورِ لا يُقالُ فيه بالاجتهاد .

ولا يترتبُ على القولِ بترتيبِ آياتِ التَّحدي فائدةٌ علمية ، لأن المهمَّ في آياتِ التحدِّي أنها تحدَّتْ الكافرينَ على أن يأتوا بهذا القرآنِ أو سورةٍ منه أو عشر سـور ، وأنَّ الكفارَ عجزوا عن المعارضة .

إنَّ القرآنَ تحدَّى الكافرينَ بالنَّوع لا بالمقدار ، وكان عجزُهم عن النوع لا عن المقدار .

---

(١) الظلال ٤ : ١٨٦١ ـ ١٨٦٢

المبحث السابع

« مستوى العرب البياني »

كانوا في أرفع مستوى :

العربُ أمةُ البيانِ والفصاحةِ والبلاغة ، وقد مارَسوا البيانَ شعْراً ونثْراً . وكانت لهم في العصرِ الجاهلي خطبٌ بليغة ، وقصائدُ شعريةٌ رفيعة ، وأمثالٌ حكيمةٌ سائرة . وتفننوا في اللغة على أساليبَ وفنونٍ رائعة، واستخدموا تعريفاتٍ واشتقاقاتٍ للكلمة، واستخدموا التشبيه والاستعارةَ والتصويرَ والمجازَ وغير ذلك من فُنون البلاغة .

ولما بُعث فيهم محمد ﷺ وخاطَبَهم بالقرآن ، كانوا في مستوى بيانيٍ رفيع ، بل كانوا في أرفعِ مستوى في البيانِ والفصاحة والبلاغة ، لم يصلْه أحفادُهم في عصورِ الأدب في عهدِ الأمويين والعباسيين والأندلسيين والمماليك .

لقد كانَ العربُ ـ في وقتِ نزول القرآن ـ متقدِّمين في الفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ ، متمكِّنين من اللغة ، نثرها وشعرِها ، متفوِّقين في أساليب البلاغةِ وفنون القول ، من مجاز وكنايةٍ وتشبيهٍ وتمثيل .

وكانت قريشُ أفصحَ قبائل العرب كلِّها ، وكانت لهجتُها أدق لهجات العرب وأوضحها إعراباً وبياناً . وكانت باقي القبائل ، تعترفُ لها بالتقدمِ والسبق في لغتِها وبيانِها ، ولهذا كانت تَفِدُ إليها في مواسمِ الحج والتجارة ، وتعيشُ في بطاحِ مكةِ وأسواقها ، حياةً أدبيةً شعريةً بيانيةً ثقافيةً ، أياماً عديدة ، حول الكعبة وفي أسواقِ عُكاظ وذي المجاز، تُجري فيها المطارحاتِ والمبارياتِ والمسابقاتِ في الخطابةِ والشعرِ والإنشاد .

وقد سجَّل رواةُ الأدب وناقلوه ، بعد ذلك، كثيراً من أشعـارِ العرب الفصحـاءِ البلغاء في العصر الجاهلي وعصرِ نزول القرآن . وأوردوا كثيراً من خُطبهم ، ومأثور كلامهم ، وفصيحِ تعبيرهم ، وأودعوه في دواوينِ الأدب الجاهلي والإسلامي ، شعره ونثرِه .

لكنَّ الذي تمكَّنوا من حفظِه وتسجيلِه ، قليل جداً بالقياسِ إلى ما ضاع ونُسِيَ من قصائدِ وأشعارِ شعراءِ العرب ، ومن خطبِ خطبائِهم ، وعباراتِ بلغائهم .

لكنَّ هذا الذي سجَّلوه يكفي في الدلالة على المستوى البياني المتقـدم الذي وصَله العـربُ في عصرهم الجـاهلي ، والذي استقبلوا بـه معجزةَ القـرآن البيانيـة ، وتفاعلوا معها وتذوَّقوها .

ولهذا المعنى كانت المعجزةُ الأولى لرسول الله ﷺ بيانيةً ، ولهذا المعنى أيضاً كان تحدّي القرآنِ للكافرين تحدِّياً بيانيـاً ، وكان مـا طلبَهُ منهم أن يـأتوا بمثـلِ هذا القرآن أو بمثل سورة منه في البيان ، فالمثليةُ المطلوبةُ كانت مثليةً بيانية ، ولهذا كان عجْزُهم عجْزاً بيانياً .

فإذا كانوا ـ وهم الأمةُ المتقدمةُ في الفصاحةِ ، المتفوقةُ في البيان ، التي بلغتْ أرفعَ مستوى بيانيّ ـ عاجزين عن معارضة القرآن ، وعن الإتيـان بقول آخر رفيع في بيانهِ مثل القرآن ، كان وجْهُ الإعجاز وجْهاً بيانياً ، وكان إعجازُ القرآن إعجازاً بيانياً .

فإذا عجزوا هم ـ أصحابُ المستوى المتقدمِ في البلاغة والبيان ـ كان غيرُهم ـ مِمَّنْ هم دونَهم في البيان والفصاحة ـ أعجز !

خطورة التشكيك في الشعر الجاهلي :

ومن هنا تأتي خطورةُ التشكيكِ في وجودِ الشعرِ الجاهلي ، والأدب الجاهلي .

إنَّ أوَّلَ مَنْ أثارَ قضية « الشعر الجاهلي » هـو المستشرق « مـرجليوث » حيثُ نشرَ مقالاتٍ في مجلاتِ المستشرقين ، شكَّك فيها بـوجود الشعـرِ الجاهلي ، واتهمَ العربَ الجاهليـين في بيانِهم وبلاغتِهم وشعرِهم ، واعتبرَهـم غيرَ متمكِّنين من ذلك ، ولا متقدِّمين فيه . واعتبرَ أن القَصائدَ والأبياتَ الشعريةَ التي نسبتْها كتبُ الأدبِ والشعرِ

لشعراءَ جاهليّين «مصنوعةً منحولةً مختلَقةً موضوعةً» وضَعها المسلمونَ في العصرِ العباسي ، ونسبوها لشعراءَ جاهليين ونحلوها لهم ، من أمثالِ الأصمعي وخلف الأحمر ، والأعمش ، ووالبةَ بن الحَباب وغيرهم .

وصدَّق الأدباءُ والمؤرخون تلكَ القصائدَ والأشعار ، ونَسبوها لشعراءَ جاهليين مثلِ امرىء القيس والنابغةِ وطرفَة وعنترة وزهير وغيرهم ، مع أنهم لم يقولوها !

وأثارَ المستشرق « مرجليوث » معركةً شديدة ، وردَّ عليه مسلمون مفكِّرون وأدباء ، كما ردَّ عليه مستشرقون آخرون مثله ، واتَّهموه في علميَّته وصدقِه ، واعتبروه كاذباً مفترياً .

وقد نقلَ الأستاذ محمود شاكر في مقدِّمته الرائعةِ لكتاب « الظاهرة القرآنية » للمفكِّر مالك بن نبي ، قول المستشرق « آربري » في بيان تزييف وكذب وغش « مرجليوث » حول الشعر الجاهلي . فقال :

« ولا تُحَاكِم مرجليوث وأشياعَه إلى رأيك ونظرك ، بل دَعْ محاكمَته إلى مستشرقٍ مثلِه ، هو « آربري » ، يقول في خاتمةِ كتابه « المعلَّقات السبع » بعد ذكْره لأقوال مرجليوث وتفْنِيدِهِ لها : « إنَّ السفسطة ـ وأخشى أن أقول : الغِشَّ ـ في بعض الأدلَّةِ التي ساقها الأستاذ مرجليوث ، أمرٌ بَيِّنٌ جداً ، ولا تليقُ البتةَ برجل كان ـ ولا ريب ـ من أعظمِ أئمةِ العلم في عصره » .

وهذا حكم شنيع ، لا على مرجليوث وحدَه ، بل على كلِّ أشياعِه وكهنتِه ، وعلى ما جاءوا به من حُطام الفكر »[1] .

ورغْم ما في كلام مرجليوث من الغشِّ والتزوير ـ باعتراف قومه ـ فقد اعتبره أُناس من العرب قضيةً مسَلَّمةً ، وحقيقةً قاطعةً ، وردَّدوا ذلك الكلام في كتبِهم ومقالاتِهم ، وفي خطبهم ومحاضراتهم ، وألقوه على طلبةِ الجامعة ، وصاروا يشكِّكون في الشعر الجاهلي ، وينفون وجودَه ، ومن ثم يشكِّكون في المستوى البيانيِّ

(١) تقديم محمود شاكر للظاهرة القرآنية : ٢٢ ـ ٢٣

الرفيعِ للعربِ في العصر الجاهلي ، ليصِلوا إلى التشكيك في القرآن ، بالـطعنِ في إعجازه !

والذي تولّى كِبْرَ هذا الكلام « أعمى القلب والبصر » الدكتورُ طه حسين ـ الذي جَعلوه عميداً للأدب العربي زوراً وبهتاناً ـ حيث كانَ يلقيه على طلبةِ الجامعة ، وأثبتَه في كتابه « في الشعر الجاهلي » وظن أناسٌ أنه هو صاحبُ الفكرة ـ الكافرةِ الجائـرةِ الكاذبة ـ وما هو إلاّ مُردِّدٌ لكلامِ شيطانهِ مرجليوث .

ووجْهُ الخطورةِ في التشكيك في الشعر الجاهلي ، أنه تشكيـكٌ في المستوى البيانيِّ المتقدم للعرب في العصر الجـاهلي ، وأنه يقـود إلى التشكيكِ في « إعجـاز القرآن » .

إن إنكارَ الشعر الجاهلي ، يقود إلى إنكار إعجاز القرآن :

لأن القرآنَ تحدّى العرب الكافرين أن يأتـوا بسورةٍ مثله ، أوْ أنْ يـأتوا بمثله ، والمِثْلِيَّةُ التي طالبهم بها هي « المثليَّةُ البيانيَّةُ » أي مثلُ القرآن في بيانِه وبلاغتِه ، وهو لم يطلبْ منهم ذلك إلاّ لأنَّهم متفوقون في البلاغة ، متقـدِّمون في البيـان ، ذوو نثر بليغٍ وشعر رفيع .

فإذا نفى هؤلاء الشعرَ الجاهلي فقد نَفَوا بلاغةَ العرب الجاهليين وبيانَهم ، وإذا لم يكن العـرب متقدمين في البيـان فكيفَ يتحدَّاهم القـرآن أن يأتـوا بكلام مثلِه في البيان ؟ وكيفَ يطلبُ منهم أن يأتوا بما لم يُتْقنوه ولم يعرفوه ؟ إنَّ القرآنَ يكون ـ في هذه الحالة ـ قد تحدَّى مَنْ ليسوا أهلاً للتحدِّي ، وأعْجَزَ مَنْ ليسوا في مستوى التحدِّي والمعاجزة ، فلا فضل له في معاجَزَتهم ، ولهذا هو غيرُ معْجِز ، وإذا لم يكن معجزاً فهو ليس من عند الله !!

هذه النتائجُ الخطيرة ، تترتَّبُ كلُّها على التشكيكِ في الشعر الجاهلي ، وإنكار وجوده ، وبهذا يظهرُ كمْ هم مُغرِضون خبثاء ، أولئك الذين أثاروا هذه القَضية وتولّوْا كِبْرَها ، من أمثال مرجليوث وطه حسين .

لكنَّ كلامَهم ظن خادع وافتراءٌ متهافت ، ولا يقومُ على دليلٍ علميٍ أو برهانٍ

يقيني ، وإنما هو مزاعمٌ وافتراءات ، وغشٌ وتزوير ، باعترافِ المستشرق آربري .

التحدي للأقوياء :

كان العربُ وقتَ نزولَ القرآن قد وصَلوا أعلى مستوى في الفصاحة ، وارتقـوا إلى أرفعِ منزلةٍ في البيان ، كما يبدو من خلالِ شعرِهم ونثرِهم .

ولذلك تحدَّاهم القرآن ، أن يأتوا بمثله ، أو بسورةٍ من مثله ، وكان موضـوعُ التحدي هو البيان والفصاحة .

لقد تحدَّاهم القرآنُ بالبيانِ والبلاغةِ والفصاحةِ ، لأنهم كانـوا أقويـاءَ في البيانِ والفصاحةِ والبلاغةِ .

إنَّ المتحدِّي لا يتحدَّىٰ إلَّا خَصْماً قوياً ، يكون قريباً منه في الموضـوع الذي يتحدَّاه فيه . ولو تحدَّى مَنْ هو ضعيفٌ عاجز ، لا يكون لتحدِّيه له أيُّ معنى ، بل قد يسخُر منه الآخرون لتحدِّيه له ، ونزولِه إلى مستواه .

كم سيسخـر الناسُ من بـطلٍ في الملاكمـة أو المصارعـة ، إذا تحدَّى غـلاماً صغيراً لم يبلغ العاشرة من عمره ، ودعاه لمنازلته في الحلبة . وكم سيسخرُ الناسُ من بطل في الجرْي والركض ، إذا تحدَّى مشلولاً أو مُقْعداً أو أعمى ، ودعاه إلى المباراةِ والسباق .

ثم إنَّ العربَ الجاهليين لم يكونوا يُتقِنون إلَّا البيانَ والفصاحة ، ولم يتفوَّقوا إلَّا في القصائد والخطب ، ولذلك تحدَّاهم القرآن فيما يتقنونه ويتفوقون فيه .

لم يكن تحدِّيهم في العلوم والمعارف ، ولا في التشريعات والنـظم ، ولا في الأخبارِ والمغيَّبات لأنَّ معلوماتِهم في تلك المجالات لا تكاد تُذكر .

كان تحدِّيهم إذن بالبيانِ والفصاحة ، لأنهم كانوا أقوياء فيهما .

ولذلك كان عجزُهم عن التحدِّي ، وعدمُ قدرتهم على الإتيان بمثلِ القرآن أو بسورة منه ، إثباتاً لإعجاز القرآن ، ودليلاً واضحاً على مصدرِه الرباني الكريم .

وذلـك لأنَّ كلمة « العجـز » تشمل المعنييْن المتقـابليْن ـ كمـا قلنـا من قبـل ـ

الضعفُ والقوة ، فالقرآنُ أعجزَ الأقوياءَ في الفصاحة ، وأظهرَ ضعفهم وعجزَهم ، ولذلك كان معجزاً ، وثبتَ له الإعجاز .

ولذلك قالوا في إعجاز القرآنِ ، إنَّه : « تحدّي القرآن للعربِ المتقدِّمين في الفصَاحة ، المتمكِّنين من البيانِ والبلاغة ، في أن يأتوا بمثله أو بمثلِ سورةٍ منه ، مع توفُّر المَلَكة ، وقيامِ الداعي ، وعجزُهم عن ذلك » .

فالقرآن تحدَّى الأقوياء القادرين ، الَّذين توفَّرتْ لهم المَلَكَةُ البلاغية ، والموهبة البيانية ، تحدّى هؤلاء فأعجزهم .

استمرار التحدي :

إذا تحدَّى القويُّ خصمَه ، فأضعَفه وأعجزَه ، فإنَّ ضعفَه وعجزَه ينسحبُ على الآخرين الذين أقلُّ منه في قوته ، فيكونُ ذلك المنتصر غالِباً للآخرين ، معْجزاً لهم ، لأنهم أضعفُ وأعجزُ من صاحبهم المهزوم . المصارعُ الذي يفوزُ على خصمه في المصارعة ، هو بالضرورة متفوِّق على الآخرين ولو لم يتقنوا المصارعة ، ولم يتقدموا لمصارعته . والشاعرُ الذي يتفوَّق على خصمه الشاعر الآخر ، هو بالضرورة متفوق على الآخرين ولو لم يكونوا شعراء ، ولو لم يتقدموا للمسابقة الشعرية . وهكذا .

فإذا ما وجدْنا أحَداً لم يسلِّم بهذه النتيجة ، ولم يقرَّ بهزيمة المنتصر له ، ولم يعترف بانسحابِ العجز والضعف عليه ، فإنه يتقدم لمنازلة المنتصر ، ويتوجه إليه في الحلبة !

وهكذا الأمر في تحدي القرآن للكافرين ، وتعجيزه لهم .

إنَّ التحدِّي موجَّهُ للمتقدمين في الفصاحة والبيان ، وهم العرب المعاصرون لنزوله . وإنهم قد عجزوا عن معارضته ، وضعفُوا عن الإتيان بما تحدَّاهم به .

وبما أنهم قد عجزوا ـ وهم الأقوياءُ المتقدمون المتفوقون ـ كان غيرُهم من الناس ـ الذين أقلُّ منهم في الفصاحة ، وأدناهم في البلاغة ، وأضعفُ منهم في البيان ، أضعفَ وأعجزَ ، حيثُ ينسحبُ عليهم ذلك العجزُ والضعف .

ولذلك نحكمُ على الأجيالِ العربيةِ التالية ، في العصور الإسلامية المختلفة ،

وحتى عصْرِنا الحاضر ، بأنها ضعيفةٌ وعاجزة ، لأنها أقلُّ بدرجاتٍ من أولئك العرب السابقين .

ولذلك يكونُ القرآنُ معجزاً لهم ، كما كان مُعْجِزاً لأسلافِهم .

وإذا ما ضعفَ العربُ أمامَ القرآن ، وعجزوا عنْ معارضتِه ، فإنَّ الأقوامَ الآخرين من غير العربِ ـ على اختلاف الزمان والمكان ـ هم أضعفُ وأعجز .

وإذا كانَ القرآنُ معجِزاً للعرب ، كان معجِزاً للأقوام الآخَرين من باب أولى .

هذه الحقيقةُ الصادقة ، والنتيجةُ اليقينية ، يجب أن يُسلِّم بها كلُّ شخصٍ من العربِ أو غيرِهم ، وأن يعترِفَ بعجزه أمامَ القرآن ، وضعفِه عن معارضتِه .

فإذا ما جاء شخصٌ شاعرٌ أو أديب ، متمكِّن من لغتِه ، قويٌّ في فصاحتِهِ وبلاغتِه ، ولم يُسلِّم بتلك النتيجة ، ولم يَقُلْ بتلك الحقيقة ، وادَّعى أنه قادرٌ على معارضةِ القرآن ، ويستطيعُ أن يكتبَ مثلَه أو أقوى منه في الفصاحةِ والبيانِ . فإنَّ القرآنَ يتحدَّاه ، بنفسِ آيات التحدي ، ويطلبُ منه نفسَ ما طلبَ من أسلافِهِ ، ويدْعوه إلى الإتيانِ بمثلِهِ أو مثلِ سورة منه ، ويحثُّه على استخدام قوَّته وموهبتِه ووسائلِه وأدواتِه .

يطلبُ منه القرآنُ ذلك الطلب ، ويتحدَّاه بذلك التحدي ، لأن القرآنَ واثقٌ من تعجيزه له ، حيث أعجزَ مَنْ هم أقوى منه من أسلافِه .

وهذا معنى قولنا : إن التحدِّيَ مستمر ، وسيبقى مستمراً حتى قيام الساعة ، لأن الإعجازَ مستمرٌ ملازِمٌ للقرآن .

وهذا التحدّي القرآني المستمر ، موجَّه للكافرين ، المنكِرين لرسالة الرسول عليه السلام ، المتشكِّكين في مصْدَر القرآن الرباني ، ليعترفوا بأنه كلامُ الله ، وأنَّ مَنْ نَزَلَ على قلبِهِ هو رسولُ الله ﷺ .

المبحث الثامن

« المعاجزة والعجز والإعجاز »

الإعجاز البياني هو الذي كان به التحدي :

العربُ كانوا متقدِّمين في الفصاحةِ والبيان ، والأصْلُ أن يتحـدّاهم القرآنُ بمـا يتقِنونه ويتفوَّقون فيه ، ولذلك تحدَّاهم أن يأتوا بمثله أو بمثـلِ سورةٍ منـه ، والمثلِيةُ المطلوبةُ منهم هي المثليةُ البيانيةُ . أيْ أن يكونَ مـا يأتـونَ به مثـلَ القرآنِ في بيـانه وفصاحته ٪

كان التحدِّي إذنْ تحدياً بيانيًّا ، في البيـانِ والفَصاحـةِ . وكان عجـزُهم عجْزاً بيانياً .

لم يكن التحدّي المطلوبُ منهم في مـوضوعـاتِ القرآن، ولـم يكن في علومِ القرآنِ ومعارفِه ، ولا في أخبارِهِ وغيوبه ، ولا في تشريعاته ونُظُمه ، لأنهم لم يكونوا متمكّنين من ذلك ، ورصيدُهم منه لا يكادُ يُذكر .

٪ وردَ في آيةِ التحدي في سورة هود ما يدلُّ على ذلك ، حيث قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ . قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات ﴾ ففي كلمة « مفتريات » إشارةٌ إلى أنَّ المطلوبَ عشرُ سور مثلُ سورِ القرآنِ ، في البيانِ والفصاحة ، وليس مثل سُوَرِ القرآن في موضوعاتِها وعلومِها وقصصِها وأخبارِها .

فلو كان موضوعُ التحدي هو « الصِّدقُ التاريخي » في القصص والأخبار لما قال « مفتـريـات » . ولـو كـان مـوضـوعُ التحـدي هـو « الصــدقُ العلمي » في العلوم والتشريعات لما قال « مفتريات » ٪

لقد أعفى القرآنُ العربَ ـ عندما تحدّاهم ـ من الموضوعِ والمضمونِ والمَعاني ، وطالبَهم بالصورةِ والشكلِ والقالب ، طالبهم بألفاظٍ بليغة ! وبيان فصيحٍ ، ولو كان هذا مفترى غير صحيح !

وبما أن التحدّي كان في البيانِ ، وبما أن المطلوبَ منهم هو البيان ، لذلك كان عجزهم في البيان ، وكان القرآنُ معجزاً لهم في البيانِ ، وكان « الإعجازُ البياني » هو الإعجازُ الذي كان به التحدي .

قالَ سيد قطب في كتاب « التصوير الفني في القرآن » عن سرِّ تأثيرِ القرآنِ في القلوب ، ذلك التأثيرُ الذي أسماه « سحْر القرآن » .

« كيف استحوذَ القرآنُ على العرب هذا الاستحواذ ؟ وكيف اجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون على السواء ؟ » .

بعضُ الباحثينَ في مزايا القرآن ، ينظرُ إلى القرآن جملةً ثم يُجيب ، وبعضُهم يذكُر غيرَ النَّسَق الفني للقرآن أسباباً أخرى ، يستمدُّها من موضوعاتِه بعد أنْ صار كاملاً : من تشريعٍ دقيقٍ صالحٍ لكل زمان ومكان ، ومن إخبارٍ بالغيبِ يتحقَّق بعدَ أعوام ، ومن علومٍ كونية في خلْق الكون والإنسان .

ولكنَّ البحث على هذا النحو إنما يُثبِتُ المزية للقرآن مكتمِلاً ، فما القولُ في السور القلائل ، التي لا تشريع فيها، ولا غيبَ، ولا علوم ، ولا تجمعُ بطبيعةِ الحال كلَّ المزايا المتفرقةِ في القرآن؟ إن هذه السور القلائلَ قد سُحِرَ العَرب بها منذ اللحظة الأولى ، وفي وقت لم يكن التشريعُ المحكم ، ولا الأغراضُ الكبرى ، هي التي تسترعي إحساسَهم ، وتستحقُّ منهم الإعجاب .

يجبُ إذن أن نبحثَ عن « منبعِ السحر في القرآن » قبلَ التشريعِ المحكَم ، وقبلَ النبوءةِ الغيبيةِ ، وقبلَ العلوم الكونية ، وقبل أن يصبحَ القرآنُ وحدةً مكتملةً تشملُ هذا كلَّه . فقليلُ القرآن الذي كان في أيامِ الدعوةِ الأولى كان مجرَّداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد، وكان ـ مع ذلك ـ محتوياً على هذا النبعِ الأصيل الذي تذوقه العرب»[1] .

---

(١) التصوير الفني في القرآن : ١٥ ـ ١٦ باختصار .

شبهات حول التحدي والمعاجزة :

قد يثيرُ بعضُهم شبهاتٍ حولَ التحدّي والمعاجَزة ، وَيُشَكِّكُون في عَجْزِهم عن المعارضة ، أو في فهمهم للمطلوب في التحدي .

ومن الشبهاتِ التي قد تُثار حولها :

١ ـ آياتُ التحدي لم تَبلُغ الكفار ، ولم يتْلُها الرسولُ عليه السلام عليهم . وهذا زعمٌ باطل ، فإن التحدّي قد استمرَّ طوالَ مدةِ البعثة ، منها ما نزلَ في أوائلِ الفترة المكية ، ومنها ما كانَ في أواخرِها ، ومنها ما كـانَ في المدينـة . والرسـولُ ﷺ كان يتْلوها عليهم في تلكَ الفترةِ الزمنية المتباعِدة ، ويقرعُ أسماعَهم بها ، ويُثيرُ نخوتَهم وحميَّتَهم للمعارضة .

٢ ـ لم يفهم الكفارُ المطلوبَ منهم في التحدِّي ، ولذلك لم يقوموا به . وهذا مردودٌ . فقد كانَ بينَهم وبينَ الرسولِ ﷺ جدالٌ وحـوارٌ ومُناقشـات ، وكانَ الـرسولُ عليه الصلاة والسلام بينهم باستمرارٍ ، صَباحَ مساء .

فلوْ لم يفهموا المطلوبَ في التحدّي لسألـوا الرسـول عليه الصـلاة والسلام ، واستفسروا منه ، ولو سألوهُ لأجابهم ، فكثيراً ما سألوه واستفسروا منه ، وأجابَهم على أسئلتهم واستفساراتهم .

٣ ـ زعَمَ بعضُهم أنَّ العربَ لم تتوفرْ عندهم المَلَكَةُ البيانيـة . ولم يتفوقـوا في الفصاحة والبلاغة ، وأنَّ ما نُسب إليهم من أشعارٍ وقصائد ، فهو منْحولٌ مكـذوب ، وَضَعَه المسلمون على ألسنتهم .

وقد أشْرنا إلى هذه الشبهةِ الباطلة ، والفريةِ الكاذبة ، من قبـل ، لدى كـلامِنا عن مستوى العرب المتقدِّم في البيانِ والبلاغة ، وبيَّنّا أن أولَ من أطلق هذه التهمة هو المتشـرق « مرجليوث » وأن طه حسين ردَّدَهـا بين العرب ، وأن مرجليوث استخـدَمَ أساليبَ الغش والتزويـر والإفتراء والادِّعـاء ، ليقـرِّر هـذه الفـريـة ، كمـا قـال عنـه المستشرق « آربري » .

٤ ـ زعمَ بعضُهم أنَّ العربَ الكافرين قد عـارَضوا القـرآن ، ونجَحوا في هـذه المعـارضـة ، وقـدَّمـوا المـطلوب منهم في التحـدي . ولكنَّ المسلمين أخفـوا تلك

المعارضات وأبادوها ، لأنَّ الكافرين هُزِموا أو أسلموا ، وكان الأمرُ للمسلمين ، فتحكَّموا في التاريخ والفكر والأدب على هواهم !

ولو صحَّ هذا الزعم ، ونجحَ الكفار في المعارضة ، وقدَّموا كلاماً بليغاً مثلَ القرآن أو قريباً منه ، لاشتهرَ ذلك عنهم ، ووصَلَ إلى الكفار الآخرين في اليمن والعراق والشام ، وسجَّلَه الغساسنة والمناذرة ، وحفظَه الفرس والروم .

ولو وقعتْ منهم المعارضةُ القويةُ لقضتْ على القرآن ، وصارتْ لها القيمةُ والمنزلةُ بدل القرآن .

ثم إن المسلمين قد سجلوا في كتب الأدب ، عباراتٍ تافهة ، وجُمَلاً متهافتة ، نُسبت لكافرين ، زعَموا بها معارضةً للقرآن ، ولو وُجدت معارضاتٌ قوية لأثبتوها .

وهبْ أن المسلمين أخفَوها ، فلماذا لم يظهرْها وينشرْها أعداءُ الإسلام ؟ الذين استخدَموا كلَّ الوسائل في حربه ، وإذا كانوا ينشرونَ شُبَهاً تافهة ، فلماذا أخْفَوْا تلك المعارضات ؟

إن هذا الزعم لا يستندُ إلى دليلٍ عقلي ، ولا برهان منطقي .

نقض الإعجاز بالصرفة :

وبهذه المناسبة نقف لنشير ـ بإيجاز ـ إلى زعم متهافت ، قال به بعض السابقين ، وهو أن القرآن ليس معجزاً للمعارضين ببيانه وبلاغته ، ولكنه معجز « بالصرفة » .

وهذا القول باطل ، وليس له وزنٌ يُقام ـ كما قال عنه سيد قطب[1] ـ .

ولكنَّهُ قالَ به بعضُ العلماءِ من السابقين ، ولذلك لا بدَّ من نقضِه وردِّه وإبطالِه .

أولُ من قالَ به « عيسى بن صَبيح المزدار » الذي كان يُلَقَّب براهب المعتزلة . ثم تلقَّفه عنه إمام المعتزلة « إبراهيمُ بنُ سيّار النظّام » وبالغ في القول به ، حتى نُسب له .

(١) التصوير الفني في القرآن : ١٣

وكثيرٌ من المعتزلةِ يقولون بالصُّرفة ، ويعتبرونَها مظهراً لإعجاز القرآن . قالَ إمامُهم النظَّام ـ فيما نسبه الرازيُّ له ـ : « إنَّ اللهَ ما أنزلَ القرآنَ ليكون حجةً على النبوة ، بل هو كسائرِ الكتب المنزلة لبيانِ الأحكام من الحلال والحرام ، والعربُ إنما لم يعارِضوه ، لأن اللهَ صَرَفَهم عن ذلك . وسَلَبَ علومَهم به . »[1] .

وقال علي بن عيسى الرماني ـ الأديب المعتزلي المشهور ـ عادًّا « الصُّرفة » وجهاً من وجوه الإعجاز السبعة عنده : « وأمّا الصُّرفة ، فهي صرفُ الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمدُ بعضُ أهل العلم ، في أنَّ القرآنَ معجزٌ من جهةِ صَرْف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارجٌ عن العادة ، كخروجِ سائر المعجزات ، التي دلَّت على النبوة ، وهذا عندنا أحدُ وُجوه الإعجاز ، التي يظهر منها للعقول »[2] .

وليس القولُ بالصُّرفة خاصاً بالمعتزلة، فقد قالَ بها ابنُ سنان الخفاجي، وهو شيعي ، ونقل نعيمُ الحمصي قولَه : « وإذا عدْنا إلى التحقيق ، وجدْنا وجهَ إعجاز القرآن ، هو صرفُ العرب عن معارضتِه ، بأن صُرِفوا العلومَ التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة ، في وقتِ مَرامِهم ذلك »[3] .

كما نسب القول بالصُّرفة للجاحظ المعتزلي ، وأبي إسحاق الاسفراييني الأشعري ، وابن حزم الظاهري .

وقد اختلف العلماء في بيان حقيقة ما يقصده هؤلاء بالصرفة . إن الصُّرفةَ تحتملُ ثلاثةَ احتمالات . ذكرَها يحيى بنُ حمزةَ العلويّ في كتاب « الطراز » ونقلَه عنه علي العِماري في كتابه « حول إعجاز القرآن » قال العلوي :

« الاحتمالُ الأولُ : أن اللهَ سَلَبَ دواعي العربِ إلى المعارضة ، مع أنَّ أسبابَ توفُّر الدواعي في حقِّهم حاصلة ، من التقريعِ بالعجز ، والتكليفِ بالانقياد ، ومخالفةِ الأهواء .

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي : ٣٣
(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١١٠
(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٨٥

الاحتمالُ الثاني : أن اللهَ سلبَهم العلومَ التي لا بدَّ منها في الاتيانِ بما يشاكِلُ القرآن ، أعمُّ من أن تكونَ حاصلةً لهم فأزيلتْ عنهم ، أو غيرَ حاصلة ، لكنَّ الله صرفَ دواعيهم عن تحصيلها .

الاحتمالُ الثالث : أن اللهَ منعهم بالإلْجاء على جهةِ القسرِ من المعارضة ، مع كونِهم قادرين ، وسَلَبَ قواهم عن ذلك »[1] .

الاحتمالُ الثالثُ لم يقل به أحد .

والاحتمالُ الثاني قولُ الخفاجي .

والاحتمالُ الأول هو قولُ النظّام والرمّانيّ .

والفرقُ بين الاحتمال الأول والثاني واضح .

ففي الأول علومُهم وقدراتُهم موجودة ، ولكنهم لم يفكِّروا بها ، ولم يحاوِلوا استخدامَها ، ولَم يَرِدْ على خواطِرهم الردُّ على التحدي القرآني لهم .

أمّا على الثاني فإنهم فكَّروا في المعارضة ، وحاوَلوها ، لكنهم وجَدوا أنفسَهم بدونِ علومٍ تُعين على تحقيقِها ، ولذلك جلسوا حيارى .

والاحتمالاتُ الثلاثةُ كلها مرفوضة .

ونلخِّص فيما يلي ما قالَه الزركشي في « البرهان » وهو ينقض هذا القول :

١ ـ هذا القولُ باطلٌ فاسد . بدليل الآيـة : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .

تـدلُّ الآيةُ على عجـزهم مع بقـاءِ قدرتِهم ، ولـو جُرِّدوا من القـدرةِ لمـا بقيَ لاجتماعِهم معنى ، لأنه بمنزلةِ إجتماعِ الموتى .

٢ ـ إجماعُ المسلمين على إضافةِ الإعجازِ إلى القرآن ، والقولُ بالصرفة ينفي الإعجازَ عن القرآن ، ويجعلُه لله . فالمعجِزُ هـو الله وليس القران ، لأنَ اللّهَ سلبَهم القدرةَ على الاتيان بمثلِه . وهذا قولٌ يناقِض إجماعَ المسلمين ، ولا يتفقُ مع المعنى المفهومِ من « إعجاز القرآن » .

---

(١) حول إعجاز القرآن لعلي العماري : ٨٣

٣ ـ يلزمُ من القول بالصَّرفةِ زوالُ الإعجازِ عن القرآن بإسلام أهلِ جزيرة العرب ، وزوالِ التحدي ، وفي هذا يخلو القرآنُ عن الإعجاز ، وهذا يخالِفُ حديثَ الرسول عليه الصلاة والسلام « **وَإِنَّمَا كانَ الذّي أُوتيتُهُ وَحْياً أَوْحاهُ اللّهُ إِليَّ** . . » لأنه يمنعُ كونَ القرآن معجزةً للرسول عليه السلام ، حتى قيام الساعة .

٤ ـ لو كانت معارضةُ الكفارِ للقرآن ممكنةً ، ثم صُرفوا عنها بأمرِ الله ، لما كان القرآن معجزاً ، وإنما المعجزُ هي الصَّرفة نفسُها ، وكلامُ القرآن في ذاته لا يتضمن فَضيلة على غيره[1] .

ما قيل عن معارضات القرآن :

اتفقَ العلماءُ على أنَّ أحداً لم ينجحْ في معارضةِ القرآن ، لا في وقتِ نزوله ولا بعده ، ولم يسجِّلْ التاريخُ كلاماً لأيِّ إنسانٍ يمكنه أن يعارِضَ به القرآن ، أو أن يصلَ إلى مستواه البيانيِّ ، أو يقتربَ منه .

ولقد وضعَ العلماءُ شروطاً ، يجب توفُّرها في الكلام ، ليكونَ معارِضاً للكلام الآخَر ، وينجحَ صاحبُه في المعارضة .

قال الإمام الخطَّابي في هذه الشروط :

« وسبيلُ مَنْ عارضَ صاحبَه في خطبةٍ أو شعر ، أن : ينشِئ له كلاماً جديداً ، ويُحدثَ له معنى بديعاً ، فيُجاريه في لفظه ، ويُباريه في معناه ، ليُوازَنَ بين الكلامين ، فيُحْكَمَ بالفَلَجِ والغَلَبة ، لمَن أرْبى وتفوَّق منهما على صاحبِه .

وليس بأن يتحيَّف من أطرافِ كلامِ خصمه ، فينسفَ منه ، ثم يبدلَ كلمةً مكان كلمة ، فيصلَ بعضَه ببعض وَصْلَ ترقيعٍ وتلفيق ، ثم يزعمُ أنه واقفُهُ موقِفَ المعارضين »[2] .

ولقد نسبتْ كتبُ التاريخِ والأدبِ لبعضِ المتنبِّئين في جزيرةِ العرب أقوالاً

---

(١) البرهان في علومِ القرآن للزركشيْ ٢ : ٩٤ باختصار .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٥٨

زعَموا بها معارضةً للقرآن ، وصاروا يوردونها ساخِرين ، ويتناقلونَها ويرِوونَها للناس متندِّرين متفكِّهين .

من تلك السخافات ، ما رويَ عن مسيلمة بن حبيب الكذاب قوله : « والمُبْذراتِ زرعاً . والحاصداتِ حصداً . والذاريات قمحاً . والطاحناتِ طحناً . والعاجناتِ عجناً . والخابزاتِ خبزاً . والثاردات ثرداً . واللاقماتِ لقماً . إهالةً وسحنا . لقد فُضِّلْتُم على أهل الوَبَر ، وما سبقكم أهلُ المَدَرْ ، ريفَكم فامنعوه ، والمعترَّ فآووه ، والباغي فناوئوه » .

ومنها قولُه : « يا ضفدعُ يا بنتَ ضفدعين . نقِّي ما تنقِّين . نصفُك في الماء ونصفُك في الطين . لا الماءَ تكدِّرين . ولا الشاربَ تمنعين » .

ومنها قوله : « الفيلُ ما الفيل . وما أدراكَ ما الفيل . له ذنَبٌ وَبيل ، وخرطومٌ طويل » .

ومنها قوله : « إنّا أعطيناكَ الجماهِر ، فصل لربك وجاهِر ، ولا تُطِع كل ساحر »[1] .

وقد نُسِبتْ سخافاتٌ أخرى لمتنبِّئين آخَرين مثل : طليحة بن خويلد الأسدي ، والأسود العنسي ـ عَبْهَلَة بن كعب ـ وسُجاحُ بنت الحارث التميمية ، وغيرهم .

وقد شكَّك المحقِّقون من العلماء في صدور هذه الكلمات عنهم . لأنهم كانوا ـ على كفرهم ـ متقدِّمين في الفصاحة والبلاغة ، ويَعْرفون طاقتَهم وقدرتَهم بالقياس إلى القرآن ، ويوقِنون بعجْزِهم أمامَ القرآن ، ولذلك لم يحاولوا أن يذكروا شيئاً في معارضته .

لقَد كانوا أفصحَ من أن يَقولوا هذا الكلامَ الرَّكيك ، وأعقلَ من أن يحاوِلوا معارضةَ القرآن ، لعلمِهم بعجزِهم البالغِ أمامَه .

ثم إنهم لم يكونوا صادِقين في ادِّعاء النبوة ، وزعْمِ إتِّصالِهم بالسماء ، وتلقيهم كلامَ الله .

(١) انظر هذه العبارات في فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٢٥ ـ ٢٦ .

فأكذبُهم وأكفرُهم مسيلمةُ الكذاب كانَ ذا أَطْماعٍ قوميّة - إذا صح التعبير - ولذلك قال لسُجاح التميمية : هلْ لَكِ أن أتزوجَكِ ، فآكلُ بقومي وقومِك العرب .

وكان قومُه يعلمون كذبه في إدِّعاء النبوة ، ولكنهم كانوا يتابِعونه عصبيةً قبلية . ولهذا قال له طلحة النمري : إنكَ تعلمُ أني أعلمُ أنك كذاب ، لكن كذابَ ربيعة - يعني مسيلمة - أحبُّ إليَّ من صادِقِ مُضرْ - يعني محمداً ﷺ - .

ولذلك صارحهم في معركة اليمامة بأنه ليسَ نبياً ، وأنه كان يكذب عليهم ، عندما قال لهم : أمَّا الدين فلا دين . قوموا قاتِلوا عن أحسابكم[1] .

فالصحيحُ الراجحُ أن هذه العباراتِ لم تصْدُر عن أولئك المتنبئين ، ولم يقولوها ، ولم يرووها لأقوامِهم . وإنما أوردَها الإخباريون من المسلمين ، ووضَعوها على ألسنتهم ، ليسْخَروا منهم ويستهزِئوا بهم وصاروا يوردونها للتَّنَدُّر والتَّفَكُّه . ليس إلّا .

قال الجاحظ : « فلم يَرُمْ ذلك خطيبٌ ، ولا طَمِعَ فيه شاعر ، ولو طمِعَ فيه لتكلَّفه ، ولو تكلَّفه لظهر ذلك ، ولو ظهَر لوُجِد من يَسْتجيدُه ويحامي عنه ، ويكابِرُ فيه ، ويزعُم أنه قد عارضَ وقابلَ وناقض[2] » .

وقال الإمام الخطَّابي : « وإذا أنتَ وقفت على شروطِ المعارضات ورسومِها ، وتبينْتَ مذاهِبَها ووجوهَها ، علمتَ أن القومَ لم يصنعوا في معارضةِ القرآن شيئاً ، ولم يأتوا من أحكامها بشيءٍ بتة . والأمرُ في ذلك بيِّنٌ واضِح ، لا يخفى على ذي مُسْكَةِ ذكاء[3] » .

دلالة تركهم المعارضة إلى القتال :

طلبَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام من الكفارِ معارَضَةَ القرآن ، وطالَبهم أن

---

(١) حول إعجاز القرآن للعماري : ٣٦ - ٣٧ .

(٢) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور : ٢٢١ .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٦٦ وانظر فصل «معارضات القرآن» في رسالة «حول إعجاز القرآن» لعلي العماري : ٢٥ - ٥٦ .

يأتوا بمثلِه أو مثلِ سورة منه . ولكنهم آثروا عدمَ الاستجابةِ لذلك ، وتركوا هذه المعارضة . واختاروا مَعَهُ طريقَ الحرب والقتال . وإتلافِ الأموال ، وإزهاقِ الأرواح .

لقد كان أمامَهم طريقان ، طريقٌ سهل وطريقٌ صعبٌ وعر ، طريقُ اللسانِ والبيان ، وطريقُ السيف والسِّنان ، فعدَلوا عن الطريقِ السهلِ إلى الطريقِ الصعب ، واختاروا القِتال بالسِّنانِ على المعارضة بالبيان .

إن هذا العدولَ والاختيارَ ، لهو أبلغُ حجةٍ وأقوى دليلٍ على وقوفِهم عاجزين أمامَ القرآن ، وعجْزِهم عن معارضته .

قال الجاحظ حول هذا المعنى كلاماً رائعاً :

« بعث الله محمداً ﷺ ، أكثرَ ما كانت العربُ شاعراً وخطيباً ، وأحكمَ ما كانت لغةً ، وأشدَّ ما كانت عدة ، فَدَعا أقصاها وأدْناها إلى توحيدِ الله ، وتصديقِ رسالته ، فدعاهم بالحجّة ، فلما قَطَعَ العذر ، وأزالَ الشبهة ، وصار الذي يمنعُهم من الإقرار : الهوى والحميةُ دونَ الجهل والحيرة ، حَمَلَهم على حظِّهم بالسيف ، فنَصَبَ لهم الحرب . ونَصَبوا له ، وقَتَلَ من عِلْيَتِهم وأعلامِهم وأعمامِهم وبني أعمامهم .

وهو في ذلك يحتجُّ عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أنْ يعارِضوه ـ إن كان كاذباً ـ بسورةٍ واحدة ، أو بآياتٍ يسيرة ، فكلما إزدادَ تحدِّياً لهم بها ، وتقريعاً لعجْزِهم عنها ، تكشَّف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً .

فحين لم يجدوا حيلةً ولا حجة ، قالوا له : أنتَ تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلكَ يمكنُك ما لا يمكنُنا . قال : فهاتوا مفتريات ! .

فلم يَرُمْ ذلك خطيبٌ ، ولا طَمِعَ فيه شاعر . ولو طَمِعَ فيه لتكلَّفه ، ولو تكلَّفه لظهر ذلك . ولو ظهرَ لَوُجِدَ مَنْ يستجيدُه ، ويحامي عنه ، ويكابِرُ فيه ، ويزعمُ أنهُ قد عارَضَ وقابَلَ وناقض .

فدل ذلك العاقلَ على عجزِ القوم ، مع كثرةِ كلامِهم ، واستقامةِ لغتهم ،

وسهولةِ ذلك عليهم ، وكثرةِ شعرائهم ، وكثرةِ من هجاهُ منهم ، وعارضَ شعراءَ أصحابِه وخطباءَ أمَّته ، لأن سورةً واحدةً وآياتٍ يسيرة ، كانت أنقضَ لقوله ، وأفسدَ لأمْره ، وأبلغَ في تكذيبه ، وأسرعَ في تفريقِ أَتْباعه ، مِنْ بَذْلِ النفوس ، والخروجِ من الأوطان ، وإنفاقِ الأموال ، وهذا من جليلِ التدبير الذي لا يَخفى على مَنْ هو دونَ قريش والعرب ـ في الرأي والعقل ـ طبقات .

ولهم القصيدُ العجيبُ ، والرَّجَزُ الفاخر ، والخُطَب الطوالُ البليغة . والقصارُ الموجَزة ، ولهم الأسجاعُ ، والمزدوجُ ، واللفظُ المنثور .

ثم يتحدّى به أقْصاهم ، بعد أنْ ظهَرَ عَجْزُ أدناهم .

فمُحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمعَ هؤلاء ، على الغلطِ في الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البيِّن ، مع التقريعِ بالنقص ، والتوقيفِ على العجز ، وهم أشدُّ الخلق أنفةً ، وأكثرُهم مفاخرةً ، والكلامُ سيدُ عملِهم ، وقد احتاجوا إليه ، والحاجةُ تبعثُ على الحيلةِ في الأمر الغامض ، فكيفَ بالظاهر الجليل المنفعة !

وكما أنه مُحالٌ أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمرِ الجليل المنفعة ، فكذلك مُحالٌ أن يتركوه، وهم يعرفونَه ويجدون السبيلَ إليه ، وهم يبذلون أكثر منه »[1] .

مع محمود شاكر في حقائقه وقواعده حول إعجاز القرآن :

قدَّم الأستاذُ محمود شاكر لكتابِ مالك بن نبي « الظاهرة القرآنية » . وأطلقَ على تقديمِه عنوان « فصلٌ في إعجازِ القرآن » وأوردَ فيه خلاصةً رائعةً نافعةً موجَزةً لإعجاز القرآن ، ودلالتِه على النبوة ، والتحدي والعجز والمعاجزةِ والمعارضة .

وسنلخصُ تلك الخلاصة بعباراتٍ موجزة :

---

(١) علوم القرآن لزرزور : ٢٢٠ ـ ٢٢١ وفكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٢٨ ـ ٢٩ . وراجع كلام الخطابي حول نفس المعنى في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢١ ـ ٢٢ وكلام الزمخشري في الكشاف : ١ : ٨ ـ ١١ .

لا مناصَ لمتكلِّم في « إعجاز القرآن » من أنْ يتبيَّن حقيقتيْن عظيمتيْن قبلَ النظر في هذه المسألة ، وأن يفْصِلَ بينهما فصْلاً ظاهراً لا يَلتبس ، وأن يميِّزَ أوضحَ التمييز بين الوجوهِ المشتركة التي تكون بينهما :

أولاهما : أن « إعجاز القرآن » كما يدلُّ عليه لفظُه وتاريخهُ ، هو دليلُ النبي ﷺ على صدْق رسالتِه ، وعلى أنه رسولُ الله ، يوحىٰ إليه هذا القرآن ، وأن النبيَّ ﷺ كان يعرفُ « إعجاز القرآن » من الوجهِ الذي عرفهُ منه سائرُ مَنْ آمن به مِنْ قومِه العرب .

وأن التحديَّ الذي تَضمنتْه آياتُ التحدي ، إنما هو تحدٍّ بلفظِ القرآن ونظْمِه وبيانِه ، لا بشيءٍ خارجٍ عن ذلك . فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون ، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقُه بعد دهر من تنزيلِه، ولا بعلمٍ ما لا يدركُه علمُ المخاطَبين به من العربَ ، ولا بشيءٍ من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان .

ثانيهما : أن إثباتَ دليلِ النبوة ، وتصديقَ دليلِ الوحي ، وأنَّ القرآنَ تنزيلٌ من عند الله ، لا يكون منها شيءٌ يدلُّ على أن القرآنَ معجز . والكتبُ السابقةُ ليست معجِزة ، بالمعنى المعروف في إعجاز القرآن . وقدْ طولِب العرب بمعرفةِ دليل نبوَّة الرسول وصدْق الوحي ، بمجردِ سَماعهم للقرآنِ نفسِه ، وقد بيَّن اللهُ أن سماعَ القرآن يقودُهم إلى إدراك مُباينَتِه لكلامهم ، وأنه ليس من كلام البشر ، بل كلامُ رب العالمين . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ ، حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمون ﴾ [التوبة : ٦] .

فالقرآنُ المعجزُ هو البرهَانُ القاطعُ على صحةِ النبوَّة ، أمَّا صحةُ النبوة فليستْ بُرهاناً على إعجازِ القرآن .

والخلطُ بين هاتيْن الحَقيقتيْن ، وإهمالُ الفصْل بينهما في التطبيقِ والنظر ، وفي دراسةِ إعجاز القرآن ، قد أفضى إلى تخليطٍ شديدٍ في الدراسة قديماً وحديثاً[1] .

---

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي : ٢٤ ـ ٢٦ بتصرف واختصار

وهاتانِ الحقيقتانِ في فهمِ الإعجاز ، تقودانِ إلى الأُمورِ الهامّةِ التالية ، التي لا غنى لدارسٍ عن معرفتها :

الأول : أن قليلَ القرآن وكثيرَه في شأنِ الإعجاز سواء .

الثاني : أن الإعجازَ ، كائنٌ في رصْفِ القرآن وبيانِه ونظمْه ، ومبايَنَةِ خصائِصِه للمعهود من خصائِصِ كلِّ نظمْ وبيانٍ في لغة العرب ، ثم في سائرِ لغاتِ البشر ، ثم بيانِ الثقلَيْن جميعاً ، إنْسِهِم وجنِّهم متظاهرين .

الثالث : أن الذينَ تحداهم بهذا القرآن ، قد أوتوا القدرة على الفصْلِ بين الذي هو من كلامِ البشر ، والذي ليس هو من كلامِهِم .

الرابع : أن الذينَ تحدَّاهم به ، كانوا يُدْركون أنَّ ما طولِبوا به من الاتيانِ بمثله ، أو بعشْرِسور مثلِه مفتريات ، هو هذا الضربُ من البيانِ ، الذي يجدونَ في أنفسهم أنه خارجٌ من جِنْسِ بيان البشر .

الخامس : أن هذا التحدي لم يُقْصَد به الاتيانُ بمثله ، مطابِقاً لمعانِيه ، بل أن يأتوا بما يستطيعونَ افتراءه واختلاقَه ، من كل معنى أو غرض ، مما يعتلجُ في نفوس البشر .

السادس : أن هذا التحديْ للثقلَيْن جميعاً ، إنسِهم وجنِّهم متظاهرين ، تحدٍّ قائمٌ مستمرٌ إلى يوم الدين .

السابع : أنَّ ما في القرآنِ من مكنونِ الغيب ، ومن دقائقِ التشريع ، ومن عجائبِ آيات الله في خَلْقه ، كلُّ ذلك بمعزِلٍ عن هذا التحدّي المفضي إلى الإعجاز ، وأنَّ ما في القرآن من ذلك يُعَدُّ دليلاً على أنه من عند الله ، ولكنه لا يدلُّ على أن نظمَه وبيانَه مُباينٌ لنظْم كلامِ البشر وبيانِهم ، وأنه بهذه المبايَنَةِ كلامُ رب العالَمين ، لا كلامُ بشرٍ مثلِهم .

وكلُّ لَبْسٍ يقع في ضبطِ هذه الأمورِ المتعلقةِ بمعنى إعجاز القرآن ، وكلُّ اختلالٍ في تمييزِها ، وتحديدِ ما تقتضيه في العقل والنظر ، سبيلٌ إلى إنتشارِ أغمضِ اللَّبْس ، وأبلغِ الخلل في فهمِ معنى إعجازِ القرآن ، من الوجْهِ الذي صار بِهِ القرآنُ

معجزاً للعرب ، ثم لسائرِ البشر على اختلافِ ألسنتهم ، ثم للثقلَيْن جميعاً(١) .

وكونُ الإعجازِ في بيانِ القرآن ، وتحدِّي العرب بالاتيانِ بمثل القرآن في بيانه ، يدل على أنَّ اللغةَ العربية ، قد توفَّرتْ لها مزايا خاصة منها :

أولها : أن اللغةَ التي نزل بها القرآن معجزاً ، قادرةٌ بطبيعتها ، أن تحتمل هذا القدرَ الهائلَ من المفارقةِ بين كلامَيْن : كلامٍ هو الغايةُ في البيان فيما تطيقُه القوى البشرية ـ وهو كلامُ العرب ـ. وكلامٍ يقطَع هذه القوى البشرية ، ببيانٍ ظاهرِ المبايَنة له من كلِّ الوجوه ، ويُعجزُها عن معارضته ـ وهو كلام الله ـ .

ثانيها : أنَّ أهلَهـا قادرونَ على إدراكِ هـذا الحجازِ الفـاصلِ بين الكـلامَيْن ، وأنهم قـد أُوتوا من لـطْفِ تذوُّق البيـانِ قَدْراً وافـراً ، ولذلـك تحـدَّاهم بـالقـرآن ، واستشهدهم على أنه من عند الله .

ثالثها : أن البيانَ في نفوسِهم أجلُّ من أن يخونوا الأمانةَ فيه ، أو يجوروا عن الإنصافِ في الحكم عليه ، لذلك خلَّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ، ثقةً منه بإنصافهم في الحكم على البيان .

رابعها : أنَّ الذينَ اقْتدروا على مثلِ هذه اللغة ، وأُوتوا هذا القـدرَ من تذوُّق البيان ، ومن العلم بأسراره ، ومن الأمانةِ عليه ، ومن ترك الجورِ في الحكم عليه ، يوجبُ العقلُ أن يكونوا قد بلَغوا في الإعرابِ عن أنفسهم ، بألسنتهم المبينَةِ عنهم .

وهذا المزايا والصفاتُ للغةِ العَربيـة وأصحابِهـا تقود إلى هـذيْن الأمريْن فيمـا خلَّفوه لنا من تراثٍ أدبيٍ وبياني :

الأول : أنه شاهدٌ على بلوغِ لغتهم غايةً من التمام والكمال والاستواء .

الثـاني : أن تجتمعَ فيـه ضروبٌ مختلفـةٌ من البيانِ ، تـدلُّ على سعـةِ اللغـةِ وتمامها ، وعلى سجاحتِها واستقامتِها ، بحيث تلين لكل بيانٍ تطيقُه ألسنةُ البشر(٢) .

---

(١) المرجع السابق : ٣٠ ـ ٣١ باختصار

(٢) المرجع السابق : ٣٢ ـ ٣٣ باختصار

المبحث التاسع

« مكمن الإعجاز ووسائل إدراكه »

مكمن الإعجاز :

حتى نعرفَ مكمنَ الإعجاز ، لا بدَّ أن نبحثَ في السورِ القصيرةِ التي كانتْ من أوائلِ ما نزَلَ في مكة ، والتي أثَّرتْ في السامعين مؤمنين وكافرين .

قال سيد قطب حولَ هذا المعنى : « يجبُ أن نبحثَ عن «منبعِ السحرِ في القرآن» قبل التشريعِ المحكَم ، وقبل النبوءةِ الغيبية ، وقبلَ العلوم الكونية ، وقبل أن يُصبحَ القرآنُ وحدةً مكتملة تشملُ هذا كله . فقليلُ القرآن الذي كان في أيامِ الدعوة الأولى كان مجرَّداً من هذه الأشياءِ التي جاءَتْ فيما بعد ، وكان مع ذلك مُحْتوياً على هذا النبعِ الأصيل الذي تذوَّقه العرب »[1] .

إن الإعجازَ يكمنُ في أسلوبِ القرآن وبيانِه وبلاغتِهِ وفصاحتِهِ . وكما قال سيد قطب « لا بدّ أنه كامنٌ في صميمِ النَّسَقِ القرآني ذاتِه »[2] .

لقد أعجزَ القرآنُ العربَ ببيانِه ، وسيطرَ عليهم بأسلوبه ، وملك قلوبَهم بفصاحتِه ، وبهرهم ببلاغته ، ولذلك أثَّر فيهم جميعاً ـ مؤمنين وكافرين ـ هذا التأثير ، وصاروا يستمعون اياتِه مبهورين .

وبما أن الإعجاز يكمنُ في فصاحةِ القرآن وبلاغتِه وبيانِه ، فكم هم خطِرونَ

(١) التصوير الفني في القرآن : ١٦

(٢) المرجع السابق : ١٧

خبثاءُ ماكرون ، أولئك الذين يشكِّكون في البيانِ العربي الفصيح البليغ ، المتمثِّل في الشعرِ الجاهلي . لأن تشكيكهم يقودُ إلى إبطال إعجاز القرآن البياني ـ كما سبق أن بيناه ـ .

الإعجاز في النوع لا في المقدار :

تساءَل مسلمونَ سابقونَ عن مقدارِ المعجزِ من القرآن، فاختَلَفوا في تحديدِ مقداره ، وفي تحديدِ « الكَمّ » المطلوبِ في التحدي . لأنهم ظنوا أن الإعجاز هو في مقدارِ سورةٍ طويلةٍ ـ أو قصيرة ـ وأقاموا الأدلةَ على توفُّر الإعجاز في أقصرِ سورة ، وهي سورة الكوثر .

وهذا الخلافُ لا داعيَ له ، لأن الإعجازَ إنما هو في الروحِ العامةِ التي تسْري في نصوص القرآنِ كلِّها ، وتوجَد في سورِه الطويلةِ والقصيرة ، وآياتِه الطويلة والقصيرة ، وفي كلماتِه أيضاً وحروفه .

إن كلَّ سورةٍ فيه معجزة ، وإنَّ كلَّ آيةٍ فيه معجزة ، وإن كلَّ كلمةٍ فيه معجزة ، لأنها سَرَتْ فيها تلك الروحُ القرآنيةُ المعجزة الحية .

إن روحَ القرآنِ الساريةِ في نصوصه ، تكادُ تشبهُ روحَ الإنسان السارية في بدنِه . فأنت لا تستطيعُ تحديدَ العضوِ الذي توجَد فيه الروح ، لأن كلَّ أعضاءَ البدنِ حيةٌ طالما الروحُ في الإنسان ، ولكن تلكَ الأعضاء كلُّها تصبحُ ميْتة هامدةً عند خروج الروحِ من الإنسان . وأيضاً إن يدَ الإنسان ـ مثلاً ـ حية ، طالَما هي جزءٌ من بدنِه ، تسري فيها روحُه ، لكنها قطعةُ لحمٍ وعظمٍ ميتة عندما تُقطع منه وتُلْقَى جانباً .

آياتُ القرآن وسورُه معجزة ، وكلماتُ القرآن ومفرداتُه وألفاظُه معجزة ، لأنها في سورِه وآياتِه ، تسري فيها روحُه . بينما تلك الكلماتُ والمفردات والألفاظُ نفسُها توجَد في اللغة العربية ، ويستخدمُها العرب في كلامهم ، وهي عندَهم ليست معجِزة ، لأنها لا تتمثَّلُ فيها الروحُ القرآنية .

الإعجازُ إذنْ في نوعِ الكلام ومستواه ، لا في حجمِه وكَمِّه ومقداره . والتحدِّي كان بنوع القرآن ومستواه ، لا بحجمِه ومقدارِه ، والعجزُ كان عن النوعِ لا عن

المقدار ، فالإعجازُ إنما هو في النوعِ لا في المقـدار ، وعندئـذٍ يستوي كـلُّ القرآن وبعضُه ـ ولو آيةٌ واحدةٌ منه ـ في تمثّل الإعجاز فيه .

وقد سُئل « بندارُ الفارسي » المتكلِّم عن موضعِ الإعجازِ من القرآن . فقال : هذه مسألـةٌ فيها حيْفٌ على المعنى . وذلـك شبيهٌ بقـولك : مـا موضـعُ الإنسانِ من الإنسان ؟ فليس للإنسانِ موضعٌ من الإنسان ، متى أشرتَ إلى جملته فقـد حقّقْتَه ، ودللتَ على ذاته . كذلك القرآنُ ، لا يُشار إلى شيء منه ، إلا وكانَ ذلك المعنى آيةً في نفسه ، ومعجزةً لمُحاوِله ، وهدى لقائله »[1] .

تحليل بياني موجز لسورة الكوثر :

سورةُ الكوثر هي أقصرُ سورةٍ في القرآن .

وقد جعلَها العلماءُ مثالاً لتـوفرُّ الإعجـازِ ووجودِه في كـلِّ سورِ القـرآنِ الطويلةِ والقصيرة . فحلَّلوها تحليلاً فنيّاً بيانيّاً ، وبيَّنوا أهمَّ ما في آيـاتِها الثـلاثِ من أساليبِ البيان .

ومن أوّلِ مَن فعلَ ذلك الإمامُ جارُ الله الزمخشري ، حيث كَتَبَ في ذلك رسالةً خاصة .

وقد أطلعَ على رسالتِه الإمامُ فخر الدين الـرازي ، فلخَّصها في خـاتمةِ كتـابهِ « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » . حيثُ استخرجَ من آيتها الأولى ثماني فـوائد ، ومن آيتها الثانية ثماني فوائد ، ومن آيتها الثالثة خمسَ فوائد[2] .

وجاءَ بعده الإمامُ ابنُ القيم ، فاطَّلع على كلامه ، وأوردَه في كتـابه « الفـوائدُ المُشَوِّقُ إلى علوم القرآن » .

ونورد فيما يلي خلاصةَ تحليلِ ابنِ القيم لسورة الكوثر ، الذي أخذهُ عن فخر الدين الرازي :

قال : « سورةُ الكوثرِ أقصرُ سورة ، وفيهـا من الألفاظِ البـديعة الـرائعة ، التي

---

(١) فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٥٩ ـ ٦٠

(٢) : نهاية الإيجاز للرازي : ١٩٠

اقتضتْ بها أن تكونَ مبهجة ، والمعاني المنيعةِ الفائقةِ التي اقتضت بها أن تكون معجزة ، أحدٌ وعشرون .

ثمانيةٌ في قوله ﴿ إنا أعطيْناكَ الكَوْثَر ﴾ وثمانية في قوله ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ وخمسة في قوله : ﴿ إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَر ﴾ .

فالأول من الثمانية الأولى : كلمة ﴿ الكوثر ﴾ تدلُّ على الخيرِ الكثيرِ له ولعَقِبِهِ .

الثاني : جَمْعَ ضميرَ المتكلم : ﴿ إنّا ﴾ وهو يشعرُ بعظمةِ الربوبيةِ .

الثالث : بُنِيَ الفعل الذي هو خبرٌ على المبتدأ : ﴿ إنا أعطيناك ﴾ ليدلَّ على خصوصيةٍ وتحقيق .

الرابع : بدأ الآيةَ بحرف التوكيد ﴿ إنَّ ﴾ الذي يَجْري مجرى القسم .

الخامس : عبَّر عن الإعطاءِ بالفعل الماضي ﴿ أعطيناك ﴾ ليدلَّ على أن الكوثرَ لم يشمل العاجلة دون الآجلة .

السادس : جاءَ بالكوثر محذوفَ الموصوف ﴿ الكوثر ﴾ للعمومِ والشمول ، ليشملَ كل صورِ وأنواعِ الخيرِ الكثير في الدنيا والآخرة .

السابع : اختيارُ كلمة ﴿ الكوثر ﴾ وهي صفةٌ تدلُّ على الكثرة .

الثامن : إدخالُ الألف واللام على ﴿ الكوثر ﴾ لتدلَّ على الشمولِ والاستغراقِ والكثرة .

أما الثمانية في الآية الثانية ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ فهي :

الأول : فاءُ التعقيب ﴿ فصلِّ ﴾ تدل على السببية ، حيث أفادتْ جعْلَ النعمِ الكثيرة سبباً إلى شكر المنعِم .

الثاني : تَرْكُ المبالاة بقول العدوّ ، الذي قال إن الرسول ـ عليه السلام ـ أبترٌ لا عَقِبَ له .

الثالث : فعلُ الأمرِ في قوله ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ تعريضٌ بالكفار ، الذين صلاتُهم وعبادتُهم ونحرُهم لغير الله . كما أن فيه تثبيتاً للنبي ﷺ .

الرابع : الأمرُ بالصلاة والنحر إشارةٌ إلى العبادتيْن : البدنيةِ في الصلاة ، والماليةِ في النحر .

الخامس : حذفُ الجارِّ والمجرور في قوله ﴿ وانحر ﴾ لدلالةِ ما ذُكِرَ عليه . أي انحر لربك .

السادس : في الآيةِ الثانية مراعاةٌ للسجع مع الآيةِ الأولى ، بدون تكلُّف .

السابع : في قوله : ﴿ لِربِّكَ ﴾ التفات من الخطابِ للغيبة. وصرف الكلام من المضْمَرِ إلى الاسم الظاهر. وفيه إظهارٌ لكبرياء الله .

الثامن : عرَّضَ بالذين لا يعبدونَ اللهَ ربَّهم ، ولا يلتمسون العطاءَ منه سبحانه .

وأما الخمسةُ التي في الآيةِ الثالثة : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ فهي :

الأول : كأَنَّ هذه الآيةِ تعليلٌ للأمرِ بالصلاةِ والنحر في الآية السابقة ، حيثُ يقبلُ على المطلوبِ منه ، ويترك شانِئَه .

الثاني : وردتْ هذه الآيةُ ، كأنها جملةُ الاعتراض ، مرسلةٌ إرسالَ الحكمة التي تحكمُ الأغراض . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] والشانىءُ هو العاصُ بنُ وائل ، الذي عيَّر الرسول عليه السلام بموتِ أولاده .

الثالث : لم تُسمِّ الآيةُ ذلك المبغضَ الكافرَ ـ العاصَ بنَ وائل ـ باسمه ، ليتناوَلَ كلَّ كافر شانىءٍ مبغِض .

الرابع : صُدِّرَت الآيةُ بحرفِ ﴿إنَّ﴾ الذي يدلُّ على التوكيد، ويجري مجرى القسم . وعَبَّرَ عن خصْمِ النبي ﷺ بالشانىءِ ، ليدل على أنه مُعرِضٌ غيرُ صادق .

الخامس : جَعَلَ الخبرَ ﴿ هو الأبتر ﴾ معرفةً ، حتى كأنهُ هو دونَ غيرِه الأبتر الذي لا عَقِبَ له .

فسورةُ الكوثر ـ مع علوِّ مطلعها ، وتمامِ مقْطَعِها ، واتِّصافها بما هو طرازُ الأمر

كلُّه من مجيئها - مشحونةً بالنكتِ الجلائلِ ، مكتنزةٌ بالمحاسن غيرِ القلائل ، خاليةً من التصنُّع والتكلُّف[1] .

هل يمكن إدراك إعجاز القرآن : *

هل يمكن معرفةُ إعجازِ القرآن أم لا ؟ وهل إدراكُه ومعرفتُه تنقضُهُ وتلغيه ؟

إن إدراكَ الإعجازِ ممكنٌ ، بل هو مطلوب .

قال الإمامُ عبدُ القاهر الجَرجـانيّ : « فإذا كنتَ لا تشـكُّ في أَنْ لا معنى لبقاءِ المعجزة بالقرآنِ ، إلاَّ أنَّ الوصفَ الذي له كان معجزاً ، قائم فيه أبداً ، وأنَّ الطريقَ إلى العلم به موجود ، والوصول إليه ممكن . فانظر أيَّ رجل تكون أنت ، إذا زهدتَ في أن تعرف حجةَ الله تعالى ، وآثَـرتَ فيها الجهلَ على العلم ، وعدمَ الاستبانة على وجودها ، وكان التقليدُ فيه أحبَّ إليك ، والتعويلُ على علم غيرك آثَرَ لدينك »[2] .

وقال الإمام السكاكي : « واعلمْ أن شأنَ الإعجـاز عجيب ، يُدْرَك ، ولا يمكن وصفُه ، كاستقامةِ الوزن ، تدْرَك ولا يمكن وصفُها ، وكالمَلاحة »[3] .

من وسائل إدراك الإعجاز

١ - البلاغة والبيان :

من أهمِّ وسـائلِ إدراكِ الإعجاز البلاغـةُ ، بـأن يتمكَّن البليـغُ منهـا ، ويتقنَهـا ويمارسَها ، ويفهمَ أساليبَها وفنونَها ، ويلاحظَ توفُّرَ تلكَ الأساليبِ والفنون في نصوص القرآن المعجزة .

يقـولِ الإمـام السَّكَّـاكي : « إن وجـهَ الإعجـازِ هـو أمـرٌ من جنسِ البـلاغـةِ والفصاحة ، ولا طريق لكَ إليه إلاّ بعدَ طولِ خدمةِ هذين العِلْمَين - المَعاني والبيان - بعدَ فضلِ إلهي ، من هبةٍ يهبُها بحكْمِه من يشاء ، وهي النفسُ المستعـدَّةُ لذلـك . فكلٌّ ميَسَّرٌ لما خُلِق له »[4] .

---

(١) انظر «نهاية الإيجاز» للرازي : ١٩٠ - ١٩٢ . و«الفوائد المشوق إلى علوم القرآن» لابن القيم : ٢٥٣ - ٢٥٥ وقـارن بينهما . وانظر فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ١٤٤ - ١٤٦

(٢) حول إعجاز القرآن لعلي العماري : ١٦

(٣) فكرة إعجاز القرآن : ١٠٧ .

(٤) المرجع السابق : ١٠٧

ويقولُ في موضع آخر : « وفيما ذكرْنا ما يُنبِّهُ على أنَّ الوقوفَ على تمَامِ مرادِ الحكيم ـ تعالى وتَقَدَّس ـ من كلامه ، مفتقـرٌ إلى هذيْنِ العِلْمين ـ المعـاني والبيان ـ كلَّ الإفتقار ، فالويلُ لمَنْ يَتَعاطى التفسيرَ ، وهو فيهما راجِلٌ »[1] .

أمـا ابنُ خلدون فقـد جَعَـلَ ثمـرة علم البـلاغـة والبيـان ، هي فهمُ وإدراكُ الإعجـاز . قـال : « واعلمْ أن ثمـرةَ هـذا الفنِّ ـ البيـانِ ـ إنَّمـا هـو في فهم إعجـاز القرآن » .

٢ ـ الذوق :

الذوَق هو قوةٌ يُقدَّر بها العملُ الفني ، وهو استعداد فطريّ ، يقْدِر بـه صاحبـه على تقـديرِ الجمـال والاستمتاعِ بـه . والـذوقُ في أصله هبـةٌ من الله ، لكن يمكن ترقيته . وهو مزيجٌ من العقلِ والعاطفةِ والحسِّ والشعور .

قـال الإمامُ السَّكّـاكي عن الذوق كـوسيلةٍ لإدراك الإعجاز : « واعلمْ أنَّ شـأنَ الإعجـازِ عجيب ، يُدْرَك ، ولا يمكنُ وصْفُـه ، كاستقـامةِ الـوزنِ ، تُـدْرَك ولا يمكن وصفُها ، وكالمَلاحة .

ومَدْرَكُ الإعجاز عندي هو الذوق ، وليس إلاّ . وطريقـةُ الذوق خـدمةُ هـذيْن العِلْمَين ـ المعاني والبيان ـ »[2] .

وقال الإمامُ الخطَّابي : « ذهب الأكثرونَ من علماء النظرِ إلى أن أوجهَ الإعجاز في القـرآن من جهةِ البـلاغة ، لكنْ صَعُبَ عليهم تفصيلُهـا ، وصَغَوْا فيـه إلى حكم الذوق »[3] .

وقال العلاّمة ابن خلدون : « واعلمْ أنَّ ثمرةَ هذا الفن ـ البلاغة ـ إنما هو فهمُ الإعجاز في القرآن . . . وهذا هو الإعجازُ ، الذي تقصرُ الأفهامُ عن إدراكه ، وإنما يُدْرِك بعضَ الشيء منه ، مَنْ كان له ذوق . بمخالطةِ اللسانِ العربي وحصول ملَكته ، فيدْرِك من إعجازه على قدر ذوقه »[4] .

---

(١) حول إعجاز القرآن : ١٣

(٢) فكرة إعجاز القرآن : ١٠٧ .

(٣) حول إعجاز القرآن : ١٨

(٤) المرجع السابق : ١٧

٣ ـ النقد :

النقدُ هو الـوسيلةُ الثالثـة لإدراك إعجاز القـرآن ، وذلك بـأن يتزود النـاظرُ في الإعجازِ بثقافةٍ نقدية عالية . يمارس فيهـا فنَّ التفكير ، وفنَّ القـول ، وفَنَّ التعبير ، ويطَّلعُ على نتـاجِ وأعمـالِ المفكـرين والكـاتبين من البشـر ، ويـرى تفـاوتَهـا في مستوياتِها ، ثم يطلعُ على القرآن ، في أسلوبِه وموضوعاتِه ، فإذا به مُتناسقٌ متناسب بدون تفاوت ولا اضطراب .

وقد دَعانا القرآنُ للتفكُّر والتدبُّر فيه ، لنخرج منه بهذه النتيجة ، حيث وردَ فيه قولُه : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآنَ ؟ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدوا فيهِ اخْتلافاً كثيراً** ﴾ [النساء : ٨٢] .

قَالَ سيد قطب في تفسيرِه لهذه الآية : « تتجلَّى هـذه الظاهـرة . ظاهـرةُ عدم الاختلاف . أو ظاهرةُ التناسق . . إبتداء في التعبير القرآني من ناحيةِ الأداءِ وطرائقِه الفنية .

ففي كلامِ البشر تبدو القممُ والسفوح ، التوفيقُ والتعثر ، القـوة والضعف ، التحليقُ والهبوط ، الرفرفةُ والثقلة ، الإشراقُ والإنطفاء . . إلى أواخرِ الـظواهر التي تتجلَّى معها سماتُ البشر . وأخصُّها سمةُ « التغير » والاختلافُ المستمرُّ الـدائمُ من حال إلى حال .

يبدو ذلك في كلامِ البشر واضحاً ، عندما تستعرضُ أعمالَ الأديبِ الواحد ، أو المفكـرِ الواحـد ، أو الفنانِ الـواحد ، أو السيـاسي الواحـد ، أو القائـدِ العسكـري الواحد . .

هذه الظاهرةُ ، واضحٌ كلَّ الوضوح ، أن عكْسَها ، وهو : الثباتُ ، والتناسقُ ، هو الظاهرةُ الملحوظةُ في القرآن . فهنـاك مستوى واحـدٌ في هذا الكتـاب المعجز ـ تختلفُ ألـوانُه بـاختلافِ المـوضوعـات التي يتناولهـا ـ ولكن يتَّحدُ مستـواه وأفقـه ، والكمالُ في الأداء بلا تغيرٍ ولا إختلاف من مستوى إلى مستوى »[1] .

---

(١) الظلال ٢ : ٧٢١ باختصار .

ويقول سيد قطب أيضاً : « والذينَ يزاولـونَ الشعور ويـزاولون التعبيـرَ من بني البشر، يدرِكون جيِّداً حدودَ التصوُّر البشري، وحدودَ التعبير البشري ، ويعلمون ـ من تجربتهم البشريـةِ أن بعضَ المشاهِـد القرآنيـة ، لا تخطرُ هي ولا التعبيـرُ عنها على القلبِ البشريِّ إطلاقاً. والّذين يُمارون في هذا، فعليهم أن يراجِعوا قولَ البشر كلّه ، ليروْا إن كانوا قد اتجهوا هذا الإتجاه »[1] .

ويقول في موطن آخر : « وقد ثبتَ هذا التحدي ، وثبتَ العجزُ عنه ، وما يزال ثـابتاً ، ولن يـزالَ . الـذي يـدركونَ بـلاغةَ هـذه اللغة ، ويتـذوَّقون الجمـالَ الفني والتناسقَ فيها ، يدرِكونَ أن هذا النسقَ من القولِ لا يستطيعُه إنسان .

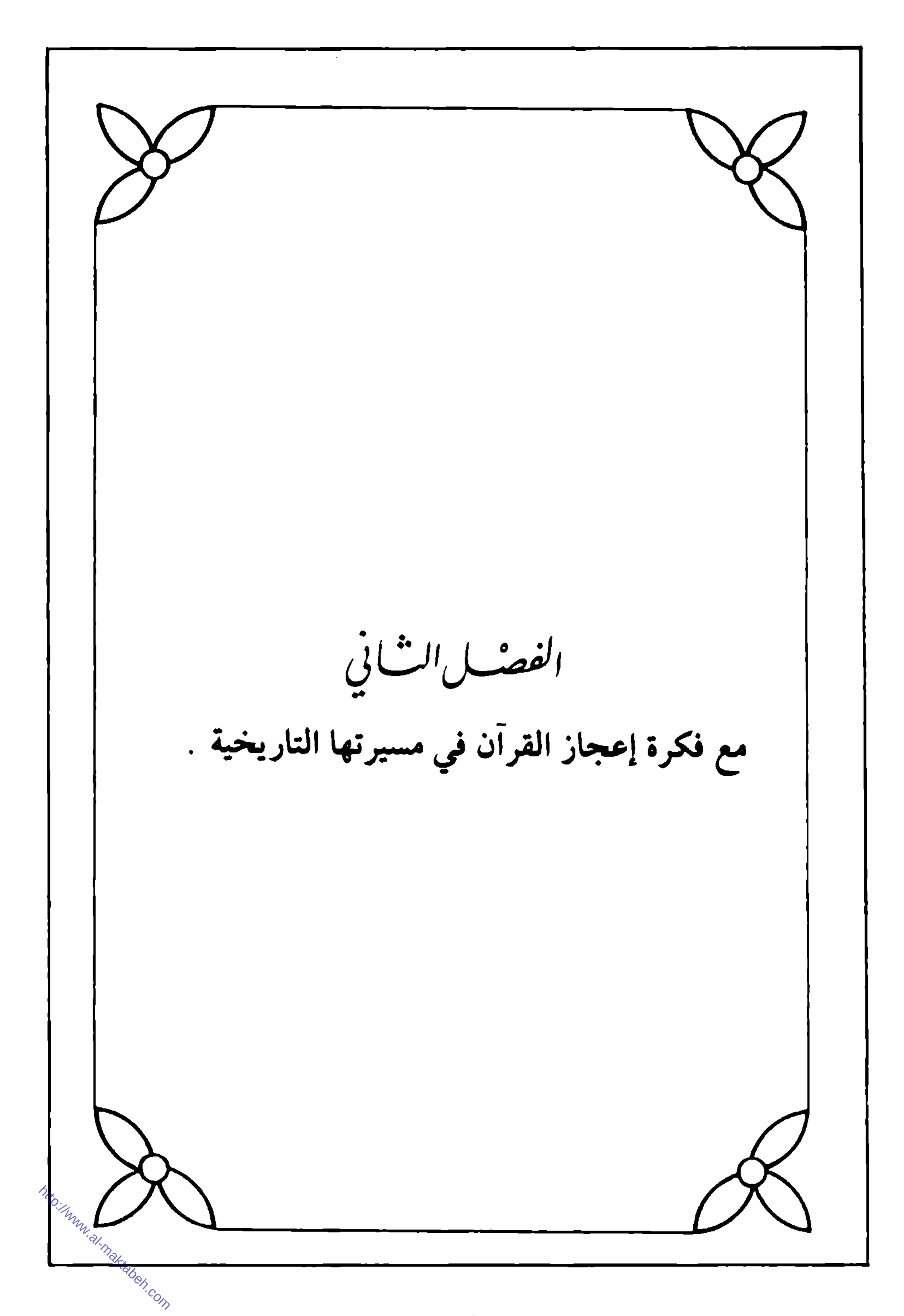
فليسَ هـو إعجـازُ اللفظِ والتعبيـرِ وأسلوبِ الأداء وحـدَه ، ولكنـه « الإعجـاز المـطلَق، الذي يلمسُـه الخبراءُ في هـذا، وفي النظمِ والتشـريعاتِ والنفسيَّـات، وما إليها . . والذين زاولوا فنَّ التعبيرِ ، والذين لهم بصرٌ بالأداء الفني ، يدركون أكثرَ من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجازٍ في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكيرَ الإجتمـاعيَّ والقانـونيَّ والنفسيَّ والإنسانيَّ يـدركونِ أكثـرَ من غيرهم مـدى الإعجـازِ الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً »[2] .



---

(١) المرجع السابق ٢ : ١١١٣ .

(٢) المرجع السابق ٣ : ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦ باختصار



الفصل الثاني

مع فكرة إعجاز القرآن في مسيرتها التاريخية .


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المعجزة والإعجاز :

قلنا إنَّ « إعجازَ القرآن » وسيلةٌ وطريقـةٌ إلى إثباتِ النبـوَّة ، وآيةٌ للنبيِّ - ﷺ - على أنَّ القرآن وحيٌ من الله . وإثباتُ إعجازِ القرآن إثباتٌ لمصدر القرآن الرباني .

أي : أنَّ إعجاز القرآن هو معجزةُ النبي - ﷺ - .

إن أساسَ الأمر في الإعجاز ، ومبدأ الكلام حولَه ، هو الكلامُ حول المعجزة .

فـالمعركـةُ الجدليـة بين النبي - ﷺ - وبين الكفار ، هي إثبـاتُ نبوَّتِـه ، وكان القرآنُ هو معجزةُ النبوة وآيتُها ودليلُها ، فلما زعموا أن القـرآنَ كلامُ الـرسول - عليـه الصلاة والسلام - وأنهم يقْدرون على الإتيان بمثله لو أرادوا، تحدَّاهم النبي ﷺ بأن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه . وكان الهدفُ من التحدي إثباتُ النبوة ومصدرِ القرآن .

فلما عجزَ الكفارُ عن المعارضة ، ثبتَ لهم أن القرآنَ ليسَ من كلام البشر ، بل من كلامِ الله ، وثبتَ لهم أن القرآنَ هو معجزةُ النبي ﷺ وآيتُه .

وبذلك ثبتتْ معجزةُ النبي عليه الصلاة والسلام . وأيقنَ المسلمون والكافرون جميعاً أن القرآنَ هو المعجزة ، وأن البشرَ عاجزونَ عن معارضته .

وبقي الأمرُ على هذه الصورةِ في حياة الصحابة والتابعين ، فكان دليلُهم على نبوة النبي هو القرآن ، وإثباتَ أنه معجزة .

ولم يقفوا ليتدبّروا في مظاهرِ الإعجاز في هذه المعجزة ، ولا في وجوهِه وألوانِه وأنواعِه .

واستمرَّ الأمر على هذا ، طيلةَ القرنيْن الأول والثاني الهجريَّيْن ، لم ينتقل أحد من العلماء من الكلام عن المعجزة إلى الإعجاز .

وفي مطلعِ القرنِ الثالث ، جدَّت على الفكرِ الإسلاميّ أمور ، دعتْ علماءَ المسلمين إلى الوقوفِ أمامَ القرآن المعجزة ، وطابَ لعلماءَ أعلامٍ أن يتأمَّلوا هذه المعجزة ويتدبَّروها ، ويلاحظوا ما فيها من إعجاز .

ومن يومِها بدأ النظرُ في « إعجازِ القرآن » والكلامُ حوله ، حيث أقبل علماءُ اللغةِ والأدبِ والبلاغةِ والتفسيرِ والكلامِ على القرآن المعجزة ، كلٌّ ينظرُ فيه من زاويتِه الخاصة ، ووِفْقَ تخصُّصه العلمي . وتتابعت النظراتُ الفاحصةُ النافذةُ على أسلوبِ القرآن وعلى معانيه وعلومِه وموضوعاتِه وأخباره .

وكلُّ هذه النظراتِ والدراساتِ والمؤلفاتِ تجيبُ على هذه الأسئلة : لماذا كان القرآنُ معجزاً للبشر ؟ وما هو وجْهُ الإعجازِ فيه الذي تحدّى به الرسولُ عليه السلام الكافرين ؟ وما الذي طلبهُ منهم في التحدي وعجزوا عن الإتيانِ به ؟ ولِمَنْ كان التحدي ؟ وهل التحدي والإعجازُ مستمران أم لا ؟ وهل هناكَ وجوهٌ وأنواعٌ أخرى للإعجاز غيرُ الوجه الذي كان به التحدي ؟ وما هي نماذجُها والأمثلةُ عليها في نصوص القرآن ؟

وتتابعت الدراساتُ واستمرتْ طيلةَ التاريخ الإسلامي ، وتنوعت النظرات ، واختلفت « المدارس » في بحث الإعجاز ، وأُلِّفت الكتبُ العديدةُ الكثيرة فيه .

وما زالت النظراتُ في أسلوب القرآن وبيانِه وبلاغتِه ، وفي موضوعاته ومعانيه وعلومه وتشريعاته ونظمه ، تَتْرى وتتتابع .

المهمُّ أن هذهِ النظراتِ والدراسات ، منذ القرن الثالث وحتى هذا القرن ـ الخامس عشر ـ إنتقلتْ من بحثِ المعجزة باعتبارِها معجزة ، إلى بحث لماذا كانت معجزة ؟ وما هي وجوه الإعجاز في هذه المعجزة ؟

وبهذه الدراسات إنتقلَ « إعجازُ القرآن » ليكون علْماً مستقلاً ، متخصِّصاً في الدراساتِ البيانيةِ والموضوعيةِ للقرآن الكريم . وقدَّم العلماءُ الدارسونَ فيه ، الكثيرَ الكثيرَ من النظرات واللطائف والإضافات العلمية النافعة[1] .

الإعجاز حتى القرن الرابع

سوفَ نعتمدُ في هذا ـ بعد الله سبحانه ـ على دراسةِ السيد نعيم الحمصي « فكرةُ إعجازِ القرآن : منذُ البعثةِ النبويَّة حتى عصرِنا الحاضر . مع نقد وتعليق » .

وقد خصَّصَ الحمصيُّ كتابَه لتلخيص مسيرةِ فكرةِ الإعجاز التاريخية ، وتقديمِ أهمِّ الآراءِ لأشهرِ العلماءِ في الإعجاز ، من خلال كتبهم ودراساتِهم ومؤلفاتِهم .

وسوف نوردُ خلاصةً موجزةً جداً لآراء أشهر العلماء ، ونحيلُ القارىء على ذلك الكتابِ ليستكملَ الموضوع منه .

لم يتكلم العلماءُ عن الإعجاز في القرنيْن الأول والثاني ، ولم تَرِدْ في كلامهم كلمةُ « معجزة » أو « إعجاز » كما سبق أن قلنا .

وبدأ الكلامُ عن الإعجاز في بدايةِ القرنِ الثالث ، كما سبقَ أن قُلنا ـ أيضاً ـ .

وممَّنْ نُسِبَ له القولُ بإنكارِ الإعجاز في هذا القرن ابنُ الراوندي الملحد ، وعيسى بن صبيح المزدار ـ راهب المعتزلة الزاهد ـ .

وفي هذا القرن قالَ « إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام » بالإعجاز في الصرفة ، ولكن ردَّ عليه تلميذُه المعتزليُّ الجاحظ ، وأثبتَ فيهِ الإعجازَ البيانيَّ القرآني ، وألَّف كتاباً سمّاه « نظم القرآن » لكنه لم يصلنا ، وفُقِد فيما فقد من كتب التراث .

وتكلم عن الإعجاز في هذا القرن « عليُّ بنُ رَبْنِ الطِبري » في كتابه « الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ » وقد وقفْنا مع الطبري وكتابه وقفةً قصيرة فيما سبق ، وكتابُه من أهم الكتب وأجودِها في هذا الأمر .

---

(١) خلاصة الفكرة التي عرضها فضيلة أستاذي الدكتور أحمد حسن فرحات . أثناء تدارسي الموضوع معه .

الإعجاز في القرن الرابع :

بدأ الكلام في هذا القرن يأخذ طابع التَّقْعيد والتنظيم والترتيب . حيث تكلمَ عنهُ أبو الحسن الأشعري ، وبندار الفارسي ، وأبو جعفر بن جرير الطبري ـ المفسرُ المؤرخُ الفقيه ـ والمفسِّرُ الحسن بن محمد القميّ ، وأبو هلال العسكري .

وفي هذا القرن ألَّفَ محمدُ بنُ يزيدِ الواسطي المعتزلي أولَ كتاب في إعجاز القرآن . ولكنَّ الكتاب مفقودٌ منذ زمن طويل .

وأشهرُ مَنْ تكلَّم فيه عن الإعجاز الرُّمَّاني والخطابي .

والرماني هو الأديب المعتزلي « علي بن عيسى » ألَّفَ كتاباً في الإعجاز سماه « النكت في إعجاز القرآن » . وقد حقَّقه الدكتور محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ، ونشراه مع كتابَي الخطابي والجرجاني ، في كتاب « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » عام ١٩٥٦ .

ووجوهُ الإعجازِ عنده تظهر من سبعِ جهات : « تركُ المعارضة مع توفرِ الدواعي وشدةِ الحاجة . والتحدي للكافة . والصرفة . والبلاغة . والأخبارُ الصادقة عن الأمور المستقبلة . ونقضُ العادة . وقياسُه بكل معجزة »[١] .

ووقفَ وقفةً مطوَّلة أمامَ الإعجازِ البلاغي في القرآن ، عَرَض فيه أقسامَ البلاغةِ العَشَرة ومثَّل لها بآيات من القرآن .

لكنه بدأ كتابه بتقسيم البلاغة إلى ثلاث طبقات :

١ ـ أعلى طبقة : وهي بلاغةُ القرآن المعجزة ، وهي خاصة به ، لا يصلُها كلامُ أيُّ مخلوق .

٢ ـ أوسطُ طبقة : وهي ممكنةٌ للناس ، وهي كلامُ البلغاء الفصحاء منهم .

٣ ـ أدنى طبقة : وهي كلامُ عامة الناس[١] .

وأما الخطابي ـ وهو أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم ، الأديب اللغوي

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٧٥

(٢) المرجع السابق : ٧٥ ـ ٧٦

المحدث ـ فقد ألَّف رسالته « بيان إعجاز القرآن » وحقَّقها خلف الله وزغلول سلام .

وقد ركَّز الخطابيُّ على الإعجازِ البيانيِّ اللغويِّ البلاغيِّ في القرآن . وجعل الخطابيُّ أقسامَ الكلامِ البليغِ الفاضلِ المحمودِ ثلاثة :

١ ـ البليغُ الرصينُ الجَزْل . وهو أعْلى طبقات الكلام .
٢ ـ الفصيحُ القريبُ السَّهل . وهو أوسط طبقات الكلام .
٣ ـ الجائزُ الطَّلْقُ الرَّسْل . وهو أدنى وأقرب طبقات الكلام .

وهذه الأقسامُ الثلاثةُ متوفرةٌ في أسلوبِ وبلاغة القرآن . ووجودُها مجتمعةً في القرآن بدونِ تنافرٍ أو تناقضٍ ، مظهرٌ آخرُ من مظاهر إعجاز القرآن .

ثم بينَّ أنَّ الكلامَ البليغَ يقومُ على ثلاثة أشياء :
١ ـ لفظٌ حامل .
٢ ـ معنى به قائم .
٣ ـ رِباطٌ لهما ناظم .

وقال : « إنَّ القرآنَ إنمَّا صار معجزاً : لأنه جاءَ بأفصحِ الألْفاظ ، في أحسنِ نظومِ التأليف ، مُضَمَّناً أصحَّ المعاني »[1] .

وختمَ الخطّابي كتابَه بالإشارة إلى إعجازِ القرآن بالتأثير ، فقال : « قلتُ في إعجازِ القرآنِ وَجْهاً آخر ذهبَ عنه الناس ، فلا يكادُ يعرفَهُ إلاّ الشاذُّ من آحادِهم . وذلك : صنيعُه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمعُ كَلاماً غيرَ القرآن ، منظوماً ولا منثورا ، إذا قرعَ السمْع خَلَصَ له إلى القلب من اللَّذَّةِ والحلاوة بحال ، ومن الرَّوْعَة والمهابة في أخرى ، ما يَخْلُص منه إليه ، تستبشرُ به النفوس ، وتنشرحُ له الصدور ، حتى إذا أخذتْ حظَّها منه عادتْ مرتاعةً ، قد عَراها الوجيبُ والقلق ، وتَغَشَّاها الموت والفَرَق ، تقشعرُ منه الجلود ، وتنزعجُ له القلوب ، يحولُ بين النفسِ وبيْن مضمراتِها وعقائِدها الراسخةِ فيها »[2] .

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٦ ـ ٢٧ باختصار .
(٢) المرجع السابق : ٧٠

الإعجاز في القرن الخامس :

يعتبرُ القرنُ الخامسُ هو « العصرُ الذهبي » لفكرةِ إعجازِ القرآن في القرون السابقة . حيث استمرت الدراساتُ الأصيلةُ حولَها ، والتي بدأتْ في القرن الرابعِ ، ونضجتْ تلكَ الدراساتُ فيما تضمنتْهُ من أقوالٍ وآراء . وكَثُرَ العلماءُ الذين تكلَّموا في الإعجاز ، وكتبوا فيه .

ممّنْ تكلمَ عن الإعجازِ فيه ، أَبو العلاءِ المعري ، والشريفُ المرتضى الذي قال بالإعجاز بالصرفة .

وابنُ سراقة ، الذي نُسِبَ إليه أَنه أوْصل وجوهَ الإعجاز إلى أُلوف .

وابنُ حزم الظاهري الأندلسي ، الذي قال بالإعجاز بالصَّرفة ، وهو يرى أن القرآنَ معجزٌ لأنه كلامُ الله ، وهذا عكسٌ منه للمسألة ، فالأصْلُ أن نُثبتَ أن القرآنَ معجز ، فإذا ثبتَ إعجازه ، ثبتَ أنه كلام الله .

إنه يرىَ أن كلَّ كلمةٍ وكلَّ حرفٍ في القرآن معجز ، لأنهُ في القرآن ولأنه كلامُ الله ، لأن تلكَ الكلماتِ نفسِها في غيرِه ليست معجزة .

وهو ينفي الإعجازَ البلاغيَّ عن القرآن ويردُّه ، ويبطلُ أدلةَ القائلين به ويناقشُهم .

وممن تكلَّمَ عن الإعجازِ فيه ابنُ سِنانِ الخفاجيِّ ، الذي قال بالإعجازِ بالصُّرفة . ويرى ابنُ سِنان الخفاجي أن القرآنَ ليس معجزاً بفصاحَتِه ، كما يرى أن القرآنَ ليس على مستوى واحدٍ من الفصاحة ، بل هو متفاوتٌ في الفصاحة ، وأنَّ بعضَه أفصحُ من بعض . لكنَّ جُمهورَ العلماء على أن القرآنَ في مستوى واحدٍ من الفصاحة ، وأنه ليس بعضُه فصيحاً وبعضه أفصح .

لكنَّ أشهرَ مَنْ قالَ بالإعجازِ في هذا القرن ، عالِمان جليلان ، لهما نظراتٌ ثاقبةٌ نافذة ، وإضافاتٌ نافعة ، اعتمدَ عليها كثيرٌ ممَّنْ جاء بعدهم من العلماء .

وبفضلِ نظراتِهما وجهودِهما ، اعتَبَرْنا هذا القرنَ هو العصرُ الذهبيُّ للإعجاز .

الباقلاني والإعجاز

أول هذين العالمَيْن ، هو القاضي أبو بكر الباقِلّاني ، وقد ألَّفَ كتاباً جيِّداً مشهوراً ، سمّاه « إعجاز القرآن » وقد طُبِعَ أخيراً طبعةً محقَّقَة بتحقيقِ المحقِّق « السيد أحمد صقر » الذي اعتبَرهُ أحسنَ كتابٍ في الإعجازِ في القديمِ والحديث على السواء !

وأهمُّ أفكارِ الباقلاني في الإعجاز لخَّصها « نعيم الحمصي » ومنها :

١ ـ أنه ألَّفَ كتابَه ردّاً على مطاعن الملاحدة في القرآن .

٢ ـ أن القرآنَ هو معجزةُ النبوة وحجتُها وآيتُها .

٣ ـ أن القرآن معجزٌ ببلاغتِهِ وأسلوبِه ، وأنه تحدَّى العرب ، وأنهم عجزوا عن معارضتِه ، وأنهم لم يكونوا مصروفين عنه ، وأنهم لو نجحوا في المعارضة لنُقِل ذلك عنهم .

٤ ـ أن غيرَ العربي يدركُ إعجازَ القرآن ، باطِّلاعه على عجز العرب عنه .

٥ ـ أن أقلَّ المعجز في القرآن هو أقصرُ سورة منه .

٦ ـ أن وجوهَ الإعجاز ثلاثة :

أ ـ احتواءُ القرآن على تنبؤاتٍ عن المستقبل .

ب ـ ذكْرُ الحوادثِ الماضية وقصصِ السابقين .

جـ ـ نظمُ القرآن وأسلوبُه وبلاغته .

وقد توسَّع كثيراً في الوجْهِ الثالث ، وفصَّل المسائل وأكثرَ من الأمثلة والشواهد .

وخلاصةُ رأيه في الإعجاز البلاغي :

أن أسلوبَ القرآنِ خارجٌ عن الأساليب المعروفة . وأنه لم يوجَدْ عند العرب أثرٌ أدبي يجاري القرآن . وأن القرآن أجادَ في كلِّ ما عرَضَ من موضوعات . وأنه لا تفاوُت في مستوى الأداء القرآني . وأن القرآنَ معجزٌ للجن مع الانس . وأن أساليبَ البيانِ العربي وُجِدَت في القرآن على أعلى مستوى .

وأن تأليفَ كلامٍ في رأيٍ جديد أصعبُ من تأليفِ كلامٍ في رأيٍ مطروقٍ مألوف . ومع ذلك عبَّر القرآنُ عن الآراءِ والأفكارِ الجديدةِ بطريقةٍ تفوق البشر .

وأنَّ كلماتِ القرآن وجملَه متميزةٌ يعرفُها الإنسانُ إذا وُضعتْ بينَ كلامِ البشرِ الشعريِّ والنثريِّ . وتكونُ جواهرَ وحُلِيّاً وزينةً له .

وأنَّ السورَ المفتتحةَ بالحروف المقطَّعة ثمانيةٌ وعشرون ، على عدد حُروفِ اللغة ، وأنِ الحروفَ المستعَمَلة فيها ـ من غير المكرَّر ـ أربعةَ عشر حرفاً ، نصفُ عددِ حروفِ الهجاء .

وأن أسلوبَ القرآنِ سَهْلٌ سَلِسٌ ، يُفهمُ على أيسر وَجْه ، من قِبلَ العرب . ومع هذه السلاسة والسهولة عجز العرب عن معارضته .

« نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم القرآني »

العالم الثاني الذي تفرَّد بنظراته في الإعجاز في القرن الخامس ، هو الإمامُ أبو بكر عبدُ القاهر بنُ عبدِ الرحمن بن محمد الجَرجاني وهو رائدُ علمِ البلاغة القرآنية والنظمِ القرآني . وقدْ قَدَّمَ في كتابهِ « دلائل الإعجاز » نظريةً فريدةً في إعجاز القرآن هي نظريةُ « النظم القرآني » .

وقد كانَ عبدُ القاهر الجرجاني « مُغْرَماً » بالكلامِ على إعجاز القرآن ، حيث ألَّف فيه خمسة كتب :

١ ـ المقتضَب في شرحِ كتاب الواسطي في إعجاز القرآن . وكتابُ الواسطيِّ هو أولَ كتابٍ يؤلَّف في الإعجاز ـ كما سبق أن قلنا ـ .

٢ ـ المعتَضد في شرح كتاب الواسطي نفسه ، لكنه مطوَّل والأوَّل مختصر .

٣ ـ الرسالةُ الشافيةُ في الإعجاز : وهي رسالةٌ مختَصَرة كتبها ليُثبتَ فيها حقيقةَ الإعجاز ، لا ليبيِّن أسراره .

وقد طُبعت الرسالة مع رسالتي الرماني والخطابي ، في كتاب « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » تحقيق الدكتور محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام .

وحققَها أخيراً العالم المحقِّق محمود محمد شاكر ، وألحقها بكتاب الجرجاني « دلائل الإعجاز » الذي بذل جهداً كبيراً ومشكوراً في تحقيقه .

٤ ـ أسرار البلاغة : الذي تحدث فيه عن البلاغة والإعجاز .

٥ ـ دلائلُ الإعجاز : الذي بسطَ فيه القولَ في نظرية « النَّظْم القرآني » أو الإعجاز في النظم . وشرَحَها واستشهدَ لها وناقشَ الآخرين فيها .

وكان كتاب « دلائل الإعجاز » مرجعاً لكل مَنْ جاء بعد عبد القاهر . وطبع عدةَ طبعات . أجودُها وأفضلُها وأحسنُها طبعةُ المحقق الكبير محمود شاكر الصادرة عن مكتبة الخانجي بمصر عام ١٩٨٥ .

ونظراً لجهود عبد القاهر الفريدةِ في الإعجاز ، اعتُبر القرنُ الخامس العصرَ الذهبيَّ للإعجاز .

وقد كان الانتصارُ قبلَه للَّفظ على المعنى ، في قضية «اللفظ والمعنى» ، في أيِّهما تكون الفصاحة والبلاغة .

فسبقَهُ الجاحظ بعبارتِه المشهورة : « والمعاني مطروحةٌ عَلى قارعة الطريقِ ، يعرفُها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والحضريُّ ، وإنما الشأنُ هو في إقامةِ الوزن وتخيُّرِ اللفظ » .

وعاصرَهُ ابنُ سنان الخفاجي الذي يرى أن الكلامَ البليغَ ما هو إلاّ حروفٌ وأصوات ، وأن الفصاحةَ مقصورةٌ على الألفاظ .

فخشي عبدُ القاهر من هذا الغلوِّ في تقدير الألفاظ على إعجاز القرآن ، وخشيَ أن يُبْطَل الإعجاز ، لأن القرآنَ لو كان معجزاً بألفاظه فقط ، لما كان معجزاً حقيقةً ، لأن الناسَ قد يصوغون ألفاظاً بليغة أيضاً .

وكان عبدُ القاهر يهدف من نظريته في النظم القرآني إلى تحقيقِ أهداف عدة :

١ ـ نقضُ فكرةِ المعتزلة حول « خلْقِ القرآن » فالقرآنُ عند عبد القاهر نفسيٌّ قديمٌ غيرُ مخلوق ، ولفظيٌّ مخلوق . وجوهَرُ الكلامِ هو النفسيُّ القديم ، والكلامُ اللفظيُّ في القرآن ظلٌّ له ، ولذلك فهو غيرُ مخلوق .

٢ ـ تعليقُ الإعجـاز بمـا يتسـعُ لـه ، لأن ميـدانَ اللفظِ فقط ضيقٌ لا يتسـعُ للإعجاز ، أما ميدان النظمِ فهو فسيحٌ يتسعُ له .

٣ ـ الانتصارُ لقضيةِ المعنى والنظم على قضية اللفظ .

٤ ـ الانتصارُ لفكرةِ إعجازِ القرآن ، وإثباتُها بنـظرياتٍ وآراءَ قـويةٍ مقبـولة ، لا ضعيفة مردودة .

٥ ـ الانتصارُ لأهل السنة على المعتزلة .

جوهر نظرية النظم :

يبيِّنُ الإمامُ عبدُ القاهر أن العربَ لمّا تحداهمُ الله بالقـرآن ، عَرفـوا المطلوبَ منهم . وهذا التحدي لا بدَّ أن يكونَ وَصْفاً قد تجدَّدَ بالقرآن ، ولم يوجَدْ في غيرِه ، ولم يُعْرَف قبل نزوله .

بماذا كان التحدِّي إذنْ ؟ ومن ثَمَّ بماذا كان الإعجاز ؟

يورد الإمامُ عبدُ القاهر سبعةَ احتمالات :

١ ـ إنه ليسَ في الكلماتِ المفْرَدَة بحروفِهـا ، فَمُحالٌ أن تَحـدثَ في صفاتِ الحروف وهيآتِها ، أمورٌ جديدة ، لم تكنْ لها قبلَ نزولِ القرآن . أو أن يكونَ لحروفِ الكلمات مجموعتان من الصِّفات : صفاتٌ لها وهي في القـرآنِ معجزةٌ لـلآخرين ، وصفاتٌ لها وهي خارجَ القرآن ، عاديةٌ لا إعجاز فيها .

٢ ـ والتحدِّي والإعجازُ ليس في مجرَّدِ معَاني الكلماتِ التي لها بوضعِ اللغة ، فَمُحالٌ أيضاً أن تتجدَّد في معانيها وهي في القرآن أوصافٌ جديدة .

٣ ـ وهو ليسَ في تركيبِ الحركاتِ والسّكنات ، فلم يُطْلَبْ منهم تقديمُ كلمات على وزْنِ كلمات القرآن وتصـاريفِها . فقـد نُسِبَ إلى مسيلمةَ الكـذاب ، أنه صـاغَ كَلاماً على وَزْن وإيقاعِ سورة العاديات ـ وهو لم يصَح ـ فقال : والطاحناتِ طحناً . فالعاجناتِ عجناً . فالخابزاتِ خَبزاً . فاللاقماتِ لقماً . .

٤ ـ وهو ليس في المقاطِعِ والفواصل ، فهذا مِثْلُ السابق ، اعتمادهُ على الوزن وحدَه ، وكثيراً مـا يعارِضُ الشعـراءُ بَعْضَهم بعضاً في قصـائِدِهم وأبيـاتهم ، فيأتـونَ

بكلامٍ جَديد ، على نفسِ البَحر والوَزن والقافية .

٥ ـ وهو ليس في خفَّةِ الحروف على اللِّسان ، لأن هذا يتوفرٌ في كلامِ البشر ، ثم هناكَ حروفٌ ظاهرُها ثقيل ، كما في كلمات « إثّاقَلْتُمْ » . « أَنُلْزِمكُموها » .

٦ ـ وهو ليسَ في الاستعارة فقط ، لأن معنى هذا نفيُ الإعجازِ عمّا سِواهـا ، فيكونُ الإعجازُ في آياتٍ معدودات ، وهي التي فيها استعارة ، وما سواهما من الآيات الكثيرة ليس معجزاً .

وبعدَ أن أبطلَ أن يكونَ الإعجازُ في أيٍّ منَ الاحتمالاتِ الستَّةِ السابقة ، ذَكَـرَ الاحتمالَ السابع ، ورجَّحَ أنه فيه التحدي والإعجاز .

إنَّ التحدِّي والإعجاز في النَّظْم والتأليف . والنَّـظْمُ هو : تَـوَخِّي معَاني النَّحو وأحكامِه فيما بينَ الكلماتِ والجُمَـل والفقرات ، فـالكلماتُ في الجملة لا يجمعُهـا ويؤلِّفُ بينها إلاّ النّحو .

وضروبُ المجازِ كلُّهَا ، من الاستعارةِ والكنـايةِ والتمثيـلِ ، من لوازمِ النـظم ومقتضياته وألوانه .

عبد القاهر يقدم خلاصة نظريته:

نقدِّم فيما يلي قطعةً من كتاب «دلائل الإعجاز» يُعَرِّفُ عبدُ القاهر فيها بنظريَّتِه، ويُقدمها لنا. ونتركُه يحدِّثُنا عنها، لنعرفَ كيفَ نقرأ في كتبِ التراث، وكيف نتدبَّرُها ونفهَمُها.

قال : «وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَى نَفْسِكَ عَلِمْتَ عِلْماً لا يَعْتَرِضُهُ الشَّكّ، أَنْ لا نَظْمَ في الكَلِمِ وَلاَ تَرْتيب، حَتَّى يُعَلَّقَ بَعْضُها عَلى بَعْضٍ ، وَيُبْنَى بَعْضُها عَلى بَعْض ، وَتُجْعَلَ هَذِهِ بِسَبَبٍ مِنْ تِلْكَ. هذا ما لا يَجْهَلُهُ عَاقِل، وَلاَ يَخْفى عَلى أَحدٍ مِنَ النَّاسِ .

وإذا كانَ كذلِكَ، فَبِنا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى التَّعْليقِ فيها وَالبِناء، وَجَعْلِ الـواحِدَةِ مِنْهـا بِسَبَبٍ من صَاحِبَتِهَا، ما مَعْنَاهُ وَمَا مَحْصُولُه؟

وإذَا نَظَرْنَا في ذلك، عَلِمْنَا أَنْ لاَ مَحْصُولَ لَها غَيْرَ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى اسْمٍ فَتَجْعَلَهُ فَاعِلاً لِفِعْلٍ أَوْ مَفْعولاً، أو تَعْمَدَ إِلَى اسْمَيْنِ، فَتَجْعَلَ أَحَدَهُما خَبَراً عَنِ الآخَرِ، أَوْ تُتْبِعَ

الإِسْمَ اسْماً على أَنْ يَكُونَ الثَّانِي صِفَةً لِلأَوَّل، أَوْ تَأْكِيداً لَهُ، أَوْ بَدَلاً مِنْهُ ـ أَوْ تَجِيءَ بِاسْمٍ بَعْدَ تَمَامِ كَلامِكَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ صِفَةً أَوْ حَالاً أَوْ تَمْيِيزاً ـ أَوْ تَتَوَخَّى في كَلامٍ هُوَ لإِثْبَاتِ مَعْنًى، أَنْ يَصِيرَ نَفْياً أَوْ اسْتِفْهَاماً أَوْ تَمَنِّياً، فَتُدْخِلَ عَلَيْهِ الحُرُوفَ الْمَوْضُوعَةَ لِذَلِكَ ـ أَوْ تُرِيدَ فِي فِعْلَيْنِ أَنْ تَجْعَلَ أَحَدَهُمَا شَرْطاً فِي الآخَرِ، فَتَجِيءَ بِهِمَا بَعْدَ الحَرْفِ المَوْضُوعِ لِهذَا المَعْنَى، أَوْ بَعْدَ اسْمٍ مِنَ الأَسْمَاءِ الَّتِي ضُمِّنَتْ مَعْنَى الحَرْفِ، وَعَلَى هٰذَا القِيَاسِ.

وإِذَا كَانَ لا يَكونُ فِي الكَلِمِ نَظْمٌ وَلاَ تَرْتِيبٌ إِلاَّ بِأَنْ يُصْنَعَ بِها هذا الصَّنِيعُ وَنَحْوُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا لاَ يَرْجِعُ مِنْهُ إِلى اللَّفْظِ شَيْءٌ، وَمِمَّا لا يُتَصوَّرُ أَنْ يَكونَ فِيهِ وَمِنْ صِفَتِهِ، بانَ ذَلِكَ أَنَّ الأَمْرَ عَلى ما قُلْناه، مِنْ أَنَّ اللَّفْظَ تَبَعٌ لِلْمَعْنَى فِي النُّظْمِ، وَأَنَّ الكَلِمَ تَتَرَتَّبُ فِي النُّطْقِ بِسَبَبِ تَرَتُّبِ مَعَانِيها فِي النَّفْس، وَأَنَّها لَوْ خَلَتْ مِنْ مَعَانِيها حَتَّى تَتَجَرَّدَ أَصْوَاتاً وَأَصْدَاءَ حُرُوفٍ، لَمَا وَقَعَ فِي ضَميرٍ، وَلاَ هَجَسَ في خَاطِرٍ، أَنْ يَجِبَ فِيها تَرْتِيبٌ وَنَظْمٌ، وَأَنْ يُجْعَلَ لَهَا أَمْكِنَةٌ وَمَنَازِل، وَأَنْ يَجِبَ النُّطْقُ بِهذِهِ قَبْلَ النُّطْقِ بِتِلْكَ. وَاللَّهُ المُوَفِّقُ للصَّوَابِ»[1].

«الإِعْجاز في القرن السادس»:

منْ أَشهرِ مَنْ تَكلَّموا على الإِعجازِ في هذا القرن: الغزّالي، والقاضي عياض، والزمخشري، وابنُ عطية، وابنُ رشد، والطبرسي الشيعي.

أما ابنُ عطية فيرى أنَّ إعجازَ القرآن: بنظْمِه وصحةِ معانيه، وتوالي فصاحةِ ألْفاظه.

ولابن عطيَّةَ حول ألفاظِ القرآنِ رأيٌ سديد. وهو في قوله: «وكتابُ اللّهِ لو نُزِعَتْ مِنه لفظةٌ، ثم أُدِيرَ لسانُ العرب على لفظةٍ أحسنَ منها لم يوجَدْ، ونحنُ يتبينُ لنا البراعةُ في أكثرِه، ويَخفى علينا وجْهُها في مواضع، لقصورِنا عن مرتبةِ العربِ يومئذ في سلامةِ الذَّوق وجودة القريحة»[2].

(١) دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر: ٥٥ ـ ٥٦. وانظر لفهم نظرية النظم كتاب «نظرية النظم عند عبد القاهر» للدكتور درويش الجندي. وعلوم القرآن للدكتور عدنان زرزور. وفكرة إعجاز في نظم القرآن، للدكتور محمد السيد شيخون.

(٢) فكرة إعجاز القرآن: ٥٥.

وأما القاضي عياض، فيرى ـ في كتابه الشفاء ـ أن « الكتاب العزيز منطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلُها من جهةِ ضبطِ أنواعها في أربعةِ وجوه »[1] :

أولُها : حُسنُ تأليفِه، والْتِئامُ كَلِمِه، وفصاحَتُه، ووجوهُ إيجازِه، وبلاغَتُه الخارِقةُ عادة العرب .

الوجه الثاني : صورةُ نظمه العجيب ، والأسلوبُ الغريبُ ، المخالفُ لأساليبِ كلامِ العرب ، ومناهج نَظْمها ونثرها .

الوجه الثالث : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات ، وما لم يَقَعْ ولم يكن، فَوُجِدَ كما وَرَدَ ، وعلى الوجه الذي أَخْبَرَ به .

الوجه الرابع : ما أنبأ به من أخبارِ القرون السالفة ، والأممِ البائدة ، والشرائعِ الداثرة[2] .

- « الغزالي واحتواء القرآن على العلوم كلها » :

الإمامُ أبو حامد ـ محمد بن محمد بن محمد ـ الغزالي ، مِنْ أشهر مَنِ تكلَّم عن القرآنِ في القرنِ السادس . تكلَّم عنه في كتابِهِ الرائد « إحياء علوم الدين» وفي كتابَيْه « الأربعين في أصول الدين » و « جواهرُ القرآن ودُرَرُه » .

وهو يرى أن القرآنَ قد احتوى كلَّ العلومِ الدينية والدنيوية ، وأن هذه العلومَ كلَّها كامنةٌ في آياتِه لا يدركُها إلاَّ العالِمون .

وقد ذكر في كتاب « تلاوة القرآن » من الإحياء قول بعضهم : القرآنُ يحوي سبعةً وسبعين ألف علمٍ ، ومائتي علم ! إذ كلُّ كلمةٍ فيه علمٌ ، ويتضاعفُ ما فيها من العلم أربعةَ أضعاف ، لأن لكلِّ كلمةٍ ظاهراً وباطناً وحدّاً ومَطْلَعاً .

وعلّق على ذلك بقوله : « وبالجملةِ فالعلومُ كلُّها داخلةٌ في أفعالِ الله عزّ وجلّ وصفاتِه ، وفي القرآن شرحُ ذاتِه وأفعالِه وصفاتِه . وهذه العلومُ لا نهايةَ لها ، وفي القرآنِ إشارةٌ إلى مجامِعِها ، والمقاماتُ في التعمُّق في تفصيلِهِ راجعٌ إلى فهمِ

(1) الشفاء للقاضي عياض ١ : ٣٥٨

(2) انظر الشفاء ١ : ٣٥٨ ـ ٣٩٦ .

القرآنِ. ومجردُ ظاهر التفسير لا يشيرُ إلى ذلك ، بل كلُّ ما أشكلَ فيه على النُّظَّار، واختلفَ فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ، ففي القرآن إليـه رموزٌ ، ودلالاتٌ عليه ، يختصُّ أهلُ العلم بدَرْكها »[1] .

وقد بسط رأيَه في احتـواءِ القرآن على مبـادىءِ العلوم كلِّها في كتـابه «جـواهِرِ القـرآن ودُرَرِهِ » . حيث بيَّن فيه أن « القـرآنَ هو البحـرُ المحيط ، ومنه يتشعبُ علمُ الأولين والآخرين ، كما يتشعبُ عن سواحلِ البحرِ المحيطِ أنهارُها وجداولُها »[2] .

وقسَّمَ العلومَ المتعلقة بالقرآن إلى قسمين :

١ ـ علومُ القشـرة البَرَّانِيَّـة : مثلُ العلومِ المتعلقـة بلغةِ القرآن ونحوه وإعـرابـهِ وتلاوتهِ . وأهمُّ هذه العلوم هو علمُ التفسير الظاهـريِّ من مأثـور ومنقول ، فهـو آخرُ العلوم في الصَّدَفَةِ في القشرةِ البرانيَّة .

٢ ـ الجواهرُ والدررُ ، وهي ما تفتَّقَتْ عنها صَدَفَةُ القِشْرة البرَّانية . وهي العلومُ المختلفةُ التي يحويها القرآن .

يقـولُ حول الأصْـداف والجواهـر : « لهذِهِ الحقـائقِ أسـرارٌ وجـواهـر ، ولهـا أصْـدافٌ . والصَّدَفُ أولُ مـا يـظهـر ، ثم يقفُ بعضُ الـواصلين إلى الصَّـدَف على الصَّدف ، وبعضهم يفتِّقُ الصَّدَف ويطالعُ الدُّرَر ، فكذلك صَدَفُ جواهر القرآن»[3] .

وجواهرُ القرآنِ ودُرره حولَ العلوم كلِّها ، مستخرجةٌ من بحرِهِ المحيط ، وبحرُ القرآن المحيطُ هو بَحْرُ أفعالِ الله ، وهو بَحْرُ لا ساحلَ له ، وهو بحرٌ واحدٌ من بِحارِ معرفةِ الله[4] .

وينصحُ أبو حامد الغزالي كلَّ قارىءٍ للقرآن إلى التفكيـر فيه ، والغـوصِ إلى جـواهره ودررِه ، للوقـوفِ على علومـه : « فتفكَّـرْ في القـرآن ، والتَمِسْ غـرائبَـه ،

---

(١) إحياء علوم الدين المجلد الأول . الجزء الثالث : ١٣٥ .
(٢) جواهر القرآن ودرره : ٨ .
(٣) المرجع السابق : ١٨ .
(٤) المرجع السابق : ٢٦

لتصادفَ فيه مجامِعَ علمِ الأوَّلينَ والآخرين وجملة أوائله ، وإنما التفكرُ فيه للتوصُّلِ من جملتِه إلى تفصيله، وهو البحرُ الذي لا شاطيء له »[1] .

وعدَّدَ في كتابِه أهمَّ جواهرِ القرآن، وهي سبعمائة وثلاثٌ وستون آية[2] .

كما عَدَّدَ بعدها دُرَرَ القرآن ، وهي سبعمائة وإحدى وأربعون آية[3] .

إنَّ الإمامَ أبا حامد الغزالي لم يتكلَّمْ عن « الإعجاز العلمي » بصراحة ، وإنما تكلَّمَ عن « التفسير العلمي ». وفرْق بين الأمرين .

وكانت آراؤه في احتواءِ القرآنِ على مبادىء العلوم كلِّها ، أساساً لِمَنْ جاءَ بعدَهُ من المفسرين ، مثل الرازي في القديم ، وطنطاوي جوهري في الحديث .

الإعجاز في القرن السابع :

أشهرُ مَنْ تحدَّثَ عن الإعجازِ في القرن السابع :

١ ـ الإمَامُ فخرُ الدِّين الرازي ، حيث تحدَّثَ عن الإعجاز في تفسيره « مفاتيح الغيب » أثناءَ تفسيره لآيات التحدي . كما خصَّصَ له كتاباً سماه « نهاية الإيجازِ في درايةِ الإعجاز » .

ولم يُضِفْ على ما أورده السابقون أفكاراً جديدة .

٢ ـ الإمامُ السَّكَّاكي : حيث تحدَّثَ عنه في كتابه « مفتاح العلوم » وهو يرى إمكانيةَ إدراكِ الإعجاز ، وأن الوسيلةَ إلى إدراكِهِ هي الذوقُ ، وطولُ خدمة البيان والمعاني .

٣ ـ الآمدي : الإعجاز عنده بجملة القرآن .

٤ ـ الطوسي .

٥ ـ القرطاجني .

٦ ـ البيضاوي .

---

(١) المرجع السابق : ٢٨

(٢) المرجع السابق : ٥٢ ـ ١٠٩

(٣) المرجع السابق : ١٠٩ ـ ١٦٧ .

والمُلاحَظُ أنَّ علماءَ القرنِ السابع لم يُضيفوا على مسألةِ الإعجاز شيئاً ، وأنهم كانوا ناقِلين لآراءِ السابقين مردِّدين لها .

الإعجاز في القرن الثامن :

العلماءُ الذين تكلَّموا عن الإعجاز في هذا القرن كثيرون ، لكننا لا نـرى لهم إضافاتٍ كثيرة على ما قاله السابقون .

ومن هؤلاء العلماء :

١ ـ ابنُ الزَّمَلْكاني . الذي يقولُ بنظريةِ عبد القاهر في الإعجاز بالنظم .

٢ ـ القزويني : يرى أن الإعجاز بالفصاحة والبلاغة .

٣ ـ ابن تيمية : يرى أن الإعجـازَ بالبـلاغة ، وبـاحتواءِ القـرآن على العلوم ، ويرى المفاضلة بين الآيات ، وأنَّ بعضَها أفضلُ من بعض .

٤ ـ ابنُ قيِّم الجوزيَّة : حيث امتازَ بالبحث والعرض والاستدلال .

٥ ـ ابنُ كَثير : يرى أن الإعجازَ بالبلاغَة ، وفي موضوعاتِ القرآن، وفي أثـرِه في النفوس ، وأن الإعجاز في كل القرآن .

٦ ـ الـزركشي : حيث جمعَ أقـوالَ السابقين ، وأبقى البـابَ مفتوحـاً لـوجـوهٍ جديدة .

٧ ـ ابْنُ جزيِّ الكَلْبي : حيث جمعَ أقوال السابقين أيضاً .

مطلوب

مع العلوي والشاطبي في نقض التفسير العلمي :

نقفُ مع عالميْن من علماءِ القرنِ الثامن ، تكلَّما عن الإعجاز ، ونَقَضا التفسيرَ العلمي ، أو الإعجازَ العلمي ـ بتعبيرٍ أدق ـ وهو الذي يقـوم على نظريـةِ الغزالي في احتواءِ القرآنِ على كل العلوم والمعارف ـ وقد عَرَضْناها من قبل ـ .

العالِم الأول : هو « يحيى بنُ حمزة العلوي » حيث ألَّفَ كتابَ « الطراز في علوم البلاغة » .

والجيِّدُ فيه أنه يجعلُ البلاغةَ خادمةً للإعجاز ، وأن الهدفَ منها هو معرفةُ أحوالِ الإعجاز :

يقول : «هي علمٌ يمكنُ معه الوقوفُ على معرفةِ أحوالِ الإعجاز ، لأن الإجماعَ منعقدٌ من جهةِ أهلِ التحقيقِ على أنه لا سبيلَ إلى الاطلاع على معرفةِ حقائق الإعجاز ، وتقريرِ قواعدِهِ من الفصاحة والبلاغة ، إلَّا بإدراكِ هذا العِلْمِ ـ البلاغة ـ وإحكام أساسه » .

وينقدُ المذهبَ القائلَ بأن إعجازَ القرآنِ في اشتماله على الحقائقِ العلمية ، ويرَى أن القرآنَ حينئذٍ يشاركُ غيرَه من الكتب العلمية المختصة ، وأن الآياتِ التي يكتشفُ العلماء ما فيها من علوم لم تعد معجزة لمعرفتهم بعلومها .

ورأيُه هنا سديدٌ ، وهو نقضٌ قويٌّ لنظريةِ الإعجاز العلمي .

العالِم الثاني : هو الإمامُ الشاطبي في كتاب « الموافقات » حيث ينقض نظرية التفسير العلمي .

قال : « إنَّ كثيراً من الناس تجاوَزوا في الدَّعوى على القرآنِ الحَدَّ فأضافوا إليه كلَّ علْم يُذْكَرُ للمتقدمين أو المتأخِّرين : من علومِ الطبيعيات ، والتعاليم ، والمنطق ، وعلْم الحروف ، وجميع ما نَظَرَ فيه النّاظرون من هذه الفنون وأشباهِها .

وهذا لا يصحّ .

فإن السَّلَفَ ـ من الصحابة والتابعين ومَنْ يَليهم ـ كانوا أعرفَ بالقرآنِ وبعلومِهِ وما أُودِعَ فيه ، ولم يبلغْنا أنه تكلمَ أحدٌ منهم في شيءٍ من هذا المدَّعىٰ ، أو خاضَ فيه . وذلكَ دليلٌ على أن القرآنَ لم يُقْصَدْ فيه تقريرٌ لشيءٍ ، مما زعموا .

نعم . القرآنُ تضمَّن علوماً هي من جنسِ علومِ العرب ، مما يتعجَّبُ منه أولو الألباب . أما ما زعمه هؤلاء ، فلا .

وربما استدلُّوا على دعواهم بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النحل : ٨٩] وقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٨] وبفواتح السور .

وهذا استدلالٌ في غير موضعه .

فأما الآيةُ الأولى ، فالمرَادُ بها تبيينُ القرآنِ ما يتعلَّقُ بالتكليفِ والتعبُّد والأحكام .

وأما الآيةُ الثانية ، فالمرادُ بالكتاب فيها هو اللوحُ المحفوظ وليسَ القرآن .

إذن : لا يجوزُ أن يُضافَ إلى القرآنِ ما لا يَقتضيهِ ولا يدلُّ عليه . كما أنه لا يجوز أن يُنكَرَ منه ما يدلُّ عليه وما يقتضيه . ويجبُ الاقتصارُ في فهمه على كل ما يُضافُ علمُه إلى العربِ خاصّة ، فبِه يوصَلُ إلى علم ما أودع من الأحكامِ الشرعية .

فمن طَلَبَهُ بغير ما هو أداةٌ له ضَلَّ عن فهمِه ، وتَقَوَّلَ على اللّهِ ورسولِهِ فيه . والله أعلم »[1] .

من القرن التاسع حتى الرابع عشر :

في الفترةِ ما بينَ القرنِ التاسع حتى الرابع عشر ، لا نجدُ إضافاتٍ جديدةً على فكرةِ الإعجاز ، وكان العلماءُ يكتفونَ بترديدِ ما قاله السابقون ، وجَمْعِ الأقوال في المسألة . ولا يكادُ يكون منهم تفرُّدٌ أو إضافةٌ أو إبداع .

وسنكتفي بذكْرِ أهم مَنْ تكلَّمَ عن الإعجاز في تلك القرون .

ممَّنْ تكلمَ عن الإعجاز في القرن التاسع : ابنُ خلدون ، والفيروزابادي ، والمراكشي .

وفي القرن العاشر : معينُ الدين بن صفيّ الدين ، والسيوطي ، وزكريا الأنصاري ، وابنُ كمال باشا ، والقونوي ، وأبو السعود العمادي ، والكازروني ، وطاش كبرى زاده ، والخطيب الشربيني .

(١) الموافقات للشاطبي ٢ : ٧٩ ـ ٨٢ بتصرف واختصار

وفي القرن الحادي عشر: عبد الرحيم السيلكوتي، والشهاب الخفاجي.

وفي القرن الثاني عشر: أحمد الكواكبي، وشمس الدين الضرير، وسليمان الشافعي «الجمل».

وفي القرن الثالث عشر: الشوكاني، والآلوسي، وأوليا زاده، وصديق خان، ومحمد الإسكندراني.

القرن الرابع عشر: هو العصر الذهبي الثاني للإعجاز:

قلْنَا - عند كلامنا عن الإعجاز في القرن الخامس - إنَّ القرنَ الخامسَ كانَ العصرَ الذهبيَّ لفكرة الإعجاز، نظراً لما أضافه الباقلانيُّ والجرجانيُّ من آراءَ وأفكارَ.

وكلُّ مَنْ تكلموا عن الإعجاز بعد ذلك، كانوا جامعينَ وناقلينَ لكلام مَنْ سبقهم، وكانوا «عالةً» على علماءِ القرن الخامس.

وإذا ما نظرْنا في القرن الرابع عشر فإننا نجدُ فيه علماءَ كثيرين تكلَّموا عن الإعجاز - ونجدُهم قد أضافوا إضافاتٍ نافعة، أو ابتكروا نظرياتٍ وآراءَ فريدة، بحيثُ تقدمتْ فكرةُ الإعجازِ - على أيديهم - أشواطاً طويلة.

ولذلك يصحُّ أن نعتبرَ هذا القرنَ، هو «العصرُ الذهبيُّ الثاني» لفكرة الإعجاز.

دعاة الإعجاز العلمي في هذا القرن:

انقسمَ العلماءُ في هذا القرنِ إلى مجموعتين:

الأولى: دعاةُ الإعجازِ العلمي والتفسيرِ العلمي.

الثانية: دعاةُ الإعجازِ البياني.

ومن أشهر دعاةِ الإعجاز العلمي: عبد الله فكري، ود. محمد توفيق صدقي، وطنطاوي جوهري، وعلى فكري، ومحمد أحمد جاد المولى، وعمر الملباري، ومحمود مهدي الإستانبولي، وموريس بوكاي، ود. محمد رشاد خليفة، ومحمد متولي الشعراوي.

ويعلِّل نعيم الحمصي سببَ كثرةِ الكلامِ عن الإعجازِ العلمي في هذا القرن

«وترجعُ هذه الفورة في التفسيرِ العلمي إلى ردِّ الفعل الذي أحدثه الاتصال بأوروبا، وامتزاج الثقافة العربية الإسلامية التي كانت نائمةً ، بالثقافة الأوروبية الناضجة ، وما بهرَ العلماءَ من علوم ومخترعاتٍ حديثة، فحاولوا أن يَرجعوا إلى تراثهم الإسلامي العربي ، يستنبطون منه أُصولَ هذه العلوم، وخَشَوْا إذا هم لم يفعلوا ذلك ، أن يبدوَ القرآنُ ضئيلاً في أعينِ متَّبعيهِ وأنصاره ، وأنْ تتزعزعَ العقيدةُ فيه من قلوبِ الناس أمامَ ما يرونَه من معالمِ المدنيةِ الحديثةِ، فحاولوا أن يبيِّنوا أنَّ القرآنَ احتوىٰ هذه العلوم ، وأشار إلى هذه المخترعات ، قبلَ أنْ يعرفَها أهلُها أنفسُهم بثلاثَةَ عشر قرناً ، واستفادوا في هذه الناحيةِ من الكلماتِ والجملِ التي يمكنُ أن تتحمَّلَ تأويلاتٍ واسعة » .

ويُضيف الحمصي رأياً آخر يعتبرهُ أصحَّ عنده وآثر ، وهو « أن هؤلاءِ العلماء ، قد تكشَّفَ لهم من معاني القرآن ما لم يعرفْهُ أسلافُهم ، وذلك بعد أن اطَّلعوا على علومٍ ونظرياتٍ حديثةٍ لم تكن معروفة قبل »[1] .

ولا نجدُ ما يدعُو لعَرضِ آراء دعاةِ الإعجاز العلمي ، في هذا العصر ، لأنها كلها تنطلقُ من قاعدةٍ واحدة ، وهي أنَّ القرآنَ حوى العلومَ والمعارفَ المختلفة التي لم يكتشفْها الناسُ إلاَّ في هذا العصر .

ونُحيلُ على تعريف نعيم الحمصي بآرائِهم ، وعرْضِه نماذجَ من أدلتهم وأمثلتهم وشواهدهم[2] .

دعاة الإعجاز البياني في هذا القرن :

ممَّنْ تكلمَ عن الإعجاز البياني في هذا القرنِ ، بصورةٍ خاصة ، وتكلَّمَ عن وجوه الإعجاز الأخرى بصورة ثانوية : نعمةُ الله النخجواني ، وأبو الفيض الناكوري ، وجمال الدين القاسمي ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد رشيد رضا ، وعبد الله الدهلوي ، وعبد العليم الهندي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأمين الخولي ، وسيد قطب ، ومحمد عبد العظيم الزرقاني ، والأساتذة الثلاثة : حمزة وعلوان وبرانق ، ود . محمد عبد الله دراز، وأحمد مصطفى المراغي ، وأبو الحسن

(١) فكرة إعجاز القرآن : ٢١٨ وانظر حاشية الصفحة .
(٢) انظر المرجع السابق : ٢١٩ ـ ٣٠٤ .

الشعراني ، ود . محمد سعيد رمضان البوطي ، ود . محمد علي سلطاني »[1] .

ولن نعرضَ لآراءِ هؤلاءِ جميعاً ، بل نحيلُ على عَرْض نعيم الحمصي لآرائهم ، في كتابه «فكرة إعجاز القرآن» .

وسنعرضُ بإيجازٍ شديدٍ لأهمِّ آراءِ المشاهيرِ من هؤلاء ، الذين أضافوا للإعجاز إضافاتٍ كبيرة ، أو الذين يستحقون أن نقفَ أمامَ آرائهم :

الإعجاز عند الشيخ محمد رشيد رضا :

تكلمَ الشيخُ محمد رشيد رضا عن الإعجاز أثناءَ تفسيره لآيةِ التحدّي في سورة البقرة .

وقد مرَّ بنا فيما سبق ـ أثناءَ كلامِنا عن ترتيبِ آياتِ التحدي ـ أنَّ الشيخ رشيد رضا يرى أن التحدّي بعشر سور في سورة هود ، مقصودٌ به التحدي بقصصِ وأخبار السابقين . وأن التحدي في سورة البقرة موجَّهٌ لليهود .

وقد عرَضَ في تفسيره لآيةِ التحدي في سورة البقرة أهمَّ وجوهِ الإعجاز، وهي :

الأول : إعجاز القرآن بأسلوبهِ ونَظْمه .

الثاني : إعجاز القرآن ببلاغتهِ .

الثالث : إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب .

الرابع : إعجاز القرآن بسلامتِهِ من الاختلاف .

الخامس : إعجاز القرآن بعلومِه الدينية وتشريعاته .

السادس : إعجاز القرآن بعجْزِ الزمان عن إبطالِ شَيْءٍ منه .

السابع : إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانَتْ مجهولةً للبشر[2] .

الإعجاز عند مصطفى صادق الرافعي :

ألَّف مصطفى صادق الرافعي كتاب «إعجاز القرآن» . ويرى أن الوجه الأساسي في الإعجاز عنده هو « نَظْم القرآن »، مع وجود وجوه أخرى للإعجاز .

---

(١) المرجع السابق : ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٢) انظر تفسير المنار ١ : ١٩٠ ـ ٢٢٩ . وانظر «فكرة إعجاز القرآن : ٣١٣ ـ ٣٢٧ .

ومظاهر الإعجاز في نظم القرآن عنده ثلاثة ، حيث خصَّص لكل واحد فصلاً :

المظهر الأول : الحروف وأصواتها .

المظهرُ الثاني : الكلماتُ وحروفُها .

المظهرُ الثالث : الجملُ وكلماتُها .

وعندَ كلامه عن الحروف وأصواتِها قال بإعجازِ النظْمِ الموسيقي في القرآن . حيث تكونَتْ كلماتُ القرآن من حروف ، لو سقطَ حرفٌ منها ، أو أُبدلَ بغيره ، أو أُقحمَ معهُ غيرُهُ ، لكانَ ذلك خلَلًا بيِّناً . ثم حروفُ الكلمة متساوقةٌ على أصولٍ مضبوطةٍ من بلاغةِ النظم ، بالهمسِ والجهرِ والقلقلةِ والصفيرِ والمدِّ والغنةِ وغيرها .

وعند كلامهِ عن الكلماتِ وحروفِها، بيَّن أنَّ في كلماتِ القرآن أصواتاً ثلاثة :

الأول : صوتُ النفس ، وهو إيقاعُ الألفاظِ الموسيقي ، ونغمُها الفني .

الثاني : صوتُ العقل ، وهو الصوتُ المعنوي ، الذي يتعلق بمعاني القرآن ومخاطبتها للفكر والعقل .

الثالث : صوتُ الحس : وهو أبلغُ الأصوات شأناً ، وهو اجتماعُ إيقاع الألفاظ وروعة المعاني ، أي هو اجتماع صوت النفس وصوت العقل معاً [١] .

الإعجاز عند الدكتور محمد عبد الله دراز :

المرحومُ الدكتورُ محمد عبد الله دراز ، من خيرةِ العلماءِ المعاصرين الذين تحدَّثوا عن القرآن وإعجازِه ، والذين قدَّموا الجديدَ المفيدَ فيه .

وقد ألَّفَ كتابَه « النبأ العظيم : نظراتٌ جديدةٌ في القرآن » وأودعه آراءَه وأفكارَه وإضافاتِه . والكتابُ من أهمِّ وأجودِ الكتبِ العلمية الرصينة في إعجاز القرآن وعلومه .

وقد قسَّم دراز كتابه إلى بحثَيْن :

البحث الأول : في تحديد القرآن .

(١) انظر : إعجاز القرآن للرافعي : ٢١٢ ـ ٢٤٨

البحثُ الثاني في بيانِ مصدرِ القرآن .

والبحثُ الثاني قسّمه إلى مراحل :

المرحلةُ الأولى : بيانُ أن القرآن لا يمكنُ أن يكونَ إيحاءً ذاتياً من الرسول عليه الصلاة والسلام .

المرحلة الثانية : مناقشةُ الذين زعَموا أخْذَ الرسول ـ عليه السلام ـ القرآن من معلّم .

المرحلة الثالثة : ظروفُ الوحي وملابساتُه .

المرحلة الرابعة : البحثُ في جوهر القرآن نفسه عن حقيقةِ مصدرِهِ .

وأهمُّ ما في الكتاب ـ وكلُّ ما فيه هام ـ هو المرحلة الرابعةُ من البحث التي زادتْ عن ثُلُثي الكتاب . حيثُ تحدَّث عن أسلوبِ القرآن وخصائِصِهِ .

يرى الدكتورُ دراز أنَّ نواحي الإعجازِ القرآني ثلاثة :

الأولى : الإعجازُ اللغوي ، ويرى أنه هو أظهر وجوهِ الإعجاز ، لأنه هو الذي وقَعَ به التحدي ، والقرآنُ عندهُ معجزةٌ لغوية

الثانية : الإعجازُ العلمي .

الثالثة : الإعجازُ التشريعي الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي .

ولما تحدث عن أسلوب القرآن قسَّم ألفاظَ القرآن إلى قسْمين :

الأول : الصَّدَف . وسمّاه « القشرةُ السطحيّة » .

الثاني : اللؤلؤة . وسمّاها « لبّ البيان القرآني » .

ولما تكلم عن « القشرة السطحية » لجمالِ اللفظ القرآني ، لاحظَ أنها تتألف من عنصريْن مؤثّريْن :

الأول : الجمالُ التوقيعي : في توزيع حركاتِ ألفاظِ القرآن وسكناتِها ومدّاتها وغنّاتها .

الثاني : الجمالُ التنسيقي : في رَصْفِ الحروف في الكلمات وتأليفها معها .

ثم انتقل الدكتورُ دراز من القشرة السطحية إلى لبِّ البيان القرآني ، وسجَّل أهمَّ خصائصِ أسلوبه .

وقرَّرَ أنَّ أسلوبَ القرآن هو ملتقى نهاياتِ الفضيلةِ البيانيّة ، على تباعُدِ ما بَيْنَ أطرافِها .

وأهمُّ خصائصِ أسلوبِ القرآنِ :

١ ـ القَصْدُ في اللفظ ، والوفاءُ بحق المعنى .

٢ ـ خطابُ العامة وخطابُ الخاصة .

٣ ـ إقناعُ العقل وإمتاعُ الوجدان .

٤ ـ البيانُ ، والإجمالُ .

وعرضَ الدكتورُ درازُ هذه الخصائصَ عَرْضاً بيانياً مؤثِّراً، بلغةٍ رائعة ، وأسلوبٍ سلسٍ مشرق ، وقدَّم لها نماذج قرآنية كثيرة ، وحلَّلها تحليلاً فنياً عالياً[1] .

ونشيرُ بقراءة كتاب « النبأ العظيم » كلِّه ، والاستفادةِ مما عرضهُ فيه صاحبُه العلاّمة ـ رحمه الله ـ.

الإعجازُ عند سيد قطب :

قال نعيمُ الحمصيّ عن الإعجاز عند سيد قطب : « مِنْ خَيرِ مَنْ كَتَبَ فِي موضوعاتِ القرآنِ في هذا العصر سيدُ قطب . ولم يؤلِّف كتاباً خاصاً في الإعجاز ، ولم يتكلَّمْ عليه صراحةً في كتابيْه « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » . ولكنَّ قارىءالكتابيْن يشعر بأنه يؤمنْ بالإعجاز إيماناً عظيماً عميقاً ، ويُبَيِّنُ بالأمثلةِ التي يأتي بها من القرآن سحرَه الفني ، الذي يرادفُ في حقيقة الأمر إعجازَه البياني . وقد تكلَّمَ على الإعجاز صراحةً في تفسيره « في ظلال القرآن » وذلك خلال تفسيرهِ آياتِ التحدّي في القرآن »[2] .

---

(١) انظر النبأ العظيم : ٧٠ ـ ٧٢ و٩٤ ـ ١٠٠ و١٠١ ـ ١١٣

(٢) فكرة إعجاز القرآن : ٣٤٣

ألّف سيد قطب كتاب « التصوير الفني في القرآن » عام ١٩٤٥ .

وقد سَجَّلَ في كتـابه وجْهـاً جديـداً من وجوهِ الإعجـازِ البياني القـرآني : وهو « التصويرُ الفني » .

واعتبرَ النقادُ والباحثونَ كتابَهُ تسجيلاً لاكتشافٍ فريد ، لا تأليفاً لكتابٍ جديد ، اعتُبِر بِهِ سيدُ قطب رائداً لنظريةٍ جديدة في فهمِ الإعجازِ البيـاني ، ألا هيَ « نظريـةُ التصوير الفني » وكأنَّ الله قد ادَّخَرَ له هذا المفتاح الجمالي البياني ، فلم يعْطِهِ لأحد قبله ـ على حد قول عليّ الطنطاوي ـ .

عبَّرَ عن إعجاز القرآن البياني بمصطلح جديد ، سمّاه « سحر القرآن » أي تأثير القرآن في سامعيه .

وبدأ كتابَه بالكلام عن « سحر القرآن » أي مكْمَنِ الإعجاز في القرآن ، ويرى أن الإعجـازَ في كـل آيـات القـرآن ، وفي آيــاتـه الأولى ، التي خلَتْ من العلوم والتشـريعات ، ويـرى بأن مكمَن الإعجـازِ في بيانِ القـرآن وأسلوبـه ونسقـهِ البيـاني وتصويرهِ الفني[1] .

وفي بيـانهِ عن كيفيـةِ فهْمِ القرآن في التـاريخ الإسـلامي ، وَضَعَ نـظريته في إطـارهـا التـاريخي ، حيث بيَّن أن « تـذوُّقَ الجمـال الفني في القـرآن » مـرَّ بثـلاث مراحل :

الأولى : مرحلةُ التذوق الفطري ، التي قامَ بها الصحابة ، حيث لم يعلِّلوا ما كانوا يجدونه من أثرِ القرآن عليهم ، وتأثيره فيهم .

الثانية : مرحلةُ إدراكِ بعض مواضعِ الجمال المتفرقة ، التي قام بها المفسرون والأدباء والبلاغيون ، وأثنى ثناءً خاصاً على الإمام الزمخشري في لفتاتِـه البيانيـة في الكشاف ، وعلى الإمام عبد القاهر الجرجاني على نظريته في النظم القرآني .

الثالثة : مرحلةُ إدراكِ الخصائصِ العامة الموحَّدة للجمالِ الفني القرآني ، وأنَّ

---

(١) انظر «التصوير الفني في القرآن ٩ ـ ٢١

السابقينَ لم يبيِّنوها، وأنها تكمنُ في « التصوير الفني » في الأسلوبِ القرآني[1] .

قال في شرحِ مصطلحِهِ الجديد « التصوير الفني » :

« التصويرُ هو الأداةُ المفضَّلةُ في أسلوبِ إلقرآنِ ، فهو يعبِّرُ بالصورة المُحَسَّـةِ المتخيَّلَة عن : المعنى الـذهني ، والحالةِ النفسيـةِ ، وعن الحـادثِ المحسـوس ، والمشهدِ المنظور ، وعن النموذجِ الإنساني والطبيعةِ البشرية .

ثم يـرتقي بالصـورة التي يرسمُهـا ، فيمنحُها الحيـاةَ الشاخصـة ، أو الحركـة المتجددة .

فإذا المعنى الذهنيّ هيئةٌ أو حركة ، وإذا الحالةُ النفسية لوحةٌ أو مشهد ، وإذا النموذجُ الإنسانيُّ شاخصٌ حي ، وإذا الطبيعةُ البشريةُ مجسَّمَةٌ مرئية . فأما المشاهد والحوادثُ ، والقَصص والمناظـر ، فيردُّهـا شاخصـةً حاضـرة ، فيها الحيـاةُ ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوتْ لها كلُّ عناصر التخييل .

فما يكادُ العرضُ يبدأُ حتى يُحيـلَ المستمعين نَظَّارة ، وحتى ينقلَهم نقـلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعتْ فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر ، وتتجـدَّد الحركات ، وينسى المستمعُ أن هذا كلامٌ يُتلَى ، ومَثَلٌ يُضْـرب ، ويتخيَّلُ أنـه منظر يُعرض ، وحادثٌ يقع . فهذه شُخـوصٌ تَروحُ على المسـرح وتغدو ، وهـذه سمات الانفعال بشتّى الوجدانات ، المنبعثةُ من الموقف ، المتساوقةُ مع الحوادث ، وهذه كلماتٌ تتحرَّكُ بها الألسنة ، فتنمُّ عن الأحاسيس المضمَرة .

إنها الحياةُ هنا ، وليستْ حكاية الحياة .

فإذا ما ذكرْنا أن الأداة التـي تصوِّر المعنى الذهنيَّ والحالة النفسية ، وتشخصُ النموذَجَ الإنساني أو الحادث المروي ، إنما هي ألفاظٌ جامدة ، لا ألوانٌ تُصوِّر ، ولا شخوصٌ تُعبِّر ، أدركْنا بعضَ أسرارِ الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٢ ـ ٣١ .
(٢) المرجع السابق : ٣٢ ـ ٣٣ .

وهو يرى أن ثلاثة أرباعِ موضوعاتِ القرآنِ قد عُرِضَت بطريقةِ التصويـر ، وأنَّ معظم آياتِ القرآن مصورةٌ مؤثِّرة .

ويقدِّم لنا خصائصَ التصوير الفني ، وهي خمسة :

١ ـ التخييلُ الحسي .

٢ ـ التجسيمُ الفني .

٣ ـ التناسقُ الفني .

٤ ـ الحياةُ الشاخصة .

٥ ـ الحركةُ المتجددة .

أما آفاقُ التصوير الفني ، والموضوعاتُ القرآنية التي عُرضت به ، فهي :

١ ـ تصوير المعاني الذهنية .

٢ ـ تصوير الحالات النفسية .

٣ ـ تصوير الحوادث الواقعة .

٤ ـ الأمثال المصوِّرة .

٥ ـ مشاهد الطبيعة المصوَّرَة .

٦ ـ مشاهد القيامة المصوَّرَة .

٧ ـ التصوير في النماذج الإنسانية .

٨ ـ التصوير في القصة .

٩ ـ الجدل التصويري[1] .

وقد أدارَ سيد قطب كتابه « التصوير الفني » على هذه الموصوعـات ، وعَرَضَ على كل واحدة ، الكثيرَ من آيات القرآنية ، باعتبارِها نماذج وشواهد ، وبيَّن ما فيها من جمالِ التصوير .

وقدْ توسَّعَ في بيانِ ما في الآيات من جمـالِ التصويـرِ في تفسيره « في ظـلال القرآن » في طبعتِهِ الأولى وطبعتِه المنقَّحة ، بـالإضافـةِ إلى بيانِـهِ ما في الآيـاتِ من المعاني والدلالات والأحكام .

(١) انظر بيان هذه الخصائص والآفاق وغيرها في كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» .

ولئن خصّص كتابَ « التصوير الفني » للكلامِ على التصوير باعتباره قاعدةِ التعبير القرآني، والوجْهَ الجمالي في الإعجازِ البياني ، فإنه لم يَقْصِر الإعجاز على الإعجاز البياني التصويري .

لقد تكلَّمَ في الظلال عن وجوهِ الإعجازِ الأخرى . ومن وجوهِ الإعجاز التي تحدث عنها هي :

١ ـ الإعجازُ في التأثير .
٢ ـ الإعجازُ في الأداء .
٣ ـ الإعجازُ الموضوعي .
٤ ـ الإعجازُ التشريعي .
٥ ـ الإعجازُ الحركي .
٦ ـ الإعجازُ المطلق[1] .

لقد وقف سيد قطب وقفةً مطوَّلَةً أمامَ الإعجاز ، أثناءَ تفسيره لآيةِ التحدي في سورة يونس . وكلامُهُ في هذه الوقفة من أنفس الكلام وأجودِهِ وأروعِه وأرفعِه .

وسجَّلَ فيه أن الإعجاز في القرآن مطلق : « فليس هو إعجازُ اللفظِ والتعبيرِ وأسلوبِ الأداءِ وحده . ولكنه « الإعجازُ المطلق » الذي يلمسه الخبَراءُ في هذا ، وفي النُّظُمِ والتشريعات والنفسيات، وما إليها . .

والذين زاولوا فنَّ التعبير ، والذين لهم بَصَرٌ بالأداءِ الفني ، يدركونَ أكثرَ من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجازٍ في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكيرَ الاجتماعيَّ والقانونيَّ والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركونَ أكثرَ من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً .

ومعَ تقديرِ العجْزِ سلفاً عن بيانِ حقيقةِ هذا الإعجاز ومداه ، والعجزِ عن تصويرهِ بالأسلوبِ البشري ، ومع تقدير أن الحديثَ المفصَّلَ عن هذا الإعجازِ ـ في حدودِ

---

(١) أنظر بياننا لهذه الوجوه في كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» .

الطاقة البشرية ـ هو موضوعُ كتابٍ مستقل ، فسأحاولُ هنا أن أُلِمَّ إلْمامَةً خاطفة بشيء من هذا » .

تحدَّثَ عن مظاهر الإعجاز البياني في الأداء القرآني ، وهي :

١ ـ سلطانُ الأداءِ القرآني العجيب على القلوب .

٢ ـ امتيازُ الأداءِ القرآني بالتعبيرِ عن قضايا ومدلولاتٍ ضخمةٍ في حيِّزٍ يستحيلُ على البشر أن يُعبِّروا فيه عن مثل هذه الأغراض .

٣ ـ احتواءُ النص القرآني مدلولاتٍ ضخمةٍ متنوعة ، متناسقة مع النص .

٤ ـ قدرةُ الأداء القرآني على استحضار المشاهد، والتعبيرُ المواجِه ، كما لو كانَ المشهدُ حاضراً ، بطريقةٍ ليست معهودةً على الإطلاق في كلام البشر .

ثم انتقل للحديثِ عن مظاهر وألوانِ الإعجازِ الموضوعي ، وهي :

١ ـ يعرضُ القرآنُ الحقيقةَ كما هي في عالمِ الواقع ، ويكشفُ كلَّ زواياها وجوانبَها وارتباطاتِها ومقتضياتِها ، ويخاطِب بها الكينونة البشرية .

٢ ـ هو مبرَّأٌ من الانقطاعِ والتمزقِ الملحوظَيْن في الدراسات العلمية ، والتأملاتِ الفلسفية ، والومضاتِ الفنية .

٣ ـ بالإضافة إلى تماسك جوانبِ الحقيقة وتناسقِها ، يحافظُ على إعطاءِ كلِّ جانبٍ من جوانبها مساحتَهُ التي تساوي وزنَهُ في ميزان الله .

٤ ـ يمتازُ بالحيويةِ الدافقة المؤثِّرةِ الموحية ، بحيث تمنحُ الحقائقَ القرآنية حيويةً وإيقاعاً وروعةً وجمالاً .

ونُحيلُ على شرحه لهذه المزايا في الظلال ، للوقوفِ على كلامِهِ الرائعِ جدًّا حولَها .

---

(١) الظلال ٣ : ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثالث

« الإعجاز في الأسلوب القرآني »
« الإعجاز البياني »





الاختلاف في وجوه إعجاز القرآن :

الدراسةُ الموضوعيةُ لإعجاز القرآن ، هي الثمرةُ المرجوَّةُ ، والنتيجةُ المقصودةُ من دراسةِ إعجاز القرآن . وهي مرحلةٌ ثانيةٌ تاليةٌ للمرحلة الأولى من دراسة الإعجاز ـ وهي الدراسة التاريخية ـ لا بدَّ أن تُبنى عليها .

وإذا كانت الدراسةُ التاريخية تُعْنى بتاريخ فكرة إعجاز القرآن ، فإن الدراسةَ الموضوعيةَ ، تُعْنى بموضوع الإعجاز .

إن الدراسةَ الموضوعيَّةَ تنظرُ في موضوع القرآن نفسه ، أينَ يكمنُ إعجازُه ؟ بماذا كان القرآنُ معجزاً ، إنها تتناولُ الكلمةَ القرآنية ، والجملةَ القرآنية ، والأسلوبَ القرآني ، والقالبَ القرآني ، والمضمونَ القرآني ، والمعانيَ القرآنية .

وقد اختلفَ العلماءُ قديماً وحديثاً في وجوهِ إعجاز القرآن ، فمنهم مَنِ اكتفى بالإعجاز البياني ، وجَعَلَهُ هو الوجهَ الوحيدَ في الإعجاز ، الذي كان به تحدِّي الكفارِ وقْتَ نزول القرآن .

ومنهم من أضافَ للإعجاز البلاغي وجوهاً أخرى ، مثلَ الإعجازِ الغيبي ، والإعجازِ العلمي ، والإعجازِ التشريعي ، والإعجاز النفسي ، والإعجاز العددي ، وغير ذلك .

البيانُ هو الذي كان به التحدي :

تكلَّمْنا في الفصل الأول عن « التحدي والمعاجزة والإعجاز » . وبيَّنّا هناكَ أن القرآنَ هو المعجزةُ الأساسيةُ لرسول الله ﷺ وبيَّنّا أن الوجهَ الأولَ في هذه المعجزةِ القرآنية الكبرى وجهٌ بيانيّ ، لذلك كانت السمةُ الأولى لهذه المعجزة أنها معجزةٌ بيانية .

إن الوجهَ الظاهرَ البارزَ الواضحَ في إعجاز القرآن هو الإعجاز البياني ، وإن هذا الإعجاز البياني يقوم على البيان والبلاغة والفصاحة .

إن هذا الإعجاز البياني هو الوجهُ البارزُ في الإعجاز ، لأن العربَ في العصرِ الجاهليّ كانوا في أرفع وأرقى وأسمى مستوى في البيان والفصاحة والبلاغة ، كانوا أقوى شيء في بيانهم . وإنّ المستوى البيانيّ للعرب والمسلمين في العصور الإسلامية اللاحقة كان أقلَّ من مستوى العرب البيانيِّ في العصر الجاهلي .

ونظراً لهذا المستوى البيانيِّ الرفيع، كان « البيانُ » هو الموضوعُ الذي تحدَّىٰ به القرآنُ العرب . لأننا قلْنا إن التحدي يكون فيما مَهَرَ فيه العرب وتفوقوا فيه .

إن « البيان » هو الذي تحدَّى به القرآنُ العرب . وإن المثليةَ المطلوبةَ منهم كانت مثليةً بيانية ، حيث طالبهم بالإتيان بسورةٍ مثل القرآن في البيان ، أو بعشر سور مثله في البيان ، أو بحديثٍ مثلِه في البيان . ولم تكن المثليةُ المطلوبةُ منهم مثليةً في العلم، ولا في التشريع ، ولا في أنباءِ الغيب ، ولا في غير ذلك من معاني القرآن وموضوعاته .

كان التحدّي لهم تحدِّياً بيانيّاً ، وكانت المثليةُ المطلوبةُ منهم مثليةً بيانية ، فلما عجزوا عن المعارضة كان عجزُهم بيانيّاً ، وبهذا يكونُ القرآن قد أعجزهم إعجازاً بيانياً[1] .

---

(١) انظر المباحث : السابع والثامن والتاسع من الفصل الأول .

الإعجاز البياني هو مناط التحدّي :

تحدّى القرآنُ العربَ بما يتقنونَهُ ويجيدون فيه ، وهو البيانُ والبلاغةُ والفصاحةُ ، ولمّا طالبَهم بمثلِ القرآن ، أرادَ مثله في البيان والبلاغة والفصاحة . ولهذا قال لهم : ﴿ أَمْ يَقولونَ افْتَراه . قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات ﴾ [سورة هود : ١٣] .

وكلمةُ «مفتريات» ذاتُ دلالةٍ هامة في التحدّي والعجز والإعجاز . فهي تشيرُ إلى أنَّ المطلوبَ منهم عشرُ سور مثل سور القرآن في بيانها وفصاحتها وبلاغتها وأسلوبها ، وليس مثل سور القرآنِ في علومها وموضوعاتها وأخبارها .

فلو كان مناطُ التحدّي هو « الصدقُ التاريخي » في القصص والأخبار لَمَا قال « مفتريات » ، ولو كان مناطُ التحدي هو « الصدقُ العلمي والموضوعي والتشريعي » في علوم القرآن وموضوعاته وتشريعاتِه ، لما قال « مفتريات » .

لقد أعفى القرآنُ العربَ ـ عندما تحدَّاهم ـ من العلومِ والأخبارِ والغيوب والتشريعات والمعاني ، وطالَبهم بالبيان والأسلوب ، وهو الصورةُ والشكلُ والقالب . طالبهم بألفاظٍ بليغة ، وبيانٍ فصيح ، ولو كان هذا البيان مُفترىً غيرَ صحيح .

وبما أن التحدي كان في البيان ، وبما أن المطلوبَ منهم هو البيان ، لذلك كان عجزُهم في البيان ، وكان القرآنُ معجزاً لهم في البيان ، وكان « الإعجاز البياني » هو وجهُ الإعجاز الذي كان به التحدي .

قال سيد قطب في كتاب « التصوير الفني في القرآن » وهو يلاحظ هذا الأمر : « كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ ؟ وكيف اجتمعَ على الإقرارِ بسحرِه المؤمنون والكافرون على السواء ؟

بعضُ الباحثين في مَزايا القرآن، ينظر إلى القرآن جملةً ثم يُجيب ، وبعضُهم يذكر غيرَ النَّسَقِ الفني للقرآن أسباباً أخرى ، يَستمدُّها من موضوعاتِه بعد أن صار كاملاً : من تشريعٍ دقيق ، ومن علوم كونية في خلْق الكونِ والإنسان .

ولكنَّ البحث على هذا النحو إنما يُثبِتُ المزيةَ للقرآن مكتملاً ، فما القولُ في

السورِ القلائلِ التي لا تشريعَ فيها ولا غيبَ ولا علوم ، ولا تجمعُ بطبيعةِ الحال كلَّ المزايا المتفرقةِ في القرآن ؟ إن هذه السورَ القلائلَ ، قد سُحِرَ بها العربُ منذ اللحظةِ الأولى ، وفي وقْتٍ لم يكن التشريعُ المحكَم ، ولا الأغراضُ الكبرى ، هي التي تسترعي إحساسَهم ، وتستحقُّ منهم الإعجاب .

يجب إذن أن نبحثَ عن « منبع السحر في القرآن » قبل التشريعِ المحكَم ، وقبل النُّبوءَةِ الغيبيَّة ، وقبل العلوم الكونيَّة ، وقبل أن يصبحَ القرآنُ وِحدةً مكتملةً ، تشملُ هذا كلَّه . فقليلُ القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى ، كان مجرَّداً من هذه الأشياء ، التي جاءَتْ فيما بعد . وكان ـ مع ذلك ـ محتوياً على هذا النبعِ الأصيل الذي تذوَّقه العرب »[1] .

* ويبين محمود محمد شاكر ـ في تقديمه لكتاب « مالك بن نبي » « الظاهرة القرآنية » ـ أن « البيانَ والنظمَ » هو الوجهُ الذي طولبَ العرب بتذوقه والوقوفِ عليه لمعرفة إعجاز القرآنِ ، وهذا البيانُ والنظْمُ موجودٌ في قليلِ القرآن وكثيره . وبهذا «ثبتَ أن ما في القرآن جملة ، من حقائقِ الأخبار عن الأمم السَالفة ، ومن أنباءِ الغيب ، ومن دقائق التشريع ، ومن عجائبِ الدلالات على ما لم يعرفْهُ البشرُ من أسرارِ الكون ، إلا بعدَ القرون المتطاولة من تنزيله ، كلُّ ذلك بمعزلٍ عن الذي طولِب به العرب ، وهو أن يستبينوا في نظْمه وبيانه ، انفكاكَهُ من نظْم البشر وبيانِهم ، من وجهٍ يحسُم القضاءَ بأنه كلام رب العالمين .

وههنا معنى زائد : فإنهم إذا أقرّوا أنه كلامُ ربِّ العالمين بهذا الدليل ، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبار الأمم ، وأنباء الغيب ، ودقائق التشريع ، وعجائب الدلالات على أسرار الكون ، هو كلُّه حق لا ريب فيه ، وإنْ ناقَضَ ما يعرفون »[2] .

ويقول محمود شاكر في موضعٍ آخر من مقدمته : « إن الذين تحدَّاهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مثله مفتريات ، هو هذا

(١) التصوير الفني في القرآن : ١٥ ـ ١٦ باختصار

(٢) مقدمة الظاهرة القرآنية : ٢٨

الضَّرْبُ من البيان ، الذي يجدونَ في أنفسِهِم أنه خارجٌ من جنس بيان البشر .

وإنَّ هذا التحدّي لم يُقْصَد به الإتيانُ بمثله مطابقاً لمعانيه ، بل أن يـأتوا بمـا يستطيعون افتراءه واختلاقَه ، من كلِّ معنى وغرض ، مما يعتلجُ في نفوس البشر .

. . . وإن ما في القرآن من مكنون الغيب ، ومن دقائق التشريع ، ومن عجائب آيات الله في خلقه ، كلُّ ذلك بمعزلٍ عن هذا التحدي المُفْضي إلى الإعجاز . وإنْ كانَ ما فيه من ذلك كلِّه يُعَدُّ دليلاً على أنه من عند الله تعالى . ولكنه لا يدلُّ على أن نظْمه وبيانَه مباينٌ لنَظْم البشر وبيانهم ، وأنه بهذه المبايَنَة كلامُ رب العالمين ، لا كلامَ بشر مثلِهم »[1] .

ونضيف إلى كلام الأستاذيْن سيـد قطب ومحمـود شاكـر ، كلامـاً رفيعاً جيـداً للدكتور عدنان زرزور في كتابه « علوم القرآن » :

إنَّ العالمين لم يُتَحَدَّوْا بشيءٍ من مَضامينِ القرآن « وإنَّ مضامينَ القرآن كـانت من ذلكَ النوعِ من العلوم والمعارف التي تجاوزتْ بيئةَ النبيِّ الكريم ﷺ ومعـارفِه ، بل تجاوزتْ كذلك العالَمَ القديم كلَّه في عصـره ، والعالَمَ كلَّه كـذلك ، بعـد ذلك العصر وإلى يوم الدين ، وجاء التعبيرُ عن كل هـذه العلوم والمعارف بهـذا الأسلوب العجز ، وبهذا ندرك طَرَفاً من أطراف الإعجاز »[2] .

ويقول الدكتور « زرزور » عن نفس الموضوع : « والذين يتحدثون عن الإعجاز اليوم ، يريدون إلْجَاءَنـا إلى الكلام عمّـا يسمونَـه « الإعجاز العلمي » أو « الإعجـاز التشريعي » أو « الغيبي » وهي الأنواع التي تَحُلُّ اليوم ـ في قضية الدعوة إلى القرآن بالقرآن ـ مشكلة العرب والعجم جميعاً .

ونحن لم ننكرْ أن تكونَ مضامينُ القرآن من أهمِّ وسائلِ تعميمه والدعوةِ إليه . ولكنْ أنكَرْنا أن تكونَ مناطَ الإعجاز الذي وقَع به التحدي .

ومَنْ شاءَ أنْ يسميها « إعجازاً » من باب التَّجَوُّزِ فليفعل ، على ما يعودُ مِنْ عمله

(١) انظر مقدمة الظاهرة القرآنية : ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) علوم القرآن لزرزور : ٢٥٠

هذا على القضية الأساسية من بُعْدٍ وإساءة ، ولو عَنْ غير قصد .

وليسَ معنى انحدارِ الناس إلى « المادَّة » ومقاييسها أن نُغيِّر من طبيعةِ التحدِّي القائم ، لكنْ أن نفهمَ دلالتَه القائمة الحقيقية ، وما عسى أن يكونَ من ورائِهِ من درْس وعبرةٍ في واقع الإنسان القائم ، أو الأفق الذي يريدُ القرآنَ الكريم أن يرفَعَ الناس إليه »[1] .

الإعجاز البياني هو الذي أجمعوا عليه :

رغْمَ اختلافِ العلماء في وجوه الإعجاز ، ورغْم أن بعضَهم أثبت وجوهاً للإعجاز ، ونفى وجوهاً غيرَها ، إلاَّ أنَّ العلماءَ جميعاً أجمعوا على القول بالإعجاز البياني وإثباتِه . وما إجماعُهم على القول به إلاَّ دليلٌ آخر على أنه هو الوجه الذي كان به التحدي ، وأنه أبرزُ وأوضحُ وأشهرُ وجوه الإعجاز ـ إنْ لم يكن هو الوجهُ الوحيد للإعجاز ، كما يقول بعضُ العلماء ـ .

وبعضُهم يطلقُ على هذا الوجه « الإعجازَ البياني » وبعضهم يسميه « الإعجازَ البلاغي » وبعضهم يسميه « الإعجازَ اللغوي » . وكلها مصطلحات تُطلَق على نفس المعنى . ولكننا نفضِّل اسم « الإعجازَ البياني » على غيره .

البيان . . والإنسان :

امتنَّ اللَّهُ على الإنسان بأنْ علَّمَهُ البيَان . فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن : ١ ـ ٤].

والبيانُ هو النطقُ والكلام ، وهو من أوضحِ وأظهرِ نعَمِ الله على الإنسان ، لأنه ضروريٌّ لمهمةِ الإنسانِ وخلافتِه في الأرض .

وهذا البيانُ أو الكلامُ أو النطقُ هو الذي علَّمَهُ الله لآدمَ منذُ أنْ كانَ في الجنة ، وقبل أن يهبط على هذه الأرض : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [سورة البقرة : ٣١] .

---

(١) علوم القرآن : ٢٥٢

والأسماءُ التي علَّمها الله لآدم هي « المنطقُ والبيانُ والكلام » أو هي « الرمزُ بالأسماء للمسَمَّيات » .

إنَّ الإنسانَ ينطقُ ويتكلمُ ، ويستخدمُ البيان ، ويعبِّرُ به عما في نفسه ، ويتفاهمُ به مع الآخرين ويتجاوبُ معهم ، وينسى بطول الألفة ، عظمةَ هذه الهبة ، وضخامةَ هذه الخارقة : « البيان » .

« كيفَ يَنْطقُ باللفظ الواحد ؟

إنَّها عمليةٌ معقَّدة ، كثيرةُ المراحلِ والخطواتِ والأجهزة ، مجهولةٌ في بعض المراحل ، خافيةٌ حتى الآن .

إنها تبدأُ شعوراً بالحاجة إلى النطقِ بهذا اللفظِ لأداء غرض معيَّن . هذا الشعورُ ينتقلُ ـ لا ندري كيف ـ من الإدراكِ أو العَقلِ أو الروح إلى أداة العملِ الحسِّية . . المخّ . . ويُقالُ : إنَّ المخَّ يُصدرُ أمْرَه عن طريقِ الأعصاب بالنطقِ بهذا اللفظ المطلوب ـ واللفظُ ذاته مما علَّمه الله للإنسان وعرَّفه معناه ـ وهنا تَطْرُد الرئةُ قدْراً من الهواء المختزِن فيها ، ليمرَّ من الشُّعَبِ إلى القصبةِ الهوائية إلى الحنجرةِ وحبالها الصوتيَّة العجيبة ، التي لا تُقاس إليها أوتارُ أيةِ آلةٍ صوتية صنَعَها الإنسان . ولا جميعُ الآلاتِ الصوتية المختلفةِ الأنغام ! فيُصَوِّتُ الهواء في الحنجرة صَوْتاً ، تُشَكِّلُه حسبما يُريد العقل . . عالياً أو خافتاً ، سريعاً أو بطيئاً ، خَشِناً أو ناعماً ، ضخْماً أو رفيعاً ، إلى آخرِ أشكالِ الصوت وصفاته . ومع الحنجرةِ اللسانُ والشفتانُ والفكُّ والأسنان ، يمرُّ بها هذا الصوت فيَتَشكَّلُ بضغوطٍ خاصة في مخارج الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصةً يمرُّ كلُّ حرفٍ بمنطقةٍ منه ذاتِ إيقاع معيَّن ، يتمُّ فيه الضغطُ المعيَّنُ ؛ ليُصَوِّتَ الحرفُ بجرْسٍ معيَّن .

وذلك كلُّه لفظٌ واحد . . ووراءَهُ العبارةُ . والموضوعُ . والفكرةُ . والمشاعرُ السابقة واللاحقة . وكلٌّ منها عالَمٌ عجيبٌ غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنسانيِّ العجيبِ الغريب ، بصنعة الرحمن ، وفضل الرحمن[1] .

---

(١) الظلال ٦ : ٣٤٤٧

البيان . . والقرآن :

نظراً لأهميةِ البيانِ في حياة الإنسان أينما كان ، جاءَ القرآن كتابُ البشرية الخالدُ المعجزُ حتى قيام الساعة معجزةً بيانية ، وكان الإعجازُ البياني هو أوضحُ وجوهِ إعجازه .

وحولَ معجزةِ القرآن البيانية ، واتِّصالِ البيان الإنسانيّ بالإعجاز القرآني يقول الدكتور « عدنان زرزور » :

« إنَّ الكلامَ والبيانَ هو ما امتاز به الإنسان . . فجاءَتْ معجزةُ محمد ﷺ بيانيَّة ، للإشارةِ إلى أن هذه الرسالة هي رسالةُ الإنسان ، حيث كانَ الإنسان ، وفي أيِّ زمان وُجد !

بل جَعَلَ دليلَ هذه المعجزة « الناطقة » شيئاً زائداً في هذا البيان ، بَلَغَ حدَّ التحدي ، أن يأتيَ أحدٌ بسورة منه ، فلم يستطع ذلك أحد ، ولن يستطيعَ ذلك أحد ، إشارةً أيضاً إلى فضيلةِ « البيان » التي قد يَتفاضَل بها الناطقون . . .

ولعلَّ في ابتداء نزول القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ ما يشير إلى هذه « الطبيعة الإنسانية » لآخرِ رسالات الله إلى الإنسان . . .

بل لعلَّ تخصيصَ الإنسان بالبيان ، ما يؤكِّدُ جميعَ هذه المعاني ويوحي بها ، فبالبيان يمتازُ الإنسانُ من سائر المخلوقات ، وبميزةِ البيان تمتازُ رسالة الإسلام . وإن شئتَ قلتَ : رسالةَ الإنسان من سائر الرسالات .

ولم يكن البيانُ وقْفاً على لغةٍ من اللغات ، أو أمةٍ من الأمم ، ولكن اختيارَ لغة العرب لينزل بها القرآن ، وليَحْمل بها إلى العالم رسالةَ الإنسان ، يشير إلى فضيلةٍ بيانيةٍ جامعة ، إمتازَ بها اللسانُ العربي على كل لسان . . »[1] .

الإعجاز البياني في الأسلوب والأداء :

القرآنُ له جانبان :

الأول : جانبٌ ظاهريٌّ : وهو ألفاظُ القرآن وجُمَلُه وتراكيبُه ، أَوْ هُوَ أسلوبُ

---

(١) علوم القرآن لزرزور : ٢٥٤ باختصار . نقلاً عن «البيان النبوي» للمؤلف : ٢٠ ـ ٢١ .

القرآن وطرائقُ العرض الفنيِّ فيه ، أو هوَ الصورةُ والشكلُ والقالبُ الخارجي .

الثاني : جانبٌ موضوعي : وهو معاني القرآن وموضوعاتُه ، أو مضامينُ القرآن ومناهجُه وعلومُه ونُظُمُهُ وحقائقه وتشريعاته .

والجانبُ الأولُ الظاهريُّ هو الميدانُ الذي يخوضُ فيه الباحثون في « الإعجاز البياني » وهو الذي يبرزُ فيه ذلك الإعجازُ البياني ، ويتذوّقه الباحثون ويدركونَه ويقفونَ عليه .

أما الجانبُ الثاني فهو الميدانُ الذي يخوض فيه الباحثون في مضـامينِ القرآن ومعانيه ، الذين يستخرجون وجوهَ الإعجاز الأخرى ، مثل الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي والإعجاز التشريعي وغيرها .

الإعجازُ البياني ـ إذن ـ يبحَثُ في أسلوب القرآن وبيانِه وبلاغتِـه ، يبحث في القالب القرآني والشكل القرآني والصورةِ القرآنية الظاهرية .

الإعجـازُ البياني يبحث في : الحـرفِ القرآني ، والكلمـةِ القرآنيـة ، والعبارَةِ القرآنية ، من حيثُ الصياغة والشكل ، لا من حيث المعنى والمضمون والموضوع .

الإعجاز البياني في القشرة السطحية للجمال القرآني :

وَقفَ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، في كتابه الرائد « النبـأ العظيم » وقفةً لطيفةً أمام القشرةِ السطحية للبيان القرآني ، يتملّى الإعجازَ البيانيَّ فيها .

شَبَّهَ الدكتور دراز الأسلوبَ القرآني المعجِزَ باللؤلؤة هذه اللؤلؤة، لها « صَدَفَةٌ » خارجيَّة . وداخلَ هذه الصدفة : « اللؤلؤة » الجميلةُ المشِعَّةُ .

والصَّدَفَةُ الخارجية هي « القِشْرَةُ السطحية » للجمال الفني القرآني .

هذه القشرةُ السطحيةُ تقوم على عنصريْن :

الأوَّل : الجمالُ التوقيعي : « دَعْ القارىءَ يقرأُ القرآن ، يُرتلُه حقَّ ترتيله . . . ثم انْتَبـذْ منه مكـاناً قصيّـاً ، لا تسمعُ فيـه جرْسَ حـروفه ، ولكن تسمـعُ حـركـاتِهـا وسكنـاتِها ، ومـدّاتِها وغنّـاتِها ، واتصـالاتِها وسكنـاتِهـا . ثم ألْقِ سمعَـك إلى هـذه

المجموعة الصوتية ، وقد جُرِّدَتْ تجريداً، وأُرسلتْ ساذجةً في الهواء ، فتجدُ نفسك منها بإزاء لحنٍ غريبٍ عجيب، لا تجدُه في كلام آخر ، لو جُرِّدَ هذا التجريد ، وجُوِّدَ هذا التجويد .

... هـذا الجمالُ التـوقيعي في لغةِ القـرآن لا يخْفى على أحـدٍ ممن يسمـعُ القرآن ، حتى الذين لا يعرفونَ لغةَ العَرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم[1]؟

الثاني : الجمالُ التنسيقي : « فإذا ما اقتربْتَ بأذُنِك قليلاً قليلاً فطرقَتْ سمعَكَ جواهرُ حروفه ، خارجةً من مخارجها الشحيحة ، فاجـأتْكَ منـه لذَّةٌ أخـرى في نَظْمِ تلك الحروف ورصْفها وترتيب أوضاعها فيما بينها : هذا ينْقر ، وذاك يُصَفِّر ، وثالث يهمِس ، ورابـع يجهَـر ، وآخـرُ ينـزلق عليـه النَّفَس ، وآخـر يحتبِسُ النَّفَسَ . وهلمّ جرّا »[2] .

من هذيْن العنصريْن « تتألفُ القشرة السطحية للجمال القرآني ، وليس الشأنُ في هذا الغلافِ إلاَّ كشأن الأَصْداف ممّا تحويه من اللآلىء النفيسة » .

إنَّه « لَمَّا سبقتْ كلمةُ الله أن يصونَ علينا نفائسَ العلوم التي أودَعَها هذا الكتابَ الكريم ، قضتْ حكمتُه أن يختارَ لها صِواناً يُحَبِّبهـا إلى الناس بعـذوبتِهِ ، ويُغـريهم عليها بطِلاوته ، ويكونُ بمنزلة « الحَدَّاء » يستحثُّ النفوسَ على السير إليها . . .

. . . ومن أجل ذلك سيبقى صـوتُ القرآن أبـداً في أفواه النـاس وآذانهم، ما دامت فيهم حاسةٌ تَذوق، وحاسـةٌ تَسْمع ، وإن لم يكن لأكثـرهـم قلوبٌ يفقهون بهـا حقيقةَ سرِّه ، وينفذونَ بها إلى بعيدِ غَوْره . . »[3] .

ألوان الإعجاز البياني الثلاثة :

عـرفْنا أن الإعجـاز البيانيَّ هـو في الأسلوبِ القرآني ، أو القشـرةِ السـطحيـة

---

(١) النبأ العظيم : ٩٤ ـ ٩٥ باختصار

(٢) المرجع السابق : ٩٧

(٣) المرجع السابق : ٩٧ ـ ٩٨ باختصار .

الظاهريةِ للمعاني والموضوعاتِ والمضامينِ واللآلىء القرآنية .

وهذا الإعجازُ البيانيُّ له ثلاثة ألوان :

الأول : الحروفُ وأصواتُها .

الثاني : الكلماتُ وحروفُها .

الثالث : الجملُ وكلماتُها[1] .

وهذه الألوان الثلاثةُ عنـد الدكتـورة « عائشـة عبد الـرحمن » ـ بنت الشاطىء ـ هي :

١ ـ فواتحُ السور ، وسِرُّ الحرف .
٢ ـ دلالاتُ الألفاظ ، وسِرُّ الكلمة .
٣ ـ الأساليبُ ، وسِرُّ التعبير[2] .

وسنتناول هذه الألوان الثلاثة في ما يلي ـ بإذن الله ـ .

أولاً : سِرُّ الحرف :

الجملةُ القـرآنيةُ مؤلَّفـةٌ من عدَّةِ كلمـات ، والكلمةُ القـرآنية مكـوَّنـةٌ من عـدةِ أحرف . وكلٌّ من الجُمل والكلمات والحروف لها دورٌ في بـلاغة القـرآن وفصاحتـه وإعجازه .

حروف المباني وحروف المعاني :

والحروف القرآنية نوعان :

١ ـ حروفُ المباني : وهي الحروفُ التي تُبنى وتُؤلَّفُ وتُكوَّن منها الكلمات . فحروف القافِ والألف واللام ، هي حروف المباني لكلمة « قال » وحروفُ المبـاني يُنظرُ لها عند النظر في « الكلمة » القرآنية .

---

(١) أنظر تفصيل المرحوم مصطفى صادق الرافعي الرائـع لهذه الألـوان في كتابـه «إعجاز القـرآن» ٢١٢ ـ ٢٤٨ .

(٢) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٢٢

٢ ـ حروفُ المعاني : وهي الحروف التي تدلّ على معنى من المعاني ، ولها عملٌ في إعراب الكلمة ، ودورٌ في إعراب الجملة .

وقـدْ يُطلِقـونَ على حروفِ المعـاني اسماً آخـر ، وهـو « الحـروفُ العـاملَة » ويطلِقون على حروف المباني « الحروف غير العاملة » .

وحروف المعاني مثلُ : حروف الجرّ والنَّصبِ والشرطِ والاستفهام والعطف ، والحروف الناسخة للابتداء .

ومِنْ أجودِ الكتب في حروف المعاني كتاب « معاني الحروف » للرّمّاني .

آراء مرفوضة في الحروف القرآنية :

بعضُ الأدباء والباحثين قالوا أقوالاً غيرَ صحيحة في عمل ومعنى بعض الحروف القرآنية ، وتبنَّوْا آراءَ باطلة حولها .

من هذه الآراء :

القولُ بزيادة بعض الحروف في الآيات القرآنية .

والقولُ بتقدير بعض الحروف ، ثم تأويل حذفها .

والقولُ بإلغاء عمل بعض الحروف .

والقولُ بتناوب بعض الحروف عن حروف أخرى .

وقد خاض الأدباءُ والباحثون في أسلوبِ القرآنِ وبلاغتِه وإعجازه كثيراً في هذه الآراء ، وتناولوها في كتبهم ودراساتهم .

وسوف نتكلم عن إبطالِ هذه الآراءِ بإيجاز شديد ، ونحيلُ القارىء على الكلام المختصرِ المفيدِ للدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ في كتابها « الإعجاز البياني في القرآن »[١] .

لا للزيادة في الحروف :

بعضُ البـاحثين ذهبـوا إلى أنَّ بعضَ حـروف المعـاني في القـرآن زائـدة .

---

(١) أنظر المبحث الثاني «رأي في الإعجاز البياني» : ١٢٣ ـ ٢٦٥ من الكتاب المذكور .

ومقصِدُهم أنها زائدةٌ من حيث الإعراب ، وبعضُهم جعلَها زائدةً من حيث المعنى .

وهذا الكلامُ غيرُ صحيح ولا مقبول ، فالحروفُ القرآنية ذاتُ دورٍ وأثرٍ في توضيحِ المعنى وتقريرِهِ ، وفي أسلوبِ القرآن وفصاحتِه وإعجازِه .

وإذا قلنا إن هذا الحرفَ زائد ، فمعنى هذا أنه لا عَمَلَ له ، ولا معنى له ، ولا فائدة منه، وأنه يمكن حذفهُ من الجملة ، وأنه لو حُذِفَ منها لما اختلَّ بناؤها ، ولا تغيرَّ معناها . وبهذا يكون ذكْرُ هذا الحرفِ حشْواً .

وهذا الكلامُ قد يصحُّ في كلامِ البشرِ وعباراتِهم وأساليبِهم ، ولكنه لا يصحُّ في كلامِ الله . لا يصحُّ في أسلوب القرآن وتعبيره وآياته .

وخيْرُ مَنْ يردُّ على الزَّعْم بزيادةِ بعضِ الحروف ، قولُ الله تعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآن . وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله ، لَوَجَدوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً** ﴾ [النساء : ٨٢] .

ونوجِّهُ لهؤلاء قولَ المفسِّرِ الاندلسيِّ ابنِ عطية : « إنَّ الله أحاطَ بالكلام كلِّه ، فإذا أرادَ ترتيبَ اللَفظةِ من القرآن ، عَلِمَ باحاطته أيَّ لفظة تصلُحُ أن تليَ الأولى ، وتُبيِّن المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، منْ أوَّلِ القرآن إلى آخره . والبشرُ يعمُّهم الجهلُ والنسيانُ والذُّهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنْ لا أحدَ من البشر يحيطُ بذلك . فبهذا جاء نظْمُ القرآن في الغايةِ القُصوى من الفصاحة . .

. . ولهذا ترى البليغَ يُنَقِّح القصيدة أو الخطبة حَوْلاً ، ثم ينظر فيها فيغيِّر ، وهلمَّ جرًّا .

وكتابُ الله تعالى ، لو نُزِعَتْ منه لفظة ، ثم أُديرَ لسانُ العرب على لفظة أحسنَ منها ، لم يوجَدْ . ونحن يتبيَّنُ لنا البراعَةُ في أكثره، ويَخْفى علينا وجْهُه في مواضع . . . »[1] .

من الحروفِ التي قالوا إنها زائدة : الباءُ الداخلةُ على خبرِ ليس ، وخبرِ « ما » التي تعملُ عملَ ليس .

---

(١) فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٩٤ ـ ٩٥

كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾ [الأنفال : ٥١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ بضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة : ١٠].

وقوله تعالى : ﴿ ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : ٢٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنون ﴾ [التكوير: ٢٢].

إن الغالبَ في خبرِ «ليس» وخبر «ما» التي تعملُ عَمَلَها ، في الأسلوب القرآنيِّ أن يجيءَ مقترناً بالباء ، حيثُ ورد في عديدٍ من الآيات .

والذين قالوا إن الباءَ في هذه الآيات زائدة : « لاَ يَعْنون بلفظِ الزيادة أَنها تأتي عَبَثاً أو لَغْواً ، وإنما هيَ زائدةٌ عندهم للتأكيد »[1].

ومع ذلك فقولُهم غيرُ مقبول ، إذ « لا يهونُ القول بأنها حرفٌ زائدة ، إذ أنَّ مقتضى القولِ بزيادتِها، إمكانُ الاستغناءِ عنها واطراحُها ، وهو ما لا يؤْنِسُ إليه البيانُ القرآني »[2].

وحتى تُدرك الدكتورةُ « بنتُ الشاطىء » الحكمةَ من اقترانِ خبر ليس وما النافية غالباً بالباء ، قامتْ باستقراءِ الآيات القرآنية التي أوردتْ خبرَ « كان » المنفية ، وخبرَ « ليس » وخبر « ما ». ولاحظتْ متى يُجَرَّدُ الخبرُ من الباء ، ومتى يقترنُ بها . وخرجتْ من هذا الاستقراءِ بقاعدةٍ مطردةٍ لتجريدِ الخبر من الباء ، وقاعدةٍ أخرى لاقترانه بها.

وخلَصتْ « بنتُ الشاطىء » إلى أنَّ الباءَ الداخلةَ على خبر «ما» و«ليس» لا تكون زائدة ، وإنما هي وِفْقَ قاعدةٍ بلاغيةٍ بيانيَّة ، وملحوظةٍ في الأسلوب القرآنيِّ البليغِ المعجز[3].

وعلَّقتْ على استقرائِها ونتيجتِها بقولها : « وإذْ كَشَفَ حرفُ الباءِ عن سرِّهِ

---

(١) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٦٨

(٢) المرجع السابق : ١٧٠

(٣) أنظر ذلك الاستقراء في الإعجاز البياني : ١٧٠ ـ ١٧٦ والنتيجة في : ١٧٦

الأعْلى في البيان ، يبدو القولُ بزيادتِه مما يجْفوهُ حَسُّ العربية المرهَف ، ولا يلطِّفُ من هذه الجفوةِ أن نعلمَ أنهم لم يعنوا بالزيادة مجردَ الحشْوِ أو الفضول . بل أدْرجوها تحتَ الحكم العام لمعنى التأكيد بالباء الزائدةَ »[1].

إنَّ مما يتفقُ مع الإعجاز البياني في القرآن ، اعتبارَ حروفِ المعاني القرآنية عاملةً أصيلةً في سياقِها ، تقومُ بدورها ، وتؤكِّد معناها ، وأنَّ إيرادَها في الآيات وفْقَ أهدافِ وحقائقَ بيانية بلاغية .

ولهذا نقرر : لا للزيادةِ في أسلوب القرآن ، ولا توجَدُ حروفٌ زائدة في التعبير القرآني . ويجب دراسةُ الحروفِ التي قالوا بزيادتها ، والسياقِ الذي وردتْ فيه ، للوقوف على الحِكَمِ البيانيَّةِ البلاغية لإيرادها وذِكْرها .

ونحيلُ ـ لاستكمالِ هذا الموضوع ـ على الكتاب القيم « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » لمحمد عبد الخالق عُضَيْمَة . والكتاب القيم الآخر « دفاع عن القرآن ضدَّ مطاعن النحويّين والمستشرقين» للدكتور أحمد مكي الأنصاري .

لا لتقدير حروف محذوفة :

بعضُ اللغويِّين والنحويّين يقولون في حروف المعاني كلاماً آخر يتناقضُ مع الإعجازِ البياني فيها . حيث يُقدِّرون حروفاً محذوفة ، ويقومون بتأويلِ الآيات على تقديرِ تلك الحروف ، ثم تأويلِ حذْفها.

وأوردتْ الدكتورةُ « بنت الشاطىء» مثالاً على ذلك ، مازعَمَه أولئك النحويّون من تقْديرِ حرف «لا» النافية في هذه الآيات :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ ﴾ [يوسف : ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلّوا ﴾ [النساء : ١٨٦].

وقال تعالى : ﴿ وَعَلى الّذِينَ يُطيقونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكين ﴾ [البقرة : ١٨٤].

---

(١) المرجع السابق : ١٧٦

والتقديرُ في الآيات الثلاثة : لا تَفْتأ. أن لا تضلوا . لا يطيقونه .

وكلامُهُم غيرُ صحيح ، والأَوْلى فهمُ الآياتِ الثلاثة على ما وردتْ به في القرآن ، وعلى عدم تقدير « لا » النافية فيها .

وقد بينَتْ بنتُ الشاطىء المعنى الصحيحَ لكلٍّ من الآيات الثلاثة على ما وردت به[1].

وعلَّقَتْ على زعْمِهم بزيادةِ حرف «لا» في الآياتِ المذكورة بقولها : « والذي نفهمه ، هو أنهُ متى اطَّرَدَ الحذف ـ كقولهم ـ فالسياقُ حَتْماً مُستغنٍ عن المحذوف ، ولا وَجْهَ إذنْ لتقدير الحرف ، ثم تأويلِ حذْفه .

لأن السياقَ متى أعطى المعنى المراد ، مستَغْنِياً عن هذا الحرفَ أو عَنْ غيره ، كان ذكْرُه من الفضول أو الحشو، الذي يَتنزَّهُ عنه الكلامُ البليغ . فضلاً عن البيان المعجز »[2].

إننا مُطالَبون بفهمِ السياقِ القرآني على ما وردَ به ، ولا داعي للقولِ بتقْديرِ حذْفِ بعض حروف المعاني ، لأنَّ عدمَ التقدير أولى من التقدير .

لا لإلغاء بعض الحروف :

ذهبَ بعضُ النحويّين إلى « إلغاء » عَمَلِ بعض حروف المعاني ، فهم لم يقولوا بزيادة ذلك الحرف ، وإنما أبْقوا عليه . ولكنهم ألْغوه وعطَّلوا عمله .

وضربتْ بنتُ الشاطىءِ مثالاً على ذلك ، إلغاؤهم عملَ «لا» النافية في قوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ٤٤] .

تنفي الآيةُ استئذانَ المؤمنين في الجهاد ، لأن الجهادَ لا يحتاج إلى استئذانٍ في خوضه ، باعتبارِه واجباً ومفروضاً ، والمؤمنُ لا يستأذن في أداء الواجباتِ كالصلاةِ والصومِ والزكاةِ والحجِّ والجهاد .

---

(١) أنظر الإعجاز البياني : ١٧٨ ـ ١٨٤

(٢) المرجع السابق : ١٨٤

والـذينَ يستـأذنـونَ في الجهـاد ، ليحصُلوا على إذْنٍ بـالتخلي عنـه ، هم المنـافقون : ﴿ إنّمـا يَسْتَأْذِنُـكَ الّـذِينَ لا يُؤْمِنـونَ بـاللّهِ وَاليَـوْمِ الآخـرِ ، وَارْتَـابَتْ قُلوبُهُم ، فَهُم في رَيْبِهِم يَتَرَدَّدون . وَلَوْ أَرادوا الخُروجَ لأَعَدّوا لَهُ عُدَّة ، وَلكِنْ كَرِهَ اللّهُ انْبِعاثَهُمْ ، فَثَبَّطَهُمْ ، وَقِيلَ اقْعُدوا مَعَ القاعِدين ﴾ [سورة التوبة : ٤٥ ـ ٤٦].

وبما أنَّ المنافقين حريصون على عَدَمِ الجهاد ، فهم يستأْذِنون في الخروج ، لِيَحْصُلوا على إذْن يبرِّرون به قعودَهم . ولهذا قال الله عنهم : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللّهُ إلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَـاسْتَأْذَنوكَ لِلْخُروج ، فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجوا مَعِيَ أَبَداً ، وَلَنْ تُقاتِلوا مَعِيَ عَدُوّاً ، إنَّكُمْ رَضيتُمْ بالقُعُود أَوَّلَ مَرّة ، فَاقْعُدوا مع الخالِفين﴾ [سورة التوبة : ٨٣].

وإذا كانَ المنافقونَ يستأذنون في الجهادِ والخروج لينالوا الإِذْنَ بالعقـود ، فإن المؤمنين على نقيضِ المنافقين في هذا العمل ، فهم لا يستأذنون في الجهادِ بأموالهم وأنفسهم ، والخروجِ إلى الميدان ، كما هو صريحُ الآية ، وصريحُ عمل «لا» النافية فيها.

ولقد قالَ الزمخشري في كشّافه : « ليس من عادةِ المؤمنين أن يستأذنوكَ في أن يجاهدوا ، وكان الخُلَّصُ من المهاجرين والأنصار يقـولون : لا نستـأذنُ النبيَّ أبَداً ، ولَنجاهِدَنَّ معه بأموالنا وأنفسنا »[1].

وعلَّقتْ الـدكتورةُ بنتُ الشـاطىء على زعْمِ بعضِهم إلغاءَ عمـل «لا» النـافيـة وإبطالها ، وحمْلِهم إياها على نفي الإستئذانِ بالْقعود والتخلُّف . فقالت : « ونَحتكِمُ إلى النصِّ القرآني ، فنرى أن حَمْلَ الآية على نفي الاستئذان في التخلُّفِ والقعودِ عن الجهاد وترْكِ الغزو في سبيل الله ، يضيعُ به جلالُ الموقف ومناطُ الاعتبار .

وينبغي أن تُفهمَ الآيـةُ على صـريـحِ نصِّهـا في نفي استئـذانِ المؤمنين «أن يجاهدوا» لا أَنْ يتخلَّفوا ويقعدوا . فليس المؤمنُ بحيث يستأذنُ في أن يؤديَ فريضةَ الجهاد ، كما لا يستأذنُ في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج »[2].

(١) تفسير الكشاف ٢ : ١٩٨ .

(٢) أنظر الإعجاز البياني : ١٨٤ ـ ١٨٦

إذنْ : من لوازم ومقتضياتِ الإعجاز البياني في حروف المعاني ، إعمالُ هذه الحروف ، وعدمُ إلغائِها وإبطالِ عملها .

لا للتّناوب في عمل الحروف :

من حروفِ المعاني حروفُ الجر .

فهلِ تتناوبُ حروفُ الجرِ ؟ وهل تتعاقَب ؟ وهل يمكن أن يأخذَ أحدُهـا مكانَ الآخرَ ، وينوبَ بعضُها عن بعض ؟

هذه قضيةٌ نحويَّةٌ خلافية .

فـالبصريّـونَ لا يجيـزونَ هـذا ، لا في لغـةِ العـرب ولا في أسلوبِ القـرآن . ويعتبرونَ كلَّ حرفٍ في جملةٍ أو آية ، دالاًّ على معناه ، وغيرَ نائبٍ عن حرف آخر ، ولا يمكنُ أن تُفَسَّرَ الجملةُ أو الآيةِ على معنى الحرف الآخر .

ـ والكوفيّون يُجيزون التناوبَ في الحروف ، وتعاقُبَها في عملها ، في لغةِ العرب وفي أسلوب القرآن .

ونحن ننظر في المسألة من زاويةِ الإعجازِ البياني في التعبير القرآني . ونقرر مع المحقِّقين من العلماء والنحويين واللغويين ـ ومنهم البصريّـون وأبو هـلال العسكري وابنُ تيمية وابنُ هشام الأنصاري ـ أنه لا تناوُبَ بين حروف الجرّ في لغة القرآن ، وأنه لا ينوبُ حرفٌ منها عن حرف ، ولا يأخذُ حرفٌ منها عملَ حرفٍ آخر .

وإن ممـا يتفقُ مع الإعجـاز البياني في التعبيـر القرآني ، حمـلَ الحـرف على معناه ، وفهْمَ الآية على معنى ذلك الحرف ، وعدمَ تفسير ذلك الحرف بمعنى حرفٍ آخر .

من الحروف المتناوبَة في رأيهم «في» في قوله تعالى : ﴿ **وَارْتَـابَتْ قُلوبُهُمْ ، فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَـرَدَّدون** ﴾ [سورة التـوبة : ٤٥] حيث قـالـوا : إنهـا بمعنى «مِنْ» أو «اللّام» أي : من ريْبهم ، أو لريبهم يتردَّدون .

ومنها حرف «عن» في قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلّين . الّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهون** ﴾ [سورة الماعون : ٤ ـ ٥] حيث قالوا : إنها بمعنى «في» أي : في صلاتهم ساهون .

ومنها «واو» العطف في قوله تعالى ﴿ **فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء : مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاع** ﴾ [سورة النساء ٣]. حيث زعموا أنها ليستْ بمعنى العطف، إذ لو كانتْ كذلك لجاز الزواج بتسعِ نِساء في نفس الوقت . لأنها تبيحُ المثْنى ، زائدُ الثُّلاث ، زائدُ الرُّباع ، فالحاصل تسعُ نساء. ولهذا قالوا هي بمعنى «أو» التخييرية . أَيْ مَثْنى . أو ثُلاث . أو رُباع[1].

إنَّ كلَّ حرْفٍ من حروف المعاني في القرآن ، ليسَ نائباً عن غيره ، بل يقومُ بعمله النحوي ، ويقررُ معناه البياني ، ويقدِّمُ حكمتَه البلاغية ، ويشارِكُ في الإعجاز البياني الباهر.

وقد أعدَّ الدكتور محمد حسن عواد ـ المدرس في كليةِ الآداب في الجامعة الأردنية ـ بحثاً لطيفاً ممتعاً عن التناوبِ في حروف الجر، ـ وهو «تناوب حروف الجر في لغة القرآن » وَذَكَرَ الخلاف بين البصريّين والكوفيّين في القول بتناوبِ حروف الجرِّ في لغة العرب وفي أسلوب القرآن . وأوْرَدَ كثيراً من الشواهِدِ الشعرية والقرآنية التي زعموا أن فيها تناوباً بين الحروف ، وأوردَ أقوالاً لنحويّين في ذلك التناوب . وأقوالاً لنحويّين آخَرين في رفْضِ التناوب فيها ، وفي فهْمِ تلك الشواهد على وجهها الصحيح .

وقَدْ خَلَصَ الدكتور محمد حسن عواد من بحثه الجيِّد اللَّطيف إلى هاتيْن الحقيقتيْنْ :

« الحقيقة الأولى : بُطْلانُ نيابةِ بعض حروف الجر عن بعضها بعضاً. وإنَّ الشواهدَ التي سيقت للدلالة على التَّعاوُرِ [أي التناوب] راجعةٌ إلى التركيبِ لا إلى الحرف . ورأيْنا أن كلَّ حرَف يؤدي معنى خاصاً به ، لا يؤدِّيه غيرُه ، وقد يَنْجَرُّ مع الحرف معانٍ أخر ، تؤول إلى المعنى الكليِّ الذي يختصُّ به حرفٌ دون غيره . ونحن في ذهابنا هذا المذهب نلتقي مع البصريّين ، ونأخذُ بما قالوه .

فإن وجدْتَ شاهِداً من شواهدِ العربية ، يشيرُ ظاهره إلى أن حرفَ الجر كذا وقعَ

---

(١) انظر إبطال الدكتورة بنت الشاطىء للتناوب في هذه الآيات وغيرها . في الإعجاز البياني : ١٨٨ ـ ١٩٢ .

موقع غيره . فأمْعِنْ النظر في التركيب ، فإنك واجدٌ في النهايـة الحرفَ على بـابِه ، وهو المعنى الذي يفيده ابتداءً .

الحقيقة الثانية : بطلانُ مسألةِ «التَّضْمين » بُطلاناً تاماً . ورأَيْنا أن الشواهد التي سيقت للدلالة على التضمين فيها راجعة إلى مبحث دلالات الألفاظ »[1] .

نكتفي بـذكر هـاتين الحقيقتين ، اللتيْن خلص إليهما الـدكتور عـواد في بحثه القيم ، ونُحيل القارىء على ذلك البحث ، ونوصيه بدراسته لنفاسته .

ونخلُص من مناقشةِ هذه الآراءِ المرفوضةِ في حروف المعاني في القرآن إلى : رَفْضِ القول بزيادةِ بعض تلك الأحرف ، ورفْضِ القـول بتقديـرِ حَذْفهـا ، ورفْضِ القول بإلغائِها ، ورفْضِ القولِ بالتناوب بينها .

ونـردِّدُ مع الـدكتورةِ عـائشة عبـد الرحمن ـ بنت الشـاطىء ـ قـولَهـا عن هـذه المسائل : « ما مِنْ حرْفٍ في القرآن الكريم ، تأَوَّلوه زائداً ، أو قدَّروه محـذوفاً ، أو فسَّروه بحرف آخر ، إلا يتحدَّى بسرِّه البياني ، كلَّ محاولـةٍ لتأويلِه على غيـرِ الوْجـه الذي جاء به في البيان المعجِز »[2] .

وندعو إلى فهم « الحرف » القرآني ، كما وردَ في النصِّ القرآني ، وإلى إطالةِ الوقوفِ أمامَ السياق الذي وردَ فيه ، وإلى تدبُّره ومحاولةِ الخروج بحكمة ورودِه على تلك الصورة . وفهْمِ معناه الذي يلقيه للقارىء .

إننا نعتبرُ أن للحرفِ القرآنيِّ دوْراً في تقـريرِ الإعجـازِ البياني ، والإشـارة إلى بلاغة القرآن وفصاحتِه ، وأنَّ هذا الحرفَ يشاركُ عناصرَ الدلالةِ والإعجازِ الأخرى في التعبير القرآني ، مثلُ الكلمةِ والجملةِ والأسلوبِ والصُّوَرِ والظِّلال .

وقفة مع فواتح السور :

فواتحُ السور هي : الحروفُ المقطَّعة التي افْتُتحتْ بهـا بعضُ سور القـرآن . مثل : ألم . طس . حم .

---

(1) تناوب حروف الجر في لغة القرآن لعواد : ٨٠ .
(2) الإعجاز البياني : ١٢٥

ونقف مع هذه الحروف المقطَّعة وقفةً بيانية موجَزة ، باعتبارها ذاتَ إشارةٍ إلى الإعجاز البياني في القرآن ، وذاتِ دلالةٍ على دور الحرف القرآني في إثباتِ ذلك الإعجاز البياني .

أقوال في المراد بهذه الأحرف :

وقفَ المفسِّرون والبلاغيّون والمتكلِّمون وقفةً طويلةً أمام هذه الأحرف الفواتح ، واختلفوا اختلافاً بيِّناً في تحديدِ معناها ، وبيانِ المراد بها ، وأوردوا في ذلك أقوالًا كثيرة ، ورواياتٍ مختلفة ، وبعضُهم أفردَ لهذه الفواتح كتاباً خاصاً ، مثل «ابن أبي الإصبع المصري» الذي ألَّف فيها كتابه «الخواطرُ السَّوانحُ في أسرارِ الفواتح» .

ومن أقوال السابقين فيها :

١ ـ هي حروفٌ يتكون منها اسمُ الله الأعظم .

٢ ـ تدلُّ على أسماءِ الله ، أو مفاتيحُ لها .

٣ ـ هي أسماءٌ للسور التي وردتْ فيها .

٤ ـ هي من أسماءِ القرآن .

٥ ـ هي حروفٌ للتنبيه .

٦ ـ هي من حروفِ الجُمَّل ، أو حساب « أَبي جاد» الأَبْجَديّ ، وكلُّ حرف منها له عدد ، ومجموعُ هذه الأحرف يشيرُ إلى عمر الأمةِ المسلمة ، أو انتهاء عمر الدنيا ، ووقتِ قيام الساعة .

٧ ـ يشيرُ كل حرفٍ أو أحرف منها إلى غلبةِ وكثرةِ ورودِ ذلك الحرف أو تلك الأحرف في السورة التي ذُكرتْ فيها .

٨ ـ وأراحَ قومٌ آخرون أنفسهم من عناءِ البحث فيها، فقالوا: هي من المُتشابه الذي لا يمكن أن يعلَمَه الناس ، ولكن اللّهَ استأْثرَ واختصَّ بالعلم بها . ولذا قالوا في تفسيرها : اللّهُ أعلمُ بمرادِه منها[1] .

---

(١) انظر هذه الأقوال في «الإعجاز البياني» لبنت الشاطىء : ١٢٨ ـ ١٣٩ .

الراجح في المراد بها :

وتلك الأقوالُ كلُّها مرجوحة ، ومنها ما هو باطل مثل القول السادس . ولا نرى أنها من المتشابه ، وأن اللّهَ استأثرَ بالعلم بها ، ونرى أننا مطالَبون بالنظر فيها وتدبرِها ، ومحاولةِ الوقوفِ على معناها ، وتحديدِ المراد بها .

والراجحُ في هذه الأحرف أنها تدلُّ على التحدّي والإعجاز ، وعلى مصْدر القرآن .

- إنَّ القرآن قد تحدّى الكافرين ، وطالَبهم بالإتيانِ بمثلِهِ ، ووردتْ هذه الأحرفُ المقطعة في أوائلِ سور منه ، لتدلَّ على أن القرآنَ مكوَّنٌ من هذه الأحرف . ولغتَهُم العربية مكوَّنةٌ من هذه الأحرف ، فإذا كانوا يزعُمون أن القرآنَ من كلام محمد ﷺ أو غيرِهِ من البشر ، فها هي الحروفُ المقطعة ، التي صيغَ منها القرآن ، وهي نفسُها التي صيغتْ منها لغتُهم ، ها هي أمامَهُم، فلْيصوغوا منها كلاماً عربياً ، مثلَ هذا الكلامِ العربي المذكور في القرآن .

والتحدّي في هذه الأحرفِ الفواتح ، يوضِّحُه ـ من باب التمثيل للتقريب ـ أن يقفَ طفلٌ متحدِّياً مهندساً معمارِيّاً ناجحاً ، وزاعِماً أنه يستطيعُ أن يبنيَ عمارة متينةً جميلة أحسن من بناء ذلك المهندس . فيتحدَّاه المهندس عمليّاً ، ويضعُ بين يديه الموادَّ الخامَّ التي تُبنى منها العمارة ، من إسمنت وحديد وخشب وماء ورمْل ، ويقول له : هاتِ عمارة كما تدَّعي ، وهذه الموادُ الخامُّ بين يديْك .

- أما دلالةُ هذه الأحرف على الإعجاز ، فإنَّ عَجْزَ العرب عن معارضةِ القرآن ، وقد وُضِعَتْ بين أيديهم الحروفُ المقطعة ـ وهي المواد الخام الأوليّة التي يصاغُ منها الكلام ـ يدلُّ على أن القرآن معجزٌ لهم ، فهو يتفقُ مع لغتِهم في الحروفِ والكلمات والعبارات ، لكنه يفترقُ عنها ، في مستوى ودرجةِ لغته من الفصاحة والبلاغة ، بحيث يصلُ إلى مرتبة الإعجاز . وبذلك يثبتُ مصدرُ القرآن ، وأنه من كلام الله سبحانه .

هذه الأحرفُ إذن : للتحدّي والإعجاز وإثبات مصدر القرآن .

وممن قالَ بهذا القول من السابقين ، الطبريُّ والزمخشريُّ وابنُ كثير وابنُ تيمية

والرازي ، وقال به جمهرةٌ من الأدباء والمفسرين المعاصرين ، على رأسهم محمد رشيد رضا وسيد قطب .

ونكتفي بإيراد قولِ سيد قطب في الظلال عن هذا الأمر :

«إنها إشارةٌ للتنبيهِ إلى أن هذا الكتابِ مؤلَّفٌ من جنس هذه الأحرف، وهي في متناوَلِ المخاطبين به من العرب . ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتابُ المعجز ، الذي لا يمكنُ أن يصوغوا من تلك الحروف مثلَه . الكتابُ الذي يتحدَّاهم مرةً ومرةً ومرةً أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سو. مثله ، أو بسورة من مثله ، فلا يملكون لهذا التحدي جواباً .

والشأنُ في هذا الإعجاز هو الشأنُ في خلْق الله جميعاً . وهو مثلُ صنْعِ الله في كل شيء وصنعِ الناس .

إن هذه التربةَ الأرضيةَ مؤلَّفةٌ من ذراتٍ معلومةِ الصفات . فإذا أخذ الناسُ هذه الذّرَات فقصارى ما يصوغونَهُ منها لبنةٌ أو آجُرَّةٌ ، أو آنيةٌ أو اسطوانةٌ ، أو هيكلٌ أو جهاز . كائناً في دقته ما يكون . .

ولكنَّ اللَّهَ المبدع يجعلُ من تلك الذراتِ حياة . حياةً نابضة خافقة . تنطوي على ذلك السِّرِّ الإلهي المعجِز . . سرِّ الحياة . . ذلك السرُّ الذي لا يستطيعُه بشر ، وَلا يعرفُ سرَّه بشر .

وهكذا القرآن . . حروفُ وكلمات ، يصوغُ البشر منها كلاماً وأوزاناً، ويجعل منها اللَّهُ قرآناً وفُرقاناً . والفرقُ بين صنْعِ الله وصنعِ البشر من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرقُ ما بين الجسدِ الخامد والروحِ النابض . . هو الفرقُ ما بين صورةِ الحياة وحقيقةِ الحياة »[1].

نظرات بيانية تحليلية لطيفة لتلك الأحرف :

نظر السابقونَ نظراتٍ بيانيّةً لطيفةً في الأحرف المقطعة ، وعملوا فيها

---

(١) الظلال ١ : ٣٨ . وانظر الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٣٩ ـ ١٦٦

إحصائياتٍ طريفةً شيّقة ، واعتبروا هذه النظرات والاحصائيات ، إشارةً إلى الإعجاز البياني القرآني ، ودليلاً على مصدر القرآن .

ومن هذه النظرات :

١ ـ عددُ الأحرف المقطَّعة المستخدمة في فواتح السور: أربعةَ عشرَ حرفاً . وهو نصفُ عددِ حروفِ الهجاء العربية .

٢ ـ جمعَ بعضُهم هذه الأحرفَ في عبارةٍ لطيفة ، وهي : « نَصٌّ حَكيمٌ قاطِعٌ لَهُ سِرّ » وهي عبارةٌ كاشفة ذاتُ دلالةٍ وإشارةٍ إلى وظيفة ومهمَّة هذه الأحرف.

٣ ـ عددُ السور المفتتحة بهذه الأحرف : تسعٌ وعشرون سورة ، على عدد حروفِ الهجاء العربية ـ بزيادة حرف «لا» على الثمانيةِ والعشرين ـ.

٤ ـ ذَكَرَ في هذه الحروف ، نصفَ حروفِ الهمْس العشرة ـ والهمْس هو ضَعْفُ التصويتِ مع جَرَيان النَّفَسِ عند النطق بالحرف ـ وحروفُ الهمس المذكورة فيها : الصادُ والكافُ والهاءُ والسين والحاء .

٥ ـ ذَكَرَ في هذه الأحرفِ نصفَ حروفِ الجهر ـ وهو عكسُ الهمْس ـ وحروفُ الجهر ثمانيةَ عشر ، المذكورُ منها في فواتح السورة تسعة هي : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والباء والنون .

٦ ـ ذَكَرَ في هذه الأحرف نصفَ حروف الشِّدَّةِ الثمانية ، وهي : الألف والكاف والطاء والقاف .

٧ ـ ذَكَرَ في هذه الأحرف نصفَ حروفِ الرَّخاوة ـ وهي جَرَيانُ الصوت مع الحرف لضعفِ الاعتماد على المخرجِ ـ وهي عشرون حرفاً ، ذكر منها هنا : اللامَ والميمَ والراءَ والصادَ والهاءَ والعينَ والسينَ والحاءَ والياءَ والنون .

٨ ـ ذَكَرَ فيها نصفَ حروف الإطباق الأربعة ـ وهو تلاقي اللِّسان مع الحَنَكِ الأعلى عند النطق بالحرف ـ وهما : الصاد والطاء .

٩ ـ ذَكَرَ فيها نصفَ حروف الانفتاحِ الأربعة والعشرون ـ والانفتاح نقيضُ الإطباق ـ والمذكورُ منها اثنا عشر حرفاً هي : الألف واللام والميم والراء والكاف

والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون .

١٠ ـ ذَكَرَ فيها نصفَ حروفِ الاستعلاء السبعة ـ والاستعلاء هو ارتفاعُ اللسانِ عند النطق بالحرف إلى الحَنَكَ الأعلى ـ والمذكورُ منها ثلاثة أحرف هي : الصاد والقاف والطاء .

واعتبرنا الأحرفَ المذكورة هي النصف ، لأن حروفَ الاستعلاء هي سبعة ، وهي لا تنصيفَ لها بعدد صحيح .

١١ ـ ذَكَرَ فيها نصفَ حروفِ الإسْتفال ـ والاسْتفالُ : الانخفاضُ وهو نقيضُ الاستعلاء ـ وحروفُ الاستفالِ واحد وعشرون حرفاً ، ذكر منها هنا أَحَدَ عشر حرفاً ، هي : الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون.

والملاحظةُ العجيبة هنا أنه ذَكَرَ من حروفِ الاستفال أَحَدَ عَشَرَ حرفاً وهي أكثرُ من النصف بقليل . وذلك ليتناسَقَ العدد ويتمَّ « التنصيفُ » بين مجموعِ حروفِ الصفتيْنَ . الاستعلاءِ والاستفال . فذكر في الاستعلاءِ ثلاثةً من سبعة ، وذكر في الاستفال أحد عشر من واحد وعشرين ، فيكون المجموعُ أربعةَ عَشَرَ حرفاً من ثمانيةٍ وعشرين . وبهذا يتم « التنصيف » على أتمِّ صورة !.

١٢ ـ صِيغتْ هذه الأحرفُ المقطعة على صيغ تركيبِ الكلمة ، وصِيَغُ الكلمة خمسة . فهي إما مكونةٌ من حرفٍ واحد ، أو حرفينْ ، أو ثلاثةٍ أو أربعة أو خمسة .

السورُ المفتتحَةُ بِحرفٍ واحد ثلاث . والسور المفتتحَة بحرفين تسْعُ . والسورُ المفتتحَة بثلاثةِ أحرف ثلاثَ عشرة سورة . والسور المفتتحَة بأربعةِ أحرف اثنتان . والسور المفتتحَة بخمسةِ أحرف اثنتان .

١٣ ـ السورُ المفتتحَةُ بهذه الأحرف ، مرتَّبةٌ في المصحف ترتيباً عجيباً ، ذو دلالة واضحةٍ على الإعجاز البياني ومصدر القرآن :

أ ـ السورُ المفتتحَة بأحرفِ «ألم» مرتَّبة مع بعضها البعض في مجموعتَيْن : المجموعةُ الأولى سورتان : البقرة وآل عمران . والمجموعة الثانيةُ أربعُ سوَرٍ متواليةٍ هي : العنكبوت والروم ولقمان والسجدة.

ب ـ السورُ المفتتحة بأحرف «ألر» ستُ سور متواليةً في المصحف وهي : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر.

جـ ـ السور المفتتحة بأحرف «طس» و«طسم» والمعروفة باسم «الطَّواسين» ثلاثةٌ متوالية في المصحف، وهي : الشعراء والنمل والقصص .

د ـ السور المفتتحة بحرفَيْ « حم » والمعروفة باسم «الحَواميم» سبعُ سور متوالية في المصحف وهي: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف[1] .

ثانياً / سر الكلمة :

الكلمةُ القرآنيةُ ـ وهي المفردة أو اللفظ ـ ذاتُ دور ملحوظٍ في الإعجازِ البياني القرآني ، وفي تحقيقِ فصاحة القرآن وبلاغته .

وقد وَقَفَ أمام هذه الكلمة القرآنية ، دارسو القرآن في القديم والحديث ، ولاحظوا دوْرَها المساعِدَ في الإعجاز البياني ، وقرَّروا لها هذه المهمة الفريدة .

فها هو الإمامُ أبو سليمان الخطّابي يقول عن الألفاظ القرآنية المعجزة : « لا تَرى شيئاً من الألفاظ أفصحَ ولا أَجْزَلَ ولا أَعْذَبَ من ألفاظ القرآن » .

ويجعل للألفاظ القرآنية دَوْرَها في الإعجاز البياني فيقول : « إنَّ القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاءَ بأفصحِ الألفاظ ، في أحسنِ نُظومِ التأليف ، مُضَمَّناً أصحَّ المعاني »[2] .

وها هو الإمامُ المفسِّرُ ابن عطية يقول: « وكتابُ الله تعالى لو نُزِعتْ منه لفظة، ثم أُديرَ لسان العرب على لفظةٍ أحسنَ منها لم يوجَدْ»[3] .

---

(١) انظر في هذه النظرات والإحصائيات تفسير الكشاف للزمخشري ١ : ١٠٠ ـ ١٠٥ . وانظر أيضاً «علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور : ١٥٥ ـ ١٥٧ . وانظر مبحث «التناسق العددي» من هذا الكتاب .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧

(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي : ٩٥

الكلمات وحروفها عند الرافعي :

بيَّن الأديبُ مصطفى صادق الرافعي شيئاً من سرِّ الكلمة القرآنية ، والإعجازِ البيانِّي فيها ، وجعلَ ثلاثةَ مظاهرَ لهذا الإعجاز ، وهي :

١ . صَوتُ النفْس : وهو الصوتُ الموسيقي ، الذي يتكوّن من تأليف حروفِ الكلمة واجتماعِها ، ومخارجها وحركاتها ، ومدّاتها وغنّاتها .

٢ ـ صوتُ العقل : وهو الصوتُ المعنوي ، الذي يختص بمعنى الكلمة ، ومخاطبتها للعقل والفكر.

٣ ـ صوتُ الحسّ : وهو أبلغُ الأصوات الثلاثة ، وهو اجتماعُ إيقاعِ حروف الكلمة وروعةِ معانيها ، أو هو اجتماعُ صوتِ النفس وصوتِ العقل .

وعلى مقدار ما يكونُ في الكلامِ البليغ من هذا الصوت يكون فيه من روح البلاغة .

وصوتُ الحس ـ الذي هو مجموعُ الصوتيْن السابقيْن ـ هو «روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم »[١] .

وألفاظُ القرآن معجزةٌ « بطريقةِ استعمالها ، ووجْهِ تركيبها ، كأنها فوقَ اللغة » .

إن هذه الألفاظَ «في حركاتها الصَّرفيَّة واللغوية ، تَجْري في الوضع والتركيب ، مَجْرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمْر الفصاحة ، فيهيءُ بعضها لبعض ، ويساندُ بعضُها بعضاً ، ولن تجدَها إلا مؤتلِفَةً مع أصوات الحروف ، مساوِقةً لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانتْ ثقيلةً في نفسها ، لسببٍ من أسبابِ الثقل أيُّها كان ، فلا تعذُبُ ولا تُساغُ وربما كانت أوكسَ النصيبيْن في حَظِّ الكلام من الحرف والحركة .

فإذا هي استُعملتْ في القرآن ، رأيتَ لها شأناً عجيباً ، ورأيتَ أصواتَ الأحرفِ والحركاتِ التي قبْلِهَا ، قد امتهدَتْ لها طريفاً في اللسان ، واكتنفَتْها بضروبٍ من

(١) إعجاز القرآن للرافعي : ٢٢١

النغم الموسيقي ، حتى إذا خرجَتْ فيه كانت أعذبَ شيء وأرقَّه ، وجاءتْ متمكِّنةً في موضعها ، وكانت لهذا الموضعِ أوْلى الحركاتِ بالخفَّة والروعة . . . »[1] .

ويقدمُ الرافعيُّ مِثَالاً على ذلك كلمةَ «النُّذُر» وثِقَلَ الضمةِ عليها : « فإن الضمةَ ثقيلةٌ فيها لتواليها على النّون والذّال معاً ، فَضْلاً عن « جَسْأَةِ » هذا الحرف ، ونُبُوِّهِ في اللسان ، وخاصةً إذا جاء فاصلةً في الكلام » .

ولكن هل كلمةُ «النذر» في القرآن ثقيلة ؟

حلِّلَ هذه الكلمة «النـذر» في قولـه تعالى : ﴿ **وَلَقَـدْ أَنْذَرَهُمْ بَـطْشَتَنا فَتَمـارَوْا بـالنُّذُر** ﴾ [القمـر: ٣٦] وبيِّن حُسْنَهـا وجَمـالهـا ، وزوالَ الثِّقـل والجَفـوَةِ والجَسْـأة عنها[2] .

وتابعَ الرافعيُّ نَظَرَهُ في حروف الكلماتِ القرآنية المعجزةِ ، فوقفَ عنـد أطولِ كلماتِ القرآن ، وأكثرِها حروفاً ، وبيَّن جمالَها الباهر ، وتأثيرَها الساحر ، الذي يدل على إعجازها الفريد .

« وقد وردت في القرآن ألفاظٌ هي أطولُ الكـلام عددَ حـروفٍ ومقاطـع ، مما يكون مستَثْقَلاً بطبيعةِ وضْعِه أو تركيبه . ولكنها بتلك الطريقة التي أومأْنا إليها [وهي النظمُ والإيقاعُ الموسيقي] قد خرجتْ في نظمْـه مخرجـاً سَرِيَّـاً ، فكانت من أَحْضَرِ الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقاً ، وأخفِّها تركيباً ، إذْ تراه قد هيأَ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوُّع الحركات . . » .

كلمة « ليستخلفِنَّهم» في قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنـوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْض** ﴾ [سورة النور: ٥٥] مكوَّنةٌ من عشـرة أحرف ، وقد جاءَتْ عذوبتُها من تنوُّع مخارج الحروف ، ومن نظْمْ حركاتِها ، وبذلك صارتْ في النطق كأنها أربعُ كلمات ، إذ تُنطَق على أربعة مقاطع .

وكلمـةُ «فسيكفيكهم» في قـولـه تعـالى : ﴿**فَسَيَكْفيكَهُمُ اللَّه ، وَهُـوَ السَّميـعُ**

(١) المرجع السابق : ٢٢٧

(٢) المرجع السابق : ٢٢٧ ـ ٢٢٨

العَليم ﴾ [سورة البقرة: ١٣٧]. مكوَّنة من تسعةِ أحرف ، وهي ثلاثةُ مقاطع ، وقد تكررتْ فيها الياءُ والكاف ، وتوسَّطَ بين الكافيْن هذا المدُّ الذي هو سِرُّ الفصاحةِ في الكلمة كلِّها »[1].

نكتفي بهذا المقدار وهذه النماذج التي أوردَها الرافعيُّ عن سرِّ الكلمة القرآنية ، ونُحيلُ على نماذجَ أخرى ، وتحليلِه الشيِّق لها في مبحث «الكلمات وحروفها » من كتابه « إعجاز القرآن »[2].

إن الرافعيَّ يركِّزُ على إعجاز النغَمِ الموسيقي ، ويرى أن هذا النغَّمَ الموسيقيَّ يقوم بالدرجة الأولى على الألفاظ ، وعلى الجانب الصوتي منها على وجه الخصوص » كما يقرر ذلك الدكتور عدنان زرزور[3].

مع الدكتور دراز في ملاحظته :

تكلم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « النَّبأ العظيم » عن «اللفظ» القرآني ، ودلالته على معناه دلالةً وافيةً صافيةً تامة ، ودعا القارىء إلى القيامِ بتجربةٍ عمليةٍ ميدانية حول الكلمات القرآنية لينظر كَمْ يمكن أن يجدَ من كلماتٍ زائدة يمكنُ أن يلغيها .

يقول عن « القصْدِ في اللفظ والوفاءِ بحق المعنى » في الألفاظ والتعابير القرآنية : « انْظُرْ حيثُ شئت من القرآن الكريم ، تجدُ بياناً ، قد قُدِّرَ على حاجةِ النفْس أحسنَ تقدير ، فلا تحسُّ فيه بتُخمةِ الإسراف ، ولا بمخمصة التقتير .

يؤدي لك من كل معنى صورةً نقيةً وافية :

نقية : لا يشوبُها شيءٌ مما هو غريب عنها .

وافية : لا يشذُّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحِقها الكمالية .

كلُّ ذلك في أوجزِ لفظ وأنقاه . ففي كل جملةٍ منه جهازٌ من أجهزةِ المعنى ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي : ٢٢٩

(٢) أنظر المرجع السابق : ٢٢٠ ـ ٢٣٥

(٣) علوم القرآن لزرزور : ٢٤٣ ـ ٢٤٦

وفي كل كلمةٍ منه عضوٌ من أعضائه ، وفي كل حرفٍ منه جزء بقدره . وفي أرضاعِ كلمـته من جُمَلِه ، وأوضـاعِ جُمَلِه من آياتـه ، سرُّ الحيـاة ، الـذي ينتـظَمُ المعنى بأداته . وبالجملةِ ترى ـ كما يقول الباقلّاني ـ « محاسنَ متوالية ، وبدائعَ تَتْرا » .

ضَعْ يدكَ حيثُ شئتَ من المصحف ، وعُدَّ ما أحصتْهُ كفُّك من الكلمات عَدّاً ، ثم أَحْصِ عدَّتَها من أبلغِ كلام تختارُه ، خارجاً عن الدَّفتيْن ، وانظرْ نِسبـةَ ما حـواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك .

ثم انظر : كَمْ كلمةً تستطيعُ أن تُسقطها أو تُبدِّلَها من هذا الكلام ، دون إخلالٍ بغَرضِ قائله ؟ وأيَّ كلمةٍ تستطيعُ أن تسقطَها أو تبدِّلَها هناك ؟ فكتابُ الله ـ كما يقول ابنُ عطية ـ « لو نُزعتْ منـه كلمة ، ثم أُديـرَ لسانُ العـرب على لفظةٍ أحسنَ منهـا لم توجَدْ »[1] .

لا للترادف في ألفاظ القرآن :

وتقودُنا وقفتُنا أمامَ الإعجـاز البياني في كلمـات القرآن ، إلى قضيـةٍ بلاغيـة ، نتكلم عنها بمنتهى الإيجاز .

تلك هي قضية « التّرادف » في كلمات القرآن .

والترادف هو: تعدُّدُ الألفاظِ للمعنى الواحد . أيْ وجودُ لفظيْن أو أكثر ، يدُلّان على نفس المعنَى . ومثّلوا لـه بأسمـاء السيف ، مثل : الصـارم والمهنّـد والحسـام والقضيب .

وهذه القضية البلاغية خلافية :

فمن السابقين مَنْ قال بالترادف في اللغة العربية وفي القرآن الكريم . منهم : ابن السِّكِّيت والفيروزابادي ، والمبرد ، وقطرب ، والرازي ، وابن خالوية .

وقـد ألَّف «المبرد» كتـاباً في المتـرادف في القـرآن ، أسمـاه « مـا اتَّفق لفـظه واختلف معناه من القرآن المجيد » . قال في مقدمته : «هذه حروفٌ ألَّفناها من كتاب

(١) النبأ العظيم للدكتور دراز : ١٠٥

الله عزَّ وجلَّ ، متفقةُ الألفاظ مختلفةُ المعاني ، متقاربةٌ في القول ، مختلفةً في الخبر ، على ما يوجَدُ في كلام العرب ، لأنَّ من كلامهم اختلافَ اللفظيْن لاختلاف المعنيْين ، واختلافَ اللفظيْن والمعنى واحد ، واتفاقَ اللفظيْن والمعنى واحد »[1] .

لكن المحقِّقين من السابقين والمعاصرين على منع الترادف في اللغة وفي القرآن .

ومن هؤلاء الإمامُ اللغوي « أبو هلال العسكري » الذي ألَّف كتاباً رائعاً في بيانِ الفُروق بين الكلمات المتقاربةِ في معناها ، ومنْعِ ما زُعِمَ فيها من الترادف ، وهو كتاب « الفروق في اللغه » وجعلَ الباب الأول من الكتاب خاصّاً « في الإبانةِ عن كوْنِ اختلاف العبارات والأسماء موجِباً لاختلاف المعاني في كل لغة ، والقول في الدلالة على الفروق بينها »[2] .

ومن هؤلاء الإمامُ اللغوي أحمد بن فارس ـ صاحبُ الكتابيْن العظيميْن : معجم مقاييس اللغة ، والصّاحِبي في فقه اللغة ـ حيث قال في كتاب «الصّاحبي » عن الترادف : « ومذهبُنا أن كلَّ صفة منها ـ أي الصفات الواقعة على الشيء الواحد ـ معناها غيرُ معنى الأخرى . وقد خالَف قومٌ في ذلك ، فزعموا أنها وإن اختلفتْ ألفاظُها فإنها ترجع إلى معنى واحد »[3] .

ومن طريفِ ما يروى في الخلافِ بين أنصار الترادف في اللغة ، وبين معارضيه ومنكريه أن الإمامَ اللغوي «ابنَ خالويه » كان يوماً في مجلس «سيف الدولة الحمداني » في حلب ، فقال : أحفظُ للسيف خمسين اسماً .

فتبسمَ الإمامُ أبو علي الفارسي ـ وكان من منكِري الترادف ـ وقال له : ما أحفظُ له إلا اسماً واحداً ، وهو السيف .

ولما سأله ابنُ خالويه : فأينَ المهند ، والصارم ، والقضيب ، والحسام ، وكذا وكذا ؟ . .

---

(١) انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٩٥ ـ ١٩٦

(٢) انظر الفروق في اللغة للعسكري : ١٣

(٣) انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٩٧

أجاب أبو علي الفارسي : هذه صفات ! وكأنَّ الشيخَ لا يفرِّقُ بين الاسم والصفة ! »[1].

ومن العلماء الذين راعَهم القولُ بالترادف في ألفاظ القرآن فحاربوا هذا القول وفنَّدوه وأبطلوه ، وأبانوا عن الفروق بيْن الألفاظ التي زعموها مترادفة . الإمامُ « الحكيم الترمذي » صاحب المؤلَّفات الكثيرة الشهيرة . حيث ألَّف كتاباً قيِّماً عظيماً ، أسماه « الفروق ومنْع الترادف » وجعلَه خاصاً في بيان الفروق بين الألفاظ القرآنية المتقاربة .

ووضَّح كتابَهُ « الفروق ومنع الترادف » بكتابٍ آخر قيِّم رائع هو « تحصيل نظائر القرآن »[2].

مع الدكتورة بنت الشاطىء في دراستها لنقض الترادف :

قامت الدكتورةُ عائشة عبد الرحمن بجهد طيب في محاولتها لمنْع الترادف بين كلماتٍ قرآنية متقاربة ، ظنَّها بعضُهم مترادفة ، وبيَّنتْ الفروقَ التي بينها . وأثبتتْ ذلك في كتابها « الإعجاز البياني للقرآن ».

قالت في مقدمة مبحث « دلالات الألفاظ وسر الكلمة »: « من قديم شَغلتْ قضيةُ الترادف علماءَ العربية، واختلفتْ مذاهبهم فيها. والبيانُ القرآني يجب أن يكون له القولُ الفصْل فيما اختلفوا فيه، حين يَهْدي إلى سرِّ الكلمة لا تقوم مقامها كلمة سواها ، من الألفاظ المقولِ بترادفها »[3] .

وقد تتبعتْ ألفاظاً قرآنية زعموها مترادفة في سياق القرآن . وقالت في مفتتح ذلك الاستقراء : « شهِدَ التتبعُ الاستقرائيُّ لألفاظ القرآن في سياقها ، أنه يستعملُ اللفظَ بدلالةٍ معينة لا يمكن أن يؤديها لفظٌ آخر ، في المعنى الذي تحشدُ له المعاجم وكتبُ التفسير عدداً قلَّ أو كثر من الألفاظ »[4].

---

(١) المرجع السابق : ١٩٥

(٢) انظر مقدمة محقق كتاب «تحصيل نظائر القرآن » للترمذي : ١٠ ـ ١٥

(٣) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء : ١٩٣

(٤) المرجع السابق : ١٩٨

وختمت دراستَها لتلك الألفاظ بقولها : « وقد ينبغي لي أن أعترفَ هنا بقصوري عن لمْح ِ فروقِ الدلالة لبعض ألفاظ قرآنية تبدو مترادفة ، فليس لي إلا أن أقر بالعجز والجهل ، وأنا أتمثلُ بكلمة ابنِ الأعرابي : كلُّ حرفيْن أوْقَعَتْهُمَا العربُ على معنى واحد ، في كلٍّ منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفْناه فأخبرْنا به ، وربما غمضَ علينا ، فلم نلزِم العربَ جهلَه . . »[1].

والألفاظُ المتقاربةُ التي بينت الفروقَ بينها في دراستِها الممتعة الطيبة هي : الرؤيا والحلم . وآنس وأبْصَر . والنأيُ والبُعْد . وحَلَفَ وأقسم . وتصدَّع وتحطَّم . والخشوع والخشية . والخضوع والخوف . وزوج وامرأة. وأشتات وشتى . والإنس والإنسان. والنعمة والنعيم[2].

ونحيل القارىءَ على تلك الدراسة لنفاستِها ولملاحظةِ الفروقِ التي أوردْتها .

ثالثاً : سرُّ التعبير

غلوُّ اللفظيِّين والأسلوبيِّين في عناصر البلاغة القرآنية :

العبارةُ القرآنية هي الجملةُ المؤلَّفة من عدةِ كلمات وحروف ، فهي جامعةٌ للّونيْن السابقين ، اللذينْ تحدثْنا عنهما قبل قليل ـ وهما سر الحرف ، وسر الكلمة ـ .

والإعجازُ البياني القرآني في حروف القرآن ، وفي كلماته ـ وهذا ما تحدثنا عنه من قبل ـ وهو أيضاً في عباراتِه وجُمله وتراكيبه ، أو في أسلوبه وطرقِ أدائه .

وإذا كان بعضُ السابقين قد وقفُوا عندَ بلاغة كلمات القرآن وألفاظه ، وأهملوا النظر في نظمْ القرآنِ وأسلوبِ تعبيره ـ وهم أنصارُ « الألفاظ » على حسابِ المعاني مثل القاضي عبد الجبار المعتزلي ـ فقد عارضَهُم آخرون من السابقين ، ووقفوا عند بلاغةِ النظمْ القرآني وأسلوبه ، وجعلوا فيه البلاغةَ والإعجاز ، وأهملوا بلاغةَ حروف القرآن وكلماته ـ وهم أنصارُ «المعاني» وعلى رأسهم الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن «النظم القرآني ».

---

(١) المرجع السابق : ٢٢٠

(٢) انظر المبحث «دلالات الألفاظ وسر الكلمة» : ١٩٣ ـ ٢٢٠

ولا يخلو كلٌّ من الفريقيْن ـ اللفظيّين والأسلوبيّين ـ من مغالاة في آرائهما.

هذا الغلوُّ بدأه «اللفظيّون» الذين انتصروا للفظ في معركة «اللفظ والمعنى» حيث نقل الجاحظُ قولَ قائلهم «البلاغةُ والمزيّة للألفاظ، والمعاني على قارعةِ الطريق، يستطيع كلُّ شخص تناولَها».

وقد ردَّ عليهم «الأسلوبيّون» ـ أنصارُ المعاني والنظم والأسلوب ـ بغلوّ، أهملُوا فيه دورَ الحروف والكلمات في الفصاحة والبلاغة، وجعلُوا هذا كلَّه للمعاني والنظْم والأسلوب، وانتصروا للمعنى في معركة «اللفظ والمعنى».

وسبق أن تكلمْنا عن رأْيِ رائدِ الأسلوبيّين «عبد القاهر الجرجاني» عن «الألفاظ والمعاني» ونفيهِ أن تكونَ الفصاحةُ والبلاغة ـ ومن ثم الإعجاز ـ في الكلمات المفْرَدَة، أو في مجَرَّد معانيها، أو في حركاتِها وسكناتِها، أو في المقاطع والفواصل في العبارة، أو في خِفَّة الحروف والكلمات على اللسان، أو في الاستعارة في العبارة فقط.

وقصْرِه الفصاحةَ والبلاغة والإعجاز على «النظْم»: الذي هو توخيً معاني النحو وأحكامه فيما بينَ الكلمات والجُمَل والفقرات[1].

ولا يخلو نفيُ الإمام الجرجاني البلاغةَ عن الحروف والألفاظ، وإغفالُه إغفالاً تاماً مكانةَ الألفاظ والمقاطعَ في البلاغة والإعجاز، لا يخلو هذا من غلوٍّ، دفعهُ له ردُّه على اللفظيين.

إن كلامَ إمام البلاغيّين «عبد القاهر الجرجاني» عن النظْم القرآني في غاية الروعةِ والنفاسة، وإن نظريَّته عن النظم القرآني نظريةٌ فريدةٌ رائدة في عالَم البلاغة والإعجاز.

ومع هذا نعتقدُ أن أهمَّ نقْدٍ يوجَّه لتلك النظرية الفريدة هو إغفالُ صاحبها لدوْر الألفاظِ والمقاطع في البلاغة والإعجاز.

---

(١) انظر كلامنا عن نظرية عبد القاهر في النظم في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وانظر كتابه «دلائل الإعجاز» بتحقيق محمود شاكر: ٥٥ ـ ٥٦.

ولو أضافَ « عبدُ القاهر » إلى نظريته عنصرَ اللفظ والمقطع . وجعَلَ لاختيار اللفظ القرآني ، وجمالِ المقطع القرآني ، دوراً في البلاغة والإعجاز . لكادتْ نظريتُه أن تخلُوَ من النقد والنقص .

لكنَّ النقْصَ من سماتِ أعمال البشر ، وسبحان مَنْ جَلَّ عن الخطأ ، وَسَمَتْ أعمالُه فوق النقْد ، وخَلَتْ أفعالُه من النقص[1] .

عناصر البلاغة القرآنية في رأي جامع لسيد قطب :

لسيد قطب رأيٌ جامعٌ لطيف في عناصر البلاغة في العبارة الأدبية ، وفي العبارةِ القرآنية ، وهو في هذا الرأي أَخذ محاسِنَ الفريقَيْن في قضية «اللفظ والمعنى» - اللفظيِّين والأسلوبيِّين - وتلافَى المآخذَ التي تُؤخَذ عليهم ، وتَرَكَ الغلوَّ عند كلٍّ منهم ، أو قُلْ : جَمَعَ بينهم .

قال عن عناصر تلك البلاغة :

« وتستمدُّ العبارةُ دلالَتَها - في العمل الأدبي - من :

١ـ مفردات الدلالاتِ اللغوية للألفاظ .

٢ـ الدلالةِ المعنوية الناشئةِ عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين .

٣ـ الإيقاعِ الموسيقي الناشيء من مجموعة إيقاعات الألفاظ ، متناغِماً بعضُها مع بعض .

٤ـ الصورِ والظلال التي تشعها الألفاظ ، متناسقة في العبارة .

٥ـ الأسلوب : أو طريقة تناول الموضوع والسير فيه . أي : التنسيق الذي يسمحُ لكل لفظٍ بأن يشعَّ شحنتَه من الصور ومن الإيقاع ، والذي يؤلِّف إيقاعاً متناسقاً بين الألفاظ ، وظلالاً متناسقة كذلك من ظلالِ الألفاظِ »[2] .

ونلاحظُ كيف جمعَ سيد قطب هنا - بفطنةٍ وذكاءٍ ووعْي - بين اللفظ والمعنى

---

(١) انظر أهم نقد لنظرية عبد القاهر في كتاب علوم القرآن لعدنان زرزور : ٢٣٥ ـ ٢٤٠

(٢) النقد الأدبي لسيد قطب : ٤١

والعبارة والصور والظلال والإيقاع الموسيقي والأسلوب ، وجعلها « كُلًّا » مجتمعاً متناسقاً في البلاغة الفريدة .

وهو بهذا يجمعُ بين عدةِ مدارس في الأدب والبلاغة ، ويوفق بينها .

ويتكلم عن هذه العناصر في «الظلال» فيقول: «إن في هذا القرآن سرًّا خاصًّا، يشعرُ به كلُّ مَنْ يواجِه نصوصَه ابتداءً، قبل أن يبحثَ عن مواضِعِ الإعجاز فيها. إنه يشعرُ بسلطانٍ خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئاً ما وراءَ المعاني التي يدركُها العقل مِنَ التعبير . وأن هنالك عنْصُراً ما ينسكبُ في الحس بمجرد الإستماع لهذا القرآن . . هذا العنصر يصعب تحديد مصدره :

أهو العبارة ذاتُها ؟

أهو المعنى الكامنُ فيها ؟

أهو الصورُ والظلال التي تشعها ؟

أهو الإيقاعُ القرآني الخاص المتميِّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟

أهي هذه كلها مجتمعة ؟

أم إنها هي ، وشيءٌ غيرُها غيرُ محدود ؟ .

ذلك سرٌّ مودَعٌ في كل نصٍّ قرآني ، يشعر به كل مَنْ يواجه نصوصَ هذا القرآن ابتداءً . . ثم تأتي وراءه الأسرارُ المدرَكَةُ بالتدبُّر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله . . »[١] .

خصائص القرآن البيانية عند الدكتور دراز :

عِشْنا مع الدكتور محمد عبد الله دراز ، من قبل لحظاتٍ ممتعة شيِّقة ، وذلك عند كلامِنا عن بيانه « الإعجازَ البياني في القشرة السطحية للجمال القرآني » بعنصرَيْها : الجمال التوقيعي في أصوات حروف الكلمات ، والجمال التنسيقي في ترتيبها وتناسُقِها .

وبيّنّا أن الدكتور دراز يرى أن تلك «القشرة السطحية » بمثابة «الأصْداف»

(١) الظلال ٦ : ٣٣٩٩ .

الجميلة، التي تُحيطُ باللؤلؤة النفيسة، وما فيها مِنْ حبّات الدّرّ وذرات اللؤلؤ[1].

وحبات الدرّ في « اللؤلؤة القرآنية » المعجزة - إذا صح هذا التعبير - هي المعاني والأسلوب والأداء في التعبير القرآني المعجز .

وفي ذلك يقول : « فإذا أنت لم يلْهِك جمالُ الغطاء عما تحتَه من الكنز الدفين ، ولم تحجُبْك بهجةُ الأستار عما وراءها من السر المصون ، بل فلَيْتَ القشرة عن لبها ، وكشفتَ الصدفة عن دُرِّها ، فنفذْتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقِيَكَ منه ما هو أروع وأبدع »[2].

ودعوة الدكتور دراز تعني النظرَ في خصائصِ القرآن البيانية ، حيث جاءت ألفاظُه أدواتٍ لنقْل المعاني إلى السامع « وهذه الناحية هي أعظم الناحيتين أثَراً في الإعجاز اللغوي ، إذ اللغاتُ تتفاضلُ من حيثُ هي بيان ، أكثرُ من تفاضُلِها من حيث هي أجراسٌ وأنغام ».

وقد بيَّن الدكتور دراز « خصائصَ القرآن الأسلوبية البيانية العامة » كما تبدو في أيَّةِ قطعة قرآنية - والقطعة هي الآية الطويلة أو الآيات القصيرة ، أو السورة القصيرة -.

وقدَّم لهذه الخصائص الرائعة التي لاحظها بقوله: « لسْنا ندري والله ماذا نقول لك في أسلوب معجزٌ في وصفه ، كما هو معجزٌ في نفسه ؟ غير أننا نقول كلمةً هي جملةُ القول فيه . وهي أنه « تلتقي عنده نهاياتُ الفضيلةِ كلِّها ، على تباعُدِ ما بين أطْرافها »[3] .

وتكلم الدكتورُ دراز عن تلك الخصائص البيانية الأسلوبية المعجزة ، كلاماً في غايةِ الروعة ، وقِمَّةِ النفاسة ، ومنتهى الفصاحة والبلاغة . وسوف نقوم بتلخيصِه وذكْر موجَزِه فيما يلي . لكنَّ هذا التلخيصَ الموجز له ، لا يُغْني القارىء عن الوقوفِ عليه ، والاستمتاع بقراءته .

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب

(٢) النبأ العظيم : ٩٩ .

(٣) المرجع السابق : ١٠١ .

١ ـ القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى :

وهي أهمُّ هذه المزايا والخصائص ، ولذلك أطالَ الدكتور كلامه الشيق الممتع عنها ، وعرَضَ الأمثلةَ عليها .

«وهو يرى أن «القصدَ في اللفظ» و «الوفَاء بحق المعنى» نهايَتان ، يستحيلُ الجمعُ بينهما في أدبٍ ولغةٍ وبيانِ البشر ، مهْما كانوا فصحاء بلغاء .

فالذي يعمدُ إلى إدّخارِ لفظِهِ أو عدمِ الانفاق منه إلا على حدٍّ الضرورة ، لا ينفكُّ من أن يحيفَ على المعنى قليلاً أو كثيراً .

والذي يعمدُ إلى الوفاء بحقِّ المعنى ، وتحليلِه إلى عناصره ، وإبرازِ كلِّ دقائقه « بقدْرِ ما يحيط به علمُه ، وما يؤديهِ إليه إلهامُه » لا يجدُ له بُدّاً من أن يمدَّ في نَفَسه مدّاً ، لأنه لا يجدُ في القليل من اللفظ ما يشفي صدَره ، ويؤدي عن نفسه رسالتَها كاملة ، فإذا أعطى نفسه حظَّها من ذلك لا يلبثُ أن يباعِد ما بين أطرافِ كلامه ، ويبطىءَ بك في الوصول إلى غايته . . .

عامَّةُ مَنْ نعرفُهم من الفصحاء ـ قُدامى ومُحْدَثين ـ يُؤْتَوْن من هذا الجانب غالباً ، أعني جانبِ الإملالِ والإسراف ، لا جانبِ الإخلال والإجحاف . . .

ذلك هو أن البلغاء . . لا يبلغُ الواحد منهم بعملِه غايةَ أمله . وإنما يصلُ إلى كمالٍ نسبي ، بقَدْرِ ما يحيطُ به علمه ، وما يؤديه إليهِ إلهامُه في الحال .

أما الوفاء بالمعنى حقَّ وفائه . . فذلك لا يستطيعُ أن ينتحلهَ رجلٌ اكتوى بنار البيان ، فضْلاً أن ينحلَهُ لإنسانٍ غيره .

وآيةُ ذلك أنك تراهُ حين يتعقَّبُ كلامَ نَفْسِه في الفَيْنَة بعد الفينة، يجدُ فيه زائداً يمحوه ، وناقصاً يُثبته ، ويجدُ فيه ما يهذِّب ويبدِّل ، وما يقدِّم أو يؤخر ، حتى يسلكَ سبيلَه إلى النفس سوياً . ولعله لو رَجَعَ إليه سبعينَ مرة ، لكان له في كل مرةٍ نظرة . . .[١] .

---

(١) يطيب لي أن أثبت هنا جملةً نفيسة قالها «العماد الأصفهاني» : «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلا قال في غدِهِ : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيدَ كذا لكان يستحسن ، ولو

هذا حظُّ الكلامِ البليغ عند قائله ، فما ظنُّك بناقديه ومنافسيه ؟ . .

ولئن ظفرتَ بأحدٍ وُفقٌ لتقريب تَيْنِكَ الغايتيْن ـ القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى ـ إلى حدٍ ما في جملةٍ أو جملتيْن ، فتربَّصْ به كيف يكون أمرُه بعد ذلك . وانظرْ كيفَ يدركُه الكَلال والإعياء ، وفِتْـرَةُ الطبـعِ الإنساني ، فينحـلُّ من عقدةِ لسـانه مـا كان وثيقاً ، ويقابلُ من زهرته ما كان غضّاً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوَّته إلا في الشيءِ بعدَ الشيء ، كما تصادِفُ في التراب قطعةً من التِّبْرِ ها هنا، وقطعة هنالك . فتقول : هذا نفيسٌ جيد ، وهذا أنفسُ وأجودُ ، وهذا هو واسطةُ العِقْد وبيت القصيد . .

لقد أجمعتْ كلمةُ العلماء على أن أبرعَ الشعراء ، لم يبلُغوا مرتبةَ الإجادةِ إلا في أبياتٍ معدودة ، من قصائد معدودة . .

فإنْ سرَّكَ أن ترى كيف تجتمعُ هـاتان الغـايتان على تمـامِهما ، بغيـر فترة ولا إنقطاع : فانظرْ حيثُ شئت من القرآن الكريم ، تجدْ بياناً قد قُدِّر على حاجة النفس أحسنَ تقدير ، فلا تَحُسُّ فيه بتخمةِ الإسراف ، ولا بمخمصةِ التقتير

يؤدي لك من كل معنى صورة نقيةً وافية :

نقية : لا يشوبُها شيء مما هو غريب عنها .

وافية : لا يشذُّ عنها شيءٌ ؟ من عناصرِها الأصلية ، ولواحقِها الكماليَّة .

كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه .

ففي كـل جملةٍ منه جهَـازٌ من أجهزةِ المعنى ، وفي كـل كلمةٍ منـه عضـوٌ من أعضائه ، وفي كل حرفٍ منه جزءٌ بقدَره . وفي أوضاع كلماته من جُمَله ، وأوضـاع جُمَله من آياته ، سرُّ الحياة الذي ينتظمُ المعنى بأداته ، وبـالجملةِ ترى ـ كمـا يقول الباقلّاني ـ « محاسنَ متوالية ، وبدائعَ تَتْرا » .

= قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبَرْ ، وهـو دليلُ استيـلاء النقص على البشر» وعلّق على هذا الدكتور عيسى عبده ، فقال : «ولقـد نظرتُ في كثيـر مما خطَّتْهُ يدُ الإنسان ، فلم أجِدْ كمقالِ العماد صواباً . ولقد نظرتُ في كتاب الله ، وعجبتُ كيف يُدْعى ما عداه كتاباً » .

ضعْ يدكَ حيثُ شئتَ من المصحف ، وعُدَّ ما أحصتْهُ كفُّك من الكلمات عدّاً ، ثم أَحْصِ عِدَّتها من أبلغِ كلام تختارُه ، خارجاً عن الدفتيْن ، وانظر نسبةَ ما حواهُ هذا الكلام من المعاني إلى ذاك .

ثم انظر : كمْ كلمةً تستطيعُ أن تسقطَها أو تبدِّلَها من هذا الكلام دون إخلالٍ بغرضِ قائله ؟ وأيَّ كلمةٍ تستطيعُ أن تسقطها أو تبدلَها هناك ؟ فكتابُ الله ـ كما يقول ابن عطية ـ « لو نُزِعَتْ منه لفظة ، ثم أُديرَ لسانُ العرب على لفظةً أحسن منها لم توجَد » بل هو كما وصفه الله : ﴿ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ ﴾[1] [سورة هود : ١] .

وأوردَ الدكتور دراز مثالاً على هذه الخاصية البيانية في الأسلوب القرآني ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَإذا قيلَ لَهُمْ آمِنوا بِما أَنْزَلَ اللّهُ قالوا : نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ، وَيَكْفُرونَ بِما وَراءَهُ ـ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلونَ أَنْبِياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين** ﴾ [البقرة : ٩١] .

وبيَّن موضوعَ هذه الآية وعناصِرَهُ بقوله : « هذه قطعة من فصْل من قصةِ بني إسرائيل .

والعناصرُ الأصليةُ التي تُبرزها لنا هذه الكلماتُ القليلة ، تتلخص فيما يلي :

١ ـ مقالةٌ ينصح بها الناصحُ لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .
٢ ـ إجابتُهم لهذا الناصح بمقالةٍ تنطوي على مقصديْن .
٣ ـ الردُّ على هذا الجواب بركنيْه من عدةِ وجوه » .

ثم قدَّم بين يديْ تحليلِ هذه الآية بقوله : « وأُقسمَ لو أنَّ محامياً بليغاً ، وُكِلتْ إليه الخصومةُ بلسانِ القرآن في هذه القضية ، ثم هُديَ إلى استنباطِ هذه المعاني التي تختلجُ في نفس الداعي والمدعوّ ، لما وسعه في أدائِها أضعافُ هذه الكلمات ، ولعلَّه بعد ذلك لا يعني بما حولَها من إشاراتٍ واحتراساتٍ وآدابٍ وأخلاق »[2] .

---

(١) النبأ العظيم : ١٠٢ ـ ١٠٦ باختصار .
(٢) المرجع السابق : ١١٣ .

وقد حلَّل الآية المذكورة تحليلاً بيانياً رائعاً ممتعاً ، وأطال نَفَسه في هذه التحليل ، حيث جاء في ثماني صفحاتٍ كاملة . ونحيلُ على ذلك الكلامِ الطيب والتحليل الممتع ، ونكادُ نلزمُ القارىء بالإطلاع عليه[1] !! .

القرآن كله إيجاز :

قسَّم علماءُ البلاغة الكلامَ الفصيحَ أقساماً ثلاثة : إيجازٌ وإطنابٌ ومساواة .

فالإيجاز هو : أداءُ المعنى بلفظٍ ناقصٍ عنه ، وافٍ به .

والاطناب هو : أداءُ المعنى بلفظٍ زائدٍ عنه لفائدة .

والمساواة هي : أداءُ المعنى بلفظٍ على قدره[2] .

وبعضهم عمَّم هذه الأقسامَ الثلاثة على أسلوبِ القرآن ، وجعلَها متوفرةً فيه !

وقد رفضَ الدكتور دراز كلامهم ، واعتبرَ أسلوبَ القرآن كلّه يقوم على الإيجاز : « إن القرآنَ الكريمَ يستثمر ـ برفق ـ أقلَّ ما يمكن من اللفظ ، في توليدِ أكثرِ ما يمكنُ من المعاني .

أجل . تلكَ ظاهرةٌ بارزة فيه كلِّه ، يستوي فيها مواضعُ إجمالِه التي يسميها الناس « مَقامَ الإيجاز » ، ومواضعُ تفصيله التي يسمونها « مقامَ الإطناب » .

ولذلك نسميه « إيجازاً » كلَّه ، لأننا نراه في كِلا المقامَيْن ، لا يجاوزُ سبيلَ القصْد ، ولا يميلُ إلى الإسراف ميْلاً ما ، ونرى أن مراميَهُ في كِلا المقامَيْن لا يمكن تأديتُها كاملةَ العناصر والحليّ بأقلّ من ألفاظه ، ولا بما يساويها .

فليس فيه كلمةٌ إلا هي مفتاحٌ لفائدةٍ جليلة ، وليس فيه حرفٌ إلا جاءَ لمعنى . . »[3] .

والدكتور دراز يرفضُ القولَ بوجودِ حروفٍ أو كلماتٍ زائدة أو مقحمةٍ في التعبير القرآني ، وأنها ذُكرتْ فيه للتوكيدِ ، ويخطِّىءُ كلَّ مَنْ قال بهذا القول ، وانتصرَ لهذا

---

(١) انظر المرجع السابق : ١١٣ ـ ١٢١

(٢) المرجع السابق : ١٢١ حاشية .

(٣) النبأ العظيم : ١٢١ ـ ١٢٤ وانظر حاشية تلك الصفحات .

الرأي . ويدعو القارىء إلى إمعانِ النظرِ في الحروف والكلمات التي قالوا بزيادتها ، وإلى إستخراجِ الحكمة من ورودها على تلك الصورة . فإن لم يدركْها ، فليتَّهِم فهمه وعقله بدلَ أن يتهمها هي بالزيادة ، ولْيقل : « اللهُ أعلم بأسرار كتابه ، ولا علم لنا إلا بتعليمِه » .

وكمثالٍ على رفضِ القول بالزوائد في القرآن وقفَ وقفةً فنيَّةً بيانيةً لطيفة ، بيّن فيها فائدةَ ومعنى الكاف في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] التي قالَ بعضُهم بأنها زائدة(١) .

ثم انتقلَ الدكتور دراز إلى بيانِ سرِّ الإيجاز والإعجاز في حذْفِ بعضِ أصول الكلام وأركانِه ، وبقاءِ وضوحِه وإشراقه في البيان القرآني . وضَرَبَ على ذلك مثالاً من آيات القرآن . وحلَّله تحليلاً بيانياً رائعاً شيقاً(٢) .

٢ ـ خطاب العامة وخطاب الخاصة :

خطابُ العامّة وخطاب الخـاصّة ، غـايتان متبـاعدتـان عندَ النـاس ، فلو أنك خاطبتَ الأذكياءَ بـالواضـح المكشوف الـذي تخاطبُ بـه الأغبياء ، لنـزلْتَ بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب . ولو أنكَ خاطبتَ العامة باللَّمحةِ والإشارةِ التي تخاطب بها الأذكياء ، لجئتَهُم من ذلك بما لا تطيقُه عقولهم . . .

أما أنَّ جملةً واحدة ، تُلْقى إلى العلماءِ والجهلاءِ ، وإلى الأذكيـاء والأغبياء ، وإلى السُّـوقـة والملوك ، فيـراهـا كـلٌّ منهم مقـدَّرةً على مقيـاس عقْله ، وعلى وِفق حاجته ، فذلك ما لا تجدهُ على أتمِّه إلا في القرآن الكريم .

فهو قرآنٌ واحد : يراهُ البلغاء أوفـى كلامٍ بلطائفِ التعبير . ويراه العامة أحسنَ كلام ، وأقربَه إلى عقولهم . .

وهو متعةُ العامة والخاصة على السّواء ، ميسَّر لكـلِّ مَنْ أراد : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْر ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرْ ؟ ﴾[القمر : ١٧](٣) .

(١) انظر المرجع السابق : ١٢٥ ـ ١٣٠ .
(٢) انظر المرجع السابق : ١٣٠ ـ ١٣٦ .
(٣) انظر المرجع السابق : ١٠٦ .

٣ - إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

في النفس الإنسانية قوّتان : قوةُ تفكير ، وقوةُ وجدان .

وحاجةُ كلٍّ واحدةٍ منهما غيرُ حاجةِ أختها . . . والبيانُ التام هو الذي يوفّي لك هاتيْن الحاجتيْن ، ويطيرُ إلى نفسك بهذيْن الجناحيْن ، فيؤتيها حظَّها من الفائدةِ العقلية والمتعة الوجدانية معاً .

فهل رأيتَ هذا التمام في كلام الناس ؟

لقد عرفْنا كلامَ العلماء والحكماء ، وعرفْنا كلام الأدباء والشعراء . فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غُلُوّاً في جانب ، وقصوراً في جانب .

وكلُّ امرىءٍ حين يفكر فإنما هو فيلسوفٌ صغير، وكل امرىءٍ حين يحسُّ ويشعر فإنما هو شاعرٌ صغير . فسل علماءَ النفس : هل رأيتم أحداً تتكافأُ فيه قوةُ التفكير وقوةُ الوجدان ، وسائرُ القوى النفسية على سواء ؟

فكيف تطلبُ من إنسانٍ في أن يهبَ لك هاتيْن الطلبتين على سواء ، وهو لم يجمَعْهما في نفسه على سواء ؟

وأمّا أنَّ أسلوباً واحداً يتّجه اتجاهاً واحداً ، ويجمع في يديك هذيْن الطرفيْن معاً ، كما يحمل الغصنُ الواحدُ من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسْري الروحُ في الجسد ، والماءُ في العود الأخضر ، فذلك ما لا تظفرُ به في كلامِ بشر ، ولا هو من سنن الله في النفسِ الإنسانية .

فمَنْ لك إذنْ بهذا الكلام الواحد ، الذي يجيءُ من الحقيقةِ البرهانية الصارمة ، بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفةِ المتعمِّقين . ومن المتعةِ الوجدانية الطيبة ، بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرِحين ؟

ذلكَ اللهُ ربُّ العالمين ، فهو الذي لا يشغلُه شأنٌ عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطِبَ العقلَ والقلب معاً بلسان ، وأن يخرجَ الحقَّ والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يُخرجَ من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجدُه في كتابه الكريم ، حيثما توجهْت .

أوَلا تراه في فسحةِ قَصصه وأخباره لا ينسى حقَّ العقل من حكمةٍ وعبرة .

أو لا تـراهُ في معمعـة بـراهينـه وأحكـامـه ، لا ينسى حظَّ القلب من تشـويقٍ وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ يبثُّ ذلك في مطالعِ آياتها ومقاطعِها وتضاعيفِها[1] . .

٤ ـ البيان والإجمال :

وهذه عجيبةٌ أخرى تجدُها في القرآن ، ولا تجدُها فيما سواه . ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديدِ أغراضهم لم تتسع لتأويل . وإذا أَجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس ، أو اللغوِ الذي لا يُفيد .

وتقـرأُ القطعـةَ من القرآن ، فتجـدُ في ألفاظهـا من : الشُّفوف ، والمَـلاسَة ، والإحكام ، والخلوِّ من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابقُ بـه مغزاهـا إلى نفسك ، دون كدِّ خاطر ، ولا استعادةِ حديث ، كأنكَ لا تسمع كلاماً ولغات ، بل تَرى صوراً وحقائقَ ماثلة . وهكـذا يُخيَّل إليـك أنك قـد أحطتَ بـه خُبْرا ، ووقفْتَ على معنـاه محدَّداً .

هذا ولو رجعتَ إليه كرةً أخرى ، لرأيتَكَ منه بإزاءِ معنى جديد ، غيرِ الذي سبق إلى فهمِك أوَّلَ مرة ، وكذلك . .

حتى ترى للجملةِ الواحدة أو الكلمةِ الواحدة وُجـوهاً عـدة ، كلُّها صحيـح أو محتَملٌ للصحة . كأنما هي فَصٌّ من الماس ، يعطيكَ كلُّ ضلعٍ منـه شُعاعـاً ، فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جُملة ، بهرتْكَ ألوانُ الطيْفِ كلُّها ، فلا تدري ماذا تأخـذُ عينُك وماذا تدَع .

ولعَلَّك لو وكلْتَ النظر فيها إلى غيرك ، رأى منها أكثَر مما رأيت .

وهكذا تجدُ كتاباً مفتوحاً معَ الزمان ، يأخذُ كلٌّ منه ما يُسِّرَ له ، بل ترى محيطاً متراميَ الأطراف لا تحدُّه عقول الأفراد ولا الأجيال[2] .

---

(١) انظر المرجع السابق : ١٠٧ ـ ١١٠ .

(٢) المرجع السابق : ١١٠ ـ ١١١ .

مزايا الأداء القرآني عند سيد قطب :

لسيد قطب نظراتٌ أصيلةٌ ثاقبةٌ في أسلوب القرآن وبيانه ، وله تحليلاتٌ لطيفة لما فيه من جمالٍ وسموٍّ وإشراقٍ وإعجاز .

وقد كان يُعِدُّ بحثاً بعنوان « أساليبُ العرْض الفنيّ في القرآن » ولكنه عَدَلَ عنه ولم ينشره .

وقد تكلمَ عن الأداءِ القرآني المعجِز في كتاب « التصوير الفني في القرآن » وفي مواضعَ عديدةٍ متفرقة من « الظلال » .

وكانت أجودُ وأفضلُ وأعمقُ وقفاتِه ، تلك التي بيَّن فيها « مزايا الأداءِ الفني القرآني » ، أثناءَ تفسيره لآية التحدي في سورة يونس. ولم يتحدثْ فيها عن الإعجازِ البياني فقط ، بل تحدَّث عن « الإعجاز المطلق » كما يراه ، ووجوهِهِ البارزة : مثل الإعجاز في التِصوير ، والإعجاز في التأثير ، والإعجاز في الأداء ، والإعجاز الموضوعي ، وغير ذلك .

وكلامُه في هذا الموضع عن « الإعجاز ، في قمةِ النفاسة والروعة والعُمُق ، ونحيل القارىء ـ لزاماً ـ عليه[1] .

وسنلخِّصُ هنا كلامَه عن « مزايا الأداء القرآني » التي يراها ، والتي أورَدَها في ذلك الموضع .

هو « إعجازٌ مطلق » :

« والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقونَ الجمَالَ الفنيّ والتناسق فيها ، يدركونَ أن هذا النسقَ من القول لا يستطيعُه إنسان . . . وكذلك الذين يدرسُون النظمَ الإجتماعية ، والأصولَ التشريعية ، ويدرسون النظامَ الذي جاء به القرآن . . يدركون أن ما وردَ فيه أكبرُ من أن يحيطَ به عقلٌ بشري واحد ، أو مجموعةُ العقول في جيلٍ واحد ، أو في جميع الأجيال . . ومثْلهم الذين يدرسون النفسَ الإنسانية ، ووسائلَ القرآن وأساليبَه في الوصول إليها . . .

(١) انظره في الظلال ٣ : ١٧٨٤ ـ ١٧٩٤

فليسَ هو إعجازُ اللفظ والتعبيرِ وأسلوبِ الأداء وحدَه ، ولكنه « الإعجازُ المطلقُ » الذي يلمسهُ الخبراء في هذا ، وفي النظُمِ والتشريعاتِ والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فَنَّ التعبير ، والذين لهم بَصَرٌ بالأداء الفني ، يدركونَ أكثرَ من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب . .

والذين زاوَلوا التفكيرَ الإجتماعيَّ والقانونيَّ والنفسيَّ ، والإنساني بصفة عامة ، يدركونَ أكثرَ من غيرهم مدى « الإعجاز الموضوعي » في هذا الكتاب أيضاً .

ومع تقدير العجْزِ سلفاً عن بيانِ حقيقة هذا الإعجاز ومداه ، والعجزِ عن تصويرِه بالأسلوبِ البشري ، ومع تقديرِ أن الحديثَ المفصَّل عن هذا الإعجاز ـ في حدودِ الطاقة البشرية ـ هو موضوعُ كتاب مستقل ، فسأحاول هنا أن ألمَّ إلمامةً خاطفةٍ بشيء من هذا . . .

١ ـ سلطانه العجيب على القلوب :

إنَّ الأداء القرآني يمتازُ ويتميزُ من الأداءِ البشري . . إنَّ له سلطاناً عجيباً على القلوب ليسَ للأداء البشري . حتى ليبلغَ أحياناً أن يؤثِّرَ بتلاوتِه المجرَّدة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً . . .

٢ ـ تعبيره عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز قصير

إن الأداء القرآني يمتازُ بالتعبير عن قضايا ومدلولاتٍ ضخمة ، في حيِّزٍ يستحيلُ على البشر أن يعبِّروا فيه عن مثلِ هذه الأغراض . وذلك بأوسعِ مدلول ، وأدقِّ تعبير ، وأجملِه وأحياه أيضاً مع التناسقِ العجيب بين : المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجوّ . ومع جمالِ التعبير دقةُ الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يُغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجورُ الجمال على الدقةِ ، ولا الدقةُ على الجمال . ويبلغُ من ذلك كلِّه مستوى ، لا يدرِك إعجازَه أحد ، كما يدركُ ذلك مَنْ يزاولون فَنَّ التعبير فعلاً ، لأن هؤلاء هم الذينَ يدركونَ حدودَ الطاقة البشرية في هذا المجال . ومن ثم يتبيَّنون بوضوحٍ أن هذا المستوى فوقَ الطاقة البشرية قطعاً .

٣ ـ احتواؤه مدلولات متنوعة متناسقة :

وينشأُ عن هذه الظاهرة ظاهرةٌ أخرى في الأَداء القرآني : هي أن النصَّ الواحدَ يحوي مدلولاتٍ متنوعةً متناسقةً مع النص . وكلُّ مدلول منها يستوفي حظَّه من البيان والوضوح دون إضطرابٍ في الأداء ، أو اختلاطٍ بيْنَ المدلولات . وكلُّ قضيةٍ وكلُّ حقيقة تنالُ الحيِّزَ الذي يناسبُها بحيث يُسْتَشْهَد بالنص الواحد في مجالاتٍ شتى ، ويبدو في كلِّ مرةٍ أصيلاً في الموضع الذي استُشهد به فيه ، وكأنما هو مَصوغٌ إبتداءً لهذا المجال ، ولهذا الموضع ! وهي ظاهرةٌ قرآنية بارزة لا تحتاجُ منا إلى أكثرَ من الإشارة إليها .

٤ ـ قدرته على استحضار المشاهد والتعبير المُواجِه :

وللأداءِ القرآني طابعٌ بارزٌ كذلك في القدرةِ على استحضار المَشاهدِ والتعبير المُواجِه ، كما لو كانَ المشهدُ حاضراً . بطريقةٍ ليستْ معهودَةً على الإطلاق في كلامِ البشر، ولا يملك الأداءُ البشريُّ تقليدَها ، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطَرِباً غيرَ مستقيم مع أسلوب الكتابة . . .

وهو أسلوبٌ متميِّزٌ تماماً من الأسلوب البشري . وإلا فمنْ شاء أن يماريَ فليحاوِلْ أن يعبِّرَ على هذا النحو ، ثم ليأت بكلامٍ مفهوم مستقيم ، فضلاً على أن يكون له هذا الجمالُ الرائع ، وهذا الإيقاعُ المؤثِّر ، وهذا التناسُقُ الكامل ! »[١] .

« نظرية التصوير الفني عند سيد قطب » :

ونظريَّةُ « التصوير الفني في القرآن » نظريةٌ أصيلة رائدة ، تفرَّدَ بها سيد قطب ، فكان رائداً لها ، وأوَّلَ مَنْ قالَ بها ، واعتُبِرَ بها صاحبَ رأي فريد في إدراكِ الإعجاز البيانيّ في القرآن ، والوقوفِ على أساليب تعبيره ، وتسجيل الخصائص العامَّة للجمالِ الفني في القرآن ،

وقد اعترفَ له العلماء والنقادُ المعاصرون بهذه الريادَةِ ، وسجَّلوا له هذه الأوَّليّة . ونكتفي بذكر قول علي الطنطاوي : « وذهبتُ فقرأْتُ الكتاب ، فوجدتُهُ فتحاً

---

(١) الظلال ٣ : ١٧٨٦ ـ ١٧٨٨ باختصار

ـ واللهِ ـ جديداً ، ووجدتَهُ قَد وقعَ على كنز كأنَّ الله ادخره له ، فلم يُعطِ مفتاحَه لأحدٍ قبله ، حتى جاء هو فَفَتحه »[1] .

ونظريةُ التصوير الفني تتعلَّقُ بالتعبير البياني القرآني المعجز ، ولذلك فهي مرتبطةٌ بالإعجاز البياني القرآني . وصاحبُها يعتبرُها مبيِّنةً لذلك الإعجاز وموضِّحة له . وذلك حيث يقول : « فإذا ما ذكَرْنا أنَّ الأداةَ التي تصوِّرُ المعنى الذهنيّ والحالةَ النفسية ، وتشخِّص النموذجَ الإنساني أو الحادث المرويّ ، إنما هي ألفاظٌ جامدة ، لا ألوانٌ تصوِّر ، ولا شخوصٌ تُعبِّر ، أدركْنا بعضَ أسرار الإعجازِ في هذا اللون من تَعبير القرآن »[2] .

وكأنَّ سيد قطب ـ كما يقول نعيم الحمصي ـ « يسعى إلى البرهان على إعجازِ القرآن ، من حيثُ يتكلمُ على مزيَّته الفَنِّيَّة الأولى ، وهي التصوير ، فكأنه يريدُ أن يتحدثَ عن الإعجاز تحت عنوانٍ آخر حديث »[3] .

معنى التصوير الفني :

شرحَ سيد قطب في مقدِّمةِ كتابه معنى هذا المصطلح المثير « التصوير الفني » فقال : « التصوير هو الأَداة المفضلة في أسلوبِ القرآن . فهو يعبِّرُ بالصورةِ المُحَسَّةِ المُتخيَّلَة ، عن : المعنى الذهني ، والحالة النفسية . وعن الحادثِ المحسوس . والمشهدِ المنظور . وعن النموذج الإنساني والطبيعةِ البشريةِ . ثم يرتقي بالصورةِ التي يرسُمها ، فيمنحُها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدِّدة . فإذا المعنى الذهني هيئةٌ أو حركة ، وإذا الحالةُ النفسية لوحةٌ أو مشهد ، وإذا النموذجُ الإنساني شاخصٌ حي ، وإذا الطبيعةُ البشرية مجَسَّمةٌ مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردُّها شاخصةً حاضرة ، فيها الحياةُ ، وفيها الحركةُ ، فإذا أضافَ لها الحوار ، فقد استوتْ لها كلُّ عناصر التخييل .

فما يكادُ يبدأ العَرْض حتى يُحيل المستمعينَ نَظَّارة ، وحتى ينقلهم نقْلاً إلى

---

(١) انظر قوله في كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» : ١١٥
(٢) التصوير الفني في القرآن : ٣٢ ـ ٣٣ .
(٣) فكرة إعجاز القرآن : ٣٤٤

مسرحِ الحوادث الأوّل ، الذي وقعتْ فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدَدُ الحركات ، وينسى المستمعُ أن هذا كلامٌ يُتْلى ، ومَثَلٌ يُضْـرَب ، ويتخيَّل أنـه منظرٌ يُعرَض ، وحادث يقع . فهذه شخـوصٌ تروح على المسـرح وتغدو ، وهـذه سِماتُ الانفعال بشتّى الوجدانات ، المنبعثةِ من الموقف ، المتساوقةِ مع الحوادث ، وهـذه كلماتٌ تتحرك بها الألسنة ، فتنمُّ عن الأحاسيسِ المُضْمَرَة .

إنها الحياةُ هنا ، وليست حكايةَ الحياة »[1] .

التصوير هو أداة التعبير القرآني :

لم يكن سيد قطب مبالِغاً ولا مُغالِياً عندما قال : « التصويـرُ هو الأداة المفضَّلة في التعبير القرآني » .

وقد بيَّن في مقدمة كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » هذه المسألة ووضَّحها في قوله : « هذه القضيةُ لـديَّ كلُّ مـا يؤكِّدهـا من الإحصاء الـدقيقِ لنصوص القـرآن ، فالقصةُ ، ومشاهدُ القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الـوجداني ، في القـرآن ، مضافاً إليها تصويرُ الحالات النفسيـة ، وتشخيصُ المعاني الـذهنية ، وتمثيـلُ بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية . . . تؤلِّفُ ـ على التقريب ـ أكثـر من ثلاثـةِ أرباع القرآن من ناحية الكَمّ . وكلُّها تستخدمُ طريقةَ التصوير في التعبير . فلا يُستثنى من هذه الطريقة إلّا مواضعُ التشريع ، وبعضُ مواضع الجدل ، وقليلٌ من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقةَ التعبيرِ الذهنيِّ المجرَّد . وهي على كـل حال محصـورةٌ فيما يوازي ربعَ القرآن .

فليس هناك من شَطَطٍ حين أقول : « إن التصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن » .

وإذا وفقني اللّهُ فأصدرْتُ الحلقاتِ التالية من هذه المكتبة ، وهي « القصةُ بين التوراة والقرآن » و « النَماذجُ الإنسانية في القرآن » و « المنطق الوجداني في القرآن » و « أسـاليب العرض الفني في القـرآن » فسيجـدُ النـاسُ مصـداقَ هـذه القضيـة بين

(١) التصوير الفني في القرآن : ٣٢ .

أيديهم . وتستريحُ إليها ضمائرُهم كما استراحَ إليها ضميري »[1] .

معظمُ موضوعاتِ القرآن ـ أو ثلاثةُ أرباعها ـ معروضةٌ بطريقة التصوير ، وهذا يعني أن التصويرَ هو أداة التعبير القرآني . ومن هنا تدخلُ نظريةُ التصوير البلاغةَ والبيان في القرآن ، وترتبط بالإعجاز البياني فيه .

التصوير إدراك للخصائص العامة للجمال الفني في القرآن :

أشارَ سيد قطب في مقدِّمة « التصوير الفني في القرآن » إلى مراحلِ تذوُّق « الجمال الفني القرآني » من خلالِ المسيرةِ التاريخيَّة للبلاغة القرآنية والإعجاز القرآني . وبيَّن أنها ثلاثُ مراحل :

١ ـ مرحلةُ التذوُّق الفطري : وهي التي تمَّت زمن الصحابة ، حيث تذوقوا جمالَ القرآن بفطرتهم ، ولكنهم لم يحاولوا تعليلَ ذلك في عباراتِهم .

٢ ـ مرحلةُ إدراكِ مواضع الجمالِ المتفرِّقة : حيثُ وقف الناظرون في أسلوب القرآن ـ من مفسِّرين وبلاغيِّين ـ وأدركوا بعضَ الجمال في بعض آياته ، ولكنها كانت مواضعَ متفرِّقة ، غيرِ موحَّدة ولا شاملة ولا مطَّردة .

وكان الإمامُ الزمخشريُّ في طليعةِ المفسِّرين الذين نجحوا في إدراكِ تلك المواضع المتفرقة . كما كان الإمام عبد القاهر الجرجاني على رأسِ البلاغيِّين الذين أدركوا ذلك ، وكادَ يدركُ المواضع العامة .

٣ ـ مرحلةُ إدراكِ الخصائصِ العامة للجمال الفني القرآني : وهي المرحلةُ التي جاءَت متأخرة في هذا العصر ، حيث وفق الله سيد قطب لإدراكها ، والوقوفِ عليها ، وعرْضِها وبيانِها للناس ، ألا هي « التصوير الفني » الأداة المفَضَّلة في التعبير القرآني .

وعن هذه المرحلة الثالثة يقول : « أما المرحلةُ الثالثة ـ مرحلة إدراك الخصائصِ العامة ـ فلم يَصِلوا إليها أبداً ، لا في الأدب ، ولا في القرآن . وبذلك

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن : ٧ . ونذكِّر القارىء بأن سيد قطب لم يصدر هذه الكتب الأربعة التي أشار إليها . ويبدو أنه توجهاته الدعوية الحركية جعلتْه يتجاوزها

بقي أهمُّ مزايا القرآن الفنية مغْفَلاً خافياً ، وأصبحَ من الضروري لدراسةِ هذا الكتاب المعجز من منهجٍ للدراسة جديد ، ومن بحْثٍ عن الأصول العامَّة للجمال الفني فيه ، ومن بيانٍ للسمات المطَّردة التي تميِّز هذا الجمال عن سائر ما عرفتْه اللغة العربية من أدب ، وتفسُّر الإعجازَ الفني تفسيراً يُسْتَمد من تلك الصفات المتفردة في القرآن الكريم »[1] .

التوسع في معنى التصوير :

قد يقصرُ بعضُ الناس التصويرَ على صورةٍ معيَّنة ، أو لونٍ خاص ، وبهذا يُخرِجُ آياتٍ كثيرة عن طريقة التصوير ، أو يُغفل ما فيها من تصوير ، ويَستغربُ أن يكون التصويرُ موجوداً في ثلاثةِ أرباع موضوعات القرآن .

وقد دَعا سيد إلى تحسينِ النظر إلى التصوير ، وتعَميقِه وتدقيقِه ، لتوسيع ذلك التصوير ، وجعْلِه يشمل الكثير من الآفاقِ والموضوعات : « ويجب أن نتوسَّع في معنى التصوير ، حتى ندركَ آفاقَ التصوير الفني في القرآن . فهو تصويرٌ باللون ، وتصويرٌ بالحركة ، وتصويرٌ بالتخييل ، كما أنه تصويرٌ بالنغمةِ تقوم مقامَ اللون في التمثيل . وكثيراً ما يشتركُ الوصفُ ، والحوارُ ، وجرْسُ الكلمات ، ونَغَمُ العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبرازِ صورةٍ من الصور ، تتملاها العينُ والأذن ، والحسّ والخيال ، والفكرُ والوجدان .

وهو تصويرٌ حيٌّ منتزَعٌ من عالَم الأحياء ، لا ألوانٌ مجرَّدة وخطوطٌ جامدة ، تصوير تُقاسُ الأبعادُ فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني تُرْسَمُ وهي تتفاعلُ في نفوسٍ آدمية حية ، أو في مشاهدَ من الطبيعةِ تخلع عليها الحياة . . »[2] .

« خصائص التصوير الفني في القرآن »

أولاً : التخييل الحسي

التخييلُ الحِسِّيُّ هو أن « القرآن يعبِّر بالصورة المُحَسَّةِ المُتَخَيَّلة ، عن الأغراض والموضوعات التي يبحثُها ، بحيث ترتسمُ صورةٌ فنية متخيَّلة في خيال

(١) التصوير الفني في القرآن : ٣٠ وانظر المراحل الثلاثة في الكتاب : ٢٢ ـ ٣١ .

(٢) المرجع السابق : ٣٣ .

القارىء ، عندما يتملَّى الصورة التي ترسمُها الآية ، فيتخيَّلُها ويتأمّلها ويتملاّها ويتذوَّقها . وكأنه يرى أمامه صورةً معروضة ، أو مشهداً مرسوماً ، تكادُ تُشبه الشريطَ التمثيلي المصوَّر .

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّماء ، وَلا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِياط ﴾ [سورة الأعراف : ٤٠] .

عندما يقرأ القارىءُ هذه الآية ، فإنه يتخيَّلُ بخياله صورةً فنيَّة لطيفة . إنه يتخيَّلُ الكفارَ يحاولون الصعودَ للسماء ، ويطرقُون أبوابَ السماء الكثيرة ، وهي موصَدةٌ أمامهم ، لا تفتَّحُ لهم . ويتخيَّل صورةً أخرى للجمل وهو يحاول دُخولَ ثُقْبِ الإبرة ، ويقوم بمحاولاتٍ يائسة لذلك ، فإذا دخل من ثقب الإبرة فإن الكافر يدخل الجنة ! وهذا مستحيل[٢] !

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ . فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [سورة الحج : ١١] .

إن خيالَ القارىءِ ليكادُ يجسِّمُ هذا الحرْف ، ويتخيَّلَ العابدَ وهو واقفٌ يعبدُ الله عليه ، ويكاد يضعُه على طَرَفِ سطحِ عمَارةٍ عالية ، ورجْله معلَّقة في الهواء ، ويتخيَّله وهو يحاولُ الركوعَ والسجودَ وهو على هذه الحالة ، يتأرجحُ بين اليمين واليسار ، ويضطربُ اضطراباً حسِّياً ملحوظاً[٢] .

ويرسم قولُه تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٣] صورةً متخيَّلة عجيبة ، لقومٍ واقفين على طرفِ حفرةٍ عميقةٍ ممتلِئةٍ ناراً ، موشكينَ على الوقوع فيها ، وما هي إلاّ زلةُ قدم فيهوون فيها ! ويلمحُ على وجوههم سيما القلق ، وفجأةً يرى يداً حانية تنقذهم من السقوطِ في آخر لحظة .

---

(١) انظر المرجع السابق : ٣٤

(٢) المرجع السابق : ٤٠

ويعلّق سيد قطب على هذه الصورة المتخيَّلة بقوله : « ولو استطاعتْ ريشةُ مصوِّر بالألوان أن تُبرزَ هذه الحركة المتخيَّلة في صورة صامتة ، لكانتْ براعةً تُحْسَب في عالَم التصوير ، والمصوِّر يملك الريشة واللوحة والألوان . وهنا ألفاظٌ فحسب ، يصوِّر بها القرآن »[1] .

ألوان التخييل الحسي :

للتخييل الحسّيّ في التصوير القرآني ألوانٌ بارزة ، وقد عرضَ سيد قطب خمسةً منها :

اللون الأول : تخييل بالتشخيص :

عرف سيد قطب التشخيص في التصوير القرآني ، بأنه : « يتمثّل في خلْع الحياة على الموادّ الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالاتِ الوجدانية . هذه الحياةُ التي قد ترتقي فتصبحُ حياةً إنسانيةً ، تشمل الموادَّ والظواهر والانفعالات ، وتَهَبُ لهذه الأشياء كلِّها عواطفَ آدمية ، وخلجات إنسانية ، تشارك بها الآدميين »[2] .

من الأمثلة على ذلك تشخيصُ الليل والنهار في قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّس . الجَواري الكُنَّس . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَس . وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ ﴾ [سورة التكوير : ١٥ ـ ١٨]

الليلُ في هذه الصورة شاخصٌ حي بالتشخيص ، فهو يُقبِل في الظلام ، يعسُّ بيده أو برجله لا يَرى .

والصُّبح أيضاً حيٌّ شاخِصٌ بالتشخيص ، فهو مستيقظٌ مع طلوع الفجر ، يفيضُ حياةً وحيويَّةً وحركة ، و« يتنفَّسُ » وأنفاسه هي النورُ والحياةُ والحركةُ التي تدبُّ في كل حي . وهو في تنفسه يشبه طفلةً تتنفس عند استيقاظها في الصباح ، أو عصفوراً زال عنه النعاس ، فصحا طروباً مرحاً[3] !

(١) المرجع السابق : ٤٠ ـ ٤١
(٢) المرجع السابق : ٦١ .
(٣) تأثر سيد قطب في مطلع الثلاثينيات بالصورة التي ترسمها هذه الآية ، فصاغ قصيدة رفيعة هي قصيدة «الصبح يتنفس» . انظرها في كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» .

ومن تلك الأمثلة تشخيصُ « جهنم » وعرْضُها بصورٍ حيَّة ، ومشاعرَ وعـواطفَ آدمية ، في آيات كثيرة :

فهي يـوجَّه لهـا الخطاب ، وتسمعُـه ، وتُجيب عليه ، كمـا في قولـه تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّم : هَل امْتَلأتِ ؟ وتقول : هَلْ مِنْ مَزِيد ﴾ [ق : ٣٠] .

وهي تملك عَيْناً تنظرُ بها للكفار ، وتراهم من بعيد ، وهم يُساقون إليها ، فإذا رأتْهم انفعلتْ مشاعرُها وعواطفها ، وصار لها تَغَيُّظٌ وزفير ، يسمعُهمـا الكفار . قـال تعـالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكـانٍ بَعيـد ، سَمِعـوا لَهـا تَغَيُّظاً وَزَفيـراً ﴾ [سـورة الفرقان : ١٢] .

وهي حيةٌ تنزعُ جلودَ الكفار نزْعاً ، وهي تدعو الكفارَ القادمين إليها ، ليسرعوا في القدوم . ﴿ إنَّها لَظَى . نَزّاعَةٌ لِلشَّوى ، تَدْعو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلّى . وَجَمَعَ فَأَوْعى ﴾ [سورة المعارج : ١٥ ـ ١٨] .

اللون الثاني : تخييل بتوقع الحركة التالية :

ترسمُ الصورةُ القرآنية المتخيَّلة صوراً عديدة حيَّة متحركة ، ولكنهـا أحيانـاً لا تُكمِل رسمَ كلِّ الصور والحركات ، بل تترك لخيال القارىء مجالاً للرسْم والتصـوير المتخيَّل ، وتُبقي له الحركةَ الأخيرة في المشهد ، ليتخيَّلها وينفعلَ بها .

من الأمثلة على توقع الخيال للحركة الأخيرة قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَـةُ المَوْت وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجورَكُمْ يَوْمَ القِيامَة . فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِـلَ الجَنَّةَ فَقَـدْ فَازَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٥] .

لقـد تَرَكَ التَعبيـرُ القرآني المصـوِّر لخيال القـارىء الفـرصـة ليـرسم الحـركـةَ المتخيَّلة ، حركة الزحزحـة ، وينظرَ إلى اليـدِ التي تمسك الإنسـانَ تُزحزِحُه بجهـد وثِقَل ، وهو يكاد يفلتُ من هذه اليد . وإذا أفلتَ فسيهوي في النار .

وأحيـاناً يُتِمُّ التعبيـر القرآني الحـركةَ المتـوقَّعة المتخيَّلة ، ويقـدِّمهـا للقـارىء كاملة ، كما في قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَـهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانٍ ،

خَيْر ، أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَـهُ عَلى شَفا جُـرُفٍ هَارٍ ، فَـانْهَارَ بِـهِ في نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [سـورة التوبة : ١٠٩] .

لقد رسمت الصورةُ الحركةَ الأخيرة ، حيث ﴿ انهار به في نار جهنم ﴾ .

اللون الثالث : حركة متخيَّلة ينشئها التعبير

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَباءً مَنْثُوراً ﴾ [سورة الفرقان : ٢٣] .

إن كلمة ﴿ قدمنـا ﴾ في الآية تخيـل للحس حركـة القدوم ، التي سَبَقَتْ نشر العمل كالهَباء . وهذا التخييلُ يتوارى لو قيل : وجعلنا عملهم هباء منثوراً .

ومن الأمثلة أيضاً قولهُ تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّـذِي آتَيْنَاهُ آيَـاتِنا، فَـانْسَلَخَ مِنْها ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

كلمة ﴿ فـأتبعة الشيـطان ﴾ توحي بحـركةٍ متخيَّلة : وهي حـركة إنسـانٍ ضالٍ انسلخَ من آيات الله ، وسار ، فتبعهُ الشيطان ، وسارَ خلفه بهدفِ غوايتـه ، حتى لا ينظرَ خلفه إلى الآياتِ الهادية التي خلَّفها وراءَه !

اللون الرابع : حركات سريعة متخيَّلة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله ، فَكَأَنَّمَا خَـرَّ مِنَ السَّماءِ ، فَتَخْـطَفُهُ الطَّيْر ، أَوْ تَهوي بِهِ الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٣١] .

ويتخيَّلُ القارىءُ حركاتٍ سريعةً متتابعة من هـذا المشهد المعـروض ، يتخيَّل هذا المشرك وقد خرَّ من السماء : أنظرْ : لقد خرَّ من السماء . انظر : لقد تمزَّق . انظر : لقد تخطفَتْه الطير . انظرْ : لقد هوَتْ به الريح في مكان سحيق . انظرْ : لقد اختفى عن الأنظار .

اللون الخامس : حركة الساكن .

التعبيـر القرآني ينبضُ بـالحياة ، ويفيضُ بـالحركـة ، وما يعـرضه من الصـور والمشاهد تبدو فيه الحركة . فما أن يمسَّ الساكن ، أو ما شأنه السكون ، حتى تدبَّ فيه الحياة ، فينتفضُ حياً متحركـاً . وتخيُّلُ هـذا الشيء الساكن في الـطبيعة، حيـاً

متحركاً عن طريق الحس والخيال ، يمــلأ النفس ـ وهي تقرأ القــرآن ـ شعـوراً بالجمال .

من ذلـك قولـه تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ [سورة مريم : ٤] .

فالرأسُ ساكن ، وشعْرُه فيه ساكن . ولكن هذا التعبيرُ المصوِّر ، يخيِّلُ للشيب في الرأسِ حركةً كحركة اشتعال النار في الهشيم .

ثانيا : التجسيم الفني :

التجسيمُ هـو أن يتخيَّـلَ القـارىء للصـورة الفنيـة التعبيريـة ، جسْمـاً وهيئَة محسوسة .

قال سيد قـطب عنه : « التجسيمُ هـو تجسيمُ المعنويـات المجرَّدة ، وإبـرازُها أجساماً ، أو محسوسات ، على العموم . . . وطريقةُ التجسيم هي الأسلوب المفضَّل في تصوير القرآن »[1] .

وركَّز سيد على أنه يقصدُ بالتجسيم بُعْدَهُ الفنيَّ الخيالي ، وليس بُعْدَه الحقيقي المـادي الملموس . قال : « ونحن نستخـدم هنا كلمـةَ التجسيم بمعناهـا الفني ، لا بمعناها الديني ـ بطبيعـة الحال ـ إذِ الإسـلام هو دين التجـريدِ والتنـزيه »[2] بـالنسبة لصفات الله .

وهذا التجسيم الفني نوعان :

النوع الأول : تجسيم على وجه التشبيه والتمثيل :

وهذا التجسيمُ من قبيل تشبيهِ الأمر المعنويِّ المجرَّد بأمر محسـوس مجسَّم ، على وجْـهِ التشبيهِ والتمثيـل . وهو كثيـرُ الوقـوع في التصويـر القـرآني ، ومنـه كـلُّ التشبيهات الفنية القرآنية ، التي جيء بها لإحـالة المعاني والحالات صوراً وهيئات .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَالُهُم، كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ

(١) التصوير الفني : ٦١ .

(٢) المرجع السابق : ١٨٥ .

الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعيد ﴾ [سورة إبراهيم : ١٨] .

أعمالُ الكفار هنا ـ وهي أمورٌ معنوية ـ معروضةٌ في صورة حسيَّة فنيَّة مجسَّمة ، حيث تحولتْ إلى كومةِ رماد ، اشتدتْ بها الريحُ الشديدة ، في يومٍ عاصف ، فذهبتْ تلك الأعمالُ بدداً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً . وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤١] .

الولايةُ لغير الله أمرٌ معنوي مجرد ، صُورتْ هنا في صورةٍ محسوسة مجسَّمة ، صورةٍ منفِّرة ، وهي بيتُ عنكبوت ضئيلٌ هزيل واهن ، وانظرْ ذلك الساذج الذي يأوي إلى بيتِ عنكبوت ، ويظن أنه يأوي إلى حصن منيع حصين !

النوع الثاني : تجسيم على وجه التصيير والتحويل

وأوضحُ ما يكون هذا التجسيمُ في الصورِ الفنية التي تعرض مشاهدَ القيامة ، بما فيها من مشاهدِ العَرْضِ والحساب ، ومشاهد النعيم والثواب، ومشاهد العذاب والعقاب .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله ، حَتَّى إذا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، قَالُوا : يَا حَسْرَتَنا عَلَى مَا فَرَّطْنا فيها ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ . ألا سَاءَ مَا يَزِرون ﴾ [سورة الأنعام : ٣١] .

فأعمالُ الكافرين وذنوبُهم في هذه الصورة مجسَّمة ، حيث تحولتْ إلى أحمالٍ وأوزار ، ثم هي تُحْمَل على ظهورهم زيادة في التجسيم .

وقد يكون الوصفُ حسِّياً بطبيعته ، فيختارُ عن الوصف هيئةً تجسِّمه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّة ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ﴾ [سورة يونس : ٢٧] .

في هذه الصورةِ الفنيـة ، تجسيمٌ حسيٌّ على وجه التصيـير والتحويـل للظلام النفسي والكَدَرة التي تَغشى وجهَ المكروبِ المأخوذِ المرعوب ، كأنما أُخذ من الليل المظلم جزء ، فقطِّعَ قطعاً ورُقعاً . غُشِيَتْ بها وغطيتْ تلك الـوجوهُ ! وهكـذا يغشى الجوَّ كلَّه ظلامٌ من ظلام الليل المظلم ، ورهبةٌ من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوهُ مُلَفَّعَة بأغطيةٍ من ظلمة الليلِ البهيم .

اجتماع التخييل والتجسيم :

كثيراً ما يجمعُ التعبيرُ القرآنيُّ بين التخييل الحسي والتجسيم الفني ، في الصور التي يعرضها ، فيَبدأ بالتجسيم ثم يُتبعُه بالتخييل . قال سيد قطب : « كثيراً ما يجتمعُ التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القـرآن، فيصوِّر المعنـوي المجرَّد مجسَّمـاً محسوساً ، ويخيِّل حركةً لهذا الجسم أو حوله ، من إشعاع التعبير »[1] .

من ذلك قولـه تعالى : ﴿ بَـلْ نَقْذِفُ بِـالْحَقِّ على الباطِـلِ ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُـوَ زَاهِقٌ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٨] .

فالحقُّ والباطل ، وهما أمْران معنويـان ، معروضـان هنا في صـورة مجسَّمة ، حيثُ صار الحقُّ قذيفة ، وصار الباطلُ جسماً لتلقِّي القذيفة ، ثم تتحرك قذيفةُ الحق حركةً تخييلية سريعة خاطفة نحوِ الباطل ، فتدمغُهُ ، فإذا هو زاهق .

ثالثاً : التناسق الفني :

التنــاسق الفني يبلغُ الـذروة في الأسلوب القــرآني المعجـز ، فهــو أسلوبٌ متناسقٌ ، تتناسق ألفاظه وجُمَلُه وتراكيبُه ، وتتناسق صوره وظلالُه ، وتتناسق إيقاعاتُه وموسيقاه .

وبيَّن علماءُ البيان والبلاغة السابقون ألواناً ونمـاذجَ وأمثلة للتناسق في أسلوب القرآن . وأشار سيد قطب في مقـدمة فصْـل « التناسق الفني » من كتـاب « التصويـر الفني » إلى خمسـةٍ من تلك الألوان التي عـرَضها الســابقـون : التنـاسقُ في تـأليف العبارات . التناسُق في الإيقاع الموسيقي . التنـاسقُ في العرْض البـلاغي البياني .

(١) المرجع السابق : ٦٩ ـ ٧٠ .

التناسقُ في التسلسل المعنوي . التناسقُ في التأثر النفسي .

ولكنه لم يتحدثْ عنها ، بل تجاوَزَها إلى التناسق الفني في التصوير القرآني .

وقال : « وإذا كان قَصْدُنا من هذا الكتاب هو أن نستعرضَ الآفاق الجديدة ، لا أن نكرِّرَ الاتجاهات التي اهتدَى إليها الباحثون ، فإننا سنتركُ القولَ في هذه الاتجاهات ـ مع اعتقادنا أن كلَّ ما كُتب فيها قابلٌ للعَرْض في ضوء جديد ـ للتقدم فيه خطواتٍ بعيدة ، بعد آخر خطوة وقفَ عندها الأسلاف »[1]

وعرض ثماني قمم بيانية متدرجة ، تجلّى فيها ذلك التناسق في أبهى صورة .

الأولى : تناسق التعبير مع المضمون :

قال سيد عن هذه القمة الأولى : « يتناسقُ التعبيرُ مع الحالة المُراد تصويرها ، فيساعدُ على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية ، وهذه خطوةٌ مشترَكة بين التعبير للتعبير والتعبير للتصوير »[2] .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ، وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ [سورة محمد : ١٢] .

لقد صَورت الآيةُ الكفار بالقطيع من الأنعام ، لكفرهم وغفلتهم عن الجزاء والحساب . وجاءتْ في الصورة لفظتان : يتمتَّعون ويأكلون . وهما متناسقتان مع المضمون ، وهو الصورة والحالة المعروضة ، إنهم في تمتعهم وأكْلِهم مثلُ الأنعام التي تأكلُ وتمرح وتتمتع ، وهي غافلةٌ عما سوى ذلك .

الثانية : إستقلال اللفظ برسم الصورة :

كثيراً ما تشترك عدة ألفاظ من العبارة في رسم الصورة الفنية القرآنية ، فيكون كلُّ واحد منها جزءاً من الصورة ، أو مساعداً على إكمال معالمها ، عندَها تكون الصورةُ مرسومةً بالعبارة كلِّها .

لكن الأبلغَ والأرفعَ والأسمى هو أن « يستقل لفظٌ واحدة ـ لا عبارة كاملة .

---

(١) المرجع السابق : ٧٤ .

(٢) المرجع السابق : ٧٥ .

برسم صورة شاخصة ، لا بمجردِ المساعدة على إكمال معالم الصورة » .

وهذا اللونُ من التناسق التصويريِّ لم يُعرفْ إلاَّ في التعبير القرآنيَ ، إذ لا يستطيع أيُّ أديبٍ فنان رسمَ صورةٍ فنية شاخصة متناسقةٍ بلفظ واحد فقط .

واللَّفظُ يستقل برسْم الصورة على ثلاث حالات : فهو يرسُمها « تارة بجَرْسه الذي يلقيه في الأذن . وتارة بظلِّه الذي يلقيه في الخيال . وتارة بالجَرْس والظل جميعاً »(١) .

أ ـ رسْمُه الصورةَ بجَرْسه :

جَرْس اللفظ هو إيقاعُه الذي يلقيه في الأذن ، وصوتُه الذي يتلقاه السمع . وهذا الإيقاعُ ينتج من إيقاعِ كل حرف من حروف اللفظ على حِدَة ، ثم عن إيقاعِ الحروف كلِّها مجتمعة في اللفظ ، بما فيها من مدّات وغنّات وشدّات وغير ذلك .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا : مَا لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ** ﴾ [سورة التوبة : ٣٨] .

فكلمة ﴿ **اثّاقلتم** ﴾ استقلتْ برسم صورةٍ شاخصة ، لأولئك المتثاقلين عن الجهاد ، ورسَمَ تلك الصورة جَرْسُ الكلمة وإيقاعُها : إذ يتخيَّلُ الخيالُ جسماً متثاقلاً ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثقْل . وكأنَّ في هذه الكلمة « طناً » على الأقل من الأثقال .

ب ـ رسْمُه الصورة بظلِّه :

ظِلُّ اللفظ ، هو ما يوحي به للنفس من معانٍ وإيحاءات . قال سيد قطب : « وللألفاظِ كما للعبارات ظلالٌ خاصة ، يلحظُها الحسُّ البصير ، حينما يوجِّه إليها انتباهَه ، وحينما يستدْعي صورةَ مدلولها الحسية »(٢) .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ منهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكانَ مِنَ الغَاوِينَ** ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٥] .

---

(١) المرجع السابق : ٧٦

(٢) المرجع السابق : ٧٨ ـ ٧٩ .



فكلمة ﴿ انسلخ ﴾ ترسمُ صورةً عنيفة قاسية للتخلُّص من آيات الله ، بظلِّها الذي تلقيهِ في خيال القارىء . لأن الانسلاخ حركةٌ حسية قوية ، ونكاد نرى هذا الكافر ينسلخُ من آيات الله انسلاخاً ، ينسلخ كأنما الآيات أديمٌ له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنفٍ وجهدٍ ومشقة ، انسلاخَ الحي من أديمه اللاصِق بكيانه .

جـ ـ رسْمُه الصورةَ بجرْسه وظلِّه معاً :

وقد يشتركُ جرس اللفظ وظلُّه معاً في رسم الصورة الفنية .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا** ﴾ [الطور : ١٣] . فاشترك جَرْس « يُدَعُّونَ . دَعًّا » وظلّهما في رسْم الصورة . والدَّعْ : هو الدفع في الظهور بعنف . وهذا الدفعُ في كثير من الأحيان ، يجعلُ المدفوعَ يُخرج صوتاً غير إرادي ، فيه عين ساكنة « أَعْ » وهو في جَرْسه أقربُ ما يكون إلى جَرْس « الدع » .

الثالثة : التقابل بين صورتَيْن حاضرتَيْن

التقابل طريقة من طرق التصوير القرآني ، يتم من خلاله التنسيق بين صُوره المرسومة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ** ﴾ [سورة الشورى : ٢٩] .

ففي هذه الآية صورتان حاضرتان سريعتان ، صورة البثّ للدواب في الأرضِ ، تقابلُها وتعقُبها صورةٌ أخرى لجمع تلك الدواب المبثوثَة . وليس بينَ بثٍّ الدواب في السموات والأرض وجمعها إلَّا كلمةٌ تصدُر . والتعبير يقابلُ بين مشهدِ البث ومشهد الجمع في لمحة ، على طريقةِ القرآن ، فيشهدُ القلبُ هذيْن المشهديْن الهائليْن ، قبل أن ينتهي اللسانُ من آيةٍ واحدة قصيرة من القرآن .

الرابعة : التقابل بين صورتين ماضية وحاضرة

قد تكون الصورتان المتقابلتان مختلفتين « إحداهما حاضرةٌ الآن ، والأخرى

---

(١) المرجع السابق : ٨٢ .

ماضيةً في الزمان ، حيث يَعملُ الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلَها بالصورة المنظورة » .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ . في سَمومٍ وَحَمِيم . وَظِلٍّ مِنْ يَحْموم . لا بارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفين ﴾ [سورة الواقعة : ٤١ ـ ٤٥] .

الصورة الحاضرة هنا هي صورة أصحاب الشمال في جهنم ، يتعذَّبون بالسّموم والحميم والظلِّ من يَحْموم. تقابلُها الصورةُ الماضية لهؤلاء عندما كانوا في الدنيا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ . وما آلَمَ العذاب للمترفين !

ومن حيويةِ التصوير في هذا المشهد أنه طَوى عمرَ الدنيا ، وأوقفَ أصحابَ الشمال في السَّموم والحميم ، في نار جهنم ، وجعلهم يتذكرون أيامَ ترفهم ورفاهيتهم عندما كانوا في الدنيا . مع أنهم ـ من حيث الواقع ـ لم يزالوا في الدنيا مترَفين ، ولم ينتقلوا حسياً للصورة الثانية .

الخامسة : تناسق الإيقاع الموسيقي :

في التصوير القرآني إيقاعٌ موسيقي جذَّاب ، وهذا الإيقاع يتكوَّن من عدة عناصر . إنه يتكون من : « مخارج الحروف في الكلمة الواحدة . ومن تناسقِ الإيقاعات بين كلماتِ الفَقرة . ومن اتجاهات المدِّ في الكلمات . ثم من اتجاهاتِ المدِّ في نهاية الفاصلة المطَّرَدة في الآيات . ومن حَرْف الفاصلة ذاتِه »[1] .

وهذا الإيقاع الموسيقي منتشرٌ في القرآن كله . ولكنّه « يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضعِ التصوير والتشخيص بصفةٍ عامة ، ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال »[2] .

أ ـ تناسق الإيقاع الموسيقي مع السياق :

وقد ينتج هذا الإيقاعُ عن فواصلَ متساوية في الوزن ، متَّحِدَة في حرف

---

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٠٣٩ حاشية

(٢) التصوير الفني : ٨٥

التقفية ، وتكونُ الألفاظ متناسقةً مع الإيقاع ، فإذا حُذِفَ واحدٌ منها ، أو تغيَّر مكانُه من السياق ، اختلَّت القافية ، وتأثَّر الإيقاع .

من ذلك الإيقاعُ الموسيقي لسورة النجم . حيث بدأت السورةُ بقوله تعـالى : **﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾** [سورة النجم : ١ ـ ٤] ونستمرُ مع هذا الإيقاع الموسيقي في السورةِ حتى نصلَ إلى قوله تعالى : **﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْـرى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثى . تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾** [سورة النجم : ١٩ ـ ٢٢] .

« فلو أنَّكَ قلتَ : أفرأيتم اللات والعزى ، ومناةَ الثالثة . لاختلَّت القافية ولتأثَّر الإيقاع . وكذلك في قولـه تعالى : **﴿ أَلَكُمُ الـذَّكَرُ وَلَـهُ الأُنْثى ؟ تِلْكَ ـ إِذَنْ ـ قِسْمَةٌ ضِيزى ﴾** فلو قلت : تلك قسمةٌ ضيزى ، لاختلَّ الإيقـاع المستقيم . بحذف كلمـة « إذن » .

ولا يعني هذا أن كلمة « الأُخـرى » وكلمة « إذن » زائـدتان لمجـرَّد القافيـة أو الوزن ، فهما ضروريتان في السياق لنكتٍ معنوية خاصة .

وتلك ميزة فنيَّة أخرى . أن تأتي اللفظةُ لتؤديَ معنى في السياق ، وتؤدي تناسُباً في الإيقاع ، دون أن يطغى هذا على ذاك ، أو يُخْضِعَ النظمَ للضرورات »[1] .

وقـد « يعدلُ في التعبيـر عن الصورةِ القيـاسية للكلمـة إلى صورة خـاصة »[2] مراعاةً للإيقاع الموسيقي في الآيات . كما في قوله تعالى : **﴿ قَـالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَـا كُنْتُمْ تَعْبُدُون . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُون . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العَـالَمين . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِـين . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين ﴾** [سـورة الأنبياء : ٧٥ ـ ٨٢] .

فقد حُطفت يـاءُ المتكلم في الأفعال التـالية : يهـدين . ويسقين . ويشفين .

---

(١) المرجع السابق : ٨٦ .

(٢) المرجع السابق : ٨٦ ـ ٨٧

ويحيين . مراعاة لحرف القافية في كلمات : تعبدون . والأقدمون . والدين .

وقد « يُبنى النسقُ على نحو يختلّ إذا قدمْتَ أو أخَّرْتَ فيه ، أو عَدَّلْتَ في النَّظم أيَّ تعديل »[1] . وذلك في قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ، وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ [سورة مريم : ٢ - ٤] .

فلو أنَّكَ حاولْتَ مثلاً أن تغيِّرَ فقطْ من وضعِ كلمة « منّي » فتجعلَها سابقة لكلمة « العظم » : قال رب إني وهَنَ مني العظم ، لأحسَسْتُ بما يشبُه الكَسر في وزْن الشعر . ذلك أنها تتوازن مع « إنّي » في صدر الفقرة ، هكذا : « قال رب إنّي » « وهن العظم منّي »[2] .

ب ـ تناسق الإيقاع الموسيقي مع نظام الفواصل والقوافي :

يتنوعُ نظامُ الفواصل والقوافي في السور القرآنية حَسْبَ طولِ السورة وتوسُّطِها وقِصَرها . لذلك فإن « الفواصلَ تقصر غالباً في السور القصار ، وتتوسَطُ أو تطولُ في السور المتوسطة أو الطويلة . وبالقياسِ إلى حرف القافية : يشتدُّ التماثل والتشابه في السور القصيرة ، ويقلُّ غالباً في السور الطويلة . وتغلبُ قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو ، على جميع القوافي في سور القرآن »[3] .

وقد يتنوعُ الإيقاعُ الموسيقي المتناسق في السورة ، تَبَعاً لتنوُّع نظام الفواصل والقوافي فيها .

مثال ذلك فواصلُ سورة مريم والإيقاعُ الموسيقي المتناسقُ معها ، والمتنوِّعُ وِفْقها :

فالسورة تبدأ بقصةِ زكريا وابنه يحيى ـ عليهما السلام ـ ثم قصة مريم وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ والقافية أو الفاصلة في هذه القصص الأربع تنتهي بـرويٍّ

(١) المرجع السابق : ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) المرجع السابق : ٨٨ .

(٣) المرجع السابق : ٨٩ .

واحد ، هو الياء المشدَّدة بعدها ألف ممدودة . هكذا : زكريّا . خفيّاً . شقيّاً . وليّا . رضيّا . سميّا . . . . إلخ .

وفي آخر فقرة في قصة عيسى ـ عليه السلام ـ تتغير الفاصلة فتطول ، وتتغير القافيةُ فتصبح بحرف النون أو الميم وقبلهما مد طويل : يمترون . فيكون . مستقيم . عظيم . مبين . . . إلخ .

والسرُّ في تغيُّرِ نظام الفواصل والقوافي وفي الإيقاع الموسيقي الناتج عنه : « كأنما هو في هذه الآيات الأخيرة ، يُصدرُ حكْماً بعد نهاية القصة ، مستمدّاً منها . ولهجةُ الحكْم تقتضي أسلوباً موسِيقيّاً غيرَ أسلوب الاستعراض . وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً ، بدلَ إيقاع القصة الرضيِّ المسترسِل ، وكأنما لهذا السبب كان التغيير .

ونحن نستأنسُ في هذا الاستنباط بملاحظةٍ أخرى . ذلك أنه بمجردِ الانتهاء من إصدارِ هذا الحكم ، وإلقاءِ ذلك القرار ، عاد إلى النظام الأوَّل في القافية والفاصلة ، لأنه عاد إلى قصص جديد ، تمثل في قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ »[1] .

جـ ـ تناسق الإيقاع الموسيقي مع جو السورة العام

عندما يكُون جوُّ السورة العام جوّاً سريعاً ، فإن الإيقاعَ الموسيقي فيها يكون سريعاً قوياً ، وعندما يكون الجو وانياً بطيئاً يكون الإيقاع الموسيقي مسترْسِلاً رخيّا .

من الأمثلة على ذلك « سورة النازعات » حيث فيها إيقاعان موسيقيان ، متناسقان مع جويْن عاميْن . .

الأول : من قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [سورة النازعات : ١ ـ ١٤] فالإيقاع هنا متناسقٌ مع الجوِّ العام ، وتجلّى الإيقاع في مقطوعة : « سريعةِ الحركة ، قصيرةِ الموجة ، قويةِ المبنى » . وهذا الإيقاع متناسقٌ مع الجو العام ، الذي هو « جوٌّ مكهرَب ، سريعُ النبْض ، شديدُ الارتجاف » .

---

(١) المرجع السابق : ٩٠ .
(٢) أنظر المرجع السابق : ٩١ ـ ٩٤

الثاني : قصة موسى في السورة . من قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ١٥ ـ ٢٦] فمقطوعة هذا الإيقاع « وانيةُ الحركة ، رخيَّةُ الموجة ، متوسطة الطول ، وذلك لأن الجوَّ العام هنا جوٌّ قصصي هادئ مسترسِل » .

إن الإيقاع الموسيقي لجوِّ الدعاء والضراعة ، غيرُ الإيقاع الموسيقي لجوّ الهول والرعب ، غيرُ الإيقاع الموسيقي لجوٍّ الحرب والقتل . . .

السادسة : التناسق في رسم الصورة

الصور الفنية في القرآن مرسومةٌ بتناسقٍ فني ساحر ، حيث « توافر لها أدقُّ مظاهرِ التناسق الفني » .

وألوانُ التناسقِ في رسم الصورة ثلاثة :

الأول : ما يُسمَّى « بوحْدَةِ الرسم » بمعنى أن تكونَ أجزاءُ الصورة مؤتلفةً مع بعضها من غير تنافر .

الثاني : توزيعُ أجزاء الصورة ـ بعد تناسبها ـ على الرقعة بنسَبٍ معينة ، حتى لا يزحَمَ بعضُها بعضاً ، ولا تفقد تناسقها في مجموعها .

الثالث : اللونُ الذي ترسَمُ به ، والتدرجُ في الظّلال ، بما يحقق الجو العام ، المتسق مع الفكرة والموضوع .

والتصويرُ بالألوان يلاحِظ هذا التناسق ، كما يلاحظه التوزيعُ في المشاهد المسرحية والسينمائية .

والتصوير في القرآن قائم على أساسه ، وإن كانتْ وسيلتهُ الوحيدة هي الألفاظ ، وبذلك يسمُو الإعجازُ فيه »[1] .

ومن النماذج على هذا الأفق البديع من التناسق، تعبيرُ القرآن عن الأرض مرةً



(١) المرجع السابق : ٩٤ ـ ٩٥ .

بأنها هامدة ، ومرةً بأنها خاشعة . وليس هذا مجردَ تنويعٍ في التعبير، بل لمعنى تصويريٍ وبلاغيٍ وإعجازي .

« وردتْ « هامدةً » في هذا السياق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ، فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ ، اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [سورة الحج : ٥] .

ووَرَدَتْ « خاشعة » في هذا السياق : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة فصلت : ٣٧ـ ٣٩] .

وعندَ التأملِ السريع في هَذيْن السياقَيْن ، يتبين وجهُ التناسق في « هامدة » و « خاشعة » .

إنَّ الجوَّ في السياقِ الأول جو بعث وإحياء وإخراج ، فممَّا يَتَّسِقُ معه تصويرُ الأرض بأنها « هامدة » ثم تهتزُّ وتربو ، وتُنبتُ من كل زوج بهيج .

وإن الجوَّ في السياق الثاني ، هو جوُّ عبادة وخشوع وسجود ، يتَّسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فإذا أُنزِلَ عليها الماءُ اهتزت وربت .

ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء، الإنبات والإخراج كما زاد هناك . لأنه لا محلَّ لهما في جوِّ العبادة والسجود .

ولم تجيء « اهتزتْ وربتْ » هنا ، للغرض الذي جاءتا من أجله هناك :

إنهما هناك تخيِّلان حركةَ الأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركةُ هي المقصودة

هنا . لأن كلَّ ما في المشهد يتحركُ حركةَ العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرضُ وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزَّتْ، لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزءٌ من أجزاء المشهد ساكناً ، وكلُّ الأجزاء تتحركُ من حوله . وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة ، يسمو على كل تقدير .

. . . ثم لننظر الآن في « وحْدَةِ الرسم » في كلٍّ من الصورتيْن، وفي أجزاء الصورة كذلك :

وحدةُ الصورة الأولى هي : مخلوقاتٌ حية تخرج من الموت ، أو مشاهدُ حياة .

والأجزاءُ هي : نطفةٌ تَدْرُجُ في مراحلها المعروفة . ونبتَةٌ تصيرُ زوجاً بهيجاً . وهي : تراب ميت تخرج منه تلك النطفة . وأرض هامدة تخرج منها هذه النبتة .

والجوُّ العام : هو جوُّ الإحياء المرتسِم من هذه الأجزاء .

ووحدةُ الصورة الثانية هي : مخلوقاتٌ طبيعية عابدة ، أو مشاهد طبيعية .

والأجزاءُ هي : الليل والنهار ، والشمس والقمر والأرض خاشعة لله . . تموج فيها ، وتتصلُ بها جماعتان من الأحياء ، مختلفتا النوع ، متَّحدتا المظهر : جماعةٌ من الناس تستكبر عن العبادة ، وجماعة من الملائكة تعبدُ بالليل والنهار .

والجو العام هو : جوُّ العبادة المرتسم من هذه الأجزاء .

وهكذا تتناسقُ الجزئياتُ مع الجوِّ العام ، وتتَّحدُ جزئيات الصورة الواحدة ، تحقيقاً لوحدَة الرسم ، وتُوزَّعُ الأجزاءُ في الرقعة ، بهذا النظام العجيب »[1] .

السابعة : التناسق في رسم إطار الصورة :

يبدو التناسقُ الفنيُّ في الإطار الذي يجعله القرآن للصورة المرسومة . إن القرآن « ينسِّق الإطارَ والنطاق مع الصورة والمشهد ، ثم يطلقُ من حولهما الإيقاعَ الموسيقي الذي يناسبُ هذا كلَّه » .

---

(١) المرجع السابق : ٩٧ ـ ٩٩ .

وأبرزُ ما يكون هذا التناسقُ في قصار السُور .

من الأمثلة على ذلك، الإطارُ العام لسورة الضحى ، فجوُّ السورة العامُّ هو جوُّ « الحنانِ اللطيف ، والرحمةِ الوديعة ، والرضاءِ الشامل ، والشجى الشفيف » .

ولما أُريدَ وضعُ إطار عام لسورة الضحى ، جاء هذا الإطارُ متناسِقاً مع جوِّها العام . هذا الإطار هو ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ لقد جاء الإطار من « الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي . أصفى آنيْن من آونة الليل والنهار ، وأشفُّ آنيْن تسْري فيهما التأملات »[1] .

وإذا كان للصورة لونان : أبيض وأسود ، جاء إطارها العام من لونيْن ، ليتم التناسق .

ففي سورة الليل لونان للصورة ، أبيض وأسود ، فيها « من أعطى واتقى » و « من بخل واستغنى » وفيها مَنْ ييسَّرُ لليسرى ، ومَنْ ييسَّرُ للعسرى ، وفيها الأشقى الذي يَصْلى النار الكبرى ، والأتقِي الذي سوف يرضى .

ولأجل هذين اللونين في الصورة ، جاء الإطار مكوَّناً من لونين : أبيض وأسود : ﴿ والليلِ إذا يغشى . والنهار إذا تجلَّى . وما خلق الذكر والأنثى ﴾ .

فالليلُ إذا يغشى . يقابلُه النهار إذا تجلَّى . والذكر يقابله الأنثى ، تَقابلٌ في النوع وتَقابلٌ في الخلْقة .

الثامنة : التناسق في مدة العرض :

إن المشاهدَ والصورَ القرآنية لا تُعرض هكذا جزافاً ، وإنما تُعرض وفْق أساس فني متناسق . لذلك نرى « بعضَ المشاهد يمرُّ سريعاً خاطفاً يكاد يخطف البصر لسرعته ، ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه . وبعضُ المشاهد يطول ويطول ، حتى ليخيَّل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول . وبعضُ هذه المشاهد الطويلة حافلٌ بالحركة ، وبعضها شاخص لا يَريم . وكلُّ أولئك يتم تحقيقاً لغرض خاص في

(١) المرجع السابق : ١٠٣

المشهد ، يتّسق مع الغرض العام للقرآن ، ويتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام »[1] .

أ ـ مشاهد قصيرة العرض :

من هذه المشاهد قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيا : كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمَاً تَذْرُوهُ الرِّياح ﴾ [سورة الكهف : ٤٥] .

هذا المشهدُ قصير خاطِف ليُلقي في النفس ظلَّ الفناء والزوال : « الماء ينزل من السماء ، فلا يَجري ولا يَسيل ، ولكن يختلطُ به نبات الأرض . والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشيماً تذْروهُ الرياح » . وما بينَ ثلاثِ جُمل قصار ، ينتهي شريط الحياة .

ولقد استخدمَ النسقُ اللفظي في تقصير عرض المشاهد ، بالتعقيبِ الذي تدلُّ عليه الفاء « ماءٍ أنزلناه من السماء » فـ « اختلط به نبات الأرض » فـ « أصبح هشيماً تذروهُ الرياح » .

فما أقصرَها حياة . . وما أهونَها حياة » .

ب ـ مشاهد مطوَّلة :

نختار من هذه المشاهد المطوَّلة ، مشهداً مقابلاً للمشهد الذي مثَّلنا به للمشاهد القصيرة ، يتحدثُ عن نفس الموضوع : الماء والأرض والنبات الأخضر والهشيم اليابس الحطام :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأَرْضِ . ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً . ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ﴾ [سورة الزمر : ٢١] .

هكذا في تراخٍ بـ «ثم» وفي تمهُّل وبطء ، فالماء ينزل ، فلا يختلط بالأرض ، ولا بنبات الأرض . إنما يسلك ينابيع . «ثم» « يخرج به زرعاً » ـ وفي الوقت فسحةٌ

---

(١) المرجع السابق : ١٠٥

لتملّي ألوانِ الزرع المختلفة الألوان ـ « ثم » « يهيج فتراه مصفراً » ـ وفي الوقت مهلة لتراه ـ «ثم» « يجعله حطاماً » ـ «يجعله» ـ وهناك « أصبح هشيماً » . .

والسِّر في تطويل المشهد هنا أنه سيق لبيان نِعم الله عزَّ وجلَّ ، فَناسب أن يكون عرضُها بطيئاً ، لتَلْبث صورها أمام الأنظار ، وليتمَّ تملّي مشاهِدها والاستمتاعَ بها »[1] .

وفي ختام تلخيصِنا لكلام سيد قطب عن « التناسق الفني » كخصيصة من أهمّ خصائص التصوير الفني في القرآن ، نورد كلامه الرائع الذي ختمَ به فصل التناسق .

قال : « وهكذا تتكشفُ للناظر في القرآن آفاقٌ وراء آفاق ، من التناسق والاتِّساق : فمن نظْم فصيح . إلى سرْد عذب . إلى معنى مترابِط . إلى نَسَق متسلسل . إلى لفظ معبِّر. إلى تعبير مصوِّر . إلى تصوير مشخِّص . إلى تخييل مجسِّم . إلى موسيقى منغَّمة . إلى اتّساق في الأجزاء . إلى تناسق في الإطار . إلى توافق في الموسيقى . إلى افتنان في الإخراج . . . وبهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز »[2] .

رابعاً : الحياة الشاخصة :

القرآن يرسم الصورة القرآنية الفنية ، ثم يرتقي بها فيمنحها الحياة الشاخصة المتخيِّلة، ويكادُ القارىء يراها وهي تتحرك كالأحياء .

يقول سيد قطب عن هذه الحياة الشاخصة : «التصوير في القرآن تصوير حيّ . منتَزَع من عالَم الأحياء ، لا ألوانٌ مجرَّدة وخطوط جامدة، تصويرٌ تقاس فيه الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني تُرْسَمُ وهي تتفاعل في نفوسٍ آدمية حية ، أو في مشاهدَ من الطبيعة تخلع عليها الحياة »[3] .

المعاني الذهنية والحالات النفسية : « لم تُسْتَبدَل بها صور فحسب ، ولكن

---

(١) المرجع السابق : ١١٠ .

(٢) المرجع السابق : ١١٦

(٣) المرجع السابق : ٣٣

اختيرتْ لها صور حية ، وقيست بمقايـيس حية ، ومرَّت من خلال وسط حي »[1] .

ولذلك أثَّرت الصور القرآنية في النفس تأثيرَها العجيب ، وهي لم تفعل هذا إلاَّ لأنها انتقلتْ « من كائن حي ، إلى كائن حي ، في وسط حي »[2] فتغلغلتْ في أعماق الضمير من خلال التعبير والتصوير .

من الأمثلة على هذه الحياة الشاخصة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى ، وَما هُمْ بِسُكَارَى ، وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيد ﴾ [سورة الحج : ١ - ٢] .

زلـزَلَةُ السـاعة المـرعبة ، وهـولُها العـظيم ، يمرّان في وسط حي ، ويقـاسان بمقاييس حية . إنَّ هـذا الهـول حي ، لا يُقاس بالحجم والضخـامة ، ولكن يُقـاس بـوقْعه في النفـوس الآدمية ! في المـرضعات الـذاهلات عمـا أرضعْن ـ وما تـذهَلُ المـرضعة عن طفلهـا ، وفي فمه ثـديُهـا ، إلاَّ للهـول الـذي لا يَـدَعُ بقيـة من وعي ـ والحوامل الملقياتُ حملهن ، وبالناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

ومن ذلـك قولـه تعالى : ﴿ وَيَـوْمَ يَعَضّ الظَّالِمُ عَلَى يَـدَيْهِ ، يَقُـولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٢٧ - ٢٨] .

هذا المشهد يصـوِّر ندَم الـظالمين صورة حيـة ، فها هم يصـرخون صـرخاتٍ نادمة ، ويطلقون عباراتٍ أسيفة ، ويُصْدِرُونَ أصواتاً مديدةً حسيرة . إنهـا صرخـاتٌ حية ، يهتف بها لسانُ إنسانٍ في ذلك الموقف العصيب ، وهذه الصرخـاتُ الحية ، خلعتْ على المشهد المعروض حياةً شاخصة .

كلُّ ما في التصوير القرآني حي . السمواتُ والأرض ، والجوامِدُ والمعنويّات ،

---

(٤) المرجع السابق : ٢٠٠

(٥) المرجع السابق : ٢٠١

كما قال سيد قطب « إنَّ هذه الريشة المبدِعة ، ما مَسَّتْ جامداً إلَّا نَبَض بالحياة ، ولا عَرَضتْ مألوفاً إلَّا بدا جديداً ، وتلك قدرة قادرةٌ ، ومعجزة ساحرة ، كسائر معجزات الحياة »[1] .

ويمكن أن نربط بين الحياة الشاخصة ، وبين « التشخيص » الذي عَرَضْنَاه لوناً من ألوان « التخييل الحسي » في التصوير القرآني .

خامساً : الحركة المتجددة :

الحركةُ المتجددة سمةٌ واضحة ، ملحوظةٌ في كل آفاق التصوير الفني « فما يكادُ العرضُ يبدأ ، حتى يُحيلَ المستمعين نظّارة ، وحتى ينقلَهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأوّل ، الذي وقعتْ فيه ، أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدّد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلامٌ يُتلى ، ومَثَل يُضرب ، ويتخيل أنه منظرٌ يُعْرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوصٌ تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سماتُ الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثةِ من الموقف ، المتساوقةِ مع الحوادث ، وهذه كلماتٌ تتحرك بها الألسنة فتنمُّ عن الأحاسيس المضمَرة »[2] .

هذه الحركة قد تكون مضمرة أو ظاهرة ، إلَّا أنها لا تكاد تخلو منها صورة من الصور « فقليلٌ من صور القرآن هو الذي يُعرض صامتاً ساكناً ـ لغرض فني يقتضي الصمت والسكون ـ أما أغلب الصور ففيه حركة مضمَرَة أو ظاهرة ، حركة يرتفعُ بها نبض الحياة ، وتعلو بها حرارتُها ، وهذه الحركة ليست مقصورة على القصص والحوادث ، ولا على مشاهد القيامة ، ولا صور النعيم والعذاب ، أو صور البرهنة والجدل ، بل إنها لتُلْحَظ كذلك في مواضع أخرى ، لا ينتظر أن تلحظَ فيها »[3] .

تبدو هذه الحركة المتجدِّدة ، في كل شيء على وجه الأرض، كحركةِ الإنسان والحيوان والطير والنبات ، وحركةِ النهر والبحر والمحيط ، وحركةِ الريح والسحاب

---

(١) المرجع السابق : ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق : ٣٢ .

(٣) المرجع السابق : ٦١

والظل والحر ، وحركةِ الليل والنهار والنجوم والكواكب ، وحركة الحياة والموت . وغير ذلك .

من الأمثلة على الحركة المتجددة في المشاهد القرآنية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم ، إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ١١] .

إن حركةَ بسْط الأيدي وكفِّها ، أكثرُ حيويَّة وتأثيراً من ذلك التعبير المجرد : إذ هَمَّ قوم أن يبطشوا بكم ويعتدوا عليكم ، فحماكم الله منهم .

إنَّ التعبيرَ القرآني المتحرِّك هنا ، يتبع طريقةَ الصورة والحركة ، لأن هذه الطريقة تُطْلِق الشحنةَ الكاملة في التعبير ، كما لو كان هذا التعبير يطْلَق للمرة الأولى ، مصاحِباً للواقعة الحسية التي يعبِّر عنها ، مبرِزاً لها في صورتها الحية المتحركة .

ومن ذلك هذا التصويرُ الحي المتحرِّك لأطراف غزوة الأحزاب : المؤمنين والكافرين والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ : إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ، وَبَلَغَت القُلُوبُ الحَنَاجِر ، وَتَظُنّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرورا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ، يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَة ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَة ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِها ، ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَأتَوْهَا ، وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسيرا ﴾ [سورة الأحزاب : ٩ ـ ١٤] .

إننا اليوم ـ من حيوية التصوير وحركته ـ نكادُ نرى المعركة بأطرافها ، والموقفَ بكل سِماته ، وكلِّ خَلَجاته وحركاته ، وكلِّ ما فيه ومَنْ فيه . لأن هذا الشريطَ المصوِّر الحيّ المتحرِّك لم يغفل أية حركة نفسية أو حسية ، ولم يهمل أية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات المعركة .

حركةُ الأحزاب يأتون المدينة من كل مكان يعبِّر عنها بهذا التعبير المتحرك ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ .

وخوفُ المؤمنين الموقوت وقلقُهم القصير في المعركة ، يَبرز في هذه الصورة الحيَّة المتحركة المتخيلة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِر ﴾ .

وانبعاثُ المنافقين بالفتنة والتخذيل والإشاعات ، يصوَّر بهذه الصورة المتحركة : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَض ، مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَه مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجَعُوا ﴾ .

وجبنُ ضِعاف القلوب وتخاذلُهُم يُعرض بهذه الصورة المتحركة : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيّ . يَقُولُون : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَة ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَة . إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأتَوْهَا ، وَمَا تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسيرا ﴾ .

وهزيمةُ الأحزاب تقدَّم بهذه الصورة المتحركة : ﴿ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنوداً لَمْ تَرَوْها ﴾ .

وهكذا لا تكادُ تفلت في الموقف حركةٌ ولا سمة ، إلَّا وهي مسجَّلة ظاهرة حية متحركة .

هذه الخصائص :

لقد تكلَّمنا فيما سبق عن خمسِ خصائص بارزة للتصوير الفني في القرآن وهي : التخييلُ الحسي ، والتجسيم الفني ، والتناسق الفني ، والحياة الشاخصة ، والحركة المتجددة . وتكلمْنا عنها كلاماً مختصراً ، موجَزاً . وعرضْنا لها أمثلةً قرآنية محدودة ، أوردناها للتمثيل فقط ، وتكلَّمْنا عن كل مثال في غايةِ الإيجاز ، وكان كلامُنا عن كل مثال ، مستَمداً من تحليل سيد قطب لتلك الأمثلة من كتابيْه « التصوير الفني في القرآن » و « في ظلال القرآن » وندعو القارىءَ إلى العودة لكتابيْه المذكورَيْن للوقوف على دقة وروعة كلامه وتحليله لتلك النماذج والأمثلة .

وهذه الخصائصُ المذكورة ، تعتبر قواعدَ وأسساً ثابتة لنظرية التصوير الفني في

القرآن . وتبدو هذه النظرية الفنية البيانية من خلالها نظريةً متناسقة ، ذاتَ هيكل دقيق ، وبناءٍ متماسك ، وجزئيات مترابطة ، وبذلك تقدِّم نفسَها نظريةً أصيلة لدراسة البيان القرآني المعجِز ، وتذوُّق الأسلوب القرآني المؤثر . وبهذا تعتبر دراسةً من دراسات الإعجاز البياني في القرآن .

وتشيرُ هذه النظرية الفريدة إلى الموهبةِ الفنية والنقدية والأدبية لرائدها المرحوم سيد قطب . حيثُ وقفَ على خصائصها وسماتها وجزئياتها وخطوطها وألوانها . وبذلك نعرفُ الإضافةَ الرائعة التي أضافها سيد قطب إلى جهود السابقين في تذوُّق الأسلوب القرآني ، ودراسة إعجازه البياني ، وتحليل جماله الفني .

ونحن مع الدكتور فتحي أحمد عامر في كلامه عن هذه الخصائص التي عَرَضها سيد قطب : « إنها ألوانٌ جديدة ، وإضافاتٌ شافية ، شفَّت عنها إحساساتُ أديبٍ كبير ، ومؤمنٍ بصير ، لم يبدأ تجربته من الفراغ ، ولكنه قرأ فأطال ، وتأمَّل فاستغرق ، وعايش فأكثر المعايشة ، ونوَّه بكل رأي ، وأشار إلى ما سبقه ، من نتاجٍ علمي وحصادٍ عقلي ، في مجال الدراسات القرآنية ، ثم وَضَعَ خلاصةَ فكره ، وأضافَ ما هدَتْه إليه بصيرتُه . فجاء لمسةً شافية في نسق القرآن ، الذي يتبوأُ قمَّة البيان »[1] .

« آفاق التصوير الفني في القرآن »

قلنا إن « التصوير » هو الأداة المفضَّلة في التعبير القرآني ، أيْ أن معظم موضوعاتِ القرآن وأغراضه معروضةٌ بطريقة التصوير . وهذه الموضوعاتُ والأغراض هي آفاقُ التصوير وألوانه ومجالاته .

وحول هذه الأفاق والألوان يقول سيد قطب ـ رائدُ نظرية التصوير ـ «التصوير في القرآن ليس حِلْيَةَ أسلوب ، ولا فلتةً تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرَّر . وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة ، وطريقة معينة ، يفتَنُّ في استخدامها بطرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة .

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور فتحي عامر : ٣٧٣

إن القرآن يعبِّر بالتصوير حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو حالةٍ نفسية ، أو صفةٍ معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثةٍ واقعةً ، أو قصة ماضيةً ، أو مشهدٍ من مشاهد القيامة ، أو حالةٍ من حالات النعيم والعذاب ، أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل أو محاجّة ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس والمتخيَّل المنظور »[1] .

آفاق التصوير الفني في القرآن « تؤلِّف على التقريب أكثرَ من ثلاثة أرباع القرآن من حيث الكمّ ، وكلُّها تستخدم طريقة التصوير في التعبير ، فلا يُستثنى من هذه الطريقة إلا مواضعُ التشريعِ ، وبعضُ مواضع الجدل ، وقليلٌ من الأغراض الأخرى ، التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرَّد ، وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربعَ القرآن »[2] .

وسنعرض فيما يلي أهمَّ آفاق التصوير الفني في القرآن ، ونقدم لكل واحد مثالاً من آيات القرآن التصويرية ، ونذكرُ هذا بمنتهى الإيجاز ، ونُحيلُ القارىء على كتاب « التصوير الفني في القرآن » للوقوف على تلك الآفاق بالتفصيل ، كما نحيلُه على تحليل سيد قطب للأمثلة التي نوردها ، في كتابيه « التصوير الفني » و« في ظلال القرآن » وبإمكانه أن يعود إلى كتابنا الخاص بالموضوع « نظرية التصوير الفني عند سيد قطب » .

الأول : تصوير المعاني الذهنية :

المعاني الذهنية المعروضة بطريقة التعبير الذهني المجرَّد ، لا تخاطب إلا الذهنَ المجرّد ، والعقلَ المجرّد ، أما عرْض هذه المعاني الذهنية بطريقة التصوير الحي المتحرك ، فإنه يجعل لها تأثيراً في النفس ، وقبولاً لدى الإنسان ، لأنها في هذه الطريقة تخاطبُ الكيانَ الإنساني كلَّه . تخاطب الذهن والعقل والوعي ، كما تخاطب « الحسَّ والوجدان ، المنفعلَ بالأصداء والأضواء . ويكون الذهنُ منفذاً

(١) التصوير الفني : ٣٣

(٢) المرجع السابق : ٢٠٤

واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذَها الوحيد »[1] .

من هذه المعاني الذهنية المصوَّرة قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون . مَثَلُ ما يُنْفِقونَ في هذِهِ الحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْه ﴾ [سورة آل عمران: ١١٦ - ١١٧] .

المعنى الذهني المجرَّد هنا : أن الكفار معذَّبون يوم القيامة ، وأن أموالهم لا تصلح لهم فديةً من عذاب الله ، وأن أولادَهم لا يدفعون عنهم ذلك العذاب ، وأن أعمالَهم كلَّها ضائعة .

ولكن الآيات عدَلَتْ عن هذا المعنى ، ورسمتْ مشهداً حياً نابضاً بالحياة والحركة ، يؤدي المعنى الذهنيَّ المجرد ، ويزيدُ عليه في تأثيره : « إننا ننظر فإذا نحنُ أمامَ حقلٍ قد تهيَّأَ للإخصاب . ثم إذا العاصفةُ تهب عليه . إنها عاصفةٌ ثلجية محرقة ، تحرقُ الحقل بما فيه من الحرث ، وذلك بما فيها من صِرّ - واللفظة ذاتُها كأنها مقذوفٌ يلقىٰ بعنف ، فيصوِّر معناه بجرْسه النَّفّاذ - وإذا الحرثُ كله مدمَّر خراب . . وهكذا أموال الكفار وأولادهم ، كلها إلى هلاك وفناء .

الثاني : تصوير الحالات النفسية :

فرْق بين الحالاتِ النفسية المعروضة بطريقة التعبير المجرّد، وبين الحالات النفسية المعروضة بطريقة التصوير المعجزة .

إن لها فضلاً كبيراً عندما تُعرضُ بالطريقة الثانية ، ويبينُ هذا الفضل عندما نتصور هذه الحالاتِ النفسية على صورتها الذهنية التجريدية ، ثم نتصورها على صورتها التصويريّة التخييلية الحيّة .

من ذلك تصويرُ الحالة النفسيّة الحرجة للصحابة الثلاثة المخلَّفين عن غزوة تبوك ، عندما أَمَر الرسول ﷺ المسلمين بمقاطعتهم تأديباً وتربية لهم ، واستمرتْ هذه المقاطعة خمسين يوماً . وصَلَت فيها حالتهم النفسية إلى مرحلة من الضيق والشدة

(١) التصوير الفني : ١٩٤

والحرج والضجر . لا تكاد توصَف ولا تُطاق ـ وقد بيَّن أحدُ هؤلاء المخلفين الثلاثة «كعب بن مالك» رضي الله عنه بعضَ ملامح تلك الحالة في حديثه الصحيح الذي روته كتبُ الحديث والتفسير والسيرة والتاريخ .

قال القرآن عن حالتهم تلك : **﴿ وَعَلى الثَّلاثَةِ الّذِينَ خُلِّفوا ، حَتّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ، وَضاقَتْ عَلَيهِمْ أنْفُسُهُمْ ، وَظَنّوا أنْ لا مَلْجأَ مِنَ اللّهِ إلاَّ إلَيْه ، ثُمَّا تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾** [سورة التوبة : ١١٨] .

إن ضِيقَهم وضجرَهم قد تحوَّل في التصوير القرآني الحي ، إلى حركةٍ مادية مجسَّمة متحركة ، حركةٍ جثمانية منظورة محسوسة . . فها هي الأرض بما رحُبت تضيقُ عليهم ـ رغم سَعَتها على غيرهم ـ إنها بالنسبة لهم تتقاصرُ أطرافُها ، وتنكمش رقعتُها ، وتتحركُ نحوهم لتحيط بهم في دائرة ضيقة ، هم منها في حرج وضيق ، ويتابعُ الخيال حركةَ هذه الدائرة الأرضية وهي تضيق بهم . . وتضيقُ . . وتضيقُ . . حتى تكاد تحشرهم في وسطها حشراً . حشراً محسوساً مجسَّماً ملموساً . . وها هي ذي نفوسهم التي يحملونها تتحركُ حركةً ماديّةً موازيةً لحركة الأرض ، فنفوسُهم تضيق عليهم . وكأنها وعاءٌ لهم . . تضيق عليهم ولا تسعهم، فتضغطُهم فتتكربُ أنفاسهم .

الثالث : تصوير الحوادث الواقعة :

ونعني بالحوادث الواقعة ، أحداث السيرة وحياةَ الصحابة ، التي وقعتْ على عهد رسول الله ﷺ والتي نزلت فيها آياتٌ من القرآن ، وعرضتْها بطريقة التصوير .

من هذه الحوادث الواقعة المصوَّرة ، ميدانُ معركة بدر ، وموقعُ المسلمين وموقع المشركين فيه ، وإغراءُ كلٍّ منهما بالآخر عن طريق الرؤيا المنامية . قال تعالى : **﴿إذْ أَنْتُم بالعُدْوَةِ الدُّنيا ، وَهُمْ بالعُدْوَةِ القُصْوى . وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعادَ . وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعولاً . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ . وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإنّ اللّهَ لسميعٌ عليم . إذْ يُريكَهُمُ اللّهُ في مَنامِكَ قَليلاً . وَلَو أَراكَهُمْ كَثيراً لَفَشِلْتُمْ ، وَلَتَنازَعْتُمْ في الأَمْرِ ، وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّم ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدور . وَإذْ يُريكُموهُمْ إذ الْتَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُمْ قَليلاً ، وَيُقَلِّلُكُمْ في**

أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعولاً . وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمور ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢ ـ ٤٤] .

إن معركةَ بدر في هذا المشهد معروضةٌ عَرْضاً تصويرياً حياً ، وإن الألفاظ هنا لتدعو الخيالَ إلى استحضار مشاهِدِها ومواقفها . . وإن هذه المعركةَ شاخصةٌ بمواقع الفريقين فيها ، وشاهدةٌ بالتدبير الخفيِّ من خلالها . إن الله يوقف هؤلاء هنا ، وهؤلاء هناك ، والقافلة تكادُ تُرى ناجيةً من بعيد ، أسفلَ من مواقع المسلمين ، والكلماتُ تكاد تكشف عن تدبير الله سبحانه ، في رؤيا رسول الله ﷺ وفي تقليل كل فريقٍ في عين الفريق الآخر ، وفي إغراءِ كل منهما بالآخر . . وما يملك إلا الأسلوبُ القرآني الفريد ، عرْض المشاهد ، وما وراء المشاهد ، بهذه الحيوية ، وبهذه الحركة المرئية ، وفي مثل هذه المساحة الصغيرة من التعبير .

الرابع : الأمثال المصوَّرة :

الأمثالُ القرآنية كثيرة ، عُرضتْ كلُّها بطريقة التصوير الفني ، لم يشذَّ واحدٌ منها عن تلك الطريقة ، فجاءت أمثالاً مصورة .

من هذه الأمثال المصوَّرة قولُه تعالى : ﴿ يَا أَيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعوا لَهُ . إِنَّ الّذِينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللّه ، لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً ، وَلَوْ اجْتَمَعوا له ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْه ، ضَعُفَ الطّالِبُ وَالمَطْلوب ﴾ [سورة الحج : ٧٣].

في هذا المثل تصويرٌ لعجز الآلهة المدَّعاة من دون الله ، وهو معروض في صورةِ مشهدٍ شاخصٍ متحرك متعاقب . إن تلك الآلهة المدعاة لن تخلُق ذبابةً واحدة ، ولو اجتمعتْ وبذلتْ وسعها لخلقها . والذباب صغير حقير ، ولكن الآلهةَ المدعاة ـ لشدة ضعفها المُزري ـ لن تخلقه .

ثم في المثل خطوةٌ أخرى في إبراز ضعف هذه الآلهة : إن هذا الذبابَ الصغير الحقير ، لو سلبهم شيئاً فلن يستنقذوه منه ، سواء كانت هذه الآلهةُ أصناماً جامدة أو أشخاصاً أحياء ، فكم من أشياء يسلبُها الذباب من الناس ، فلا يملكون استنقاذها منه .

لقد رسم هذا المثل ، عن طريق التصوير والتخييل ، صوراً متدرِّجة لضعف الآلهة المزري ، أثارتْ في نَفس القارىء السخريةَ اللاذعة والاحتقارَ المهين . إنهم « لن يخلقوا ذباباً » هذه واحدة . « ولو اجتمعوا له » وهذه أخرى . « وإن يسلُبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » وهذه ثالثة . وفي الصورة جمال فني آخر ، يتمثل « في تلك الظلال التي تُضْفيها محتوياتُ الصورة ، وفي الحركة التخييليّة في محاولة خلْق الذباب، وفي التجمع له، ثم في محاولة الطيران خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبُه» .

الخامس : مشاهد الطبيعة المصورة :

مشاهدُ الطبيعة في القرآن كثيرةٌ منوَّعة ، مثل مشاهدُ الرياح والسحاب والمطر والعيون والنبات والثمار والبحار والأمواج والجبال ، وغير ذلك . وهي معروضة بطريقة التصوير الفني .

من هذه المشاهد، مشهدُ الرعد والبرق والصواعق والتسبيح . قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُريكُم البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، وَيُنْشِىءُ السَّحابَ الثِّقال . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، والملائِكَةُ مِنْ خيفَتِه ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاء، وَهُمْ يُجادِلونَ في الله ، وَهُوَ شَدِيدُ المِحال** ﴾ [سورة الرعد: ١٢ ـ ١٣].

تجتمعُ في هذا المشهد المصوَّر الشاخص مناظرُ الطبيعة ومشاعرُ النفس ، وهي متداخلةٌ متناسقة في الصورة والظل والايقاع . وتخيِّم عليه الرهبةُ والضراعة والاشفاق . يرينا اللّهُ البرقَ خوفاً وطمعاً . وينشىءُ الله السحاب ، ويجعله مملوءاً بالماء . والرعدُ في هذا المشهد حي شاخص ، يتوجَّه إلى الله بالتسبيح والتحميد . . والملائكةُ في هذا المشهد المرعِب المخيف تسبِّح الله وتخافه ، ويكتملُ المشهد رعباً وخوفاً وابتهالاً ، بالصواعق التي يرسلها الله ، فيُهلك بها من يشاء .

وفي وسط هذا الهول المخيف ، ترتفعُ أصوات بشرية كافرة ، تجادل في الله ، مالكِ هذه القوى ، ومسخِّرِ هذه الظواهر .

إنه مشهدٌ من مشاهد الطبيعة مخيف رعيب ، زاد في هوله ورعبه استخدامُ طريقة التصوير والتخييل والتشخيص في رسمْ مناظره .

السادس : الجدل التصويري :

حتى الجدل والمناظرة ، ولفْت الأنظار إلى آيات الله في الكون والنفس ، وعرْض أدلة الوحدانية ، وإبْطال عقائد الكافرين والمشركين حتىٰ هذه المباحث العقيدية العقلية النظرية ، معروضةٌ في القرآن بطريقة التصوير الفني .

لقد عمد القرآن ـ وهو يعرض العقيدة ويبطل الشرك ـ دائماً إلى «البَداهة ، وإيقاظِ الإحساس ، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة ، ويتخطاهما إلى الوجدان . وكانت مادتُه هي المشاهد المحسوسة ، والحوادث المنظورة ، والمشاهد المشخَّصة ، والمصائر المصوَّرة »[1] .

« أما طريقتُه فكانت هي الطريقة العامة : طريقة التصوير والتشخيص بالتخييل والتجسيم »[2] .

من الأمثلة على هذا الجدل التصويري ، قضيةُ تعدُّد الآلهة وقضية الوحدانية ، عَرَضها التعبيرُ القرآني المعجز ببساطة ويُسر ، وخاطب الكيان الإنساني بلا تعقيدٍ كلامي ولا جَدَل ذهني ، حيث رسم هذا المشهد المصوَّر العجيب ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلٰه . إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِما خَلَق ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض** ﴾ [سورة المؤمنون : ٩١] .

لقد نفت الآيةُ التعددَ وأثبتت الوحدانية ، في جملةٍ واحدة ، وعبارة تصويرية فريدة . ولقد رسمتْ الآية للتعدد صورةً هزيلة مضحِكة : لو كان هناك آلهة ، لذهبَ كل إله بما خلق ، وكم في هذه الصورة من سخرية ، تخيَّلْ أن ينحاز كل فريق من المخلوقات إلى إله ، وأن يأخذ كل إله مخلوقاتِه ويذهب . إلى أين ؟ لا ندري . ولكننا نتخيلُ هذه الصورة فنضحكُ من فكرةِ تعدد الآلهة ، إذا كانت نتيجتُها هذه النتيجة .

السابع : التصوير في النماذج الإنسانية :

النماذجُ الإنسانية وافرةٌ في القرآن ، سواء كانت نماذجَ لمؤمنين ، أو نماذجَ

---

(١) التصوير الفني : ١٨٤

(٢) المرجع السابق : ١٨٥

لكافرين ، أو نماذجَ لمنافقين . وكلُّ هذه النماذج معروضةٌ في البيان القرآني بطريقة التصوير .

ونظراً لـوفرةِ هذه النماذج ، ولوضوحِ التصوير الفني فيها ، فقد كان سيد قطب ينوي تخصيصَ كتابٍ لها ، وإصداره ضمن مشروعِهِ « مكتبة القرآن الجديدة » وأعلن عنه بعنوان « النماذج الإنسانية في القرآن » لكنه عدل عنه .

وقد أخذ الفكرةَ « أحمد محمد فارس »وقدَّم بحثاً إلى الجامعة اللبنانية ، بعنوان « النماذج الإنسانية في القرآن» ثم طبعه في كتاب خاص ، قال في مقدمته : « كانت كلمةُ الأستاذ سيد قطب حول غزارة النماذج الإنسانية في القرآن الكريم منطلقَنا لمحاولةِ التحقيق من صوابية الفكرة التي طرحَها ، فقراءتُنا القرآن قراءةً متأنية ، أطلعتْنا على ما أذهَلَنا في هذه الناحية ، فكان أن كتبْنا في هذا الموضوع »[1].

رسم القرآنُ هذه الصورة لنموذجٍ من المؤمنين فقراء ولكن متعفِّفين ! ﴿ **لِلْفُقَراءِ الّذِينَ أُحْصِروا في سَبيلِ اللَّهِ ، لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّف ، تَعْرِفُهُمْ بِسيماهُمْ ، لا يَسْأَلون النّاسَ إلْحافاً** ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].

إنها صورةٌ واضحةُ الملامح ، ترتسمُ على استحياء ، وكلُّ جملة تكاد تكون لمسةَ ريشة ، ترسم الملامح والسمات ، وتشخصُ المشاعر والانفعالات . وما يكاد الإنسانُ يتمُّ قراءتَها حتى تبدو له تلك الوجوه ، وتلك الشخصيات كأنما يراها .

ورسَمَ القرآنُ هذا النموذج لمنافقين جبناء : ﴿ **وَيَحْلِفونَ باللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَما هُمْ مِنْكُمْ ، وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقون . لَوْ يَجِدونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ ، أَوْ مُدَّخَلاً ، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحون** ﴾ [سورة التوبة: ٥٦ ـ ٥٧].

إن المنافقين جبناء ، والتعبيرُ القرآني يرسمُ لهذا الجبن مشهداً ، ويجسِّمه في حركة ، حركةُ النفسِ والقلب ، يبرزُها في حركة جسد وعيان ، فهم متطلِّبون أبداً إلى

(١) النماذج الإنسانية في القرآن لأحمد فارس : ١٤٣

مخبأ يحتمون ، ويأمنون فيه ، حِصْناً أو مغارةً أو نفقاً ، إنهم مذعورون مطارَدون ، يطاردهم الفزعُ الداخلي والجبنُ الروحي . .

ورسمَ القرآنُ هذا النموذج لعنادِ الكافرين ومكابرتِهم : ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيهِمْ باباً مِنَ السَّماء ، فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجون . لَقالوا : إِنَّما سُكِّرَتْ أبصارُنا . بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحورون** ﴾ [سورة الحجر: ١٤ ـ ١٥] .

إن هذا النموذج للكافرين يُشخصُ حالةَ عنادهم السخيف . . إننا نكادُ نتصوَّرُ هؤلاء الكفار ، وهم يعرُجون إلى السماء ، في بابٍ فُتح لأجلهم ، إنهم يصعدون فيه بأجسامهم ، ويرون الباب مفتوحاً بعيونهم ، إنهم يمارسونَ عمليةَ الصعود ويحسونها بأبدانهم . ومع ذلك يقولون وهم يصعدون : لا . . لا . . ليستْ هذه حقيقة . ولا نحن نصعد في السماء فعلاً ، وإنما أحدٌ سَكَّرَ أبصارَنا وأغلقها وخدَّرها ، فهي تتخيَّل أنها تصعد ، وأجسامُنا مسحورة بفعلِ ساحر ، فما نراه ونحسُّه تهيُّؤاتُ مسحور .

إن مكابرةَ هؤلاء مرذولةٌ سمجة ، تثير شعورَ الاشمئزاز والتحقير ، وإن هؤلاءِ ما عاد يُجدي معهم حجةٌ ولا دعوة ولا برهان ، إن الكفر عناد .

الثامن : التصوير في مشاهد القيامة :

التصويرُ الفني في القرآن أكثرُ ما يكون بروزاً ووضوحاً في مشاهد القيامة . وقد استخدمَ القرآن طريقةَ التصوير في عرْض هذه المشاهد ، لأن التعبيرَ بالتصوير أكثرُ تأثيراً وأشدُّ إيحاءاً من التعبير الذهني المجرَّد . والقرآن يهدف من عرْض مشاهد القيامة إلى أن تكون هذه المشاهدُ حاضرةً في ذهْن وحس وقلب وشعور ووجدان المؤمن ، وهو يتحركُ على هذه الأرض ، بحيث يرجو النعيم ويخشى العذابَ يومَ القيامة ، ولن يتحقق هذا الأمر في كيان المؤمن إلا إذا عُرِضتْ هذه المشاهد بطريقةٍ معينة تمنحها هذا التأثير . لذلك عرضها القرآن بطريقة التصوير .

ونظراً لتنوُّع مشاهدِ القيامة في القرآن ، ولتوزُّعِها على مساحةٍ واسعة في أسلوب القرآن ، ولوضوحِ التصوير الفني فيها ، فقد أفردَ لها سيد قطب كتاباً خاصاً ، هو « مشاهد القيامة في القرآن » طبعَهُ بعد كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

مشاهدُ القيامة المصوَّرة في القرآن ، منها مشاهد مطوَّلـة في العرْض ، ومنهـا مشاهدُ قصيرة العَرض ، ومنها مشاهدُ للنعيم في الجنة ، ومنهـا مشاهـدُ للعذاب في النار ، ومشاهد النعيم منها ما هو حسّيٌّ ماديٌّ محسوس ، ومنها ما هو نفسيٌّ شعوريٌّ معنويٌّ ، وكذلك مشاهدُ العذاب ، منها الماديُّ المحسوس ومنها المعنويُّ النفسي .

من المشاهد المطوَّلة قوله تعالى : ﴿ **هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَموا في رَبِّهِمْ : فَالّذِينَ كَفَروا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نار ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمُ الحَميم، يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطونِهِم ، وَالجُلود ، وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَديد . كُلَّما أرادوا أَنْ يَخرُجُوا مِنها مِن غَمٍّ أُعيدوا فيها ، وَذوقوا عَذابَ الحَريق** ﴾ [سورة الحج : ١٩ ـ ٢٢] .

ومن المشاهدِ القصيرةِ قولُه تعالى : ﴿ **فَإذا نُفِخَ في الصّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَلاَ يَتَساءَلون** ﴾ [سورة المؤمنون : ١٠١] .

إنَّ إطالةَ عرْض المشاهد أو تقصيرَها « تقررهُ الأصولُ الفنية ، القائمةُ على أسس نفسيّة وشعورية ، وتحددُه طبيعةُ الموقف ، ويلتقي بالغرض الديني . .

يطولُ العرْض في مواقفِ الحوار والخصام ، أو الندم والحسرات ، أو الاعتراف ، أو ما شابهها . ويقصُرُ العرْض في مواقفِ الرهبة والجَلال ، أو الحسم والفصم ، أو وضوح الأمور، أو ما شابهها »[١] .

من مشاهد النعيم المادّي المحسوس للمتقين في الجنة ، هذا المشهد : ﴿ **هٰذا : وَإنَّ لِلْمُتَّقينَ لَحُسْنَ مَآب . جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْواب . مُتَّكِئينَ فيها ، يَدْعونَ فيها بِفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ وَشَراب . وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرَاب . هٰذا ما توعَدونَ لِيَوْمِ الحِساب . إنَّ هٰذا لرِزْقُنا ما لَهُ مِن نَفاد** ﴾ [سورة صۤ : ٤٩ ـ ٥٤] .

ومن مشاهد النعيم المعنويِّ النفسي قولُه تعالى : ﴿ **إنَّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً** ﴾ [سورة مريم : ٩٦] .

وقد يمتزج النعيمِ الماديُّ المحسوس بالنعيم النفسي الرقيق ، كما في هذا

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن : ٤٣ ـ ٤٤ .

المشهد : ﴿ إلّا عِبادَ اللّهِ المُخْلَصين . أولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلوم . فَواكِهُ ، وَهُمْ مُكْرَمونَ . في جَنّاتِ النَّعيم . عَلَى سُرُرٍ مُتقابِلين . يُطافُ عَلَيهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعين . بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّاربين . لا فيها غَوْل . وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفون . وَعِندَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْف عين . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنون ﴾ [سورة الصافات : ٤٠ ـ ٤٩] .

ومن مشاهد العذاب المادي الحسي للكفار في النار هذا المشهد : ﴿ أذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقّومِ ؟ إنّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلّظالِمين . إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحيم . طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشّياطِين . فَإنَّهُمْ لآكِلونَ مِنْها ، فَمالِئونَ مِنْها البُطون . ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيها لَشَوْباً مِن حَميم . ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُم لإلى الجَحيم ﴾ [سورة الصافات : ٦٢ ـ ٦٨] .

ومن مشاهد العذاب المعنوي النفسي للكفار قوله تعالى : ﴿ إنّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَريباً . يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداه ، وَيَقولُ الكافِر : يَا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً ﴾ [سورة النبأ : ٤٠] .

ويمتزج العذابُ المادي مع العذاب النفسي في مثل هذا المشهد : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقّوم . طَعامُ الأَثيم . كَالمُهْلِ يَغْلي في البُطونِ . كَغَلْي الحَميم . خُذوهُ فَاعْتِلوهُ إلى سَواءِ الجَحيم . ثُمَّ صُبّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الحَميم . ذُقْ . إنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الكَريم . إنَّ هذا ما كُنْتُم بِهِ تَمْتَرون ﴾[الدخان : ٤٣ ـ ٥٠] .

التاسع : التصوير في القصة القرآنية :

القصةُ في القرآن معروضةٌ بطريقة التصوير الفني ، حيث تتحولُ القصة بهذه الطريقةِ إلى حادث يقع . ومشهدٍ حي يتحقق ، وحركات فنية مؤثّرة يقوم بها أبطالُ القصة وأشخاصُها .

وقد بيَّن سيد قطب وهو يتحدث عن التصوير في القصة ، ثلاثةَ ألوان بارزة ، يبدو فيها التصويرُ بارزاً : « لونٌ يبدو في قوة العرض والإحياء . ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات . ولون يبدو في رسم الشخصيات . وليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدَها يبرز في بعض المواقف ، ويظهر على اللونين الآخرين » .

اللون الأول : قوةُ العرض والأحياء ؛ فعندما يقرأ القارىء آياتِ القصة المصوَّرة ، ترتسم في مخيلته مشاهدُ فنية ، يبدو فيها أشخاصُ القصة يتحركون ويتكلمون ويتجادلون ويتقاتلون ، ويفرحون ويتألمون ، وكأنهم أمامه على خشبة المسرح ، وهذا بفضلِ بروز ووضوح هذا اللون في الآيات التي تعرض مشاهدَ قصتهم .

من أبرز القصص التي يبدو فيها هذا اللون : قصةُ أصحاب الجنة في سورة القلم ، وقصةُ أصحاب الكهف ، وقصةُ صاحبِ الجنتين في سورة الكهف ، ومشهدُ نوح عليه السلام مع ابنه أمام الطوفان في سورة هود ، ومشهدُ إبراهيم وإسماعيل ـ عليه السلام ـ وهما يبنيان الكعبة ، في سورة البقرة .

اللون الثاني : تصويرُ العواطف والانفعالات ؛ كما في قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ في سورة الكهف ، وفي قصة مريم في سورة مريم .

اللون الثالث : رسمُ الشخصيات : كما في شخصيات القصص القرآني ، وبخاصة شخصيات الأنبياء الكرام ؛ ، نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وسليمان وعيسى عليهم السلام . وكما في شخصية إبليس وفرعون وقارون وغيرها[1] .

« مشكلتان أمام الإعجاز البياني »

بيّنّا في بداية كلامنا عن الإعجاز البياني أنّ « البيان» هو الذي تقدّم فيه العرب السابقون . ولذلك تحدّاهم القرآن بما فيه من البيان ، فكان البيانُ القرآني هو موضوع التحدي . فلما عجزوا عن معارضته كان عجْزُهم عجْزاً بيانياً ، وكان ذلك العجْز البياني عندهم أوضحَ دليل على مصدر القرآن ، وأنه كلام الله .

وتحدِّي القرآن البياني لهم ، وعجزُهم البيانيُّ أمام بيان القرآن، يدلُّ على أن إعجاز القرآن لهم كان إعجازاً بيانياً . فالإعجازُ البياني هو موضوعُ التحدي ومناطه . وهذا الوجهُ هو الذي أجمعَ عليه دارسوا لإعجاز القرآني على مرِّ القرون .

---

(١) اكتفينا بالاشارة إلى هذه النماذج إشارة ونحيل القارىء على الفصل الموجز الممتع المفيد «القصة في القرآن» من كتاب «التصوير الفني في القرآن» : ١١٩ ـ ١٧٤ .

وذكرْنا فيما سبق كلامَ علماء وأدباء وبلغـاء على أن وجْه إعجـاز القرآن ، هـو الوجهُ البياني والبلاغي واللغوي والأسلوبي . وبينا أن هـذا هو رأيُ الأستـاذ محمود شاكر والدكتورة عائشة عبد الرحمن ، والدكتور عدنان زرزور ، والدكتور محمد لطفي الصباغ ، وآخرين من المعاصرين ، وقرَّرْنا أننا معهم في هذا الرأي .

ولكن هذا القولَ يواجِه مشكلتينْ تتعلقان بالإعجاز البياني وهما أكثرُ بروزاً في العصِر الحدِيث .

المشكلة الأولى : كيف نَفهم ونتـذوق الإعجازَ البيـاني في هذا العصـر ، مع ضعْفنا البياني ، وإنحدار السليقة العربية أمام كثير من الدارسين .

المشكلة الثـانية : كيف يُؤمِن غيـرُ العرب بـالإسلام ، وهـم لـم يعـرفوا اللغـةَ العربية ، ومن ثم لن يتذوقوا الإعجاز البياني القرآني .

كلام الدكتور زرزور عن المشكلتين :

قال الدكتور عدنان زرزور ـ الذي يرى أن الوجـهَ الوحيـدَ للإعجـاز هو الـوجه البياني ـ عن هاتيْن المشكلتيْن ! وعن حلِّهما ـ وننقل خلاصةَ كلامه لأهميته ـ.

«والذين يتحدثونَ عن هاتينْ المشكلتيْن اليوم ، يريدون إلجاءَنا إلى الكلام عما يسمونَه « الإعجاز العلمي » أو « الإعجاز التشـريعي » أو « الغيبي ».. الخ .. وهي الأنواع التي تحلُّ اليوم ـ في قضية الدعوة إلى القرآن بالقرآن ـ مشكلة العرب والعجم جميعاً !..

ونحن لـم ننكرْ أن تكونَ « مضامين القرآن » من أهمِّ وسـائل تعميمـه والدعـوةِ إليه . ولكن أنكرْنا أن تكون هي « مناطُ الإعجاز » الذي وقع به التحدّي . ومن شاءَ أن يسميهـا « إعجازاً » من بـاب التجوُّر فليفعـل ، على ما يعـودُ من عملِه هذا على القضيةِ الأساسية من بُعْدٍ وإساءة ، ـ ولو عن غير قصد ـ.

وليس معنى إنحـدارِ النـاس إلى « المـادةِ » ومقـاييسهـا ، أن نغيِّـر من طبيعـةِ التحدي القائم ، لكن أن نفهم دلالته الحقيقية ».

حلُّ المشكلة الأولى : ضعفُنا اللغوي والإعجاز البياني :

أما المشكلةُ الأولى فقد أجابَ عنها بعضُ العلماء السابقين ، بأن هذا الإعجاز إذا كان لزم الأوائل ـ وهم مَنْ هم في باب الفصاحة والبلاغة والبيان ـ فلأنْ يلزم سائر الأجيال مِنْ بعدهم من باب أولى .

إن « حقيقة » الإعجاز واقعةٌ على كل حـال ، وإنْ عجزتْ بعضُ الأجيـال عن إدراك سببه أو وجهه .

ونحن نقولُ من وجْه آخر ـ ونرجو ألا يكون في ذلك حيْف أو تجاوُز ـ إن جيلَنا اليـوم قد يكـون أقدَر من أجيـالٍ سـابقـة كثيـرة على إدراك بعض منـاحي الإعجـاز البلاغي .

ومـا بينَ أيدينـا اليوم من تـراثٍ نقدي وأدبي ، في لغـة العرب وسـائـر لغـات العالم ، ينهض بنا إلى هذا المقام ، أو يقومُ على الأقل مقام تلْك السليقة المطبوعة والبيان الموروث .

إن نظريةَ النظْم لم تكن إلا في عصر التصنيف ، كمـا أن الحديثَ اليـوم عن التصوير والنظْم اللغوي أو الموسيقي كان ـ من بعض وجوهه ـ صـدى لتياراتٍ أدبيـة ونقدية مترجَمة أو منقولة .

ولعلَّنا نملك أن نقول : إن التـراثَ النقدي والأدبي الـذي نملكه الآن ، ونملك من خلاله أن نُقوِّم النصوص الأدبية . . يفوق ما كان عليه الوليد بن المغيرة وغيره ، ممنْ بهرهم القرآن .

ولن ينقـطعَ هـذا الخيط على كـل حـال . والتحـدي بـالقـرآن قـائم إلى يـوم الدين . .

حل المشكلة الثانية : غير العرب والإعجاز البياني :

أما مشكلةُ غير العرب : فلا أَدري هل ينتظرُ بعض الناس أن ينزل القرآنُ بكل لغات الأرض ؟!! ما كان منها ، وما سيكون إلى يوم الدين ؟!! وهل يتساوقُ هذا مع طبيعة الأشياء ؟ ومع طبيعة الإيمان الذي أراده الله من الإنسان ؟

أليس في لغات العالم لغةٌ هي مِثالُ اللغات ، ينزلُ بها كتابُ الله تعالى إلى الإنسان ؟ وشعْبٌ هو ـ من حيث الفطرة والموهبة والاستعداد ـ هو مثالُ الشعوب ينهض بحمل أعباء الرسالة ـ ولو للمرّة الأولى على أقل تقدير ! ـ ويذيعها في العالمين ؟

يسعُ العجم ما وسِع العرب ـ كما قال علماؤنا الأوائل ـ .

وإنّ بعضَ وجوه الإعجاز البياني تلزم حتى غير العرب !

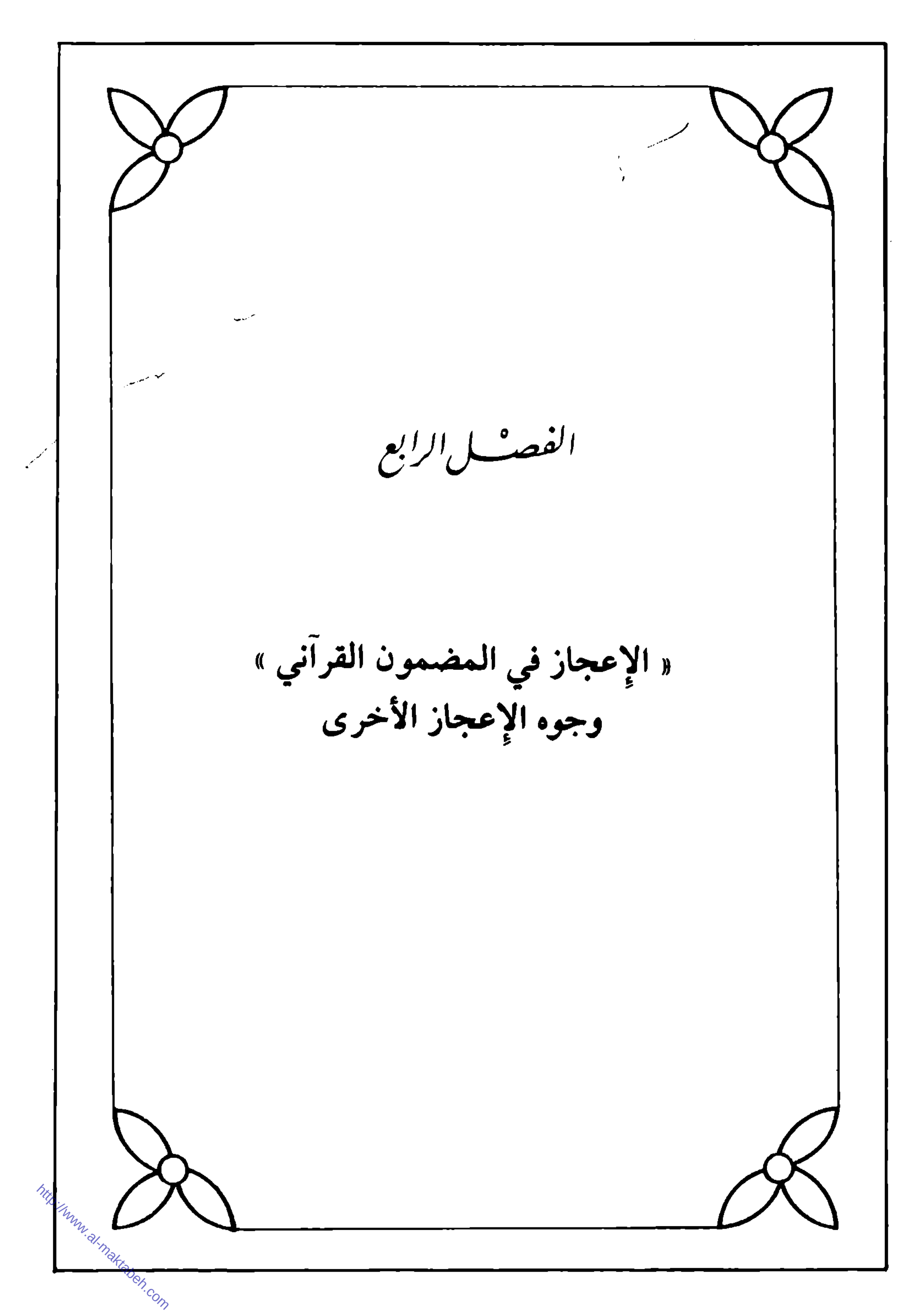
وإنَّ من حقٍّ ـ أو واجب ـ جميع الناس أن تعمَّهم « اللغةُ المثالُ ـ اللغة العربية ـ ما دام القرآن الكريم نازلاً بلغة واحدة من لغات الأرض . .

ولقد قلنا أكثرَ من مرة : إن في وسعِنا أن نقيمَ الدليلَ لهؤلاءِ على أن هذا الكتاب الخالد هو كلام الله . . من وجوهٍ أخرى كثيرة على كل حال . .

ولكنْ علينا أن نُبقيَ الإعجازَ الذي وَقَعَ به التحدي في إطاره الصحيح . . . »[1] . .

إن مشكلة غير العرب مع الإسلام والإيمان بالقرآن والوحي تُحَلُّ بمنتهى اليسر ، إننا لا نخاطِبُ هؤلاء بالإعجاز البياني ، ولا ندعوهم إلى تذوُّق البيان القرآني المعجز ، ولكن نخاطبهم بطريقةٍ أخرى هي أن نقيمَ لهم الأدلةَ الكثيرة من «مضامين القرآن » وموضوعاتِه ، على أنه من عند الله . مثل : اللفتاتُ العلمية في القرآن ، وأنباءُ الغيب في القرآن . وتَشريعاتُ القرآن . والأخبارُ المستقبلية في القرآن . وغير ذلك .

(١) علوم القرآن للدكتور زرزور : ٢٥١ ـ ٢٥٣ باختصار .



الفصل الرابع

« الإعجاز في المضمون القرآني »
وجوه الإعجاز الأخرى



« الإعجاز الموضوعي في القرآن »

بين الأسلوب القرآني والمضمون القرآني :

الإعجازُ البياني ـ الذي أطلْنا الكـلامَ عنه فيمـا سبق ، باعتبـاره أهمَّ شيء في الإعجاز ـ يبدو في بيانِ القرآن وفصاحتِه وبلاغته ، يبدو في خصائصِ التعبيـر فيه ، يبدو في سِمات أسلوبه ، ومزايا أدائه ، يبدو في التصوير الفني فيه ، يبدو في صياغةِ حروفه ، وتركيب جُمَله وعباراته . .

تحدثنا في كلامنا السابق حول خصائصه التعبيريَّة البيانية المعجزة ، وهذا هـو صُلب الكلام في الإعجاز ، باعتباره هو موضوع التحدي ـ كما سبق أن قلنا ـ .

لكن الذين يتحدثون عن وجوهِ أخرى للإعجـازِ ـ غير الإعجاز البياني ـ مثـل : الإعجاز الغيبي والعلمي والتشريعي . إنما ينتقلون من الأسلوب إلى المضمون ، ومن القـالب إلى المـوضــوع ، ومن الصـورة والشكــل إلى المحتـوى . فيبحثــون في « الموضوعات » القرآنية .

ومع رأينا الذي سبق أن قررْناه ، من أن وجْه الإعجاز هو « الإعجـاز البياني » وأن وجوه الإعجاز الأخـرى ـ العلمي والغيبي والتشريعي ـ هي أدلـةٌ لمصدر القـرآن نخـاطبُ بها النـاس المعاصرين، وليستْ وجوهـاً لإعجازه ، لأنهـا لم تكن موضــوعَ التحدي ، ولا مظهرَ العجز فيه ؛ مع ذلك سنتنازل خـطوةً مع القـائلين بها ، الـذين يعتبرونها وجوهاً للإعجاز ، ونعتبرُها وجوهاً للإعجاز من باب التجوزُّ ، ونعرِضُها من

وجهة نظر هؤلاء الذين يعتبرونها وجوهاً للإعجاز ، وذلك استكمالاً منا لمنهاج مادة الإعجاز في الجامعات وكليات المجتمع !

سيد قطب والإعجاز الموضوعي في القرآن :

سنقف وقفةً مختصرة مع الأستاذ سيد قطب ، ونورد خلاصة كلامه الرائع عن « الإعجاز الموضوعي » وخصائصه المعجزة ، باعتبار هذا الكلام في قمةِ الروعة ، ولأن قائلَه هو : « سيِّد » المفسِّرين ، المشتغلين بقضايا التفسير البياني ، وإعجاز القرآن ـ كما قال الدكتور عدنان زرزور[1] ـ .

قال سيد قطب عن هذا الإعجاز الموضوعي : « إن هذا القرآنُ يخاطبُ الكينونةَ البشرية بجملتِها . فلا يخاطب ذهنَها المجرَّد مرّة . وقلبَها الشاعر مرة . وحسَّها المستوفِزَ مرة . ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصرِ طريق ، ويطرق كلَّ أجهزةِ الإستقبال والتلقيّ فيها مرةً واحدة كلما خاطبها . .

وينشىءُ بهذا الخطاب فيها ، تصوراتٍ وتأثُرات وانطباعات لحقائق الوجود كلِّها ، لا تملك وسيلةٌ أخرى من الوسائل التي زاولَها البشر في تاريخهم كله ، أن تنشئَها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً »[2] .

الخصائص العامة للإعجاز الموضوعي :

القرآنُ الكريم له « منهجٌ متفرِّد معجز » في عرض موضوعاته ، وهذا المنهج له خصائصُ تميِّزه عن غيره من مناهج البشر . وأهمُّ هذه الخصائص هي ـ كما عرضها سيد قطب عليه رحمة الله ـ :

أولاً : عرْضُه الحقيقةَ متماسكةً شاملة :

« إنه يمتاز عن كل المناهج :

أولاً : بكوْنِهِ يعرضُ الحقيقة ـ كما هي في عالمَ الواقع ـ في الأسلوب الذي

---

(١) علوم القران لزرزور : ٣٠٠ وانظر فصل «الصورة القرآنية بين المضمون والأسلوب» كاملاً من الكتاب المذكور : ٢٩٨ ـ ٣٠٦

(٢) في ظلال القرآن ٣ : ١٧٨٨ .

يكشف كلَّ زواياها ، وكلَّ جوانبها ، وكلَّ ارتباطاتها ، وكلَّ مقتضياتها . . وهو ـ مع هذا الشمول ـ لا يعقِّد هذه الحقيقة ، ولا يلفُّها بالضباب ! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها . . ـ ولا يملكُ الأداء البشريُّ هذا ، فكل كاتب يخاطبُ مستوى معيناً ، ولا يكاد يُفْهم عنه غيره »[1] .

ثانياً : عرْضُه الحقيقةَ متناسقةً مترابطة :

« ثانياً : بكونه مبَّراً من الإنقطاع والتمزُّق ، الملحوظَيْن في الدراسات « العلميَّة » ، والتأمُّلات « الفلسفية » ، والومضات « الفنيَّة » جميعاً .

فهو لا يُفردُ كلَّ جانبٍ من جوانب « الكُلّ » الجميل المتناسق بحديثٍ مستقل . كما تصنعُ أساليبُ الأداء البشرية . وإنما هو يَعرِضُ هذه الجوانبَ في سياقٍ موصول ، يرتبطُ فيه عالمَ الشهادة بعالمَ الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياةُ الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى . . »

في أسلوبٍ تتعذَّر مجاراتُه أو تقليدُه ، لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليدَه في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائقُ مختلطةً مضطربة غامضة ، غيرَ واضحة ولا محدَّدة ولا منسَّقة .

وهذا الإتصال والإرتباطُ في عرْض جملةِ الحقائق في السياق القرآني الواحد ، قد يختلف فيه التركيزُ على أيٍّ منها بين موضع وموضع . ولكن هذا الترابط يبدو دائماً . فعندما يكون التركيزُ في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريفِ الناس بربهم الحق ، تتجلى هذه الحقيقةُ الكبيرة في آثار القدرة الآلهية الفاعلة في الكون والحياة والإنسان ، في عالمَ الغيب وعالمَ الشهادة سواء . . وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف بحقيقة الكون ، تتجلى العلاقةُ بين « حقيقة الألوهية » و « حقيقة الكون » ويتطرقُ السياق كثيراً إلى حقيقة الحياةِ والأحياء ، وإلى سنن الله في الكون والجياة . . . وعندما يكون التركيزُ على « حقيقة الإنسان » يتجلى إرتباطُها

(١) (١) المرجع السابق : ٣ : ١٧٨٨ .

بحقيقة الألوهية وبالكون والحياة والأحياء ، وعالَم الغيب وعالَم الشهادة على السواء . . . وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تُذكَر الدنيا ، وترتبطان بالله ، وبسائر الحقائق الأخرى . . . وكذلك عندما يكونُ التركيز على قضايا الحياة الدنيا . . . إلى آخر هذا النَّسَق من العرض ، الواضح الملامح في القرآن . .

ثالثاً : عرْضُه الحقيقةَ متناسبةً متوازنة :

ثالثاً : بكوْنه ـ مع تماسُك جوانب الحقيقة وتناسُقها ـ يحافظ تماماً على إعطاء كلِّ جانب من جوانبها ـ في الكلِّ المتناسق ـ مساحته التي تساوي وزْنَه الحقيقي في ميزان الله ـ وهو الميزان ـ ومن ثمَّ تبدو « حقيقةُ الألوهية » وخصائصُها ، وقضيةُ « الألوهية والعبودية » بارزةً مسيطرةً محيطةً شاملة ، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة ، وتجليةَ هذه القضية ، هو موضوعُ القرآن الأساسي . . وتُشغِلُ « حقيقةُ عالم الغيب » ـ بما فيه القَدَر والدار الآخرة ـ مساحةً بارزة . ثم تَنال « حقيقةُ الإنسان » و « حقيقةُ الكون » و « حقيقةُ الحياة » ، أنصبةً متناسقة تناسُقَ هذه الحقائِق في عالم الواقع . . .

وهكذا لا تُدْغَمُ حقيقةٌ من الحقائق ، ولا تُهمل ، ولا تضيعُ معالمُها في المشهد الكليّ الذي تُعرض فيه هذه الحقائق .

وكما أن « التوازن » هو طابعُ التصور الإسلامي ذاتِه ، فكذلك هو طابع منهجِ العرض القرآني لمقوِّمات هذا التصور ، والحقائق التي يقوم عليها ، بحيث تبدو كلُّها واضحةً في المشهد الفريد الذي يرسمه للكلِّ في السياق القرآني الواحد . وهي خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني .

رابعاً : عرْضُه الحقيقةَ بحيويةٍ دافقةٍ مؤثرةٍ موحية :

رابعاً : بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية ـ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم ـ وهي تمنح هذه الحقائقَ حيويةً وإيقاعاً وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهجُ البشري في العرْض ، ولا الأسلوبُ البشري في التعبير . ثم هي في الوقت ذاته تُعرضُ في دقةٍ عجيبة ، وتحديدٍ حاسم ، ومع ذلك لا تجورُ الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجورُ التحديدُ على الإيقاع والروعة !

ولا يمكنُ أن نصفَ نحن في أسلوبنا البشري ، ملامحَ المنهج القرآني ، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوّق هذا المنهج »[1] .

خامساً : عرْضُه الحقيقةَ في مجالاتٍ جديدة :

يقدِّم القرآنُ « حقائقَه » التي ذكرْنا خصائصَ عرْضها فيما سبق - في مجالاتٍ لا يخطرُ للفكر البشري عادةً أن يُلِـمَّ بها ، لأنها ليست من طبيعةِ ما يفكرُ فيه عادة ، أو يلتفتُ إليه على هذا النحو .

ومعنى ذلك - كما يقول الدكتور عدنان زرزور - « أننا الآنَ أمامَ ظاهرةٍ فريدة ، امتزجَ فيها المضمونُ بالأسلوب ، على نحو معجز . .

أي أن الإعجـازَ هنا لم يكن من جهـةِ النـظْم والبيـان فحسب ، ولا من جهـةِ المضمون من حيثُ هو مضمون . ولكن من جهةِ « المجَال » الذي يُعرض فيه هـذا المضمون . . والذي لا يرتادُه الفكرُ البشري - كوسيلةٍ من وسائل التعبير - عادة »[2] .

يمكننا أن نطلق على هذه المزيةِ من مزايا الإعجاز المـوضوعي القـرآني اسم « الإعجازَ في المجَال » أيْ مجالِ عرضِ الحقائقِ القرآنية ! .

ويقدِّم سيد قطب مثالاً على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُو ، وَيَعْلَمُ ما في البَرِّ وَالبَحْر ، وَمـا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُهـا ، ولا حَبَّةٍ في ظُلُمـاتِ الأرْض ، وَلا رَطْبٍ ، وَلا يابِسٍ إلاّ في كِتَـابٍ مُبين ﴾ [سـورة الأنعـام : ٥٩] .

ويقول في دلالتها على هذه المزية - الإعجازُ في المجـالاتِ الجديـدة لعَرْض الموضوعات والحقائق القرآنية - :

« إنها صورةٌ لعلم الله الشامل المحيط ، الذي لا يندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرضَ ولا في السماء ، في البرِّ ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حيٍّ وميّت ويابس ورطب . . .

---

(١) في ظلال القرآن ٣ : ١٧٨٨ - ١٧٩٠ باختصار .

(٢) علوم القرآن لزرزور : ٣٠٣

ولكن أينَ هذا الذي نقولُه نحن ـ بأسلوبنا البشـري المعهود ـ من ذلـك النَّسَق القـرآني العجيب ؟ وأين هذا التعبيـرُ الإحصائيُّ المجـرَّد من ذلك التصـويـر العميق الموحي ؟ . .

إنها جولةٌ تُدير الرؤوس ، وتُذهل العقول . جولةٌ في آمادٍ من الزمان وآفاقٍ من المكـان . وأغوارٍ من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهـول . . جولـةٌ بعيدة موغِلة مترامِيةُ الأطراف ، يعيا بتصوُّرِ آمادها الخيال . . وهي تُرسَم هكذا دقيقةً كاملة شاملة في بضع كلمات . .

فهذه المطارحُ المترامية ، الخفيَّةُ والظاهرة ، ليست مما يتوجَّه الفكـرُ البشري إلى ارتيادها على هـذا النحو ، وهـو في معرضِ تصـويرِ شمـول العلم ، مهما أراد تصويرَ هذا الشمول . . ولو أن فكراً بشرياً هو الذي يريدُ تصويرَ شمول العلم ، لاتَّجه إتجاهاتٍ أخرى تناسب إهتماماتِ الإنسان تصوُّراته . .

ألا إنه الإعجاز !

وننظرُ إلى هذه الآيـة القصيرة من أيِّ جـانبٍ ، فنرى هـذا الإعجازَ ، النـاطقَ بمصدر هذا القرآن .

ننظرُ إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى ، بأن هذا الكَلامَ لا يقوله بشر ، فليس عليه طابع البشر . . .

إن الفكرَ البشري عندما يتحدثُ عن مثل هذا الموضوع ـ موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتادُ هذه الآفاق . . إن مطارحَ الفكرِ البشري وإنطلاقاتِه في هذا المجال لها طابعٌ آخر ، ولها حدود ـ إنه يَنتزع تصوراتِه التي يعبِّر عنها من إهتماماته . .

فما إهتمامُ الفكر البشري بتقصّي وإحصاءِ الورق الساقط من الشجر ، في كل أنحاءِ الأرض ؟ إن المسألةَ لا تخطرُ على بال الفكر البشري إبتداء .

لا يخطر على باله أن يتتبَّعَ ويُحصي ذلـك الورقَ السـاقطَ في أنحاء الأرض . ومن ثمَّ لا يخطرُ له أن يتجهَ هذا الإتجاه ، ولا أن يعبِّر هذا التعبير عن العلمِ الشامل ! إنما الورق الساقط شأنٌ يحصيه الخالق ، ويعبِّر عنه الخالق !

وما اهتمامُ الفكر البشري بهذا الإطلاق : « ولا رَطْبٍ ولا يابس » ؟ إن أقصى ما يتجه إليه تفكيرُ البشر هو الإنتفاعُ بالرطب واليابس مما بين أيديهم . . فأما التحدثُ عنه كدليلٍ للعلم الشاملِ ، فهذا ليس معهوداً في إتجاهِ البشر ، وتعبيراتهم كذلك ! إنما كلُّ رطْب وكل يابس شأنٌ يحصيه الخالق ، ويعبِّر عنه الخالق ! .

ولا يفكرُ البشرُ أن تكون كلُّ ورقةٍ ساقطةٍ ، وكلُّ حبة مخبوءة ، وكلُّ رطب وكل يابس في كتاب مبين ، وفي سجلٍّ محفوظ . . فما شأنُهم بهذا ؟ وما فائدتُه لهم ؟ وما احتفالُهم بتسجيلِه ؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب المُلْك ، الذي لا ينِدُّ عنه شيء في ملكه . . الصغيرُ كالكبير ، والحقيرُ كالجليل ، والمخبوءُ كالظاهر ، والمجهولُ كالمعلوم ، والبعيدُ كالقريب . .

إن هذا المشهدَ الشامل الواسعَ العميق الرائع . . مشهدَ الورقِ الساقط من شجر الأرض جميعاً ، والحبِّ المخبوء في أطواء الأرض جميعاً ، والرطبِ واليابس في أرجاء الأرض جميعاً . . إن هذا المشهد ، كما أنه لا يتجهُ إليه الفكرُ البشري والإهتمام البشري ، كذلك لا تلحظهُ العينُ البشرية ، ولا تلمُّ به النظرةُ البشرية . . إنه المشهد الذي يَتَكَشَّفُ هكذا بجملته لعلم الله وحده ، المشْرفِ على كل شيء ، المحيطِ بكل شيء ، الحافظِ لكل شيء ، الذي نتعلق مشيئتُه وقدرُه بكل شيء . . الصغيرُ كالكبير ، والحقيرُ كالجليل ، والمخبوءُ كالظاهر ، والمجهولُ كالمعلوم ، والبعيدُ كالقريب . .

والذين يُزاولون الشعورَ ويُزاولون التعبير من بني البشر ، يُدركون جيداً حدودَ التصوُّر البشري ، وحدودَ التعبير البشري أيضاً . ويعلمون ـ من تجربتهم البشرية ـ أن مثلَ هذا المشهد ، لا يخطرُ على القلب البشري ، كما أن مثلَ هذا التعبير لا يتأتّى له أيضاً . . والذين يمارون في هذا ، عليهم أن يراجِعوا قولَ البشر كلِّه ، لِيروا إنْ كانوْا قد اتجَّهوا مثلَ هذا الإتجاه أصلاً ! .

وهـذه الآيةُ وأمثالُها في القرآن الكريم ، تكفي وحدَها لمعرفةِ مصدر هذا الكتاب الكريم »[1] .

---

(٢) في ظلال القرآن ٢ : ١١١١ ـ ١١١٣ و٣ : ١٧٩٠ ـ ١٧٩١ .

« أشهر وجوه الإعجاز في المضمون القرآني »

الوجه الأول: « الإعجاز الغيبي»

موضوعُ « الإعجاز الغيبي» هو أَنباءُ الغيب وأخباره التي أوردها القرآن ، حيث اشتمل القرآن على كثيرٍ من أنباء الغيب فيه . وإدراكُ هذا الوجه من وجوه الإعجاز لا يحتاجُ إلى ذوقٍ بياني وثقافةٍ أدبية لغوية ، إنما يحتاجُ إلى ثقافةٍ علميةٍ إخبارية تاريخية ، وهذه يمكن أن تتوفر لدى العربي وغيرِ العربي .

وأنباءُ الغيب في القرآن تدلُّ على مصدره ، وأنه من عند الله لا من تأليفِ محمد ﷺ لأنه لا سبيلَ له ولا لقومه بتلك الأخبار ، ولا بمعرفتِها وتحصيلها .

الغيوب ثلاثة :

وألوانُ الإعجاز الغيبيِّ في القرآن ثلاثة :

اللون الأولُ : غيب الماضي : ويُقصدُ به أنباءُ القرآن عن أخبارِ الماضي وقصص السابقين ، وما أورده من معلوماتٍ ورواياتٍ وتفصيلات تتعلق بهم ، ومقارنةُ هذه الأنباء القرآنية ، بأخبارِ التاريخ ، والإكتشافاتِ الأثرية .

وبعضُهم يسمي هذا اللونَ من ألوان الإعجاز الغيبي « الإعجاز التاريخي » .

اللون الثاني : غيب الحاضر : ويقصَدُ به أنباءُ القرآن عن الموجودات الحاضرة . والتي لا يراها الإنسان ، وبيانُ تفصيلات حياتِها ، مثل الملائكة والجن والشياطين . ويشملُ أيضاً تعريفَ الناس على « صفات الله » سبحانه ، كما يشمل كشفَ القرآن لمؤامرات ومكائد الكافرين والمنافقين قبل تنفيذهم لها .

اللون الثالث : غيب المستقبل : ويقصَدُ به الآيات القرآنية التي تخبرُ عن أشياءَ وأحداثٍ ستحدث في المستقبل ، وتحققُ مدلولِ تلك الآيات فيما بعد ، ووقوعُ تلك الأحداث فعلًا كما أخبرت الآيات .

ويعضهم يسمي هذا اللون من ألوان الإعجاز الغيبي « الإعجاز في الأخبار المستقبلية » .

أولاً : غيب الماضي أو « الإعجاز التاريخي »

المرادُ بغيب الماضي أخبارُ السابقين وقصص الماضين التي أوردها القرآن

وصدق تلك الأخبار القرآنية لدى مقارنتها بأخبار التاريخ البشرية . مثلُ ما أورده القرآن من قصةِ آدم عليه السلام ، وقصص نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من أنبياء الله الكرام .

٧) وذكْرُ تفصيلاتِ تلك القصص يدل على أن القرآن كلامُ الله ، وليس كلام رسوله محمد ﷺ .

فمِنَ المتَّفق عليه أن الرسولَ ﷺ أميٌّ لا عِلْم له بأخبار السابقين ، نشأ في أمة أميّة لا علمَ لها بأخبارِ الماضين ، فَمَنْ علَّمه تلك الأخبار والأحداث والقصص ؟

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيّينَ رَسولاً مِنْهُمْ . يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ [سورة الجمعة : ٢] .

وأشار القرآن إلى أميةِ الرسول عليه السلام ﴿ وَما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتاب ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمينِك ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٨].

وأشارَ إلى كوْنِ تلك الأخبار من عند الله ، وإلا فلماذا لم يخبرهم بها من قبل ، وقد عاش بينهم عمراً من قبل : ﴿ قُلْ لَوْ شاءَ اللّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم ، وَلا أَدْراكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [سورة يونس : ١٦] .

دلالة قصص السابقين على مصدر القرآن :

نصَّ القرآنُ في عدةِ آياتٍ على دلالة قصصِ السابقين التي أوردها على أنه كلام الله .

فبعدما أشار إلى أحداثِ قصة آدم في الجنة ، أمرَ الرسولَ عليه السلام أن يخاطب الكفارَ بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظيم . أَنْتُم عَنْهُ مُعْرِضون . ما كانَ لي مِنْ عِلْم بِالمَلإِ الأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمون . إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنا نَذيرٌ مُبين ﴾ [سورة ص : ٦٧ ـ ٧٠].

لقد أُمِرَ أن يوظِّف إشارةَ القرآن إلى خلْق آدم دليلاً على أنه وحيٌّ من عند الله . فالرسول ـ عليه السلام ـ ما كان له من علمٍ بالملائكة وهم يتكلمون عن خلق آدم .

وقال القرآنُ في ختام قصة نوح : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نُوحيها إِلَيْكَ ، ما كُنتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا ﴾ [سورة هود: ٤٩].

وقال في ختام قصة يوسف : ﴿ ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَما كُنْتَ لَدَيهِمْ إِذْ أَجْمَعوا أَمْرَهُمْ ، وَهُمْ يَمْكُرون ﴾ [سورة يوسف: ١٠٢].

وقال في ختام قصة موسى : ﴿ وَما كُنْتَ بجانِبِ الغَرْبِيّ إِذْ قَضَيْنا إلى موسى الأمر ، وَما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدين . وَلٰكِنَّا أَنْشأْنا قُروناً فَتَطاوَلَ عَلَيهِمُ العُمُر، وَما كُنْتَ ثاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلو عَلَيهِمْ آياتِنا ، وَلكِنَّا كُنّا مُرْسِلين . وَما كُنْتَ بجانِبِ الطّورِ إِذْ نادَيْنا . وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِك ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٤٤ ـ ٤٦] .

وقال في ختام قصة مريم : ﴿ ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نوحيهِ إِلَيك . وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ يَخْتَصِمون ﴾ [سورة آل عمران : ٤٤] .

بين القرآن والتوراة في قصص السابقين :

هناك اتفاقٌ بين القرآن وبين التوراة في بعضِ أخبار السابقين ، وهي الأخبارُ التي لم تُحرَّف في العهد القديم . وهذا الاتفاق واقع لأن القرآن كلامُ الله ، والتوراةَ ـ في أصْلها قبل التحريف ـ كلامُ الله .

أما الأحداثُ والأخبارُ المحرَّفة في « العهد القديم » فإن القرآن لم يوردْها ، ولم يتابعْ العهدَ القديم في روايتها ، ولم يتفقْ معه فيها ، وإنما صحَّحها وأوردَ حقيقتَها .

لقد نصَّ القرآنُ على تحريفِ اليهود للتوراة في العهد القديم : ﴿ فَوَيلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِم ، ثُمَّ يَقولون : هٰذا مِنْ عِنْدِ اللّهِ ، لِيَشْتَروا بِهِ ثَمَناً قَليلاً ﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. ﴿ مِنَ الّذينَ هادُوا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ، وَيقولونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا ﴾ [سورة النساء: ٤٦].

ولذلك تحدَّى القرآنُ اليهودَ أن يأتوا بالتوراة غير المحرَّفة : ﴿ كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيل ، إلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائيلُ على نَفْسِه ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراة . قُلْ

فأْتوا بالتَّوراةِ فَاتْلوها ، إنْ كُنْتُم صادِقين ﴾ [سورة آل عمران : ٩٣].

وعجِزَ اليهودُ عن التحدِّي ، ولم يقدِّموا التوراة غيرَ المحرَّفة ، لأنهم لا يملكونها ، وأعجزهم القرآنُ بذلك الطلب ، وفي هذا إثباتٌ لمصدرِهِ الرباني .

وخاطبَ القرآنُ أهلَ الكتاب بمهمَّةِ الرسول عليه السلام في كشْفِ تحريفاتِهم لأخبار الماضين ، وإظهارِ ما أخفوه من أحداثهم ، وتصحيحِ أخطائِهم في الآياتِ القرآنية التي كَشفَتْ تلك الأخطاء : **﴿ يَا أَهْلَ الكِتاب قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كثيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفونَ مِنَ الكِتاب ، وَيَعْفو عَنْ كَثير ﴾** [سورة المائدة : ١٥].

ويصرحُ القرآنُ بأنه يقصُّ الحقَّ في قصصِ السابقين ، ويُبين وجْهَ الحق فيما اختلَفَ فيه بنو إسرائيل في تلك القصص ، نتيجة لتحريفِهم لها . قال : **﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ على بَني إسْرائيلَ أَكْثَرَ الّذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفونَ . وَإنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنين ﴾** [سورة النمل : ٧٦ ـ ٧٧] .

وأيَّةُ مقارنَة بين تلك القصص وأخبارِ الماضين في القرآن وفي العهد القديم والعهد الجديد ـ التوراةِ والإنجيل ـ تقودُ إلى هذا الوجْهِ من وجوه الإعجاز : « الإعجاز التاريخي » في غيب الماضي . وتقرِّرُ المصدَرَ الربانيَّ للقرآن الكريم .

ومن أجْودِ المقارنات في ذلك ، ما قامَ به المهتدي الفرنسي البروفسور « موريس بوكاي » . في كتابه الرائع « الكتبُ المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة» حيث خصَّص للمقارنة فصْلاً سمَّاه «الرواياتُ القرآنية وروايات التوراة » وقارنَ بينهما في قصتيْن : طوفانِ قوم نوح ، وخروج بني إسرائيل مع موسى ـ عليه السلام ـ من مصر ، ونجاتِهم . وهلاكِ فرعون غَرَقاً . وتحديدِ اسم فرعون الغريق، ومصيرِ جثته الآن..

وسنخصص لدراسة «موريس بوكاي» ومقارناته مبحثاً خاصاً في هذا البحث ـ إن شاء الله ـ[1] .



(١) انظر « الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة » : ٢٤١ ـ ٢٧١ .

دلالة تصحيح القرآن لأخطاء العهد القديم التاريخية :

القرآنُ ليس منقولاً عن التوراة ، والرسولُ ﷺ لم ينسخ أخبارَ السابقين من التوراة أو الانجيل أو غيرهما . فلو نسخَ ما فيهما لأخذ أخطاءَهما - باعتبارهما محرَّفيْن - ونسخَها مع جملة ما نسخ » ولوجْدنا في القرآن «أخطاءَ » تاريخية ، مثلَ تلك الأخطاء التي نجدُها في العهد القديم والعهد الجديد[1] .

إن القرآن يصححُ كثيراً من الأخطاءِ التاريخية في العهد القديم والعهد الجديد ، وقد أوردَ الروايةَ الصحيحةَ الصادقة ، التي تُثبتُ صحتَّها الرواياتُ التاريخية والإكتشافاتُ الأثرية .

ومن الأمثلةِ على تلك التصحيحاتِ والتصويبات القرآنية :

وردَ في «سفر التكوين» من العهد القديم - المحرَّف - قولُ الأحبار الذين كتبوه ونسبُوه إلى الله «فأُكْملت السمواتُ والأرض بكل جُندها ، وفرغَ الله في اليوم السابع من عمله الذي عَمِل . فاستراح في اليوم السابعِ من جميع عمله الذي عمل . وباركَ الله اليومَ السابع وقدَّسه . لأنه فيه استراحَ من جميعِ عمل الله خالقاً »[2] .

تُثبتُ هذه العبارةُ المحرَّفَة التعبَ لله سبحانه بعد خلْقِه للسموات والأرض في ستة أيام ، ولذلك استراح في اليوم السابع لحاجته للراحة ، وقدَّس ذلك اليوم السابع ، وأمرَ الناسَ أن يستريحوا فيه ، مثلما استراح فيه ، ولذلك يستريحُ اليهود يومَ السبت !

وهذا الكلام كفْرٌ صريح ، لأنه ينسبُ إلى الله التعبَ والإعياءَ والحاجةَ إلى الراحة والاستراحة - وهذه من لوازمِ الضعف البشري - .

ولقد صحَّح القرآنُ هذا الإفتراء اليهودي على الله ، ونفى عن الله التعبَ والإعياء ، وذلك في عبارةٍ قصيرة : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّمواتِ والأَرْضَ وما بينهما في**

---

(١) انظر تلك الأخطاء فيهما في كتاب بوكاي السابق ٣٩ - ٥٤ و ١١١ - ١٣٠ .

(٢) الكتاب المقدس . العهد القديم . سفر التكوين . الإصحاح الثاني : ١ - ٤ وانظر كتاب بوكاي ٣٩ - ٤٨ .

سِتَّةِ أَيَّام ، ومَا مَسَّنا مِنْ لُغوب ﴾ [سورة قٓ: ٣٨]. واللُّغوب هو التعب .

ومن الأمثلةِ على تلك التصحيحاتِ والتصويباتِ القرآنية لأخطاء العهد القديم التاريخية الطوفانُ الذي وقعَ في عهد نوحٍ عليه السلام . يقدِّم العهدُ القديمُ ثلاثَ رواياتٍ متعارضةً عن ركاب سفينة نوح :

ـ على حسب الرواية الكهنوتية : نوحٌ وجميعُ أسرته بدون استثناء ـ بما فيهم ابنُه الكافر ـ وزوجٌ من كل نوع من أنواع المخلوقات .

ـ على حسب الرواية اليَهوِيَّة : هناكَ تمييزٌ ، من ناحيةٍ بين الحيوانات الطاهرة والطيور ، وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى .

ـ على حسب الرواية اليَهوِيَّة المعدَّلة ـ وهي الموجودةُ في الكتاب المقدَّس الآن ـ زوجٌ من كلِّ حيوان طاهر ونجس ، بالإضافة إلى نوح وبنيه جميعاً . ورد في العهد القديم قوله : « فدخلَ نوحٌ وبنوه ، وامرأتُهُ ، ونساءُ بنيه معه ، إلى الفُلْك ، من وجْه الطوفان ، ومن البهائمِ الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ، ومن الطيور ، ومن كل ما يدبُ على الأرض ، دخل اثنان إثنان »[1].

وتقرر التوراةُ أن السفينة استقرت « في الشهرِ السابع ، في اليوم السابعِ عشر من الشهر على جبال أراراط »[2].

وَوجْهُ الخطأ في تلك الروايات هو حملُ نوح عليه السلام للكافرين من أسرته في السفينة ، وتحديدُ مكان رسوِّها أنه جبال أراراط ـ التي تقع في منطقة « أرمينيا » بين البحر الأسود وبحر قزوين ـ .

وينص القرآن على كفر امرأة نوح ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَروا امْرَأَةَ نوحٍ وَامْرَأَةَ لوط ، كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادنا صالِحَيْن فَخانَتاهُما ، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [سورة التحريم: ١٠]. ولذلك لم يحملها معه في السفينة ، وإنما كانت مع القوم المُغرَقين .

---

(١) الكتاب المقدس ـ العهد القديم . سفر التكوين . الإصحاح السابع : ٧ ـ ٩ .

(٢) المرجع السابق . الإصحاح الثامن : ٤

كما ينص على هلاك ابن نوح الكافر حيث ﴿ حالَ بَيْنَهُما المَوْجُ فَكانَ مِنَ المُغْرَقين ﴾ [سورة هود: ٤٣].

وينصُّ القرآنُ على أمرِ الله لنوح ـ عليه السلام ـ بأن يحملَ معه على السفينة مِنْ كل مخلوقٍ حي زوجينْ اثنيْن ، وأن يحملَ معه عليها أهلَه وأسرتَه ، إلا مَنْ سبق عليه أمرُ الله بأن يكون مع المغرقين لكفره ، وقد أيقنَّا كُفر اثنيْن من أهله : امرأتِه وابنِه . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنور ، قُلْنا : احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن ، وَأَهْلَكَ ـ إلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْل ـ وَمَنْ آمَن . وَما آمَنَ مَعَهُ إلاّ قَليل ﴾ [سورة هود: ٤٠].

وبالنسبةِ للمكانِ الذي استقرتْ عليه السفينة ينصُّ القرآن عليه بقوله : ﴿ وَغِيضَ الماءُ ، وَقُضِيَ الأَمْر . وَاسْتَوَتْ على الجُودِيِّ . وَقيلَ بُعْداً لِلقَوْمِ الظَّالِمين ﴾ [سورة هود: ٤٤].

إن هذه التصويبات القرآنية لأخطاءِ العهد القديم التاريخية ، تشير إلى بعضِ الحقائق . منها :

١ ـ تحريفُ اليهود للتوراة ، وكذبُهم في رواياتهم البشرية التي مزجوها مع كلام الله في التوراة ، وجعلوا العهد القديم شاملاً لها .

٢ ـ القرآنُ كلام الله ، وليس كلام محمد ﷺ فلو كان من كلامه لوقَعَ في نفس الأخطاء التاريخية التي وقع فيها كِتابُ العهد القديم .

٣ ـ أن الرسول عليه السلام لم يأخذ القرآنَ عن « العهد القديم» ـ كما يزعمُ أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى ـ فلو نسخَ رواياتِ العهد القديم ، لأخذها كما هي عليه .

وحول هذا « الإعجاز التاريخي » والتصويبِ القرآني ، يقول البروفسور « موريس بوكاي » ـ بعد أنْ أوردَ الأختلافَ بين روايات القرآن والتوراة عن الطوفان ـ « فمِنْ عصرِ رواية التوراة إلى عصر تنزيل القرآن هل حصلَ الناسُ على معلوماتٍ ، من شأنها أنْ تلقيَ نوراً على حدثٍ مثلِ هذا ؟ ـ الطوفان ـ بالتأكيد لا . فمِنَ العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقةُ الوحيدة التي في حوزة الناسِ عن هذه الحكاية

القديمة ، هي التوراة بالتحديد . . إننا يجب أن نقبلَ القولَ بأن القرآن تنزيلٌ من عند الله ، جاء بعد تنزيل التوراة »[1] .

جثة فرعون موسى والإعجاز التاريخي :

وردتْ قصةُ خروجِ موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من مصر ، وهلاكِ فرعون الذي تبعه وغرقِهِ ، في سفر «الخروج» في العهد القديم ، ووردت في عدة سورٍ من آيات القرآن ، مثل سور : الأعراف ويونس وطه والشعراء .

هناك تطابقٌ بين ذكْرِ الخروج في التوراة وفي القرآن ، في بعضِ لقطاتِه ومشاهدِه ، وهناك إضافاتٌ قيِّمة يضيفُها القرآن في بعض تلك اللقطات والمشاهد ، وهذه الإضافاتُ على عرْض التوراة ، صادقةٌ وصحيحة ، يشهد لها التاريخُ والاكتشافاتُ الأثرية ، مما يُعتبر دليلاً من أقوى الأدلةِ على تحقُّق « الإعجاز التاريخي » في أخبار القرآن وقصصه .

وقد قام البروفسور المهتدي الفرنسي « موريس بوكاي » بمقارنةٍ بين عرْض التوراة وعرْض القرآن لقصةِ الخروج ، وملاحظةِ إضافاتِ القرآن عليها ، وخرج منها بنتيجة هامة .

قال في مقدمة دراسته الشيِّقة : « إنَّ دراسةَ روايتيْ الخروج في القرآن والتوراة ، مشوِّقةٌ بشكل خاص ، حيث تتطابقُ الروايتان هنا فيما يختص بالعناصر الجوهرية . . وروايةُ التوراة تضعنا على طريقِ اكتشافِ شخصيةِ فرعون . . والقرآن يأتي بمعلومات إضافية . . . »[2] .

يُستخلص من التوراةِ ومن التاريخِ ومن الاكتشافاتِ الأثرية في الأهرامات وغيرها ، أن هناك فرعونَيْن زمن موسى عليه السلام :

الأول هو : رمسيسُ الثاني الذي يمكنُ أن يسمّى « فرعون الاضطهاد » الذي اضطهد بني إسرائيل، والذي وُلد موسى عليه السلام في عهده، وتربى في قصره .

---

(1) الكتب المقدسة لبوكاي : ٢٤٨ بتصرف . وانظر الموضوع فيه كاملاً : ٢٤٤ ـ ٢٤٨ .
(2) المرجع السابق : ٢٤٩ .

وقد ماتَ أثناءَ كونِ موسى عليه السلام في أرض مدين ، وحكَمَ رمسيسُ الثاني سبعاً وستين سنة من ١٣٠١ إلى ١٢٣٥ قبل الميلاد .

الثاني هو: خليفتُه ابنهُ «منبتاح» الذي وَلي الحكم بعد أبيه رمسيس الثاني ، وهو المسمّى « فرعون الخروج » وهو الذي واجَهه موسى عليه السلام بالرسالة ، فكفرَ به وعذَّب بني إسرائيل ، واستنفرَ جيشَه للحاق بهم عند خروجهم .

ولا يستطيعُ علماء الآثار والتاريخ أن يحدِّدوا فترةً محـدَّدة لحكمه ، لأنـه مات بطريقة غريبة مفاجئة . ولكنَّ حكمَه دام عشرَ سنوات على أقلِّ تقدير ، وكلُّ ما يعرفُه المؤرخون هو أنَّ مصر قدْ مرَّت بعده بأزمةٍ داخليةٍ شديدة الخطورة دامتْ ما يقربُ من ربع قرن .

رواية التوراة لغرق فرعون :

يُعتبرُ موتُ فـرعون الخـروج « منبتاح » غـرَقاً في البحـر حقيقةً واقعـة ، حيث وردتْ في كلٍّ من التوراة والقرآن .

ومن الملاحَظ أنه لم يردْ ذكْرٌ لغرق ذلك الفرعون في الإنجيل .

وهناك اختلافٌ بينِ روايةِ التوراة وآيات القرآن لشَقِّ البحر ونجاةِ بني إسـرائيل وغرَقِ فرعون وجنوده .

ورد في الإصحـاح الرابـع عشر من سفـر الخروج : « ومـدَّ مـوسى يـدَه على البحر . فأجرى الربُّ البحرَ بريحٍ شرقية شديدةٍ كل الليـل ، وجعل البحـرَ يابسـة ، وانشق الماء . فدخلَ بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة ، والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم[1] .

وتبعهمُ المصريّون ، ودخلوا وراءهم . جميعُ خيل فرعون ومركباتِه وفرسانه إلى

---

(١) يوجداتفاق واختلاف «بين القرآنَ والتوراة في هذه الجزئيـة، حيث قال تعالى : ﴿**فَأَوْحَيْنـا إلى موسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ البَحْر، فَانْفَلَق، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيم**﴾ [سورة الشعـراء : ٦٣] . والفِرْقُ هو القطعةُ المرتفعة من البحر عن اليمين والشمال . والطودُ العظيم هـو الجبل العالي . ولاحظ تعبيرَ التوراة «والماء سور لهم» وتعبيرَ القرآن ﴿**كلُّ فرق كالطود العظيم**﴾ .

وسط البحر . وكان في هزيعِ الصبح أنَّ الربَّ أشرفَ على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب ، وأزعجَ المصريين ، وخلعَ بُكَرَ مركباتهم ، حتى ساقوها بثقلة .

فقال المصريون : نهربُ من إسرائيل ، لأن الرب يقاتلُ المصريين عنهم .

فقال الرب لموسى : مدَّ يدَكَ على البحر ، ليرجعَ الماءُ على المصريين ، على مركباتِهم وفرسانِهم . فمدّ موسى يدَه على البحر ، فرجعَ البحرُ عند إقبالِ الصبح إلى حالِه الدائمة ، والمصريّون هاربون إلى لقائه[1].

فدفع الربُّ المصريِّين في وسط البحر ، فرجعَ الماء ، وغطّى مركباتِ وفرسانِ جميع جيشِ فرعون الذي دخل وراءهم في البحر ، لم يبق منهم ولا واحد »[2].

ونلاحظ في هذِهِ الروايةِ التوراتية دخولَ الجيشِ المصري كلِّه البحر لحاقاً ببني إسرائيل ، ومعهم مركباتهم وخيولهم . وغرقَ الجيشِ كلِّه بما فيه فرعون نفسُه : « لم يبقَ منهم ولا واحد » .

﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ ببدنك لتَكونَ لمنْ خَلْفَكَ آية ﴾ :

روايةُ القرآن لغرقِ فرعون ، تقدِّم إضافةً ذاتَ قيمةٍ عظيمة يتجلّى فيها الصدقُ التاريخي للأخبار القرآنية ، أو « الإعجازُ التاريخي » كما يسميه آخرون .

قال تعالى : **﴿ وَجـاوَزْنا بِبَني إسْرائيلَ البَحْـرَ ، فَأَتْبَعَهُمْ فِـرْعَوْنُ وَجُنـودُهُ بَغْياً وَعَـدْواً . حَتّى إذَا أَدْرَكَهُ الغَـرَق . قـالَ : آمَنْتُ أَنَّـهُ لا إلـه إلاّ الَّـذي آمَنَتْ بِـهِ بَنـو إسْرائيل ، وَأَنا مِنَ المُسْلِمين . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدين . فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَة . . وَإِنَّ كثيراً مِنَ النّاسِ عَنْ آياتِنا لَغَافِلون . . ﴾**

[سورة يونس : ٩٠ ـ ٩٢].

---

(١) هنا يصححُ ويصوِّبُ القرآنُ هذه المعلومة . حيث تشيرُ التوراة إلى أن الله أمر موسى أن يضرب البحر مرة ثانية ليُطبقَ على فرعون وجيشه ، بينما يقررُ القرآنُ أن الله نهى موسى عند ذلك وأن الماء عاد لوحده بأمر الله . قال تعالى : **﴿وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً . إنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْـرَقون ﴾** [سـورة الدخان : ٢٤] والرهو هو المفتوح . أي اتركهُ كما هو مفتوحاً إغراءً لجيش فرعـون بالـدخول فيه ، فسيطبقهُ الله عليهم .

(٢) الكتاب المقدس. العهد القديم . سفر الخروج . الاصحاح الرابع عشر : ٢١ ـ ٢٩ .

أولُ ما نجدُ من الإضافةِ في هذهِ الآياتِ ، هو أنَّ فرعونَ لمّا صارَ تحتَ الماء أعلنَ إسلامه ﴿ قالَ آمَنْتُ أنَّهُ لا إلهَ إلاّ الّذي آمَنَتْ بِهِ بَنو إسْرائيلَ وَأَنا مِنَ المُسْلِمين ﴾ .

وسجَّلَ القرآنُ ردَّ « المَلَكِ » عليه وعدمَ قبولِ إسلامه الذي جاء متأخراً ، وإخبارَه ـ قبلَ موته ـ أن جسَدَهُ سَيُلقى على الشاطىء : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدين . فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آية ﴾ .

ونتوقَّفُ هنا لحظة ، لنوظِّف هذه الإضافةَ القرآنيةَ دليلاً لمصدر القرآن ، أو تحقُّق الإعجازِ التاريخيِّ فيه .

فلو كان القرآنُ من تأليفِ محمد ﷺ فمَنْ كان يدريه ـ وهو الأميّ ـ بأن فرعونَ أسلَمَ تحت الماء ، وأن اللهَ لم يقبلْ إسلامَه ، وأن المَلَكَ عنَّفه ، وأخبرَه بأنه سيموت وأنَّ جثتَه ستنجو على الشاطىء ؟ مَنْ كان سيدْريه بذلك ؟ وهو لم يسَجلْ في أيِّ كتابٍ من قبل ؟ ومِنْ أينَ سيأخذ محمد ـ عليه السلام ـ هذه المعلومة » ! أَمِنَ التوراة ؟ إنها لم تذكُرْها في أثناء رواية الغرق . أم من الإنجيل ؟ إنه لم يوردْ الرواية أصلاً !

ونصلُ الآن إلى أظهرِ دليلٍ من الروايةِ القرآنية على الإعجاز التاريخي القرآني ، وهو قوله : ﴿ فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَة ﴾ .

ومعنى ننَجّيكَ ببدنِك : ليس النجاةَ من الغرق ، والخروجَ سالماً إلى البر ، كما فهم بعضُهم خطأً . فاعتَبروا فرعونَ لم يمتْ غرَقاً ، وإنما خرجَ من الماء وعادَ إلى عاصمته سالماً .

كما أنه ليس معنى ﴿ ننجّيكَ ببدنك ﴾ ما فهمه « الأب كوروابيه » الذي نَسَبَ إلى القرآن زوراً أنه يقول : « إن فرعونَ قد ابتُلِع بجيشه ، وهو يسكُن الآن قاعَ البحر ، ويحكمُ مملكةَ إنسان البحر ، أي عُجولِ البحر » وقد سجَّل « كوروابيه » هذه الخرافةَ التي نَسبها إلى القرآن في تعليقِه على ترجمةِ التوراة التي تمَّتْ تَحْتَ إشراف مدرسةِ الكتاب المقدس بالقدس ، عام ١٩٦٨[1] .

---

(١) انظر كتاب بوكاي «الكتب المقدسة» : ٢٦٨

إن معنى : ﴿ ننجِّيك ببدنك ﴾ أنَّ بدنَكَ لن يتحلَّلَ في الماء بعد موتِك ، ولن يضيعَ وسطَ الأمواج ، ولن تبتلعهُ أسماكُ القرش ، وإنما ستطرحُهُ أمـواجُ البحر على الشاطىء ، ليراكَ المصريون الذين زعمتَ أنك ربُّهم الأعلى ، وأنـه لا إلـه لهم إلا أنت ، ليروْكَ على شاطىءِ البحر جثةً هامدة فتكونَ بموتك آيةً لهم أنكَ لستَ رباً ولا إلـهاً ، وعندها يعرفونَ أنه لا إلـه إلا الله ، وبهذا يكونُ موتُك غرقاً ، وإلقـاؤك على الشاطىءِ ميْتاً ، آيةً واضحةً على قدرة الله ، ودليلاً قوياً على وحدانيته سبحانه .

ونشير هنا إلى أن أمواج البحر كانت من جنود الله ، فائتمرت بأمره ، وحملتْ جثةَ فرعـون ، وألقتْها على الشـاطىء . وأسماكَ البحـر كانت أيضـاً من جنود الله ، فابتلعتْ جثثَ كثير من جيش فرعون ، أما جثةُ فرعون فلم تمسَّها ، وكأنها ميزتْها عن غيرها من الجثث .

اكتشاف جثة فرعون « منبتاح » حديثاً :

هذه الحقيقةُ القرآنيةُ ، عن نجاةِ جثة فرعون الخروج « منبتاح » وطرْحِها على الشاطىء . لم تردْ في روايةِ التوراة للأحداث ، ولم يذكرْهـا الإنجيل أسـاساً ، ولم تكن معروفةً لدى علماءِ التاريخ القديم ! .

وفي العصر الحديث تمَّ اكتشافُ جثثِ بعضِ الفراعنة المحنَّطة ، ومن ضمن تلك الجثث جثةُ منبتاح .

قال البروفسور بوكاي : « في ١٨٩٨ بوادي الملوك بـطيبة اكتشف « لـوريت » مومياء « منبتاح بن رمسيس الثاني » وكلُّ شيء يسمحُ بالاعتقادِ بأنه فرعونُ الخروج . ومن هناك نُقلت المومياءُ إلى القاهرة ، ورَفَع « إليـوت سميث » عنها أربـطتَها في ٨ يـوليو ١٩٠٧ . . . ومنـذ ذلك التـاريخ والمـومياءُ معـروضةٌ للزوار بمتحف القـاهرة ، مكشوفةَ الرأس والرقبة ، أما بقيةُ الجسم فهو مغطًى بقطعة من القماش .

وقد جاء البروفسور بوكاي إلى القاهرة عام ١٩٧٥ ، لـدراسةِ مومياء الفرعـون « منبتاح » قال : « وفي أثناءِ فَحْصِ هذه المومياء في يونيو ١٩٧٥ بدأتْ ـ بمبادرتي ـ دراساتٌ خاصة . فقد قام الطبيبان « المليجي » و « رمسيس » بدراسـةٍ طبيَّةٍ بالأشعة

السينية . على حين قام الدكتور « مصطفى المَنْيَلاوي » ـ بفضْل ثغرةٍ في جدار القفص الصدري للجثة ـ بدراسةِ جوفِ القفص الصدري والبطن ، وقد حقَّق بذلك أول دراسة بالمنظارِ الداخليَ على مومياء . وقد سمَح هذا برؤيةِ وتصويرِ بعضِ التفاصيل الهامة جداً داخل الجسم نفسه . ومع الدراسة الميكروسكوبية لبعضِ أجزاءٍ صغيرة ، وقعَتْ تلقائياً من جسم المومياء ، وهي دراسةٌ سيقوم بها باريس البروفيسور مينو ، والدكتور دوريجون ، وستكتملُ الدراسة الطبية الشرعية العامة التي سيقوم بها البروفيسور سيكالدي .

وإنه لمما يؤسفني حقاً أن نتائجَ هذه الأبحاثِ لم تَكتمل في اللحظة التي ينتهي فيها تحريرُ هذا الكتاب »[1] .

إن هذا الاكتشافَ الأثريَّ المثيرَ لمومياء ـ جثةِ أو بدنِ ـ فرعون الخروج « منبتاح » لهو دليلٌ من أوضحِ وأصدقِ الأدلة على مصدر القرآن ، وأنه كلامُ الله وليس تأليفَ محمد ﷺ وتحققُ الإعجاز التاريخي في أخبار القرآن عن أحداث السابقين .

وإلا فمِنْ أينَ عرف محمدٌ الأميُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ فرعون الغريق لم تبتلعهُ الأسماك ، ولم تسحبهُ الأمواج ، وإنما أنجى الله جثتَه الهامدةِ ، وألقى بدنَه المنتفخ بالماء على الشاطىء . فكان بذلك المنظرِ المثير آية ، لقومه وحاشيته ورجاله ، أنه ليس إلهاً ، وإنما هو مخلوقٌ عاجز ضعيف ، وها هو مهزومٌ حقير غريق منتفخ .

ومِنْ أينَ عرف محمدٌ الأميُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن قومَه أخذوا بدنَه ووضعوه في مقبرةِ « وادي الملوك » في مدينة « طيبة » ليأتي بعدَ ثلاثةِ آلاف سنة مِن موت ذلك الفرعون ، وبعد ثلاثةَ عشر قرناً من نزولِ القرآن المصرِّح بأن جثةَ ذلك الفرعون ناجية ، ليأتي « لوريت » عام ١٨٩٨ ويكتشفَ تلكَ الجثة ! وتوضعَ أمامَ الزوار في متحف القاهرة .

---

(١) الكتب المقدسة لبوكاي : ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

ينظر الزائرون إليها في هذا العصر ، فيجدون فيها آيةً ، آيةً على حقائقَ كثيرة ، من أهمِّها أنها آيةٌ على تحقُّقِ الإعجاز التاريخي في الأخبارِ القرآنية ! .

ونردِّدُ مع البروفيسور موريس بوكاي ، تعليقَه على هذه الحقيقة العظيمة ، التي كان اكتشافُه لها ، من أهم الأسبابِ التي أوصلتْه إلى الإسلام ، فصار مسلماً مهتدياً : « إنها شهادةٌ ماديةٌ في جسَدٍ محنّط ، على مَنْ عرف موسى ، وعارض طلباته ، وطاردَه في هروبه . وماتَ في أثناء هذه المطاردة . وأنقذَ اللهُ جثته من الهلاك التام . ليصبحَ آيةً للناس ـ كما هو مكتوب في القرآن ـ .

أيُّ بيانٍ رائعٍ لآيات القرآن ، ذلكَ الذي يخصُّ بدنَ فرعون ، والذي تَهَبُهُ قاعةُ المومياء الملكيـة بدارِ الآثـار بالقـاهرة ، لكـلٍّ مَنْ يبحثُ في معطيـاتِ المكتشفات الحديثة عن أدلةٍ ، على صحة الكتب المقدسة »[1] .

ثانياً : غيب الحاضر :

اللونُ الثاني للإعجاز الغيبي يتعلق بالقسم الثاني من أقسام الغيب ، وهو غيب الحاضر .

المجال الأول : عوالمُ الغيب الموجودةُ الآن :

ولغيب الحاضر مجالان :

المجال الأول : كلامُ القرآن عن عوالم الغيب الموجودة ، والتي لم يَرَها الناس بأبصارهم ، ولم يتعاملوا معها بحواسهم .

ومن ذلك الغيب الذي تحدث عنه القرآن :

١ ـ الذاتُ الإلٓهية نفسُها[2] : فوجودُ الله سبحانه من غيب الحاضر، لأنه لا يُـرى بالأبصار في هذه الدنيا . ومع ذلك حدثَنا القرآن الكريم حديثاً مستفيضاً عن الـذات الإلـهية ، وعرَّفَنا على أسمائه الحسنى ، وصفاتِه العليا ، وأفعالِه الجليلة . فما يكادُ

(١) المرجع السابق : ٢٧١ . وانظر الموضوع كله في الكتاب وتحليلات بوكاي الممتعة : ٢٤٩ ـ ٢٧١ .

(٢) انظر الكتاب القيم « العقيدة في الله » للدكتور عمر سليمان الأشقر . ضمن سلسلته العقيدية

المؤمن ينتهي من قراءة القرآن حتى يتعرف على ما يجب لله وما يستحيل عليه ، وحتى يعرف أسماءه وصفاتَه وأفعالَه سبحانه وتعالى .

٢ ـ عالمُ الملائكة الأبرار : فالملائكةُ عالمٌ موجود في الواقع ، لكنه واقعٌ خاصٌ بهم ، يختلفُ عن واقعِنا الماديِّ المحسوس . إنهم بالنسبة لنا من غيبِ الحاضر . وقد عرَّفنا القرآنُ عليهم ، على طبيعتهم ، ومادة خلقهم ، وبعضِ أسمائهم ، وبعضِ أعمالهم ، وعبادتهم لربهم وصلتهم بالإنسان[1] .

٣ ـ عالمُ الجن والشياطين : إن الجنَّ من عالم الغيب ، غيبِ الحاضر ، لأننا لا نراهم ـ إلا ما ندَرَ من بعض الناس ، وبخاصةٍ المتَّصِلين بهم ـ ولكنهم موجودون ، وهم عالَم قائمٌ بذاته . وقد حدثَنا القرآنُ عنهم ، وعرَّفَنا عليهم ، أخبرَنا عن مادةِ خلقهم ، وعن إبليسَ وعداوتِه لنا ، وأسلحتِه في حربنا وإغوائنا ، وكيفيةِ النجاة منه . كما حدَّثَنا عن أصنافِ الجن ، وعن سماع فريقٍ منهم القرآنَ من رسول الله ﷺ وإيمانِهم به[2] .

٤ ـ الجنةُ والنار : باعتبارِ هما مخلوقتيْن وموجودتيْن . إنهما موجودتان من مدةٍ طويلة ـ لا يعلمُها إلا الله ـ وإن الجنةَ الآن تنتظرُ أهلَها ، وإن النار تستعدُّ لتحرقَ أصحابَها . وقدَّم لنا القرآن تعريفاً وافياً ، ومعلوماتٍ مفصَّلة عن كلٍّ من الجنة والنار[3] .

٥ ـ مشاهدُ الموت والاحتضار وعالَمُ البرزخ والقبر : وصفَ لنا القرآنُ كثيراً من مشاهدِ الاحتضار لكلٍّ من المؤمنين والكافرين ، وحضورِ الملائكة للمحتضِر ، وضرْبِها وتعذيبِها له قبل أن يموت إذا كان كافراً أو فاسقاً ، وقدومِ ملكِ الموت وإخراجه روحَ الإنسان ، كما حدثَنا عن عالم البرزخ والقبر ، وتنعُّمِ المؤمنين فيه ،

= القيمة « العقيدة في ضوء الكتاب والسنة » التي أصدر منها سبع حلقات .

(١) انظر كتاب «عالم الملائكة الأبرار» للدكتور عمر الأشقر ، من سلسلته المذكورة .

(٢) انظر كتاب «عالم الجن والشياطين» للأشقر .

(٣) انظر كتاب «الجنة والنار» للأشقر .

وعذابِ الكفار فيه . وكلُّ هذا من غيب الحاضر[1] .

المجال الثاني : كشف القرآن لأسرار مكائد المنافقين :

كان المنافقون يلتقونَ سرّاً ، ويتآمرون على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين ، ويسخرون من المؤمنين ، ويستهزئون بهم . وما كان يحضر لقاءاتِهم مسلمون ، ومع ذلك كان الوحيُ يتنزل على رسول الله ﷺ يخبره بما تمَّ عندهم وما اتفقوا عليه ، فكانوا يستغربون من ذلك ! لذلك يعتبرُ كشفُ القرآن لتلك المؤامرات ، وتسجيلُه في آياته من غيب الحاضر بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام .

والأمثلةُ على هذا المجال من مجالاتِ غيب الحاضر كثيرةٌ في القرآن ، وقد أوردتْ آياتُ سورة التوبة نماذجَ منه . وقد تكفلتْ سورةُ التوبة بفضحِ المنافقين وكشفِ مؤامراتهم وبيانِ دخائلهم وخفايا نفوسهم ، ولهذا سميتْ بأسماءَ اجتهادية مثل : الفاضحة والمدمدمة والمخزية والمنفِّرة .

ومما كشفتْه هذه السورة حقيقةُ قصْدِ المنافقين من مسجد الضرار ، واستهزاءُ نفرٍ منهم بالصحابة الخارجين لغزوة تبوك، وتآمرهم على اغتيال الرسول عليه السلام في الطريق وهو عائد من تبوك .

ومما كشفهُ القرآن من مؤامراتهم قولُ زعيمهم عبد الله بن أُبيّ في العودة من غزوة بني المصطلق ، ومؤامراتهم وإشاعاتهم في معركة الأحزاب ، وغير ذلك .

وسأكتفي بإيراد مثالين لذلك :

قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المُنافقونَ أنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بما في قُلوبِهِمْ قُلِ : اسْتَهزِئوا ، إنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقولُنَّ إنَّما كُنّا نَخوضُ وَنَلْعَبُ ! قُلْ : أباللّهِ وَآياتِهِ وَرَسولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئون ؟ لا تَعْتَذِروا . قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

---

(١) انظر كتاب «القيامة الصغرى» للأشقر ، من نفس السلسلة .

إيمانِكُمْ . إِنْ نَعفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ ، نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانـوا مُجْرمين ﴾ [سـورة التوبة : ٦٤ ـ ٦٦] .

ولقدْ ورَدتْ عدةُ رواياتٍ عن أسبابِ نزولِ هذه الآيات ، من أشهرها : ما رواه الطبريُّ وغيرُه عن عبد الله بن عمر قال : قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً : ما رأيْنا مثلَ قرائنا هؤلاء ، لا أرغبَ بطوناً ، ولا أكذبَ ألسنة ، ولا أجبنَ عند اللقاء ! فقال رجل من المجلس : كذبْتَ ولكنك منافق ، لأخبَرنَّ رسول الله ﷺ ، فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ ، ونزل القرآن . قال ابن عمر : فأنا رأيتُ القائلَ متعلِّقاً بناقة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والحجارةُ تُنْكيه ، وهو يقول : يا رسولَ الله إنما كُنّـا نخوض ونلعب . والنبي يقول : أَبِاللّهِ وآياتِهِ وَرَسولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئون ؟ »[1]

القرآن يكشف مؤامرة المنافقين لاغتيال رسول الله ﷺ ـ :

كانتْ تلكَ المؤامرةُ أثناءَ عودة الرسول عليه الصلاة والسلام مع المسلمين من غزوة تبوك ، فلما كانوا في الطريق . كان أمامَ الجيش طريقان : طريقةٌ سهلة واسعةٌ طويلة ، وطريقٌ صعبة شاقة ، تصعدُ قمةَ جبل ، ثم تهبط عنه هبوطاً حـادّاً إلى الوادي ولكنها قصيرة . فنادى منادي الرسول عليه السلام في الليل ، وأمر الجيش أن يسلُكوا الطريقَ الواسعة الطويلة ، وأخبرهم أن الرسـول فقط عليه السـلام سيسلك العقبة ، ونهاهم عن اللحاق به .

وعن هذه المؤامرة يقول القرآن : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قالوا . وَلَقَدْ قَالوا كَلِمَـةَ الكُفْر ، وَكَفَروا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ . وَهَمّوا بِما لَمْ يَنالوا . . . ﴾ [سورة التوبة : ٧٤] .

أيْ همّوا باغتيال الرسول عليه السـلام ، ولكنهم لم ينالـوا منه ، ولم يحقّقـوا مؤامرتَهم ضده لأن الله حماه منهم ، وأخبره بمؤامرتهم .

وقد أخبَرنا حذيفةُ بنُ اليَمان ـ رضي الله عنه ـ وكان يسوق ناقـة الرسـول عليه السلام ويمشي خلفها في نزولها ذلك المنحدرَ السحيقَ ليلاً ـ بذلك : أنه أثناءَ ذلك النزولِ الخطِر سمع جلبةً وصوتاً خلفه ، حيث غشيَهُ أربعةَ عشر رجلاً على خيولهم ـ

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٤ : ٢٣٠ .

وهم المتآمرون المنافقون ـ وكانوا ملثّمين ، ويقصدون أن يغْشُوا ناقة الرسول بخيولهم ، ويوقعوه عنها ، ويدوسوه بخيولهم . ولكنَّ حذيفةَ صاح فيهم وضرب وجوهَ خيولهم بِمِحْجَن كان معه، وهنا أوقع اللهُ الرعب في قلوبهم ، وظنوا أن أمرَهم قد انكشف ، وخشوا أن يضربَ الرسول عليه السلام رقابهم ، فأوقفوا خيولَهم ، وتوقفوا عن تنفيذِ مكرهم ، وعادوا مسْرعين إلى الجيش ليذوبوا فيه .

فقال الرسول عليه السلام لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ هل عرفتَ منهم أحداً ؟ قال عرفتُ راحلةَ فلان وكان الليلُ مظلماً وكانوا ملثّمين . قال : هل عرفتَ ما كانوا يريدون ؟ قال : لا . فقال له عليه السلام : إنهم مكروا ليسيروا معي ، حتى إذا نزلتُ في العقبةِ طرحوني عنها . قال حذيفة : ألا تأمرُ بضرْب رقابهم ؟ قال : أكرهُ أن يقول الناس : محمدٌ يقتلُ أصحابه . وسأخبُرك بأسمائِهم وأسماء آبائهم عند الصبح . وفي الصباح أخبر الرسولُ حذيفةَ بذلك ، فكان حذيفةُ بن اليمان صاحبَ سِّر رسول الله ﷺ[1] .

ثالثاً : غيب المستقبل « الأخبار المستقبلية » :

المستقبلُ وما يجري فيه من أحداثٍ ووقائع غيب ، لا يعلمُه إلَّا الله ، ولا يمكن لعاقلٍ أن يجزم بوقوعِ شيءٍ فيه ، والذين يتنبأون بأحداثٍ وأخبار مستقبليّة كثيراً ما يخطئون ، وصدق من قال : **كَذَبَ المُنَجِّمُونَ وَلَوْ صَدَقُوا** .

وقد أعلنَ الرسولُ ﷺ أنه لا يعلمُ شيئاً من الغيب ، علْماً ذاتيّاً شخصيّاً مكتسَباً ـ ولكنه يعلم الغيبَ الذي أعلمه الله سبحانه به ـ قال تعالى : **﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِي السّوء ﴾** [سورة الأعراف : ١٨٨] .

ومع هذه الحقيقة ، فقد ورد في القرآن آياتٌ صريحة ، تتحدث عن أخبارٍ مستقبلية ، وتجزمُ بأحداثٍ قادمة . وهو ما نسميه « غيب المستقبل » على اعتبار أن

---

(١) تفصيل هذه المؤامرة في كتب التفسير والسيرة والتاريخ . انظر مثلاً «الدر المنثور للسيوطي ٤ : ٢٤٠ ـ ٢٤٤ .

تلك الأحداثَ من عالم الغيب ، وأن الإخبارَ بها ، والجزمَ بوقوعها من باب العلم بالغيب ، ومن ألوان الإعجاز الغيبي .

ومما يدل على وجْهِ الإعجاز فيها ، أنها وقعتْ كما أخبرَ القرآن ، وتحققتْ كما وعد .

إن إخبارَ القرآن عن أشياء مستقبليَّة من عالم الغيب ، وإن وقوعَها كما أخبر القرآن، من مظاهر الإعجاز الغيبي . وإن هذا يدل على أن القرآن كلامُ الله ، وليس من عند محمد ﷺ .

ويمكن أن يكون « غيبُ المستقبل » في القرآن ، في المظاهر التالية :

١ - إخبارُ القرآن عن مستقبل الإسلام والرسول والقرآن : جزمتْ آياتٌ قرآنية بانتصارِ الإسلام والتمكين له ، وذلك في آياتٍ مكيّة ، وكان الإسلام وقتَها في مكةَ مستضعَفاً ، وكان الرسول - عليه السلام - مضطَّهداً ، وكان المسلمون معذَّبين . ثم تحققتْ وعودُ تلك الآيات .

من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٥] .

كذلك جزمَ القرآنُ بانتصار الرسول عليه الصلاة والسلام على أعدائه ، ونشر رسالته ، وظهورِ دينه على الدين كلّه . وتحقّقَ هذا الوعد القرآني الصَادق في المستقبل كما جزم القرآن . من ذلك قوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَه ، وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَق ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٢ - ٣٣] .

ولقد قال سهيل بن عمرو - رضي الله عنه - كلمةً صادقة ، حين همَّ أهلُ مكة أن يرتدّوا بعد وفاةِ رسول الله ﷺ وقد خافَهم « عَتَّابُ بنُ أُسَيْد » الوالي من قِبَلِ رسول الله ﷺ على مكة ، فاختفى .

ولكنَّ سهيلَ بنَ عمرو وقف فيهم خطيباً ، وثبَّتهم على الإسلام ، وكان لخطبته أثرٌ كبير في عدم ارتدادهم . وكان مما قاله لهم : إن يكنْ محمدٌ قد مات ، فإن الله لم يمتْ . وقد علمتم أني أكثرُكم قَتَباً في برٍّ [أي بعيراً عليه تجارة] وجاريةً في بحر [أي سفينة محمَّلة بالبضائع] فأقرّوا أميرَكم ، وأنا ضامِنٌ إن لم يتمّ هذا الأمر [أي إن لم ينتصر الإسلام] أن أردَّها عليكم جَذَعة [أي أعيد لكم السيادة والزعامة] .

وإن كنتُ أعلم أنَّ هذا الدينَ سيمتدُّ من طلوعِ الشمس إلى غروبها !

قالوا : ومن أينَ علمت ؟

قال : إني رأيتُ رجلاً واحداً وحيداً ، لا مالَ له ولا عزّ ، قام في ظلِّ هذا البيت ، فقال : إني رسول الله ، وإني سأظهر . فكنّا بيْن ضاحكٍ وهازلٍ وراجمٍ ومستجْهلٍ ، فما زال أمرُه ينمي ويصعد ، حتى دِنَّا [أي خضعنا] له طوعاً وكرهاً . والله لو كان من عند غير الله ، لكان كالكُرَةِ في يديْ أيِّ فتى من فتيان قريش !»[1] .

٢ ـ جزْمُ القرآن بعجْز البشر الأبديِّ عن معارضته :

حيث تحدَّاهم أن يأتوا بمثله ، أو سورةٍ ، أو عشرِ سور من مثله . ومع ذلك أخبرهم بأنهم سيعجزونَ عن المعارضة ، وأن كلَّ البشرية لو حاولت المعارضة فسوف تعجز ، ولو اجتمعَ الإنس والجن للمعارضة فسيعجزون .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ ، عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [سورة الإسراء : ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه ، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ ، الَّتِي وَقودُها النَّاسُ وَالحِجَارَة ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

---

(١) انظر «بينات المعجزة الخالدة» للدكتور حسن ضياء الدين عتر : ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

٣ ـ إخبارُ القُرآنَ في مكة عن انتصار المسلمين وهزيمةِ المشركين :

قال تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ أَمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِر . سَيُهْزَمُ الجَمْعُ، وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ [القمر : ٤٣ ـ ٤٥] .

أراد بالجمع جيشَ قريش ، وجزَمَ بأنهم سوف يُهزمون عندما يواجهون المسلمين ، وسوفَ يولّون أدبارهم .

وقد تحقَّق ما وعدتْ به الآية ، في معركةِ بدر الكبرى ، حيث هزمَ الله قريشاً .

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة أن عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما سمِعَ قولَه تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ قال : أيُّ جَمْعٍ يُهزم ؟ وأي جمع يَغْلب ؟ ثم قال عمر : فلما كان يومُ بدر ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَثِبُ في الدِّرع وهو يقولَ : « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر » فعرفتُ تأويلَها » .

٤ ـ جَزْمُ القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين :

قال تعالى : ﴿ ألم . غُلِبَت الرّوم . في أدنى الأَرْض ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْد ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاء ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . وَعْدَ اللَّه ، لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَه ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم : ١ ـ ٦] .

لقد جزَم القرآنُ بانتصار الروم ـ المحطَّمة المهزومة ـ على فارس ـ الظافرة الغالبة القوية ـ وحدَّد فترةً زمنية قصيرةً لانتصار الروم « في بِضْعِ سِنين » والبِضْع يشملُ الأعداد ما بين الثلاثةِ إلى العشرةِ .

وتحقَّق الوعدُ القرآني الجازمُ ، قبل انقضاءِ المدة المحددة ، حيث انتصرَ الروم على الفرس بعد نحو سبعِ سنين من نزولِ الآيات .

والمعجزةُ الأخرى في الآيات أنه وافق في نفس السنة التي انتصرتْ فيها الرومُ على الفرس ، انتصارٌ عظيمٌ للمؤمنين على المشركين ، وهو نصرُ الله للمسلمين على

قريش في معركة بدر الكبرى . وبهذا تحقَّق وعدٌ قرآني آخر في الآيات ، وهو في قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ . يَنْصُرُ مَنْ يَشاء ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ .

٥ ـ إخبارُ القرآن عن دخول المسلمين مكة في عمرةِ القضاء :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحَقّ . لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ ـ إنْ شَاءَ اللَّه ـ آمِنين ، مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ، لاَ تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

وقد نزلت هذه الآيةُ في أعقابِ « صلح الحُدَيْبِيَة » حيثُ منعتْ قريشٌ المسلمين من دخول مكة معتمِرين عامَ الحديبية ، ووعدت الآية الصحابةَ دخولَ المسجد الحرام معتمرين ، مُحلِّقين ، ومقصِّرين ، آمنين غيرَ خائفين .

وتحقَّق ما وعدتْ به الآية في العام التالي ، حيث اعتمرَ الرسول عليهِ الصلاة والسلام وأصحابُه فيه « عمرةَ القضاء » ومكثوا في مكة ثلاثة أيام ، غادر زعماء قريش مكة فيها لئلا يروا الرسول والمسلمين فيها .

٦ ـ إخبارُ القرآن عن الدخان يغشى أهل مكة :

قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ في شَكٍّ يَلْعَبُونَ . فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ، هٰذَا عَذَابٌ أَليم . رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إنَّا مُؤْمِنُون . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى ، وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبين . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنون . إنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قليلاً ، إنَّكُمْ عَائِدون . يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرى ، إنَّا مُنْتَقِمون ﴾ [سورة الدخان : ٩ ـ ١٦] .

لقد ذهب بعضُ الصحابةَ إلى أن هذا الدخان ، هو ما سيظهرُ قبيل قيام الساعة ، باعتبارِه علامةً من علامات الساعة الكبرى .

ولكنَّ عبدَ الله بنَ مسعودٍ نفى ذلك ، وجعل ظهورَ هذا الدخان في مكة فيما يبدو لأهلها ، عقوبةً من الله لهم لكفْرهم ـ وهو لا ينفي ظهورَ الدخان قبيل يوم القيامة ، لكنَّ دليلَه الأحاديثُ وليس هذه الآيات ـ .

وقد روى مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قولَه ضمنَ قصةٍ طويلة : « إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، لما رأى من الناس إدباراً قال : « اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يوسُف » [أي دعا عليهم بسنواتِ جدْب مثلِ ما أصابَ مصر زمن يوسف عليه السلام] فأخذتْهم سَنةٌ حَصَّتْ كلَّ شيء [أيْ قضتْ على كل شيء] حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظرُ إلىٰ السماء أحدهم فيرى كهيئةِ الدخان .

وفي روايةٍ أخرى عند البخاري عنه : فأصابهم قحطٌ وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجلُ ينظرُ إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئةِ الدخان من الجهد » .

وفي روايةٍ ثالثة عند البخاري عنه : « فأخذتْهم سَنَة ، أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد ، حتى جعل أحدُهم يرى ما بينَه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع » .

فجاءَ أبو سفيان فقال : يا محمَّد : إنك جئتَ تأمرُ بطاعة الله ، وبِصِلة الرحم ، وإن قومَك قد هلكوا ، فادْعُ اللَّهَ لهم . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبين يَغْشى النَّاسَ هَذا عَذابٌ أليم** ﴾ .

وقال : ﴿ **إنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إنَّكُمْ عَائِدون** ﴾ أفَيُكْشَفُ عذابُ الآخرة ؟

وقال : ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إنَّا مُنْتَقِمون** ﴾ والبطشةُ الكبرى يومُ بدر . وقد مضتْ آيةُ الدخان والبَطشَةِ واللِّزام وآيةُ الروم »[1] .

وفي هذه الآيات ثلاثةُ وُعود وأخبارٍ مستقبلية ، تحقَّقتْ كما أخبر القرآن : الدخان الذي كان يتخيَّلُه أهلُ مكة من شدة الجوع . وعودتُهم للكفر بعد كشف الشدة عنهم . والانتقامُ منهم بالبطشة الكبرى يوم بدر !! .

٧ ـ جَزْمُ القرآنِ بالنهاية البائسة لعددٍ من زعماء المشركين :

حيث أخبرَ القرآنُ في آياتٍ صريحة عن مصائرِ بعضِ زعماء قريش ، الذين حاربوا الحقَّ بدون هوادة ، وجَزَمَ بأنهم سوف يموتون كفاراً مشركين . ومع ذلك

(١) الدر المنثور للسيوطي ٧ : ٤٠٥ ـ ٤٠٩

دعاهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام عدةَ مرات إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فرفضوا دعوته ، وبَقوا على كفرهم ، حتى ماتوا مشركين .

وهذا التحديدُ القرآني لمصائرِ هؤلاء من أوضحِ الأدلة على أنه من عند الله ، وليس من كلام محمد ﷺ ، وعلى توفُّر الإعجاز في أخباره المستقبلية .

فلو كان من كلام محمد ﷺ ، فمَنْ كان يُدريه أنهم لن يستجيبوا لدعوته ؟ وأنهم سيموتون كفاراً ؟ رغم دعوتهِ المتكررةِ لهم .

ثم هؤلاءُ الزعماءُ المشركونَ الذين سمعوا الآيات تنزلُ فيهم ، وتُحدد نهاياتِهم البائسة الكافرة ، لم يحاولوا أن يسلموا ، ولو من بابِ تكذيبِ هذه الأخبار المستقبلية في الآيات .

إن الله هو منزلُ القرآن ، وهو الذي يعلمُ أنهم سيرفضونَ الدعوة إلى الإسلام ، وسيموتون كفاراً .

من هؤلاء الزعماء الذين كانت نهاياتُهم تصديقاً لوعودِ القرآن المستقبلية :

١ ـ أبو لهب الذي مات كافراً . قال الله عنه : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبْ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَب . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَب . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدِ** ﴾ [سورة المسد] .

٢ ـ أبو جهل . الَّذي قَالَ عنهُ : ﴿ **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم . طَعامُ الأَثِيم . كَالمُهْلِ يَغْلِي في البُطونِ . كَغَلْيِ الحَمِيم . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيم . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيم** ﴾ [سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٩] وقد قُتل أبو جهل في معركة بدر كافراً .

٣ ـ الوليدُ بنُ المغيرة الذي قال عنه : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً . وَبَنِينَ شُهودا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيدا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزيد . كَلَّا . إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدا . سَأُرْهِقُهُ صَعودا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَر . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَر . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ البَشَر . سَأُصْلِيهِ سَقَر . وَما أَدْرَاكَ مَا سَقَر ؟ لا تُبْقِي ولا تَذَر . لَوَّاحَة**

لِلْبَشَرِ. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ١١ ـ ٣٠] .

وماتَ الوليدُ بن المغيرة كافراً .

٤ ـ ومنهم الأَخْنَس بنُ شُريق : الَّذي قالَ الله عنه : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة . الَّذِي جَمَعَ مَالاً وعَدَّدَه يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَه . كَلَّا . لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَة ﴾ [سورة الهمزة : ١ ـ ٥] .

ومات الأخنس كافراً .

٥ ـ ومنهم النَّضْرُ بْنُ الحارِث : الذي كان يصرفُ الناسَ عن القرآن ، بقَصَصِ الفرس والهنود . فقال الله عنه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْم ، وَيَتَّخِذَها هُـزُوا . أولَئِكَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهين . وَإِذا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَـا . كَأَنَّ فِي أُذُنَيْـهِ وَقْراً . فَبَشِّـرْهُ بِعَذَابٍ أَليم ﴾ [سورة لقمان : ٦ ـ ٧] .

وقد قُتِلَ النضرُ بن الحارث يومَ بدر كافراً[١] .

الوجه الثاني : « الإعجاز العلمي »

هذا عصر التقدم العلمي :

من أوضـحِ سمـاتِ هـذا العصـرالحـديث ، أنـه عصـرُ التقـدم العلمي والتكنـولـوجي ، حيث تقـدَّم الإنسـانُ في العلوم والمعـارفِ المـاديـة البحتة ، والمخترعاتِ الحديثة ، وبَلغت البشريةُ في هذا المجال درجاتٍ بعيدة ، ما كان يحلمُ أن يصـلَ إليها أحـدٌ من السابقين ، بـل ما كـان يدورُ بخيـالِ أحـدهم هـذا التقـدمُ العلمي .

ولـذلك أُعجبَ الإنسـانُ المعاصـر بـالاكتشـافـات والمختـرعـاتِ والمعـارفِ العلميـة ، وأشـادَ بـالعقـل الإنسـاني العجيب الـذي تمكَّن من معـرفـة هـذه العلوم

---

(١) انظر في موضوع «الأخبار المستقبلية» التلخيص الجيد لها في كتاب «بينات المعجزة الخـالدة» للدكتور حسن ضياء الدين عتر : ٣٢٨ ـ ٣٥٨

والمكتشفاتِ . وبلغَ الأمر ببعضهم ـ وهو الفيلسوف الألماني « هيجل » وأتباعه ـ إلى تأليهِ هذا العقل ، وجعْله إلهاً من دون الله ﷻ .

وكان التقدمُ العلمي والتكنولوجي في هذا العصر من نصيبِ « المادية الغربيةِ » الكافرة ـ بشقيْها الغربيِّ النصراني والشرقيِّ الشيوعي ـ حيث قدمَ العلماءُ التجريبيّون الغربيون الكثيرَ من الأفكارِ والآراءِ والنظريات العلمية ، وأنتجت المعاملُ والمصانع الغربية الكثيرَ من الأدوات والأشياء والسلع المادية ، وسجَّل الباحثون والدارسون في مختلف نواحي المعرفة والثقافة الإنسانية الكثيرَ من الآراء والنظريات والنظرات .

وصاحبَ هذا التقدمَ المعرفيَّ الغربي والازدهارَ العلمي المادي ، تأخرٌ وانحطاطٌ في العالم الإسلامي ، الذي كان يعيش في جهلٍ فاضح ، وتأخرٍ مرذول ، وابتعادٍ مقيت عن إسلامه ، وتراجعٍ عن مكان القيادة والصدارة للعالم الذي تبوأه من قبل .

وفتحَ كثيرٌ من المثقفين المسلمين عيونَهم على الواقع ، فراعتْهم الحالةُ التي عليها بلادهم ، وقارنوها بالمستوى العلمي الرفيع الذي عليه العالم الغربي .

وأصيب بعضهم بخطأ البحث والتشخيص ، فجعلوا سببَ التقدم العلمي الغربي هو هجرُ الغربيين للدين النصراني ، وانتصارُ العلم عندهم على الدين في صراعه معه . فنادى هؤلاءِ بتكرار التجربةِ في العالم الإسلامي ، وَدَعَوْا إلى شنِّ حرب على الإسلام والقرآن باعتبارهما سببَ تأخُّر المسلمين وانحطاطهم ، وهتفوا بالمسلمين إلى ترْكِ الإسلامِ وهجْرِ القرآن وتجاوُزِ التدين ، والإقبالِ على المادية الغربية ، واستعارةِ كل ما عندها ، ليصلوا إلى مستواها العلمي المتقدم .

ووقفَ مسلمون مخلصون ـ في هذا الجو والظرف ـ وكانوا معجَبين بالتقدم العلمي الغربي المادي ، وواجَهوا دعوةَ أعداء الإسلام والقرآن من بني قومهم ، وفنَّدوا أقوالهم وشبهاتهم .

ولكنهم ـ تحت تأثيرِ التقدم العلمي لدى الغربيين ، والتأخر العلمي لدى المسلمين ، وزعزعةِ الإيمان لدى كثير من المثقفين ـ أقبلوا على القرآن الكريم ،

وصاروا يفتشون عن آياته ذاتِ اللفتات والإشارات والمضامين العلمية ، في مختلف مجالاتِ العلم وجوانبه وألوانه . وفسّروها تفسيراً علمياً ، على ضوء العلوم والمعارف الحديثة . واعتبروا مضامينَ تلك الآيات العلمية وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهو ما أطلقوا عليه« الإعجاز العلمي » .

الإعجاز العلمي هو أبرز وجوه الإعجاز في هذا العصر :

لقد وقعَ العلماءُ المسلمون المعاصرون على آياتٍ كثيرة ذاتِ مضامين علمية ، وفسّروا هذه الآيات تفسيراً علمياً ، وقدّموها للمثقفين المسلمين ، فزادتْ ثقتُهم بالإسلام والقرآن ، وقدّموها للمثقفين العلمانيين فقربتْهم إلَى عالم القرآن والالتزام ، وقدّموها إلى العلماء الغربيين ، فدُهِشوا لما فيها من صِدْقٍ علمي يتفق مع أحدثِ الحقائق العلمية المعاصرة ، فأحسنوا الظنَّ بالإسلام ، وقالوا بنبوّة محمد ﷺ وقادتْ بعضَهم إلى عالَم الإسلام والإيمان ، فأسلم وصارَ من المسلمين ، مثل الدكتور موريس بوكاي .

ووجْهُ اعتبار تلك الآيات ذاتِ اللفتاتِ والأبعادِ العلمية وجهاً من وجوهِ إعجاز القرآن ، هو أنها كانت فوق المستوى العلمي للرسول عليه السلام ، وللعربِ عصرَ نزولَ القرآن ، بل وللعالَم أجمع في ذلك الزمان . فلو كان القرآنُ من تأليف محمد ﷺ كما يزعم الكفار ، فَمَنْ كان يدريه بالحقائق العلمية العجيبة التي ذكرها القرآن ، والتي لم يَكتشف العلماء صدقَها إلاّ في هذا الزمان ؟ إن هذا لدليلٌ على مصدر القرآن ، وأنه كلام الله . وبهذا صار وجْهاً من وجوه إعجاز القرآن .

وعلى هذا الأساس اعتبرَ الباحثون الإسلاميون المعاصرون ـ أنصارُ هذا الفهم للإعجاز ـ أنَّ الإعجاز العلميَّ في القرآن هو أبرزُ وجوه الإعجاز لأهل هذا الزمان ، يفوقُ وجوهَ الإعجاز الأخرى ، بسبب التقدم العلمي المذهِل ، والانبهار العالمي بهذا العلم ، ولذلك دَعَوْا الآخرين للإيمان بالإسلام والقرآن من بابِ الإعجاز العلمي القرآني ، وَدَعَوْا المسلمين لزيادةِ إيمانهم من باب الإعجاز العلمي القرآني .

إنهم يعتبرونَ الإعجازَ العلمي أهمَّ من وجوه للإعجاز الأخرى الآن ، لضعْفِ المستوى البياني والبلاغيِّ للعرب المعاصِرين ، بحيث لا يقْدرون على تذوّق الإعجازِ

البياني وفهمِهِ والوقوفِ على مظاهرِهِ في القرآن ، ولعدم فهم الآخرين من غير العرب اللغة العربيـة ، ومن ثم عدم فهمِهم لـلإعجاز البيـاني ، بينما فهم وتـذوُّق الإعجاز العلمي لا يحتاجُ إلى ثقافةٍ بلاغية بيانية ، ولا معرفةٍ باللغة العربية[١] !

كتب الإعجاز العلمي وهيئة الإعجاز العلمي :

أقبـلَ كثيرٌ من البـاحثين المعاصـرين على الآياتِ ذاتِ المضـامين العلميـة ، وتخصَّصوا بدراسةِ الإعجازِ العلمي في القـرآن ، واشتهرَ كثيـرٌ منهم بالاهتمـام بهذا الجانب .

وصـدرتْ كتبٌ كثيـرة تتنـاولُ التفسيـرَ العلمي للقـرآن ، وتتكلم عن الإعجـاز العلمي فيـه ، وكُتبتْ مقالاتٌ كثيـرة في المجلّات والصحف ، وأُلقيتْ محـاضـراتٌ كثيرةٌ حول هذا الجانب ، وأُعجب المعاصرون بما قدمه لهم أولئك الباحثون .

ومن أشهرِ مَنْ عُرف بالاهتمام بهذا الجانب والتخصص فيه : المفسِّر طنطاوي جـوهري في تفسيـره « الجواهـر في تفسير القـرآن » ومنهم الـدكتـور محمـد أحمـد الغمراوي ، والدكتور محمد جمـال الدين الفَنْـدي ، وعبد الـرزاق نوفـل ، والشيخ عبد المجيد الزنداني ، والشيخ محمد متولي الشعراوي .

ومما يدل على اهتمام المعاصرين بالإعجازِ العلمي في هذا الزمان تشكيلُ هيئة خاصة به . فقد تمَّ تشكيلُ «هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة » وهي هيئةٌ تابعةٌ للمجلس الأعلى للمسـاجد في المملكـة العربيـة السعوديـة ، والمشـرفُ على هـذه الهيئة ، هو الشيخ « عبد المجيـد الزنـداني » ـ وهو أحـد علماء اليمن ، ومن أشهـر المتخصصين في الإعجاز العلمي في هذه الأيام ـ وقد أَلقى الشيخُ الزنداني عدداً من المحاضرات عن الإعجاز العلمي في أماكنَ عديدة ، وحضر كثيراً من المؤتمرات التي تتحدثُ عن الإعجاز العلمي القرآني .

وحتى نفهم وجهةَ نظر هؤلاء حول « الإعجاز العلمي » فإننا نُورِدُ جزءاً من كلام

---

(١) قدَّمنا حَلًّا لهاتيْن المشكلتيْن في آخر كلامنا عن الإعجاز البياني من هذا الكتاب . «انظر مشكلتان أمام الإعجاز البياني » .

الزنداني لمجلة « المسلمون » في حوارها الذي أجرته معه .

عَرَّفَ الزندانيُّ الإعجاز فقال : « إنه إظهارُ صِدْق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بإظهار أمورٍ على أيديهم ، يعجَزُ البشر عن معارضتها » .

وعرَّف الإعجازَ العلمي بقوله : « ويمكنُنا إذن أن نعَرِّفَ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بأنه : إظهارُ صِدْق الرسول محمد ﷺ بما حمله الوحيُ إليه من علم إلهي ، ثبتَ تحقُّقه ، ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد ﷺ أو إلى أيِّ مصدر بشريٍّ في عصره[1] .

وحدَّد الزندانيُّ أوجهَ الإعجاز العلمي بقوله :

« وتتمثلُ أوجهُ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بما يلي :

١ - التوافقُ الدقيق ما بين نصوص الكتاب والسنة ، وبين ما كشفه علماء الكون من حقائقَ كونية وأسرارٍ علمية ، لم يكن في إمكان البشر أن يعرفوها وقت نزول القرآن » .

٢ - تصحيحُ الكتاب والسنة لِما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حولَ أسرارِ الكون، لا يكون إلَّا بعلم من الله ، الذي أحاط بكل شيء علماً .

٣ - إذا جُمعتْ نصوصُ الكتاب والسنة الصحيحة ، وُجِدَ بعضُها يكمل البعض الآخر ، فتتجلّى بها الحقيقة ، من أنَّ هذه النصوص قد نزلتْ مفرَّقة في الزمن ، وفي مواضعها من الكتاب الكريم ، وهذا لا يكون إلَّا من عند الله .

٤ - سنُّ التشريعات الحكيمة التي تَخفى حكمتُها على الناس ، وقتَ نزول القرآن ، والتي تكشفها أبحاثُ العلماء في شتى المجالات .

٥ - في عدم الصدام بين نصوصِ الوحي القاطعة ، التي تصفُ الكون وأسرارَه

(١) نحن هنا نورد كلام الزنداني ، ولا نناقشه في تعريفه للإعجاز ، ولا في قوله بأن السنة أيضاً معجزة ، ونخالفه في منهجه هذا ، ونرجىء الكلام في مناقشته هو ودعاة الإعجاز العلمي إلى دراسة قادمة بإذن الله .

على كثرتها ، وبين الحقائقِ العلمية المكتَشَفة على وفرتها »[1] .

دعوةُ الناس للنظر : ﴿ سنريهم آياتنا ﴾ :

حثُّ القرآنُ في كثير من آياته الناسَ على النظر والتدبر ، وأَمَرهم بالنظر في هذا الكون وما فيه من آياتٍ بينة ، وبأن يقودَهم هذا النظرُ إلى الإيمان بالله سبحانه وتوحيده وعبادته .

وكأنَّ القرآنَ يدعوهم إلى الاكتشافِ العلمي ، والوصولِ إلى « العلمِ التجريبي » الذي بدأه المسلمون في الحضارة الإسلامية ، ثم أخذه الغربيون عن المسلمين ، واستخدموه بتوسُّع ، وكان أساس الثورةِ العلمية التي نعيشها في هذا العصر .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ . [سورة الغاشية : ١٧ ـ ٢٠] .

وقد وجَّهَ القرآنُ إلى النظر في هذه الظواهر ـ الإبل والسماءِ والجبالِ والأرضِ ـ بكلمة « كيف » وهي ذاتُ دلالةٍ بارزة في هذا المجال ، إنها تدعو للنظر في «كيفية» الخلق ، والنظرُ في الكيفية يعني الحصولَ على « ثقافةٍ علميّة » في الجيولوجيا والبيولوجيا . أيْ النظرَ نظراً علمياً تجريبياً .

ومثلُ هذه الآياتِ في النظر العلمي التجريبي إلى كيفية الخلق ، قولُه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة العنكبوت : ١٩ ـ ٢٠] .

ويذمُّ القرآنُ الَّذين لا ينظرونَ في آياتِ اللَّهِ في السَّمَوَات والأرض ، ﴿ وَكَأَيِّنْ

---

(١) مجلة المسلمون . السنة الأولى . عدد : ٤٠ تاريخ ٢٦ صفر ١٤٠٦ وفق ٩ نوفمبر ١٩٨٥ . الصفحة الثالثة

مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْهَـا ، وَهُمْ عَنْهَـا مُعْـرِضُـون ﴾ [سـورة يوسف : ١٠٥] .

وقد وجَّهَ القُـرآنُ الإنسانَ إلى التـدبُّرِ والتـأمُّلِ والنـظر في آيات الله في نفسـه وجسمه ، وفي الأرض والكون من حـوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيـاتٌ لِلموقِنِين . وَفي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ ـ ٢١] .

ووعد القرآنُ بالكشفِ عن مزيد من آياتِ الله في النفس والآفاق ، وأخبَر أنَّ هذا الكشف والبيان سيتحقَّقُ في مستقبل البشـرية ، ﴿ سَنُـرِيهِمْ آياتِنـا فِي الآفاقِ ، وَفي أنفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّـكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيد ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] .

التعبيرُ بالسين في قـوله ﴿ سَنُـرِيهِمْ ﴾ يوحي أن الأمـرَ مستقبلِي ، أي أن هذه «الرؤية» التي ستتحقَّقُ للناس، ستزدادُ في المستقبل ، والعامل في زيادتِها هو تقـدمُ العلومِ والمعارف والمكتشفاتِ عند البشرية ، وهذه حقيقـةٌ علمية مـدرَكَة ، فكلَّمـا ازدَادت البشرية علماً وكشفاً وتجربة ، كلَّما قدمَتْ لهـا « آياتُ القـرآن » جديـداً من آيات الله الكونيـة في النفس والآفاق ، حيث يقفُ « العلمـاءُ » على « أبعاد علميـة » جديدة للآيات القرآنية ، لم يقفْ عليها العلماءُ والمفسرونِ في الماضي .

والهدفُ من هذا الكشفِ العلمي القرآني أنْ ﴿ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ ﴾ والهاء في « أنه » تعودُ على القرآن . أيْ ليتبين للناس أن هذا القرآنَ الـذي يقدِّمُ للعلمـاء هذه المعلومات العلمية ، التي تزيدُ كلَّما ازداد علمهم ، هو الحقُّ من عند الله ، وليس من كلام محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي عاش أمِّياً في بيئة أمِّية ! .

بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية :

وحتى لا نخطىء في فهمِ « المضامين » العلميةِ للآيات ، لا بد أن نفرِّق بين النظريِّةِ العلمية والحقيقة العلمية .

النظريةُ العلمية : هي « إفتراضٌ » أو « تخمينٌ » أو « ظنٌّ » يَرِدُ على فكرِ وذهنِ عالمٍ من العلماء في الفَلك أو الجيولوجيـا أو البيولـوجيا ، نتيجـةَ ظاهـرةٍ رآها ، أو

تجربةٍ قامَ بها ، أو ملاحظةٍ وقف عليها ، أو حَدَثٍ أراد تفسيره . فيظن أن تفسيرَ ذلك على تلك الصورة ، فيقدِّم ذلك الافتراضَ أو التخمين، ويظنُّ أن ذلك التفسير هو الصواب . ويبقى كلامُ العالم وتفسيرُه وتحليلُه في دائرة الظن والافتراض ، ويُسمَّى ما يقدمه « نظريةً » أو « فرضيَّة » علمية .

ولا نستطيعُ أن نحكمَ على نظريته أو فَرَضيته أوْ لها ، بل نتركُ ذلك للزمن والمستقبل ، لإجراءِ المزيد من الدراسات والأبحاثِ والنظرات . وفي النهاية : إمّا أن نجدَ من الشواهدِ والأدلةِ والبراهين ما يقررُ تلك النظرية ويؤكدُها، فتتحول ـ عندها ـ من « نظريةٍ علمية » احتماليةٍ ظنية ، إلى حقيقةٍ علميةٍ قطعية بدهية . وإمّا أن تفقدَ تلك النظريةُ شواهدَها وأسسَها ، فتزولَ وتتلاشى ، وتتحوَّل إلى روايةٍ ماضيةٍ ، وخبرٍ منقوض .

فإذا ما انتقلْنا إلى التفسيرِ العلمي والإعجاز العلمي للقرآن ، فإننا نقرِّرُ أنه لا يجوزُ لنا تفسيرُ الآيات ذاتِ الإشاراتِ العلمية بالنظريات العلمية التي لم تثبتْ حتى الآن، لأن المستقبلَ قد ينقضُها ويُلغيها، فماذا نفعلُ في مضمون الآيات التي فسرْناها بها ؟ هل نخطِّىءُ الآية ؟ أم نُخطِّىءُ فهمنا لها ؟ ولماذا هذا التعجُّلُ والتسرع ؟ ولماذا هذه الإساءَةُ لمعاني كلام الله ؟

من الأخطاء التي وقع بها مفسرون سابقون ، فسَّروا الآياتِ بالنظرياتِ العلمية الاحتمالية . زعْمُهم أن « الأرض » هي مركزُ الكون ، وأنها ثابتة ، وأن الشمسَ تابعةٌ لها ، تَجري حولَها ـ وهذه نظريَّةٌ علمية سابقة أثبتَ العلمُ الحديث خطَأها، وفسَّروا بتلك النظرية المنقوضة آياتِ جَرَيَان الشمس ، من مثل قوله تعالى : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ حَتَّى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيم** ﴾ [سورة يونس : ٣٨ ـ ٣٩] .

ومن النظريات العلميةِ السائدةِ الآن عن شكْل الأرض أنها « مُنْبَعِجَةٌ » عند خط الإستواء ، متقاصرةٌ عند القطبين . ولكنها لا تزالُ نظريةً ، قد تصْدَقُ وقد لا تصدُق ، وقد فسَّر بعضُهم آيةً قرآنيةً بهذه النظريةِ الاحتمالية ، وهي قولُه تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؟** ﴾ [سورة الرعد : ٤١] مع أنَّ هذه الآية

تتحدثُ عن « الإنقاص » في سلطانِ وقوةِ ورقعةِ الدول والإمبراطورياتِ عبرَ التاريخ ، وليس إنقاصَ قُطْبَيِ الأرض .

أما « الحقيقةُ العلمية » فهي ما صار حقيقةً قاطعة ، وبدهيةً مقررة ، مما يتعلقُ بالكونِ والحياةِ والإنسان . والتي لا يمكن أن تُبطل أو تُنقض ، مهما تقدمتْ علومُ الإنسان ومكتشفاتُه ومعارفُه .

ولا مانعَ أن « نوسِّعَ» معنى الآياتِ القرآنية ، التي توحي بتلك « الحقائقِ العلمية » وتُشير إليها . لأنَّنا على يقينٍ من صدقها .

وبالمثالِ يتضحُ المَقالِ . فمن الأمثلةِ على ذلك .

« الزوجيةُ » أساسُ الخلقِ والوجودِ والحياة ، فكلُّ المخلوقاتِ وجدتْ على أساسِ النظام الزوجي . بَدْءاً من « الخليةِ» وانتهاءً بالإنسان .

هذه حَقيقةٌ علميةٌ يقينية . فلا مانعَ أن ننظرَ في بعضِ الآيات من خلالها ، وأن «نوسِّع» مضمونَها وبُعْدَها على أساس هذه الحقيقة . وذلك مثلُ قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [سورة النبأ: ٨]. فهو يقرر أن حياةَ البشر تقوم على «الزوجية » ما بينَ الذكر والأنثى ، رجالاً ونساءً .

ولا مانعَ أن نأخذَ هذه الحقيقةَ العلمية حولَ الزوجية ، وأن ننظرَ بها إلى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩]. فهو يقررُ أن اللّهَ خلق كلَّ شيء حيٍّ - من الخليةِ حتى الإنسان - من زوجيْن اثنيْن ، على أساس النظام الزوجي .

«الزوجيةُ» أساسُ الحياة . حقيقةٌ علمية بدهية ، ونستعينُ بها في تفسير الآيات القرآنية التي تقررُها وتثبتُها .

بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي :

إننا ندعو إلى التفريقِ بينَ التفسيرِ العلمي والإعجازِ العلمي .

التفسيرُ العلمي هو : النظرُ في الآياتِ ذاتِ المضامين العلمية ، من الزاوية العلمية ، وتفسيرُها تفسيراً علمياً ، وذلك بالاستعانةِ بالعلوم والمعارفِ والمكتشفاتِ

الجديدة ، في «توسيع » مدلولِها ، وتقديمِ معناها . وهذا أمرٌ مطلوب وضروري ، لتقديمِ معانيَ القرآن العلمية للناس، وإشباعِ شوقِهم «العلمي» وتلبيةِ حاجتهم العلمية ، وزيادةِ تذوُّقهم للقرآنَ وإعجابِهم به واتِّباعِهم له .

مع ملاحظةِ ما قلناه من قبلُ عن النظريةِ العلمية والحقيقة العلمية ، بأن لا يورَدَ من الآراءِ والأفكارِ العلميّة إلا ما كان حقيقةً صادقة ، أو رأياً صائباً ثابتاً بيِّناً .

أما الإعجازُ العلمي : فهو أن نعتبرَ تلك المضامينِ والأبعادِ والإشاراتِ والحقائقِ العلمية لتلك الآيات ، وجْهاً من وجوه الإعجازِ القرآني ، ونسميه « الإعجازَ العلمي » ونضيفَه إلى وجوه الإعجاز الأخرى .

إن كثيرين من العلماءِ والباحثين والمفسِّرين المعاصرين على هذا الرأي ، يتبنوْن القولَ بالإعجاز العلمي ، ويدافعون عنه ، ويُكثرون من بيانِه ، وتفسيرِ كثيرٍ من الآيات به ، ويعتبرون هذا الإعجازَ العلمي أبرزَ وأوضح وجوهِ الإعجاز القرآني في هذا العصر ـ كما قررْنا من قبل ـ.

ومع تحفُّظنا على هذا الرأي ، حيثُ لا نرى القولَ بالإعجاز العلمي ، ولا نعتبرُه وجْهاً من وجوه الإعجاز ـ كما ألمحنا في عدةِ إشارات في هذه الدراسة ـ لكننا من باب إستكمال المنهج ـ نعرضُ ـ في هذا المبحث ـ آياتٍ ذاتِ أبْعادٍ علمية ، اعتبرَها جمهورُ المعاصرين نماذجَ للإعجاز العلمي .

وبهذه المناسبة نقرِّرُ أن كلَّ ما صحَّ من إعجاز علمي ، لا ننكرُه ولا نبطلُه ولا نلغيه ، بل نقولُ به ونتبنّاه ، وندعو إلى وجوبِ ذكْره ، من بابِ « التفسير العلمي » الذي نؤيِّده وندعو إليه . لكننا نعتبرُ هذا التفسيرَ العلمي من أوضحِ الأدلةِ على مصْدَر القرآن ، وأنه كلامُ الله ، وليس تأليفَ محمد ﷺ .

ونكتفي بهذه الإشارةِ هنا ، ولعلّنا نعودُ إلى دراستها بتوسُّع في بحثٍ آخر قادم بعون الله .

فما نورده من نماذجَ وأمثلةٍ على الإعجاز العلمي ، إنما هو من وجهةِ نظر دعاةِ « الإعجاز العلمي» الذين نخالفهم في المصطلح لا في المضمون !

القول بالإعجاز العلمي بين التوسُّط والإفراط :

أُصيبَ بعضُ الباحثين المسلمين المعاصرين ، بالإنبهارِ والدهش أمام التقدُّم العلمي الغربي ، وتأثَّروا بالهيمنة العلميَّة عندهم ، وقارنوا بين واقعهم العلمي المتقدِّم ، وواقعِ المسلمين المتأخِّر ، وفي المقابلِ أُعجبوا بآياتٍ قرآنية حَوَتْ إشاراتٍ علميةً بليغة ، وضمَّت مضامين علمية عظيمة ، وأرادوا تقديمَ خدمة للقرآن . فحَملوه معهم وراحوا يفسرونه على ضوء العلم الحديث ، ويبيِّنون إعجازَه العلمي القاهر .

وبالغَ أُناسٍ من هؤلاء، وأفرطوا في بيانِ الإعجاز العلمي ،وخرجوا إلى درجةٍ من الإفراط ، لا تُقبل بأيِّ حال ، حيث صاروا يلهثون ـ ومعهم آياتُ القرآن ـ وراءَ أيِّ خبر علمي ، أو فرَضيةٍ علمية ، أو نظريةٍ علمية ، يطلقُها أيُّ عالم أو هاوٍ أو مبتدىءٍ أو متبحرٍ في بلاد الغرب ، وينزِّلونها على آيةٍ قرآنية ، بدتْ لهم فيها إشارةٌ غامضة إلى ذلك الخبر ، أو صلةٌ وهميّة بتلكَ النظرية .

قال بعضُهم إن القرآن يقرِّرُ وجودَ مخلوقاتٍ وأحياء مثلِنا في الكواكب الأخرى ـ وهي فرَضيةٌ علمية لم تجد دليلاً علمياً مقنِعاً حتى الآن ـ واعتمدوا على قوله : ﴿ **وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْض . وَمَا بَثَّ فيهما مِنْ دابَّة ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إذا يَشاءُ قَدير** ﴾ [سورة الشورى: ٢٩]. بل قَالوا بأننا نجتمعُ بالحضاراتِ المتقدِّمة جداً على الكواكب الأخرى ، لأن الله يقول « وهو على جَمْعِهِم » أي سيجمعُ بيننا وبينهم ! .

ومنهم من قال : إن القرآنَ يشيرُ إلى «أعمدة الكهرباء» في المدن والشوارع والطرُقات . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **في عَمَدٍ مُمَدَّدَة** ﴾ [سورة الهمزة: ٩]. أي أنَّ التيارَ الكهربائيَّ يسري في أعمدةٍ ممدَّدَة ! .

ومنهم من قال : إن القرآن يشيرُ إلى السيارات وسيْرِها . وفسَّر بذلك مطلعَ سورةِ العاديات : ﴿ **وَالعادياتِ ضَبْحاً. فالموريـاتِ قَدْحاً . فَالمُغيراتِ صُبْحا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً** ﴾ [سورة العاديات: ٥].

قال إن العاديات هي السياراتُ تَضْبح وتُخرج صوتَها عند السير . والمورياتُ قدحاً : تَعني تشغيلَ المحرك فيها « ضَرْبَ السِّلْفِ عِنْدَ السّويتْش » . فالمغيراتُ

صبحاً : أي سيرُها في الصباح . فأثَرْنَ به نفعاً : أي سيرُها في طريق تَرابي والغبارُ خلفَها . فوسَطْنَ به جمعاً : أي وقَفَتْ في « المجمع » الذي تتجمع فيه !!

هذا « الإفراطُ » في التفسير العلمي ، والقولِ بالإعجاز العلمي ، نرفضُه وننكِره ونحاربه . لأنه نوعٌ من تحريفِ معاني الآيات ، والتلاعبِ فيها .

لا بد من « التوسُّط والاعتدال » عند تفسير الآيات تفسيراً علمياً ، وإضافةِ الأبعاد العلمية لها ، وإظهارِ الإعجاز العلمي فيها .

وهذا التوسطُ والاعتدال يتضح عند معرفة « الضوابط » الضرورية لذلك .

« ضوابطُ للقول بالإعجاز العلمي » :

لا بدَّ من الالتزامِ بضوابطَ علميةٍ منهجيةٍ عند التفسيرِ العلمي والقولِ بالإعجاز العلمي ، حتى لا نقعَ في غلوٍّ وإفراطٍ ومبالغة ، ومتى لا نُحمِّل الآيات ما لا تحتمل ، وحتى لا نُحرِّف معناها أو نشتَطَّ في تفسيرِها ، وحتى لا نُخطِىءَ في فهم الآيات وتقديمِها للناس ، وحتى لا يتناقضَ القرآنُ مع حقائق العلم وبدهياته .

لقد أشارَ سيد قطب إلى « التوسُّط والاعتدال » في ذلك ، عندما فسَّر قوله تعالى: ﴿ يَسْـأَلـونَـكَ عَنِ الأَهِلَّة . قُلْ هِيَ مـواقيتُ لِلنَّـاسِ وَالحَـجِّ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩].

وقفَ يبيِّن الحكمةَ في كون القرآن لم يقدِّم للصحابة الجوابَ الفلكيَّ العلميَّ عن اختلاف الأهلَّة ، أي شكلِ وحجمِ القمر في منازِله ، وقدَّم لهم الجوابَ الواقعيَّ العمليَّ ، وهو ما يستفيدونه هُمْ من الأهلَّة واختلافِ منازل القمر ، من كونِها مواقيتَ للناس والحج .

لم يقدِّم لهم الجوابَ العلميَّ لأنهِ فوق مستوى عقولهم العلمي ، حيث كان العلمُ الماديُّ في عصرهم لا يكاد يُذكرَ .

وهناك حكمةٌ أخرى في العدول عن الجواب العلمي في الآية : « من هنا عَدَل عن الإجابة العلمية التي لم تتهيأْ لها البشرية ، ولا تُفيدُها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآنُ من أجلها . وليس مجالها على أية حال هو القرآن . إن القرآنُ قد جاء لِما

هو أكبرُ من تلك المعلومات الجزئية. ولم يجيءْ ليكونَ كتابَ علمٍ فلكي أو كيماوي أو طبي. كما يحاولُ بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاولُ بعض الطاعِنين فيه أن يلتمسوا مخالفاتِه لهذه العلوم!

إن كلتا المحاولتَيْن دليلٌ على سوءِ الإدراك لطبيعة هذا الكتاب، ووظيفتهِ، ومجالِ عمله..

مجالُ القرآن هو النفسُ الإنسانية والحياةُ الإنسانية. ووظيفتُه هي أن ينشِئَ للإنسان تصوُّراً عاماً للوجود الإنساني وارتباطِه بالله. ومادتُه الأساسية هي الإنسان ذاتُه. وترْكُ الإبداعِ العلميِّ المادي لعقل الإنسان وتجاربه وكُشوفه وفُروضه ونظرياته.

ويقعُ المتحمسون في سذاجةٍ عندما يحاولون أن يضيفوا له ما ليس منه. وكأنهم يريدون أن يعظِّموه في ذلك ويكبِّروه.

لا يجوزُ أن نعلِّقَ القرآنَ بالنظريَّات العلمية: «إن الحقائقَ القرآنية حقائقُ نهائيةٌ قاطعةٌ مطلقة. أما ما يصل إليه البحثُ الإنساني فهي حقائقُ غيرُ نهائية ولا مطلقة، وهي مقيَّدة. بحدود تجاربِ وظروفِ هذه التجربِ وأدواتِها.. فمن الخطأ المنهجيِّ - بحكْم المنهجِ العلميِّ الإنسانيِّ ذاته - أن نعلِّق الحقائقَ النهائيةَ القرآنية بحقائقَ غيرِ نهائية، وهي كلُّ ما يصل إليه العلمُ البشري.

هذا بالقياس إلى «الحقائقِ العلمية».. والأمرُ أوضحُ بالقياس إلى النظريات والفروضِ العلمية، التي تفسِّرُ أكبرَ قدْرٍ من الظواهرِ الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية، وهي قابلةٌ دائماً للتغييرِ والتبديلِ والتعديل والنقصِ والإضافة، بل قابلةٌ لأن تنقلبَ رأساً على عقب، بظهورِ أداةِ كشفٍ جدْيدة، أو بتفسيرٍ جديدٍ لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولةٍ لتعليقِ الإشاراتِ القرآنيةِ العامة بما يصلُ إليه العلمُ من نظريّات متجدِّدَة متغيرِّة - أو حتى بحقائقَ علميةٍ ليستْ مطلقة - تحتوي أوَّلاً على خطأ منهجيٍّ أساسي. كما أنها تنطوي على معانٍ ثلاثةٍ كلُّها لا يليقُ بجلال القرآن الكريم.

الأولى : هي الهزيمةُ الداخليةُ التي تخيِّل لبعض الناس أن العلمَ هو المهيمنُ والقرآنُ تابع . ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلالَ له من العلم . على حينِ أن القرآن كتابٌ كاملٌ في موضوعه ، ونهائيٌّ في حقائقه . والعلمُ ما يزالُ في موضوعه ينقضُ اليوم ما أثبتَه بالأمس ، وكلُّ ما يصلُ إليه غيرُ نهائي ولا مطلَق ، لأنه مقيَّد بوسطِ الإنسانِ وعقله وأدواتِه، وكلُّها ليس من طبيعتها أن تعطيَ حقيقةً واحدةً نهائية مطلقة .

الثانية : سوءُ فهمِ طبيعةِ القرآن ووظيفتِه . وهي أنه حقيقةٌ نهائيةٌ مطلَقة ، تعالجُ بناءَ الإنسان بناءً يتفقُ مع طبيعةِ هذا الوجود وناموسِه الإلهي . حتى لا يصطدمَ الإنسانُ بالكون من حوله ، بل يصادقُه ويعرفُ بعضَ أسرارِه ، ويستخدمُ بعضَ نواميسه في خلافته . نواميسُه التي تُكشفُ له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفقَ ما يهديه إليه عقلُه الموهوبُ له ليعمل ، لا ليتسلمَ منه المعلوماتِ المادية جاهزة !

الثالثة : التأويلُ المستمرُّ ـ مع التمحُّلِ والتكلُّفِ ـ لنصوصِ القرآن ، كي نحمِلَها ونلهثَ بها ، وراء الفروضِ والنظرياتِ التي لا تثبت ولا تستقر . وكلُّ يوم يجدُّ فيها جديد .

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفعَ بما يكشفهُ العلم من نظرياتٍ ـ ومن حقائق ـ عن الكونِ والحياةِ والإنسان في فهم القرآن . . كلا ! لقد قال الله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ﴾. ومن مقتضى هذه الإشارةِ أن نظلَّ نتدبر كلَّ ما يكشفهُ العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله . وأن نوسِّع بما يكشفُه مدى المدلولات القرآنية في تصوُّرنا . . »[1].

ونضيفُ إلى كلامِ سيد قطب ، ما قرَّره الشيخُ محمد متولي الشعراوي ، عن هذا الموضوع : إن بَعضَ العلماء في اندفاعِهم في التفسير وفي محاولاتِهم ربطَ القرآن بالتقدُّم العلمي . . يندفعونَ في محاولةِ ربطِ كلامِ الله بنظرياتٍ علميةٍ مكتشَفة . . يثبتُ بعد ذلك أنها غيرُ صحيحه . وهم في اندفاعِهم هذا يتخذونَ

(١) الظلال ١ : ١٨٠ ـ ١٨٤ باختصار .

خطواتٍ متسرعة ، ويحاولون إثباتَ القرآن بالعلم ، والقرآنُ ليس بحاجة إلى العلم ليثبت ، فالقرآن ليس كتابَ علم ، ولكنه كتابُ عبادة ومنهج .

ولكنَّ الله عَلِمَ أنه بعد عدةِ قرون من نزول القرآن ، سيأتي عددٌ من الناس ، ويقولون انتهى عصرُ الإيمان ، وبدأ عصرُ العلم ، ولذلك وضع في قرآنه ما يُعجز هؤلاء الناس ، ويُثبتُ أن عصرَ العلم الذي يتحدثون عنه قد بيَّنه القرآن في صورةِ حقائقِ الكون ، بيَّنه كحقائقَ كونية منذ أربعة عشر قرناً ، ولم يكشف العقلُ البشري معناها إلا في السنوات الماضية .

إن اللّه أعلَمَنا في قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ ﴾ أن هناك حقائقَ وآياتٍ سيُكشَف عنها لكل جيل . ولكن ليس معنى هذا أن نُحمِّلَ معاني القرآن أكثر مما تحتمل ، وأن نتعاملَ معه على أساسِ أنه كتابٌ جاء ينبِّئنا بعلوم الدنيا . فالقرآنُ لم يأت ليعطينا أسرارَ علمِ الهندسة ، أو علمِ الفلك ، أو علمِ الفضاء .

لا يجوزُ أن نتخذَ العلم دليلاً على صحةِ القرآن . بل إن القرآنَ هو الدليلُ الحقيقيُّ على صحةِ أو عدمِ صحة العلم . فالعلمُ الذي يتناقضُ مع القرآن الكريم كاذبٌ وغيرُ صحيح .

إن ربْطَ القرآنِ بنظرياتٍ علمية خطيرٌ جداً ، لأنه يجعلُ موقفَ المفسِّر في حرج ، عندما يثبتُ خطأُ هذه النظرية ، لأنه لا يستطيعُ أن يغيِّرَ أو يبدِّل في كلام الله ، الذي لا تغيير فيه ولا تبديل .

يجب أن نتروّى ، وأن ندرسَ بإمعان ، وننتظرَ حتى تثبتَ الحقيقة العلمية ثبوتَ اليقين . . »[1] .

وخلاصةُ الضوابطِ العلميةِ المنهجيَّة للتفسير العلمي والإعجازِ العلمي ، هي التي بيَّنها أستاذُنا الدكتور مصطفى مسلم في كتابه « مباحث في إعجاز القرآن » وهي :

---

(١) معجزة القرآن للشعراوي . الجزء الأول : ٨٩ ـ ٩٠ بتصرف واختصار

١ ـ اعتقادُ أن القرآنُ كتابُ هداية بالدرجة الأولى ، وليس كتاب علوم وكونيات .

٢ ـ تركُ الإفراط والتفريط لدى النظرِ في الآيات الكونية . .

٣ ـ الوقوفُ على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية ، بحيث يحتملُ ذلك الأسلوبُ وجوهاً في التأويل .

٤ ـ الاكتفاءُ بالحقائق العلمية مناطَ الاستدلال ، وعدمُ الاستدلال بالنظّريات والفرضيّات العلمية .

٥ ـ عدمُ حصر دلالة الآية على الحقيقةِ الواحدة ، بل إبقاءُ دلالة الآية مفتوحةً تحتملُ كلَّ ما يتفق مع معناها .

٦ ـ اليقينُ باستحالةِ التصادم بين الحقائقِ القرآنية ، والحقائق العلمية .

٧ ـ اتِّباعُ المنهج القرآني في طلب المعرفة ، بالنظرِ في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق ، والوقوف على سنن الله في ذلك[1] .

الآيات ذات « المضامين» العلمية :

هناك «مئاتُ» الآياتِ القرآنية التي تحوي « مضامينَ» علمية ، وإشاراتٍ إلى موضوعاتِ العلوم والمعارف المتعلقة بالنفسِ الإنسانية والآفاق الكونية .

وقدَّر الدكتورُ جمال الدين الفندي في كتابه «القرآن والعلوم» هذه الآيات بأنها أكثرَ من تسعمائةِ آية ، مبثوثةً في سور القرآن[2] .

وهذه الآيات تشملُ مساحاتٍ شاسعة من العلوم والمعارف ، وتتحدث عن مختلف الموضوعات العلمية .

وكثرةُ الآيات ذاتِ الإشاراتِ والمضامين العلمية تَلفتُ نظرَ العلماء الغربيين ، وتُصيبهم بالمفاجأةَ والدهشة ، وتجعل بعضاً منهم يعترفونَ بالمصدر الإلهي للقرآن

(١) مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم : ١٥٢ ـ ١٥٦ بتصرف واختصار .
(٢) المرجع السابق : ١٥٠ حاشية .

الكريم ، أيْ أن القرآنَ كلامُ الله ، أوْحى به إلى رسولِه محمد ﷺ .

نظرَ الدكتورُ « موريس بوكاي » ـ الذي سنعود له بعد قليل ـ إلى هذه الآيات الكثيرة وقال : « إن القرآنَ يثيرُ وقائعَ ذاتِ صفةٍ علمية ، وهي وقائعُ كثيرة جداً ، خلافاً لقلَّتها في التوراة . إذ ليسَ هناك أيُّ وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارتُه التوراة من الأمور ذاتِ الصفةِ العلمية ، وبين تعدُّد وكثرةِ الموضوعات ذاتِ السمة العلمية في القرآن ، وأنه لا يتناقضُ موضوعٌ ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية »[1] .

وقال البروفسور البريطاني « آرثر أليسون » ـ رئيسُ أكاديمية الكهرباءِ والعلوم الإلكترونية في بريطانيا : « الإسلامُ ـ كما يتبيَّن من القرآن الكريم ـ يتمشّى مع العقلِ والعلم . اللَّهُ الذي أنزلَ القرآن هو الذي خلق العقل ، فهو لا يتناقض مع العلم » .

وقال الدكتور « برسو » أستاذُ علم التشريح بجامعة مانيقوبا بكندا : « إنني من خلال ما قمتُ به من أبحاثٍ وتحقيقاتٍ لبعض آياتِ القرآن الكريم والأحاديث النبوية عملياً ، جعلتْني أشعرُ بأنني أمامَ ثورةٍ علميةٍ جديدة ، لم يألفْها الناسُ من قبل ، ألا وهي القرآن .

إن الأبحاثَ أكدتْ كلَّ ما جاءَ به القرآن والسنة من حقائق ، وبنفسِ الترتيبِ والمراحلِ الزمنية . وإنني لا أملكُ إلا أن أقول : « إن القرآنَ من وحي الله إلى محمد ﷺ »[2] .

نماذج لتلك الآيات :

سنقدم فيما يلي نماذجَ لتلك الآيات ذاتِ المضامينِ العلميّة في شتى الموضوعاتِ والمجالات ونكتفي بذكْرِها دون بيانِ ما فيها من مضامينَ علمية ، بل نحيلُ على بيانِ العلماء المعاصرين لذلك .



---

(١) الكتب المقدسة على ضوء العلم الحديث لبوكاي : ١١ ـ ١٢

(٢) المسلمون . السنة الأولى . عدد : ٤٠ تاريخ ٢٦ صفر ١٤٠٦ وفق ٩ نوفمبر ١٩٨٥ . الصفحة الثالثة .

١ ـ في ما يتعلقُ ببدءِ الكون وخلْقِ السموات والأرض يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرونَ بِالّذي خَلَقَ الأَرْضَ في يوْمَين . وتَجْعَلونَ لَهُ أَنْداداً . ذلكَ رَبُّ العالمين. وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبارَكَ فيها، وَقَدَّرَ فيها أَقْواتَها، في أَرْبَعَةِ أيّامٍ ، سَواءً لِلسّائِلِينِ . ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخان ، فَقالَ لَها وَلِلْأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْكَرْها . قالتا : أَتَيْنا طائِعينَ . فقضاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يَوْمَيْن . وَأَوْحى في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها . وَزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بمصابيحَ وَحِفْظاً . ذلك تَقْديرُ العَزيزِ العَليم ﴾ [سورة فصلت: ٩ ـ ١٢].

٢ ـ عن تماسُكِ بنيان السماء ، وعن تحدُّدِ الكون وتوسُّعه المستمر يقول الله تعالى : ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْد ، وَإنّا لموسِعون ﴾ [سورة الذاريات : ٤٧].

٣ ـ عن خلْقِ السماءِ بغير عَمَد ، وعن الجاذبيةِ بينَ الأفلاك في الفَضاء ، يقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمواتِ بغيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وَأَلْقى في الأَرْضِ رواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّة . . ﴾ [سورة لقمان: ١٠].

٤ ـ عن كرويةِ الأَرض يقول الله : ﴿ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ بِالحَقّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْل . وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمر ، كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [سورة الزمر: ٥].

٥ ـ وعن دَحْوِ الأرضِ يقول الله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها. أَخْرَجَ مِنْها ماءَها ومَرْعاها . وَالجِبالَ أَرْساها . مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ ﴾ [سورة النازعات: ٣٩ ـ ٣٣].

٦ ـ وعنِ الفرْق بين الشمس والقمر ، واستمدادِ القمر لنورِهِ من الشمس ، يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِساب ﴾ [سورة يونس : ٥] .

٧ ـ عن مواقعِ النجوم العجيبةِ ، يقول الله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمواقِعِ النُّجوم . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمون عَظيم ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

٨ ـ عن وظيفةِ الجبالِ المثَبِّتة للأرض ، وكونها لها بمثابةِ الأوتاد للخيمة ، قال

الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً . وَالجِبالَ أَوْتادا ﴾ [سورة النبأ: ٧ ـ ٨].

٩ ـ عن الماءِ العذْبِ والماءِ المالح ووجودهما متجاورَين بدونِ اختلاطٍ أو امتزاجٍ في البحار، واستخراجِ اللؤلؤ والمرجان من كِلَيهما، قال الله تعالى: ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقيان . بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان . فَبأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان ، يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجان ﴾ [سورة الرحمن: ١٩ ـ ٢٢].

١٠ ـ عن حركةِ الرياحِ وتكوُّن السحبِ وشحنِها بالمطر ونزولِه منها، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزجي سَحَابا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَه ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ ، فيها مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاء ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاء ، يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصار ﴾ [سورة النور: ٤٣].

١١ ـ عن حركة النحلِ الدائبة، وفوائِدِ ومنافعِ ما يؤْخَذ منها من عسل، يقول الله: ﴿ وَأَوْحى رَبُّكَ إِلى النَّحْل ، أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيوتاً ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ ، فاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً . يَخْرُجُ مِنْ بُطونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلّناس . إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرون ﴾ [سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

١٢ ـ عن خلْقِ الإنسان من الماءِ الخارج من بين الصُّلْب والتَّرائب، يقول الله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِق ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِق ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِب ﴾ [سورة الطارق: ٥ ـ ٧].

١٣ ـ عن السُّلالَةِ التي خُلِق منها الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طين ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكين ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٣].

١٤ ـ عن مراحل النشأةِ الجنينيَّة في رحمِ الأم، يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَة ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقين ﴾ [المؤمنون: ١٤].

١٥ ـ عن دوْرِ بَصَمات الإنسان في تحقيقِ شخصيَّته، وعن عدَمِ التشابُهِ ما بين

بصماتِ شخصيْن من البشر ، وعن دقَّةِ صنعِ تلك البَصمات ، يقول الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَه ؟ بَلى قادِرين عَلى أَنْ نُسَوِّي بَنانَه ﴾ [سورة القيامة : ٣ ـ ٤].

١٦ ـ عن كوْنِ الجلدِ مركزاً للإحساس بالألَم أو النَّعيم ، لتجمُّع الأعصاب الحسّاسّة تحته يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الّذِينَ كَفروا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْليهِمْ ناراً . كُلَّما نَضِجَتْ جُلودهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلوداً غَيْرَها ، لِيَذوقوا العَذاب ﴾ [سورة النساء : ٥٦].

نكتفي بهذه النماذج لِلآيات ذاتِ الإشاراتِ والمضامين العلمية ، في حقول العلمِ والمعرفة الواسعة المتنوِّعة[1].

وننتقلُ للكلامِ عن دراستيْن معاصرتيْن قيمتيْن موضوعيَّتيْن، عن « الإعجاز العلمي القرآني » باعتبارِهما مثاليْن للدراسات والنظراتِ العلميةِ المعاصرة للقرآن ، وبيانِ ما فيه من « إعجاز علمي » مدهش .

الأولى : دراسةُ الدكتورُ الفرنسي المهْتدي « موريس بوكاي » التي سجَّلها في كتابه « الكتب المقدسة على ضوء العلم الحديث ».

الثانية : دراسةُ الشيخ محمد متولي الشعراوي ، التي أُعجبَ بها كلُّ مَنْ قرأها أو سمِعَها منه ، والتي سجَّلَها في كتابه « معجزة القرآن ».

« دراسة الدكتور موريس بوكاي للإعجاز العلمي »

الدكتور « موريس بوكاي» طبيبٌ جرَّاح فرنسي شهير ، كما أنه مستشرقٌ صاحبُ فكرٍ منهجيٍّ موضوعي متزِّن.

درسَ الكتبَ السماويةَ الثلاثة ، دراسةً موضوعية منهجية مجرَّدة ، ليبيِّن مدى موافقتِها للعلم الحديث أو مخالفتِها له .

وخرَجَ من تلك الدراسة العجيبة بنتائجَ هامة جداً :

---

(١) انظر تحليل ودراسة الدكتور مصطفى مسلم لهذه الآيات وبيان ما فيها من إعجاز علمي ومراجعه في ذلك التحليل ، في كتابه : « مباحث في إعجاز القرآن » : ١٥٧ ـ ٢٢٠ .

١ ـ التوراةُ والإنجيلُ أصابهما التحريفُ والتبديل .

٢ ـ في التوراةِ والإنجيلِ المحرَّفَيْن تصادُمٌ مـع العلمِ الحديث ، ومعلومـاتٌ علميَّةٌ وتاريخية خاطئة .

٣ ـ القرآنُ الكريم لم ينلْه تحريفٌ أو تغيرٌ أو تبديل ، بل هو محفوظ .

٤ ـ ليس في القرآن ما يتصادَمُ أو يتناقضُ مع العلم الحديث .

٥ ـ ما في القرآن من آياتٍ ذاتِ مضامينَ علميَّة ، منها ما لم يكتشفه حتى العلمُ الحديث . فالقرآنُ فوقَ المستوى العلمي للعرب في عصرِ التنزيل ، وفوق المستوى العلمي للعالِمِ في عصر التنـزيل ـ فُـرْسٍ وهُنودٍ ورومـان ـ وفوقَ المسـتوى العلميِّ للعلماء في العصور اللاحقة ، ومنه ما هو فوقَ مستوانا العلمي المتقدِّم في عصْرِ العلم والمعرفة ـ القرنِ العشرين ـ .

٦ ـ هذه الحقائقُ المـذهلةُ تدلُّ على أنـه يستحيل أن يكـونَ القرآنُ من كـلام بشر ، وإنما هو من كلام الله العليم الخبير .

وقد قادتْ هذه النتائجُ المذهلة « موريس بوكـاي » إلى عالَم الإسـلام ، فآمَن بالقرآن وبالإسلام وبرسالةِ محمد ﷺ ، وصار من المسلمين .

وأخبـرنـا في مقدمـتِه كتابه « الكتب المقدسـة على ضوء العلم الحديث » عن خطَّته الدراسية فقال: « لقد قمتُ أولاً بدراسه القرآن الكريم ، وذلـك دون أيِّ فكْرٍ مسبَق ، وبموضوعيَّةٍ تامة ، باحثـاً عن درجةِ اتفـاقِ نصِّ القرآن مـع معطيـات العلمِ الحديث . . وكنتُ أعرفُ ـ قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات ـ أن القرآنَ يذكرُ أنواعاً كثيرةً من الظاهراتِ الطبيعية ، ولكنَّ معرفتي كانتْ وجيزَة . وبفضْلِ الدراسـة الواعية للنص العربي للقرآن ، استطعتُ أن أحقِّقَ قائمةً ، أدركتُ بعْدَ الانتهاء منها ؛ أن القرآنَ لا يحتوي على أيةِ مقولة قابلة للنقد من وجهة نظرِ العلم في العصر الحديث .

وبنفسِ الموضوعيةِ قمتُ بنفسِ الفحص على العهدِ القديم والأناجيل .

أما بالنسبةِ للعهد القديم ـ التوراة ـ فلم تكن هناكَ حاجة للذهابِ إلى أبعدَ من الكتاب الأول ، أيْ « سَفْرُ التكوين » فقد وجدتُ فيه مقولاتٍ لا يمكنُ التوفيق بينَهـا

وبين أكثرِ معطيات العلمِ رسوخاً في عصرنا .

وأما بالنسبة للأناجيل ، فما نكادُ نفتحُ الصفحة الأولى منها ، حتى نجدَ أنفسنا دفعةً واحدة في مواجهةِ مشكلةٍ خطيرة ، ونعني بها شجرةَ أنسابِ المسيح ، وذلك أن « إنجيل متّى » يناقضُ بشكْلٍ جلي « إنجيلَ لوقا » وأن هذا الأخيرَ يقـدِّمُ لنا صـراحةً أمراً لا يتفقُ مع المعارفِ الحديثة »[1] .

أقسام دراسته الثلاثة :

قسَّم « بوكاي » كتابَه الفريدَ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : التوراة والعلم الحديث :

القسمُ الأول : العهدُ القديم ـ التوراة ـ والعلمُ الحديث :

تكلمَ فيه عنْ أسفار العهدِ القديم الخمسة ، وبيَّنَ ما فيها من معلوماتٍ وأخبارٍ تاريخيةٍ محرَّفة خاطئة : « إن التوراة تحتوي على أخطاء ذاتِ طابع تاريخي ، وذكَرْنا بعضَ هذه الأخطاءِ مما اكتشفَهُ عدةُ مفسِّرين يهود ومسيحين »[2] .

ثم تكلمَ في هـذا القسم عن العهدِ القديمِ والعلم الحـديث ، وبيَّن الأخـطاءَ العلميَّة الموجودةَ في التوراة ، واعتبر وجودَ هذه الأخطاء في التـوراة المتداوَلـة دليلاً على تحريفِ اليهود لها : « لا يمكنُ اعتبارُ رواياتِ التوراة تتَّفق مع الحقيقة ، إنهـا لا تمثلُ الحقيقة ، وهذا يدلُّ على وجودِ تحريفٍ بواسطة البشـر . وعندمـا نعرفُ أن سَفْرَ التكوين » قد عُدِّل على الأقل مرتيْن ، على مدى ثلاثـةِ قرون ، فكيفَ نُـدهش حين نجدُ فيه أموراً غيرَ معقولة ، يستحيلُ أن تتفقَ مع واقع الأشياء »[3] .

وسجَّلَ في خاتمةِ هذا القسم اعترافَ الغربيين بالتناقضِ ما بين نصوص التوراة المحرَّفة وما بينَ الحقائقِ العلميـة والتاريخيـة : « إن المجمعَ المسكـونيَّ للفاتيكـان الثاني : ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ ، قد خفَّف بشدة من هذا التصلُّب ، وذلك بإدخالِ تحفُّظٍ

---

(١) الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : ١٣ .

(٢) المرجع السابق : ٣٩

(٣) المرجع السابق : ٥٤

على أسفار العهد القديم التي « تحتوي على الشّوائِبِ وَشَيْءٍ مِنَ البُطْلان »[1] ـ وهو نصُّ قرار المجمع بالحرف ـ .

القسم الثاني : الإنجيل والعلم الحديث :

دَرسَ بوكاي الأناجيلَ على نفس الخطَّة التي درس بها العهدَ القديم ، وسجَّل في بداية هذا القسم اعترافَ أحد كبارِ القساوسة ـ الأب روجي ـ في كتابه « مقدِّمة إلى الأناجيل » الذي طَبَعَه عام ۱۹۷۳ بوجود عباراتٍ ونصوصٍ في الأناجيل « مُبْهَمَة غيرِ مفهومة ، بل متناقضة وعَبَثِيَّةٍ أو فاضحةً » ـ حسب عبارة الأب روجي بالحرف ـ[2] .

تكلم في هذا القسم عن المسيحيةِ اليهوديَّة المُوَحِّدَة ، ومسيحيةِ « بولس » المُثَلِّثَة . وعن الأناجيلِ الأربعة ـ مَتّى ومُرْقُس ولُوقا ويوحَنّا ـ من حيثُ مصادرُها وتاريخُها. وسجَّل تاريخ كتابتها وما رافقَه من مزاجيةٍ وهوى ، وما نتجَ عنه من تحريفٍ وأخطاء تاريخية .

كُتبت الأناجيلُ في منتصفِ القرن الثاني ، وبالتحديد ، بعد عام ١٤٠ م[3].

ويعترفُ آباءٌ وقساوسةٌ لاهوتيون ـ مثلُ الأب كانينجسر ـ بوجود تعديلاتٍ قام بها البشر على النصوص المقدَّسة[4]. حيث كان المبشِّرون « يضعونَ على لسان المسيح ما يَتناسَبُ مع وجْهاتِ نظرهم الشخصيَّة »[5] .

وعقد بوكاي مقارناتٍ بين الأناجيلِ الأربعة ، وأظهرَ ما بينها من اختلافاتٍ وتناقضات ، وما فيها من أخطاءَ تاريخية .

ويخرجُ بوكاي من هذه الدراساتِ للأناجيلِ بنتيجةٍ عجيبةٍ عن تحريفها ، وذلك حيثُ يقول : «ونتيجةُ كلِّ هذا هو أننَّا لم نعُدْ متأكِّدون مطْلَقاً من أنَّنا نتلقّى كلمةَ المسيح بقراءةِ الإنجيل ».

---

(١) المرجع السابق : ٦١ ـ ٦٢
(٢) المرجع السابق : ٦٥
(٣) المرجع السابق : ٧٥
(٤) المرجع السابق : ٨٧
(٥) المرجع السابق : ٨٨



ويسجلُ اعترافَ الأب « بينْوا » حول هذا واعتذارَه : « والأب بينْوا يتوجَّهُ لِقارىء الانجيل ويحذِّرُه من هذا ، ويقدِّم تعويضاً للقارىء قائلاً : إذا كان عليهِ أن يتخلَّى في أكثرَ من حالةٍ عن سماعِ صوتِ المسيح المباشر ، فإنه يسمعُ صوتَ الكنيسة ويركنُ إليها ، ركونَهُ لمفسِّرٍ خَوَّل إليه أن يفسِّرَ السيدَ الذي يحدثُنا اليومَ في مجده ، بعد أن تحدَّثَ على أرضنا »[1].

ويسجلُ اعترافاً عجيباً لأحدِ الآباء عن تحريفِ الأناجيل ، وذلك في معرضِ تبريرِهم لوجودِ الأخطاء في تلك الأناجيل .

قال : « ا. كولْمان » في كتابه « العهد الجديد »، إنها قد تنتجُ عن أخطاءَ غير إراديَّة : إمّا أن يكونَ الناسخُ قد أسقطَ كلمة ، وإمّا أن يكون قد كتَبها مرتَيْن متتاليتَيْن ، وإمّا أن يكونَ قد حَذَفَ سهواً جزءاً من الجملة . كان موضوعاً في النصِّ المطلوبِ نَسْخُهُ بين كلمتَيْن متماثلتَيْن . وقد يكونُ المعنيُّ به أيضاً تصحيحاتٍ إرادية . أَمَّا الناسخ فقد سَمَحَ لنفسه بتصحيحِ النص حسبَ أفكارِه الشخصية !!»[2].

ونتيجةً لتلك الأخطاءِ والتحريفات في الأناجيل ، فقد قَرَّر مترجِما الكتابِ المقدس ، في الترجمة المسكونية ، الصادرةِ عن معهدِ الكتاب المقدَّس في القدس عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ـ وهما الأبوان « بينْوا » و« بومار»[3] ـ إنَّ كلَّ ما يستطيعُ نقدُ النصوص الحديثُ أن يقدِّمه لنا من وجهةِ النظر هذه ، هو محاولتُه لإعادة بناء « نصٍّ يتمتعُ بأكبرِ الفرص الممكنة في أن يقتربَ من النص الأصلي . وعلى أيِّ حالٍ فلا مجال مطلَقاً للأمل في الوصولِ إلى النصِّ الأصليِّ نفسِه !!» ـ حَسْبَ عبارةِ الأبوَيْن بينْوا وبومار بالنص ![4] .

---

(١) المرجع السابق : ٩٨
(٢) المرجع السابق : ١٠١ ـ ١٠٢
(٣) المرجع السابق : ٩٥
(٤) المرجع السابق : ١٠٣

ويقفُ بوكاي عند « أحاديث المسيح الأخيرة في إنجيل يوحنا »[1].

ويبيِّنُ آخرَ أحاديثِ المسيح ـ عليه السلام ـ إلى الحواريين ، ووصيَّتَه لهم ، ويبيِّنُ استغرابَه ودهشته من « خلوِّ» الأناجيل الثلاثة منها : « كيف يمكنُ أن نشرحَ الغيابَ التامَّ في أناجيلِ : متّى ، ومرقس ، ولوقا ، لروايةِ الوداع المؤثِّر ، الذي يحتوي على الوصيةِ الروحيَّة للمسيح ؟ يمكنُ أن نطرحَ السؤالَ التالي : هل كانَ النصُّ موجوداً أوَّلاً عند المبشِّرين الثلاثة الأوّلين ؟ ألَمْ يُحْذَف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولْنَقُلْ فوراً : إنه لا يمكنُ الاتيانُ بأيةِ إجابةِ ، فاللُّغز مستغلَقٌ تماماً بالنسبةِ لهذه الثَّغرةِ الكبيرة في روايةِ المبشرين الثلاثة الأولين »[2] .

ويُفْهمُ من كلام بوكاي هنا أنه يَميلُ إلى أن القساوسةَ والرهبانَ وكُتَّابَ الأناجيل ، قد حَذَفُوا من الأناجيلِ الثلاثة الوصيةَ الأخيرةَ للمسيح ، ولم تَبْقَ إلاَّ في إنجيل يوحنا !!

والسببُ في حذفهِم لها ، هو أن المسيحَ ـ عليه السلام ـ بشَّر حوارِّييه بأنه إذا اختفى عنهم ، فسوفَ يبعثُ الله لهم رسولاً آخر ، وأوْصاهم باتِّباعه . وهو الذي أسْماه « الفارَقْليط » ، ووردَ في إنجيل يوحَنَّا بالاسم اليوناني : «Parakletos» .

ووردَ في إنجيلِ يوحَنّا ، قولُ عيسى عليه السلام لحوارييه : « إذا كُنْتُم تحبونَني ، فستعمَلون على اتِّباعِ أوامري ، وسأصَلّي للأبِ الذي سوفَ يعطيكم «Paraclet» آخر »[3] .

ووردَ فيه قولُه أيضاً : « رحيلي فائدةٌ لكم ، لأنني إذا لم أرْحَل فالـ Paraclet » لن يأتي إليكم ، وعلى العكْس فإذا رحلتُ فسأبعثُ به إليكم ، وهو بمجيئهِ سَيُذْهِلُ العالم فيما يخصُّ الخطيئة والعدل والحكم »[4] .

---

(١) المرجع السابق : عنوان صفحة : ١٢٥

(٢) المرجع السابق : ١٢٥

(٣) المرجع السابق : ١٢٥ وقارنها مع العهد الجديد : إنجيل يوحنا . إصحاح : ١٤ رقم : ١٥ ـ ١٦

(٤) المرجع السابق : ١٢٦ وقارنها بالعهد الجديد : إنجيل يوحنا . إصحاح : ١٦ . رقم : ٧ ـ ٨

إن « الفارقليط » المذكورَ في وصية عيسى عليه السلام للحواريـين ، هو النبيُّ محمـدٌ ﷺ ولذلـك حَذَفَ الـرهبان تلك الـوصية من الأنـاجيل الثـلاثة : متى ولـوق ومرقس !! .

ويختمُ بوكاي كلامَه عن هذا القسم بتقريرِ حقيقةِ تحريفِ الأناجيل وتناقضِهـا مع الحقائق العلمية والأخبارِ التاريخيـة : « خَيَالاتُ متّى ، والمتنـاقضاتُ الصـارخةُ بين الأنـاجيل ، والأمـورُ غيرُ المعقـولة ، وعـدمُ التوافقِ مـع معطيـاتِ العلمِ الحديث ، والتحريفاتُ المتوالية للنصوص . . كلُّ هذا يجعلُ الأناجيلَ تحتوي على إصحاحاتٍ وفقراتٍ تنبعُ من الخيالِ الإنسانيِّ وحده .

لكن هذه العيوبَ لا تضعُ في موضعِ الشك وجودَ رسالة المسيح ، فـالشكوكُ تخيِّمُ فقط على الكيفيةِ التي جرتْ بها »[1] .

القسم الثالث : القرآن والعلم الحديث :

انتقلَ بوكاي في القسم الثالثِ من دراسته ـ وهو صلبُ الدراسة وأساسُها ـ إلى الكلامِ عن « القرآن والعلم الحديث » .

وأدهشَتْـهُ كثرةُ الآيـات التي تتحدثُ عن العلم : « لقـد أثارت هـذه الجوانبُ العلميةُ التي يختصُّ بها القرآنُ دهشَتي العميقةَ في البداية ، فلم أكن أعتقدُ قطُّ بإمكانِ اكتشافِ عددٍ كبيرٍ إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعاتٍ شديدةِ التنـوُّع ، ومطابقةٌ تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نصٍّ كُتب منذُ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

في البداية لم يكن لي أيُّ إيمان بالإسلام . وقد طرقْتُ دراسةَ هـذه النصوص بروحٍ متحرِّرةٍ من كل حكم مسبق ، وبموضوعيةٍ تامة . . .

. . . كان هدفي الأول هو : قراءةُ القرآن ودراسةُ نصِّـه جملةً جملة ، مستعيناً بمختلَف التعليقات اللازمة للدراسة النقديّة : وتناولتُ القرآنَ منتبهاً بشكلٍ خاص إلى الوصفِ الذي يعطيه عن حشدٍ كبير من الظاهراتِ الطبيعية . لقد أذهَلَتني دقةُ بعضِ

(١) المرجع السابق : ١٣١ .

التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات . . أذهلتْني مطابقتُها للمفاهيم التي نملكُها اليومَ عن نفس هذه الظاهرات ، والتي لم يكن ممكِناً لأيٍّ إنسانٍ في عصر محمد ﷺ أن يكُوِّنَ عنها أدنى فكرة . .

. . . إن أولَ ما يثيرُ الدهشةَ في روحِ مَنْ يواجهُ مثلَ هذا النص لأول مرة ، هو : ثراءُ الموضوعاتِ المعالجة . فهناكَ الخَلْق ، وعلم الفَلَك ، وعرض لبعضِ الموضوعاتِ الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنساني .

وعلى حين نجدُ في التوراة أخطاءَ علميَّة ضخمة ، لا نكتشفُ في القرآن أيَّ خطأ !!

وقد دفعني ذلك لأن أتَساءل : لو كانَ كاتبُ القرآن إنساناً ، كيف استطاعَ في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتبَ ما اتَّضَحَ أنه يتفقُ اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟

ليس هناكَ أيُّ شك ، فنصُّ القرآنِ الذي نملكُ اليوم هو فعلاً نفسُ النص الأوّل ! ليس هناكَ سببٌ يدعو للاعتقاد بأنَّ أحدَ سكان شبهِ الجزيرة العربية في ذلك العصر ، استطاع أن يملكَ ثقافةً علميَّة تسبقُ بحوالي عشرة قرون ثقافَتَنا العلمية فيما يخصُّ بعضَ الموضوعات »[1] .

ثم يردُّ بوكاي على ادعاءِ بعض الغربيين أن بعضَ العرب في عصر التنزيل قد تقدَّموا تقدُّماً علمياً كبيراً ، وأن محمداً ﷺ قد استلْهم دراساتِهم .

ويدلِّلُ على خطأ هذا الادعاء بعدَمِ قدرةِ المفسرينْ السابقين في التاريخ الإسلامي اكتشافَ الأبْعاد والمَضامينِ العلمية لآياتِ القرآن ، لأنهم لم يكونوا يملكونَ ثقافةً علمية كبيرة .

ويقررُ أنه على مفسِّر القرآن امتلاكُ معارفَ علميةٍ شديدةِ التنوُّع بالإضافة إلى المعارف اللغوية المتبحرة .

---

(١) المرجع السابق : ١٤٤ ـ ١٤٥ باختصار .

ويشيرُ إلى أنَّ القرآن « ليس كتاباً يهدفُ إلى عرْضٍ بعضِ القوانين التي تتحكم في الكون . إن له هدفاً دينيّاً جوهريّاً » .

ويدعو إلى التفريقِ بينَ النظريّةِ العلمية والحقيقةِ العلمية . ولا يجيزُ تفسيرَ القرآن بالنظرية ، لأنها قابلةٌ للتغييرِ والتبديلِ في كثيرٍ من الأحوال .

أما الحقيقةُ ـ ويسميها الفعلَ موضوعَ الملاحظة ـ فهي غيرُ قابلةٍ للتعديل كدوران الأرض حول الشمس[1] .

ويقرِّرُ في مقدِّمة دراسته عن القرآن والعلم الحديث ، أن تلك الدراسة « ستقودُ إلى الحكم بعدمِ معقوليَّةِ أن إنساناً يعيشُ في القرن السابعِ من العصر المسيحي ، قد استطاع أن يُصدرَ عبرَ القرآن ـ وفيما يتعلق بموضوعاتٍ متعدَّدة ـ أفكاراً لا تنتمي إلى أفكارِ عصره ، وتتفق مع ما أمكنَ إثباتُه بعد ذلك بقرون عديدة .

في رأيـي : ليسَ هناك تفسيرٌ وضْعِيٌّ للقرآن »[2] .

أي أن القرآن ليسَ من تأليفِ بشر ، وليس من وضعِ أَحَدٍ من الناس ، بل هو كلامُ الله ، أَوْحىٰ به لمحمد ﷺ .

بيان بوكاي للإعجاز العلمي في القرآن :

انتقل بوكاي في دراستِه القيمة إلى تفسيرِ آياتٍ ذاتِ مضامينَ علمية ، وبيان ما فيها من إعجاز علمي ، وإشارةٍ إلى مصدر القرآن .

والملاَحَظُ أن بوكاي لم يتكلمْ عن « الإعجاز العلمي » بصراحة ، وإنما « وَظَّفَ » صِدْقِ المضامينِ العلمية للآيات ، وانطباقها مع أحدث معطيات العلم الحديث ، دليلاً على أن القرآن كلام الله .

مجالات الإعجاز العلمي القرآني الخمسة :

والمجالات العلمية التي عرض آياتِها خمسة ، وهي :

---

(١) المرجع السابق : ١٤٥ ـ ١٤٨

(٢) المرجع السابق : ١٥٠

١ ـ خلق السموات والأرض :

القرآن لا يقدِّمُ روايةً كاملةً عن بدء الخلق ، بل تفرقت الآياتُ التي تشيرُ إلى بدءِ الخلق في سوره ، وحتى ندركَ كلامَـه عن خلق السموات والأرض ، لا بـد من تجميع تلك الآيات المتفرقة في السور .

أ ـ الأيامُ الستة :

يصـرحُ القرآنُ أن الله خلق السمـوات والأرض في ستة أيـام ، كما في قـولـه تعـالى : ﴿ إنَّ رَبَّكُم اللَّهُ الَّـذي خَلَقَ السَّمـوات والأَرْضَ في سِتَّـةِ أيَّـام ﴾ [سـورة الأعراف : ٥٤] . وهي ليست كأيامنا العادية .

إنَّهـا ستُّ مراحـل ، أو ستُّ فتراتٍ طـويلة جداً . اليـومُ الواحـد « يعني دهراً طويلاً ، أو فترةً من الزمن غيرَ محدودة وإنْ طالت » .

ويستشهـدُ بوكـاي على صحةِ هـذا الفهم لمعنى اليـوم ـ في هـذا المـوضـوع بالذات ـ بآياتٍ أخرى ، تُفرق بين مدة اليوم في حسابنا ، ومدتِه عند الله تعالى ، من مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّون ﴾ [سورة السجدة : ٥] .

وهذه الحقيقةُ العلميةُ القرآنيةُ عن تلك المراحلِ الستةِ للخلق تتفقُ مـع العلم الحديث : « الذي قد أثبتَ بشكْلٍ قاطع ، أنها فتراتٌ زمنيـةٌ طويلة جـداً ، تتضاءَلُ إلى جانبها الأيامُ كما نفهمُها ، وتصبحُ شيئاً تافهاً »[1] .

ب ـ عملية تشكُّل الكون الأساسية :

يشير القرآنُ في آيتيْن إلى « خـلاصةٍ مـركَّبة ومختصَـرة للظاهراتِ التي كَـوَّنَتْ العملية الأساسية لتشكُّل الكون .

الآيةُ الأولى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمواتِ وَالأَرْضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

---

(١) المرجع السابق : ١٥٨ ـ ١٦٢

والثانية قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اثْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** ﴾ [سورة فصلت : ١١] .

تدعونا هاتان الآيتان للالتفاتِ إلى ما يلي :

١ ـ كلمةُ « دخان » تدلُّ على وجود كتلةٍ غازيَّة ذاتِ جزَيْئات ، وهـذا الدخـان تكونُ منه موادُّ صلبة أو سائلة ، وهي المادةُ الأساسية للكون .

٢ ـ كانت الكتلةُ الصلبة الناتجة عن الدخان قـطعةً واحـدة ملتحمة ، ثم تمتْ عمليةُ الفتقِ ، حيث انفصلت الأرضُ عن السماء : ﴿ **أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ، فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ .

الرَّتْقُ : هو وَصْلُ العناصر ، بهدفِ تكوينِ كُلٍّ منها .

والفَتْق : هو القطعُ أو الفصلُ أو فكُّ اللحام بينهما .

٣ ـ نتج عن الفصل بينهما تكوُّنُ سبعِ سموات[1] .

إنَّ آياتِ القرآن التي تتحدثُ عن بدءِ الخلق ، وعن خلْق السموات والأرض ، تقررُ هذه النقاطَ الخمس :

١ ـ وجودُ ستِّ مراحل للخَلق عموماً .

٢ ـ تداخُلُ مراحلِ خلق السمواتِ مع مراحلِ خلق الأرض .

٣ ـ خلقُ الكون ابتداء من كـومةٍ أوَّلِيَّـةٍ فريـدة ، كانت تشكِّـلُ كتلةً متماسكـة إنفصلتْ بعد ذلك .

٤ ـ تعدُّدُ السموات ، وتعدُّدُ الكواكب التي تشبهُ الأرض .

٥ ـ وجودُ خلْقٍ وسيطٍ بين السموات والأرض[2] .

ولدى المقارنة بين هذه الحقائق القرآنية والمعطياتِ العلميَّة الحديثة نرى عدمَ

---

(١) المرجع السابق : ١٦٢ ـ ١٦٤

(٢) المرجع السابق : ١٦٦

التعارض بينهما ، بينما كان التعارضُ موجوداً بين رواية التـوراة والعلم الحديث عن بدء الخلق : « إذا كانت المسائلُ التي تطرحها روايةُ القرآن لم تتلَّقَ تماماً حتى يومنا هذا توكيداً من المعطياتِ العلمية ، فـإنَّهُ لا يـوجدَ على أي حـال أقلُّ تعـارُضٍ بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلْق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون . ذلـك أمرٌ يستحق الالتفاتَ إليه فيما يخصُّ القرآن . على حينِ قد ظهر بجلاءٍ أن نصَّ العهد القديم الذي نملكُ اليوم ، قد أعطى عن هذه الأحداثِ معلوماتٍ غيرِ مقبولة من وجهة النظر العلمية . . »[1] .

إن هذه المقارنة تقودنا إلى حقيقة قاطعة : لا يمكنُ أن تكونَ معطيـاتُ القرآن وتقريراتُه ، من كلام بشر ، بل هي مِن كلام الله سبحانه[2] .

٢ ـ علم الفلك في القرآن :

في القرآن آياتٌ كثيـرة تقدِّمُ إيضـاحاتٍ عن علم الفَلَك . وهـذه الإيضـاحـاتُ والمعلوماتُ الفلكية لا تتفقُ مع كلامِ التوراة والإنجيل عن الفَلَك ، ولا مع النظرياتِ الفلكية السائدة في عصر نزول القرآن ، وهو مما تناقضَ مع مقرراتِ العلم الحديث . واختلافُ إيضاحاتِ القرآن عن تلك المصادر يدلُّ على أنَّ القـرآن لم يُستمدَّ منهـا ، وأنـه ليس من كلام بشـر . إن معلوماتِ القـراءن الفلكيـة ، فـوقَ المستـوى العلمي الفلكي للعرب وللعالم في ذلك العصر ، فمِنْ أينَ أتى محمـدٌ ﷺ بتلك المعلومات التي فـاقتْ مستوى عصـره ؟ والتي لا تتعارض مـع العلم الحـديث ؟ إنهـا من عنـد الله[3] !

من المعطيات القرآنية عن الفلك هذه النماذج :

أ ـ رفعُ السموات بغير عمدٍ :

خلق الله السمواتِ منفصلةً عن الأرض ، وهي لا تقعُ عليها رغم رفْعها فـوقها بـدون عمد : ﴿ اللَّهُ الَّـذي رَفَعَ السَّمـواتِ بِغَيْرِ عَمَـدٍ ، تَرَوْنَهـا . ثُمَّ اسْتَـوى عَلَى

---

(١) المرجع السابق : ١٧١

(٢) المرجع السابق : ١٧٤

(٣) المرجع السابق : ١٧٥

الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَر ﴾ [سورة الرعد : ٢] .

« ومعروفٌ أن ابتعادَ الأجرامِ السماوية على مسافاتٍ عظيمة ، ومتناسبةٍ طرْدياً مع الكتل نفسها ، يشكِّلُ أساسَ توازُنها . فكلَّما تباعدتْ الأجرامُ وهنتْ قوةُ جـذْبِ كُلٍّ منها للأخرى . وكلَّما تقاربتْ كانَ لكلٍّ منها تأثيرٌ على الأخرى » فالقمرُ لقربهِ من الأرض يؤثِّرُ على مياهِ البحر ، فيحدثُ المد والجزر(١) .

ب ـ الفرق بين الشمس والقمر :

فرَّق القرآنُ بين الشمس والقمر في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُروجاً ، وجَعَلَ فيها سِراجاً ، وَقَمَراً مُنيراً ﴾ [سورة الفرقان : ٦١] .

إنَّ الشمسَ نجمٌ يُنتجُ باحتراقه حرارةً شديدة وضوءاً . أما القمر فهو ليس مضيئاً في ذاته ، بل هو يعكسُ الضوءَ الذي يستقبله من الشمس . وهذا التفريقُ بينهما في القرآن ، لم يكن معروفاً في عصرِ التنزيل ، وهو لا يتناقضُ مع العلم الحديث(٢) .

الشمسُ سراجٌ وهّاجٌ ، والقمر منيرٌ . وفرْق بين الوصفيْن .

جـ ـ توسُّع الكون :

« توسُّع الكون » هو أعظمُ ظاهرةٍ اكتشفها العلم الحديث . ذلك مفهومٌ قد ثبتَ اليوم تماماً ، ولا تعالجُ المناقشاتُ إلاَّ النموذج الذي يتمُّ به هذا التوسع .

الكـون في امتدادٍ مستمـر ، لا يكفُّ عن الكِبَرِ والاتسـاع ، والمجرَّات تبتعـدُ عنا ، والسرعاتُ التي تنتقل بها المجراتُ والأجرامُ السماوية تتفاوتُ وتتراوح ، ولكنها تتباعد ، والكون يتوسع .

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَموسِعون ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

والمراد بالسماء هو الكـونُ خارجُ الأرض . و« مـوسِعُون » اسمُ فـاعل لفعـل

---

(١) المرجع السابق : ١٧٦

(٢) المرجع السابق : ١٧٩ ـ ١٨٠

« أَوْسَعَ » أي جعل الشيءَ أعرضَ وأكثرَ رحابة . إن هذه الآية تتحدث بدون غموض عن « توسُّع الكون »(١) .

٣ ـ الأرض :

الآياتُ القرآنية التي تتحدثُ عن الأرض كثيرة ، وهي تشير إلى ظواهرَ وأعراضٍ طبيعية ، وتحوي مدلولاتٍ منوعة ، تزيدُ كلَّما تقدمَ العلم الإنساني ، ولا تتناقض مع معطيات العلم الحديث .

أ ـ دورة الماء :

يشير القرآن إلى دورة الماء ، ويقدِّم حولها مفاهيمَ دقيقة ، ليست صدىً أو انعكاساً للمفاهيم البشريةِ الخاطئةِ التي كانت سائدةً في عصر التنزيل .

الرياحُ لواقحُ بنص القرآن : ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لواقِحَ ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِين** ﴾ [سورة الحجر : ٢٢] .

وهذه إشارةٌ إلى تلقيحِ الرياحِ للسُّحب التي تحمل الماء .

وعيونُ الماء العذْبِ على وجهِ الأرض ، يتمُّ تزويدُها بماء المطر، حيث تتموَّنُ من الماء النازل من السماء : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُه** ﴾ [سورة الزمر : ٢١] .

كان السابقون يظنّون أن الينابيعَ والعيونَ تتموَّن بواسطةِ بحيراتٍ جوفية ، فقرَّر القرآنُ أنها تَتَموَّن بمياه الأمطار .

ويقررُ القرآنُ استحالةَ صنع المطر صناعياً ، واستحالةَ « خَلْق » المطر الصناعيّ : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُون ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجاجاً ، فَلَوْلاَ تَشْكُرُون** ﴾ [الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠] .

ويقرر العلمُ الحديثُ استحالةَ قدرةِ البشر على إنتاجِ المطر . ويقررُ أنه لا يمكن أبداً إسقاطُ المطر من سحابةٍ لا تحتوي على سِمات السحابةِ القابلةِ للهطول ،

---

(١) المرجع السابق : ١٩١ ـ ١٩٣

أو من سحابةٍ لم تصلْ إلى درجةٍ مناسبة من التطوُّر أو النضج . وبالتالي فإن الإنسان لا يستطيعُ إلاَّ أن يعجِّل بعمليةِ الهطول ، مستعيناً في ذلك بالوسائل التقنية الملائمة ، على شَرْطِ أن تكونَ الظروفُ الطبيعية لذلك مجهَّزَة سَلَفاً »[1] .

خلاصةُ « دورة الماء » التي يقدِّمها القرآن ، والتي تتفقُ مع علم « الهيدرولوجيا » الحديث ، في النقاط التالية :

١ ـ يثيرُ الإشعاع الحراريُّ للشمس تبخرَ الماء في البحار والمحيطات .

٢ ـ يتصاعدُ بخارُ الماء إلى طبقات الجو .

٣ ـ يتكثَّفُ البخار في الجو مكوِّناً السحبَ والغيوم .

٤ ـ تنقل الرياحُ السحبَ إلى مناطق منوَّعة ومسافاتٍ شاسعة .

٥ ـ تختفي بعضُ السحبِ في الجوِّ دون أن تعطيَ مطراً .

٦ ـ قد تلتقي كتلٌ من سحبٍ أخرى لتعطي سُحُباً ذاتِ كثافة كبرى .

٧ ـ ينزل المطرُ من السحب في البحارِ والمحيطاتِ ليعود إليها من جديد .

٨ ـ ينزلُ المطرُ على اليابسة فينتفعُ به الأحياءُ من إنسان وحيوان ونبات .

٩ ـ قد يترشحُ بعضُ الماء من النبات ليصعدَ بخاراً إلى الجوِّ ويلتقي بالسحب .

١٠ ـ يتسللُ جزءٌ من الماء إلى باطنِ الأرض ليتجِهَ نحو البحار والمحيطات عن طريق مجاري الأنهار من منابِعها إلى مصابِّها في البحار والمحيطات[2] .

ب ـ ظاهرات جوية :

أشار القرآن إلى ظاهراتٍ جوية تَحدثُ في الجو ، وهي متفقةٌ مع العلم الحديث .

من هذه الظاهرات ، تلكَ التي يشيرُ لها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

---

(١) المرجع السابق : ٢٠٠ ـ ٢٠٢

(٢) المرجع السابق : ٢٠٣

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٥] .

إنَّ الآيةَ تشيرُ إلى ظاهرةٍ معروفةٍ حديثاً ، وهي الضيق الذي نشعرُ به في الأماكن المرتفعة ، والذي يزدادُ كلَّما ارتفعْنا في الجو[١] .

ومن تلك الظاهرات « الكهرباءُ الجوية » التي ينتجُ عنها الصواعق . وأشار لها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَال . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ ، فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاء ﴾ [سورة الرعد : ١٢ ـ ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَد ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاء ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاء ، يَكادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور : ٤٣] .

إنَّ الآيتيْنِ تُعَبِّران عن العلاقةِ الْواضحةِ بين تشكُّلِ سُحُبِ المطر الثقيلة ، والبَرَد ، ووقوعِ الصاعقة . وهذا يتفقُ مع معطياتِ المعارف الحديثة عن الكهرباء الجوية[٢] .

جـ ـ الظل :

أشار القرآنُ إلى ظاهرةِ الظلِّ وحركتِه وانتقالِه ، وإلى العلاقةِ بينه وبين الشمس ، باعتبارها دليلاً عليه . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيرا ﴾ [سورة الفرقان : ٤٥ ـ ٤٦] . وهذه الإشارة القرآنية لحركةِ الظل لا تتناقضُ مع العلمِ الحديث[٣] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٠٩

(٢) المرجع السابق : ٢٠٩ ـ ٢١٠

(٣) المرجع السابق : ٢١٠

٤ ـ عالَم النبات والحيوان :

أ ـ الماءُ أصل الحياة :

الماء أصلُ الحياة ، وهو شرطٌ أساسي لحياة الأحياء من البشر والحيوانات والنباتات . هذه حقائقُ قرآنيةٌ لا تتناقضُ مع العلم الحديث . وقد نصَّتْ على ذلك آيات القرآن .

أصلُ الحياة على وجه الأرض مائيٌّ بنصِّ القرآن : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ . أَفَلا يُؤْمِنُونَ ؟** ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٠] .

والنباتُ زوجيٌّ أصلُه من الماء : ﴿ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتّى** ﴾ [سورة طه : ٥٣] .

وكلُّ ما له روحٌ من إنسانٍ أو حيوانٍ مخلوقٌ من ماء : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء . فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَع . . .** ﴾[1] [سورة النور : ٤٥] .

ب ـ تناسلُ النباتِ :

يتمُّ التناسلُ في عالمِ النباتِ بطريقتَيْن :

الأولى : طريقةٌ جنسية ، وهي فقط التي تستحقُّ اسمَ التناسل .

الثانية : طريقةٌ لا جنسية ، وهي مجردُ تكاثُرِ النبات عن طريق قطْعِ غِصْنٍ من نبات وغرْسِه في التربة ، وهو المسمى بالعُقَلْ ، وهذه الطريقةُ ليستْ « زوجيّة » .

والقرآنُ لا يذكر إلَّا الطريقةَ الأولى للتناسل النباتي ، حيث يتم بواسطةِ تزاوجِ عناصرَ ذكرية نباتية بعناصرَ أنثوية .

قال تعالى : ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَة ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾[سورة الحج : ٥] .

---

(١) المرجع السابق : ٢١٢

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه : ٥٣] .

الثمرةُ هي نتاجُ عمليةِ تناسلِ النباتات العليا . والزهرةُ قبلَ الثمرة لها أعضاءٌ ذكريّة وهي الإبَر ، وأعضاءَ أنثوية وهي البُوَيْضَات . وبعد نقْلِ اللِّقاح تُعطي الزهرةُ الثمرة ، والثمرةُ تعطي الحبة بعد النضج . ففي كل ثمرة أعضاء ذكرية وأعضاء أنثوية(١) .

جـ ـ عالَم النحل :

قال القرآن عن حركة النحل : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ، أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بُيُوتاً ، وَمِنَ الشَّجَر ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلَا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه ، فيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة النحل : ٦٨ ـ ٦٩] .

خلقَ الله في النحلة نظاماً عصبياً ، تسْلُك به سُبُلَ الله ذُلُلاً وَوَسِيلَةُ التخاطبِ لدى النحل هي الرَّقص ، فعن طريقِ الرقص يعرفُ النحلُ الاتجاهَ الذي يسلكه ، والمسافةَ التي يقطعُها ، ليصلَ إلى الزهور التي يمتصُّ رحيقها(٢) .

د ـ أصولُ مكوِّنات لبن الحيوان :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَة . نُسْقِيكُمْ مِمّا فِي بُطونِها ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَم ، لَبَناً خالِصاً، سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [سورة النحل : ٦٦] .

يتفقُ القرآنُ هنا في حديثِهِ عن أصْلِ مكوِّنات لبن الحيوان مع معطياتِ المعرفة الحديثة اتفاقاً تاماً .

لقد أخطأَ كثيرٌ من السابقين في فهْم كلماتِ الآية ، وفي تحديدِ أصْل مكوِّنات لبن الحيوان ، وقالوا أقوالاً غيرَ دقيقة .

(١) المرجع السابق : ٢١٤ ـ ٢١٥

(٢) المرجع السابق : ٢١٩

إنَّ معنى الآية هو : « الحقيقةُ أنَّكم تجدونَ عِلْماً في حيواناتكم الماشية : إنّنا نعطيكم شَراباً ، مما يوجَدُ في أجْسامها ، أي ما يأتي مِنَ التّلاحُم بينَ مُحْتوى الأمْعاءِ والدَّم ، لبناً صافياً يسير الابتلاع .

معنى : «في بطونها» : في داخِلِ أجسامها. لأن معنى « بَطْن » وسط أو داخل شيء . .

وتحدِّد الآية مصدَر اللبن بقولها : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَم ﴾ .

« ولكي نعرف معنى هذه الآية من وجهةِ النظرِ العلميَّة ، فلا بد من الاستعـانةِ بمعلوماتِ علمٍ وظائف الأعضاء .

تأتي الموادُّ الأساسيةُ التي تتكفل بتغذيةِ الجسم عامَّة ، من تفاعلاتٍ كيمياوية تحـدُث في القناة الهضميـة ، وتأتي هـذه الموادُّ من عنـاصـرَ مـوجـودةٍ في مُحْتـوى الأمعاء . وعندمـا تصلُ هـذه الموادُّ المـوجودةُ بـالأمعاء إلى المـرحلةِ المطلوبـة في التفاعلِ الكيماوي فإنها تمرُّ عَبْرَ جدارِ الأمعاء نحو الدورَة العامة .

ويتمُّ هذا الانتقالُ بطريقتين : إمّا مباشِرة بواسطةِ ما يسمى بالأوعية اللّيمفاويَّة . وإمّا بشكلٍ غيرِ مباشر ، بواسطة « الدَّوْرَة البابيَّة » التي تقودُ هذه الموادَّ إلى الكبدِ ، حيث تقعُ عليها بعضُ التعـديلات ، ثم تخـرجُ من الكبد لتـذهبَ أخيراً إلى الـدورة الدموية .

بهذا الشكل إذن ، يمرُّ كلُّ شيء بالدورة الدموية .

والغَدَدُ الثديِيَّـة هي التي تُفرزُ مكـوِّنات اللَّبن . وتتغـذَّى هذه الغـدد بمنْتَجَاتِ هضْمِ الأغذية التي تأتي إليها بواسطةِ الدم الدائر .

الدَّمُ إذنْ يلعبُ دورَ المحصِّل والناقِل للمـوادِّ المستخرَجَـة من الأغذيـة ، وهو يغذّي الغدَدَ الثديية منتجةَ اللَّبن ، مثلَما يغذّي أيَّ عضو آخر .

كلُّ شيءٍ يحدثُ هنـا إذن ، ابتداءً من مـواجهة محتـوى الأمعاءِ مـع الدم في الجدارِ الأمْعَائِيِّ نفسه .

هذه المعلومةُ المحدَّدة تُعَدُّ اليوم من مكتَسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضْم . وكانت غيرَ معروفة مطْلَقاً في عصر محمد ﷺ إذ أَنَّ معرفتَها ترجع إلى العصر الحديث . أما اكتشافُ الدورة الدموية فهو من عمل « هارفي » بعد عشْرَةِ قرون تقريباً من تنزيل القرآن .

إني أعتقدُ أنَّ وجودَ الآية القرآنيـة التي تشيرُ إلى تلك المعلومـات ، لا يمكن تفسيرُه وضعياً ، وذلك بالنظر إلى بُعْدِ العصر الذي صيغت فيه هذه المعلومات[1] .

٥ ـ التناسل الإنساني :

يتحدث القرآنُ في مواضعَ عديدة عن التناسلِ الإنساني ، ويصفُ مراحلَه بدقَّةٍ وتحديد ، ويعبِّرُ عنها بعباراتٍ بسيطة ، يسهُلُ على فهمِ الإنسان إدراكُها ، وليس فيها أيُّ خطأ أو تناقضٍ مع العلم الحديث .

وحديثُ القرآنِ عن ذلك التناسل فوقَ مستوى السابقين العلمي ، لأن مـراحلَ التناسل معَقَّدَة ، تحتاجُ إلى إلمامٍ بعلم التشريح والأجنَّة والولادة ووظائفِ الأعضاء ، وإلى استخدامِ المجهر الدقيق . وهي أمورٌ لم تتحقَّق إلاَّ في العصر الحديث .

وحتى ندركَ حديثَ القرآن عن التناسل الإنساني ، ونعرفَ المراد منـه بدقّـة ، نرى أنهُ من « الأهمية الكبرى اقترانُ المعارفِ اللغوية والمعارفِ العلمية » حول ذلك الأمر[2] .

أ ـ الاخصابُ بكميةٍ ضئيلة جداً من السائل المخصِّب :

يقـرر القرآنُ أن الله خلق الإنسـان من نـطفـة : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُدى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ؟** ﴾ [سورة القيامة : ٣٦ ـ ٣٧] .

والنُّطفة : من فعل « نَطَفَ » بمعنى « سال » وتُستخدم في الإشارة إلى ما يمكنُ أن يتبقى في دلوٍ بعد تفريغهِ من الماء ، فهي تشيرُ إلى كميةٍ من سائلٍ ضئيلة جداً ، وهذا ما يقرره العلم الحديث[3] .

(١) المرجع السابق : ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .
(٢) المرجع السابق : ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .
(٣) المرجع السابق : ٢٢٧ ـ ٢٢٨

ب ـ طبيعةُ السائل المخصِّب وعناصره :

ذكرَ القرآنُ للسائل المخصِّب أوصافاً تستحقُّ الدراسة :

١ ـ هو مَنِيٌّ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ﴾ [سورة القيامة : ٣٧] .

٢ ـ هو ماءٌ دافقٌ ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [سورة الطارق : ٦] .

٣ ـ هو ماء مَهين ، واعتُبر مَهيناً لا لذاتِه بل لخروجه من نهاية الجهاز البولي ، وسيْره في الطريق الذي يخرج منه البول : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [سورة المرسلات : ٢٠] .

٤ ـ هو أمشاج ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ، نَبْتَلِيه ﴾ [الإنسان : ٢] .

والأمشاجُ هي المخاليط .

كان السابقون يرونَ أن المقصودَ بالأمشاج اختلاطُ عنصرِ الذكَر بعنصرِ الأنثى ، واجتماعُ الحيوانِ المنويِّ مع البويضة .

ولكنَّ كلمة « أمشاج » لها معنى أبعدَ وأعمقَ وأهمّ ، تشيرُ له معلوماتُ الإنسان المعاصِرة عن فسيولوجيا الإخصاب وظروفِه البيولوجية .

إن الكلمةَ تشيرُ إلى عناصر « المَنِيِّ » المختلفة ، لأنَّ المنيَّ يتشكَّلُ من إفرازات مختلفةٍ تأتي من الغددِ التالية :

١ ـ الخصيتان : حيثُ يحتوي إفرازُ الغدَّة التناسلية للذَّكَر على الحيوانات المنوية ، وهي خلايا مستطيلة مزوَّدة بهَدَب طويل ، وتسبحُ في سائل .

٢ ـ الحوَيْصلات المنوية : حيث تُخزَّنُ الحيوانات المنوية ، وتقعُ على مقربة من « البروسْتاتا » وتفرزُ إفرازاً خاصاً ، لكنه لا يحتوي على عناصِر مخصِّبة .

٣ ـ البروسْتاتا : وتفرزُ سائلاً يُعطي للسائل المنوي قِوامَه الغليظ ، ورائحتَه الخاصة .

٤ ـ الغددُ الملحَقَة بالمسالك البولية : وهي الغددُ المعروفة باسم « كوبر » و

« ميري » وتفرزُ سائلاً جارياً . وغدد « ليتري » وتفرز المخاط .

هـذه الإفرازاتُ المختلطة من تلك الغـدد المختلفة ، والتي تـرافقُ المنيَّ في سيره ، هي التي تشيرُ لها كلمة « أمشـاج » وهي خاصـةٌ بمنيِّ الرجـل ، ولم يَكشفْ عنها العلمُ إلَّا حديثاً(١) !!

جـ ـ معنى « السُّلالة » في السائلِ المخصِّب :

يلفتُ القـرآنُ نظرَنـا إلى أن التناسـلَ الإنساني لا يتحقَّقُ بكـلِّ كميـةِ السـائـل المخصِّب الـذي تعرَّفْنـا على عناصـره المختلطة المختلفة ، وإنمـا يتحقَّقُ التناسـلُ بسلالةٍ منه : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [سورة السجدة : ٨] .

والسُّـلالة : كلمـةٌ تدلُّ على شيءٍ مستخـرَج ـ أو خـرَجَ ـ من شيءٍ آخـر . أو أحسنِ جزءٍ من شيء . والمقصودُ هو الجزءُ من الكل .

إن مـا يتسبَّبُ في إخصابِ البـويضـة ، ويكفـلُ التنـاسـل هـو خلِيَّةٌ شـديـدةُ الاستطالة ، يقاسُ طولُها بمقياس ٢ : ٠٠٠و١٠ ملم .

يحتوي السنتمترِ المكعَّبُ من السـائل المنـوي الذي يقـذفه رجـلٌ طبيعيٌّ في ظروف عادية على خمسةٍ وعشـرين مليونـاً (٢٥ مليون) من الحيـوانات المنـوية !! وعنصرٌ واحدٌ فقط من هذه الملايـين الخمسةِ والعشرين هو الذي يصلُ إلى البويضة في الرحم ويلقِّحُها ، وتبقى تلك الملايـين في الطريق عند المهبلِ وتجويفِ الرحم والبوق « قناة فالوب » .

وكلمةُ « سُلالَة » في الآية تشيرُ إلى هذا الحيوان المنويِّ الواحد ، المتناهي في الصِّغَر ، المعقَّدِ التـركيب ، المتفوِّقِ السـرعة والنشـاط ، المختارِ من بين المـلايين الخمسة والعشرين ، ليلقِّح البويضة ، وبه يخلقُ الله الإنسان !

فكيف لا ندهشُ أمامَ هـذا الاتفاقِ بين الحقيقـةِ القرآنيـةِ المتَّفقة مـع أحداثِ المعارف العلمية المعاصرة(٢) !

---

(١) المرجع السابق : ٢٢٨ ـ ٢٢٩

(٢) المرجع السابق : ٢٣٠

د ـ العلقة وتعشُّشُ البويضة في رحم الأم :

بعد إخصابِ الحيوان المنوي للبويضة ، تتحولُ من نطفةٍ مع بويضة إلى « عَلَقَة » وتعشُّشُ البويضةُ « العلقة » في جدار الرحم .

وهذه العلقةُ تتعلَّق في الرَّحِمِ كما لو كانت بُذُوراً تضربُ في الأرض ، وتنهلُ منه ما يلزم لنموِّ الجنين . ومعرفةُ هذه الحقيقة العلمية لم تتمّ إلَّا في العصر الحديث .

وقد أشارَ القرآن إلى هذه الحقيقة في أوَّلِ آياتٍ نزلتْ منه ! قال تعالى : ﴿ **إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق . خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَق** ﴾ [سورة العلق : ١ ـ ٢] .

وكلمةُ « عَلَق » تشيرُ إلى ما يَعْلَق . أي يتشبَّثُ بشيء .

وقد أخطأ مفسِّرون سابقون عندما فسروا « العَلَق » بجَلْطة الدم ، وهو معنى غيرُ صحيح . فالإنسان لا يمرُّ مطلَقاً بمرحلَة جَلْطة الدم . كذلك أخطأ من فسَّروها بالْتِصاق العَلَقة بالرحم .

إن المعنى الدقيقَ لكلمة « عَلَق » هو شيءٌ يَعْلَق ويتشبَّث . وهذا هو المعنى المتَّفِقُ مع أحدثِ معطياتِ العلم الحديث[1] .

هـ ـ تطور الجنين في الرحم :

يصف القرآنُ تطوُّرَ الجنين في رحَمِ أمّه وصْفاً دقيقاً ، ويبيِّن المراحل التي يمرُّ بها ، في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِين . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِين . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَة ، فَخَلَقْنَا العَلَقَة مُضْغَة ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحماً . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخر . فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقين** ﴾ [سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

فهو بعد العلقة مضغةٌ . والمضغةُ هي ما يُشْبِهُ اللحمَ النَّضِرِ الممضوغ : ﴿ **فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَة** ﴾ .

---

(١) المرجع السابق : ٢٣٠ ـ ٢٣١

ويتطوّرُ الهيكلُ العظميُّ، في هذه الكتْلَة «المضْغَة» ﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً﴾ .

وبَعدَ أن تُشكّل العظام تتغطّى بالعضلات وتُكْسى باللحم ﴿ فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ﴾ .

وعندما يكونُ الجَنين مضغةً تكونُ بعضُ أجزائه متناسبةً مع ما سيكون عليه الفرد في المستقبل ، على حين تكونُ أجزاءُ أخرى منه غيرَ متناسبة . وحول هذا يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ ، فَإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُراب ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَة ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَة ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [سورة الحج : ٥] .

إنَّ هذا البيان القرآنيَّ الدقيقَ لمراحلِ تطوُّر الجنين في الرَّحِم ، يتَّفِقُ مع أحدثِ المقرَّراتِ العلمية المعاصَرة .

وهذا البيانُ فوقَ مستوى العرب العلمي ، بل فوقَ مستوى العالمِ العلمي في عصر التنزيل ، وبعدَه بعدَّةِ قرون .

لم يكن الناسُ المعاصرونَ لنزول القرآن على علمٍ بتلكَ الحقائق العلمية القرآنية عن مراحلِ تطوُّر الجنين في الرحم . وليس هناكَ أدنى شكٍّ في أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا في ذلك العصر تفسيرَ تلك الآيات القرآنية مثلَما ندركُهُ نحن اليوم . لأن معطياتِ المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره .

والواقعُ أن العلماء المتخصِّصين لم يكتسبوا معرفةً واضحةً عن هذا الموضوع إلّا خلاَلَ القرن التاسع عشر .

لقد وقعَ العالَم في القرونِ الماضية في أخطاءَ كثيرة عن الإخصابِ وتطوُّر الجنين في الرحم . وقال علماء غربيون أقوالاً خاطئةً غريبة عن ذلك . مثل « هارفي » و « بوفون » و « بوني » .

وبينما كانت المعتقداتُ الوهمِيَّةُ تسودُ في الأوساط العلمية ، ويعتنقُها أخصائيّون علماءُ في القرن الثامن عشر ، كان القرآنُ قد قرَّرَ بتحديدٍ ووضوح هذا الأمر ، قبل أكثرَ من ألف عام .

إن مقولاتِ القرآن عن التناسل البشري ، تعبِّرُ في ألفاظٍ بسيطة ، عن حقائقَ علمية أُولى ، أنفقتْ البشريةُ مئاتِ السنين لمعرفتها بعد نزول القرآن .

ولا يمكنُ لبشرٍ أن يَعرف ذلك وقْتَ نزول القرآن . فالقرآن إذن هو كلام الله[1] .

و ـ « الظلماتُ الثلاث » فوق مستوانا العلمي :

أشارَ القرآنُ إلى الوَسَطِ والجوِّ الذي يتمُّ فيه تطوُّر الجنين في الرحم ، وأنه يتطوَّر خلْقاً من بعدِ خلق في ظلمات ثلاث : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِي ظُلُماتٍ ثَلَاث** ﴾ [سورة الزمر : ٦] .

فما هو المرادُ بالظلماتِ الثلاث التي يتطوَّرُ فيها الجنين ؟ لم يستطعْ السابقونَ تحديدَ المراد بها ، ولذلك جاءَتْ هذه الحقيقةُ القرآنية فوقَ مستوى السابقين العلمي ، في كلِّ العصور السابقة على عصرنا !

بل إن هذه الآية فوقَ مستوانا العلميِّ المعاصر ، الذي وصلَ في تقدُّمه مرحلةً بعيدة !!

إن « الظلماتِ الثلاث » تتطلبُ تفسيراً عسيراً جداً .

لقد رأى المفسِّرونَ المُحْدَثون في هذه الآية الثلاثةَ المستويات التي تَحمي الطفلَ في أثناءِ الحمل ، وهي : جِدارُ البطنِ ، والرَّحِم نفسه ، وأغشيةُ الجنين الثلاثة ، وهي : المشيمة، والأغلفة الرَّقيقة ، والسائلُ الأمنيوسي .

وأرى من واجبي أن أذكُرَ هذه الآيةَ حتى أحيطَ القارىء بكلِّ جوانب الموضوع . ولا أظنُّ أن التفسيرَ المعطىٰ هنا قابلٌ للجدل من وجهة نظر علم التشريح .

ولكنَّ السؤال هو : أهذا هو بالفِعْل ما يريدُ النص القرآني أن يقول . . ؟ »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٣٢ ـ ٢٣٤

(٢) المرجع السابق : ٢٣١ ـ ٢٣٢ حاشية .

خلاصة دراسة بوكاي :

سبقَ أن أشرنا إلى موضوعِ دراسةِ الدكتور المهتدي « موريس بوكاي » « الكتب المقدَّسَة على ضوءِ المعارف الحديثة » .

وكان حديثُه عن حفظِ القرآن وعدمِ تحريفهِ أو تغييره وتبديله ، وعن صدْقِ مضامينِ آياتِهِ تاريخياً وعلمياً . بعكس مضامين التوراة والإنجيل ، التي أثبتَ بوكاي بأدلةٍ موضوعيَّةٍ عدمَ اتفاقِها مع التاريخ ، وتناقُضِها مع العلم الحديث .

تكلَّمْنا عن « الإعجاز التاريخي » المتمثل في الصدق التاريخي للآيات القرآنية التي تتحدثُ عن القصص الماضي ، أو « الغيب الماضي » .

وتكلَّمْنا عن « الإعجاز العلمي » المتمثِّل في المضامين العلمية للآيات القرآنية ، التي كانتْ فوق مستوى الناس العلمي في القرون الماضية كلِّها ، ولم يكتشف الناسُ أبعادَها إلَّا في العصر الحديث ، ولا تتناقضُ واحدةٌ من تلك الآيات مع مقرَّرات ومُعطيات العلم الحديث !

لقد عرَض « بوكاي » في دراستِهِ العلمية الرائعة ، خمسةَ مجالات تجلّى فيها « الإعجازُ العلمي » ولخَّصْنا كلامَه عنها في الصفحات السابقة . والمجالاتُ التي عَرَضَها هي : خلقُ السموات والأرض ، علمُ الفَلَك في القرآن ، الأرضُ ، عالمُ النبات والحيوان ، التناسلُ الإنساني .

وفي خاتمةِ دراسة بوكاي القيّمة ، أورد خلاصةً موجَزة لها :

١ ـ نصوصُ التوراة والإنجيل لا تستقيمُ مع الواقع المعاصر .

٢ ـ يتكوَّنُ العهدُ القديم « التوراة » من مجموعةٍ من المؤلَّفات الأدبية ، ضمَّتْ مجموعةً متنافرةً جداً من النصوص ، عَدَّلَ البشرُ عناصرَها ، وأضافوا أجزاءً لها ، وصار التعرفُ على مصادرِها أمراً عسيراً جداً .

٣ ـ لم تُكتبْ الأناجيلُ بأقلامِ شهودٍ معاينين لأحداثِ المسيح عليه السلام ، بل كانتْ تعبيراً عن الطوائفِ اليهودية المسيحية المختلفة .

٤ ـ النتيجةُ الحتميَّةُ لتعدُّدِ مصادر الأناجيل هو التناقضاتُ والمتعارضات فيما بينها ، وعدمُ صحة كثير من الأمور والروايات فيها .

٥ ـ تتناقض مقرَّراتٌ في العهد القديم والعهد الجديد « التوراة والإنجيل » مع مقرراتِ العلم الحديث .

٦ ـ دهشةُ المسيحيين المعاصرين إزاءَ تناقضِ الإنجيل مع العلم الحديث ، وجهودُ القساوسة والمعلِّقين الرسميين في إخفاءِ ذلك التناقض الذي يتضحُ حتى للعين المجرَّدة، وتلك الجهودُ العميقة المستمرة تدخُل ضمن بهلوانياتٍ جدلِيّة حاذقةٍ غارقةٍ في الرومانسية المديحية .

٧ ـ أما القرآن ، فقد كُتِبَ كاملاً في حياةِ رسول الله ﷺ بالإضافة إلى العديد من الصحابة الذين كانوا ماهِرين في حفظه عن ظهر قلب . فحِفْظُ القرآن من التحريف والتبديل حقيقةٌ تاريخية بدهية .

٨ ـ آياتُ القرآن تخلو من التناقضاتِ في رواياتها ومضامينها . .

٩ ـ التوافقُ التامُّ بين تقريرات القرآن العلمية ، وبين مقرَّرات ومعطيات العلم الحديث .

١٠ ـ يكتشفُ القارىء في القرآن مقولاتٍ ذاتِ طابعٍ علمي ، من المستحيل تصوُّرُ أن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلِّفها .

١١ ـ المعارفُ العلمية الحديثة تسمحُ بفهْمِ بعضِ الآيات القرآنية ، التي كانتْ بلا تفسيرٍ صحيح حتى الآن .

١٢ ـ مقارنةُ عديدٍ من روايات التوراة مع روايات نفسِ الموضوعات في القرآن ، تبرزُ الفروقَ الأساسيةَ بين دعاوى التوراة غيرِ المقبولة علميّاً ، وبينَ مقولات القرآنِ التي تتوافقُ تماماً مع العلم الحديث . .

١٣ ـ وجودُ الفروق الجوهرية بين رواياتِ القرآن ورواياتِ التوراة ، يَدْحَضُ كلَّ ادعاءٍ باطل يوردُه المغرضون عن أخْذِ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ القرآنَ من التوراة نفسها !

١٤ ـ الفروقُ بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، تدلُّ على اختلافهما في المصدر ، فالقرآنُ كلام الله ، والحديثُ كلام الرسول البشر عليه الصلاة والسلام .

ويختمُ الدكتور موريس بوكاي خلاصَته ودراستَه بهذه الفقرة الصريحة :

« ولا يستطيعُ الإنسانُ تصوُّرُ أنَّ كثيراً من المقولاتِ ذاتِ السمة العلمية ، كانتْ من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارفِ في عصر محمد ﷺ .

لذا فَمِنَ المشروع تماماً أن يُنْظَرَ إلى القرآن على أنه تعبيرُ الوحي من الله . وأن تُعطىٰ له مكانةٌ خاصة جداً ، حيث أنَّ صَحَّتَه أمرٌ لا يمكن الشكُّ فيه ، وحيثُ أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسةِ في عصرنا تبدو كأنَّها تتحدَّى أيَّ تفسيرٍ وضْعي ! .

عقيمةٌ حقَاً المحاولاتُ التي تسعى لإيجادِ تفسيرٍ للقرآن بالاعتمادِ فقطْ على الاعتبارات الماديَّة »[1]

« الشيخ الشعراوي والإعجاز العلمي »

كلامُ الشعراوي في التفسير والإعجاز :

الشيخ محمد متولِّي الشعراوي عالمٌ جليل ، ومتحدِّثٌ مؤثِّر ، ومتكلمٌ فصيح ، وداعيةٌ ناجح . وله جهودٌ واضحة في نشر العلم وتفسير القرآن ، ويُعجبُ بدروسِهِ وأفكارِهِ ونظراتِه الملايينُ من المسلمين .

بدأ الشيخُ الشعراوي كلامَه حولَ التفسير في منتصفِ السبعينيات ، وأُعجبَ به السامعون منذُ اليوم الأول لظهورِهِ .

وله العديدُ من الأشرطة في التفسير ، وتَعرضُ له محطاتُ الإذاعة والتلفزيون في الدولِ العربية كثيراً من دروسه في التفسير .

وانتشرتْ كتُبه في بلاد العرب والمسلمين ، وطُبعتْ عدةُ طبعات منها . لكن

---

(١) المرجع السابق : ٢٨٤ ـ ٢٨٦

معظمَ تلك الكتبِ لم يكتبْها الشعراويُّ بقلمه ، ولم يُصغْها في كتاب ، وإنما أصلُها دروسه ومحاضراته مسجلة على أشرطة ، فجاء ناشرون وفرَّغوا الأشرطة في تلك الكتب .

لكنَّه ألَّف كتاباً بقلمه ، هو أجودُ الكتب المطبوعة له ، وهو كتاب « معجزة القرآن » فرغم أنَّ أصْلَ الكتاب محاضراتٌ ألقاها الشيخ ، إلَّا أنه هو الذي تولى كتابته بيده . فهو أصدقُ كتبه نسبةً إليه .

وقد عرضَ الشعراويُّ في كتابه « معجزة القرآن » رأيَه في المعجزة والتحدِّي والإعجاز ، وقدَّم نماذج لآيات قرآنيةٍ معجزة ، وحلَّلها تحليلاً لطيفاً طيِّباً . فرغمَ أن هذه النماذج التي قدَّمها أوردَها غيرُه من الباحثين القدماءِ والمعاصرين ، إلَّا أن تحليله لها تميَّزَ بحسْنِ العرضِ ، وسهولةِ التحليل ، وقوةِ الحجة والإقناع .

رأيُهُ في المعجزة :

يرى الشيخ الشعراويُّ أنَّ المعجزةَ هي خرقٌ لنواميس الكون وسننه ، يعطيها الله لأنبيائه ورسله ، تأييداً لهم وتثبيتاً .

وتكونُ معجزةُ كلِّ نبي متوافقة ـ في الظاهر ـ مع ما مَهَرَ فيه قومُه ونبغوا فيه ، وذلك ليصحَّ تحديهم بها(١) .

وهو يرى أن التحديَ ليس شرطاً في المعجزة . لأن المعجزاتِ في رأيه نوعان :

الأول : معجزاتٌ مقرونةٌ بالتحدي ، وهي تلك التي خاطب بها الأنبياءُ أقوامَهم الكافرين ، أو أجراها الله لهم في جو الصِّراع بينهم وبين الكافرين . ويمثِّل لهذا النوع من المعجزاتِ بنجاةِ إبراهيم عليه السلام من النار . وبعصا موسى عليه السلام أمام فرعون ثم أمام السحرة . وبالإعجاز البلاغي للقرآن الذي تحدّى به رسول الله ﷺ الكفار(٢) .

---

(١) معجزة القرآن : ٥

(٢) المرجع السابق ٦ . وانظره من ٧ ـ ١١ .

الثاني : معجزاتٌ ليس فيهـا تحدٍّ ، وليستْ مقـرونة بـالتحـدي ، وهي تلك المعجزاتُ التي أجراها الله على يدِ رسوله تثبيتاً له ومواساة ، أو إكـراماً لـه ولأتْباعـه المؤمنين به .

ويمثّل لهذا النوع من المعجزات بخلْق عيسى بن مريم عليه السلام ، لأن الله لم يتحدَّ بخلقه أحداً . وإنما أُجرى هذه المعجزة ، ليبيِّن طلاقـةَ المشيئة الإلَهيـة ، وأنها غيرُ محكومةٍ بقانون الأسباب والمسببات .

ويرى أن شقَّ البحر لمـوسى عليه السـلام ، وانفلاقَـه فِلقتين متقابلتَيْن بعـدما ضَربَهَ بعصاه ، من هذا النوع (١) .

معجزة القرآن مستمرة :

أجرى الشعراويُّ مقارنةً بين معجزةِ القرآن ، وبين المعجزات السابقة ، وبيَّن الفروقَ التي بينَهما. ومن الفروق التي لاحَظَها :

١ ـ المعجزاتُ السابقة كونيةٌ خارقة لنواميس الكونِ ومظاهره بعكس القرآن .

٢ ـ المعجزاتُ السابقةُ أثرُها موقوتٌ خاصٌّ بمن شاهدها ، بينما القرآن معجزتُه مستمرة ، يؤثّر في الناس حتى قيام الساعة .

٣ ـ المعجزاتُ السابقة تُعتبرُ من أفعـال الله ، وفعلُ الله من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعلَه الله . أما القـرآنُ فهو من صِفـات الله ـ لأن القرآن كـلام الله ، والكلام صفة ملازمة لله ـ وصفاتُ الله لا تنتهي ، لأنها باقيةٌ ببقاء الله . ولذلك القرآن معجزة مستمرة(٢) .

٤ ـ القرآنُ به عطاءٌ لكل جيل يختلف عن عطائِه للجيل السابق .

٥ ـ القرآنُ للعالمين جميعاً ، وليس لقوم محدودين .

٦ ـ القرآن يحوي الحقائقَ الأساسية في الكون كله .

---

(١) انظر المرجع السابق : ١٣ ـ ١٧

(٢) المرجع السابق : ١٨ ـ ١٩

٧ ـ القرآن يعبِّر عن حقائقِ الكون بألفاظٍ واضحة تنسجم مع قدرةِ العقول واستيعابِها على اختلافِ الزمان والمكان والعلم والموهبة .

٨ ـ القرآنُ يعطيَ كلَّ عقل ما يتفقُ مع مستواه وحجمه .

٩ ـ الله تولّى حفظ القرآن بذاته ـ سبحانه ـ ولهذا بقي محفوظاً وسيبقى محفوظاً حتى قيام الساعة . بينما أوْكَلَ الله للسابقين حفظَ كتبِهِ لهم ـ مثل التوراة والإنجيل ـ ففرَّطوا فيها وحرَّفوها[١] .

إعجاز القرآن متجدد :

يرى الشيخ الشعراوي أن إعجاز القرآن مستمرٌّ ومتجدِّد ، وأن المستقبلَ يضيفُ أبعاداً جديدة لمعاني الآيات ، وأن الإنسانَ كلَّما تقدَّم في العلوم والمعارف كلَّما أدرك الإعجاز القرآني بصورة أوضح .

« وفي القرآن إعجازٌ لا يتنبَّه إليه العقلُ إلَّا بعدَ أن ينشط ، ويكشفَ المستور عنه من حقائقِ الكون وأسراره . . حينئذٍ يتبيَّن أنَّ للقرآن وجوهَ إعجازٍ أخرى ، أو جديدة ، تزيدُ في معنى الإعجاز . . أو تُعطي أبعاداً جَديدة لما يقال . . بل إن إعجازَ القرآن موجودٌ أحياناً في حرْف . . حرفٌ من القرآن يحملُ إعجازاً رهيباً .

إنَّ للقرآنِ عطاءً لكلِّ جيلٍ يختلف عن عطائه للجيلِ السابق . . ذلك أن القرآن للعالمين . .

وإلَّا لَوْ أفرغَ القرآنُ عطاءَه الإعجازيَّ في قرْنٍ من الزمان مَثَلًا ، لاستقبلَ القرونَ الأولى بلا عطاء . . وبذلك يكون قد جَمد . . والقرآن متجدِّد لا يجمد أبداً »[٢] .

وأبرزُ ما يكون التجدد في الإعجاز وضوحاً ، في الآياتِ القرآنية ذاتِ المضامينِ العلميَّة ، والتي تتعلَّق بحقائق الكون الأساسية :

« إن الآياتِ التي تتناولُ هذه الأشياء ، مرَّ الرسول ﷺ عليها مروراً ، وتَرَك للعقل في كل جيل أن يأخذ قدْرَ حجمه . .

---

(١) انظر المرجع السابق : ٣٣

(٢) المرجع السابق : ٢١ باختصار . وانظره في ٨٧ ـ ٨٨

والمعجزة هنا في القرآن أنه يَعطيَ كلَّ عقْلٍ قدر حجمه .. ويعطي كلَّ عقل ما يعجبُه ويُرضيه .. فترى غيرَ المتعلِّم يطربُ للقرآن ويجدُ فيه ما يرضيه .. ونصفُ المتعلم يجدُ في القرآن ما يُرضيه .. والمتبحِّر في العلم يجدُ في القرآن إعجازاً يرضيه ... »[1] .

ويرى الشعراوي أن هذه السمةَ المتفردةَ في القرآن ، تعتبرُ وجهاً من وجوه إعجازه : « هذه واحدةٌ من إعجازِ القرآن الكريم .. إنه يقدِّم المعنى لكلِّ نفس باستخدام الآيات والألفاظ التي تؤدي إلى المعنى .. فإذا كشفَ الله للبشر عن سرٍ من أسرارِ كونه ، ورجعْنا إلى الآية نجدُها تؤدي نفسَ المعنى .. »[1] .

كلامه عن ثلاثة وجوه للإعجاز :

تكلم الشعراوي عن ثلاثة وجوه للإعجاز ، وعَرَضَ لها نماذجَ من الآيات ، وحلَّلها تحليلاً لطيفاً طيباً .

والوجوهُ التي عرضها هي :

١ ـ الإعجاز البلاغي .

٢ ـ الإعجاز العلمي .

٣ ـ الإعجاز النفسي .

أ ـ الإعجاز البلاغي :

أشار إلى المعجزةِ اللغوية في القرآن الكريم ، وعَرَض مظهراً من مظاهرها وهو « الحروفُ في القرآن » . هذه الحروفُ القرآنية معجزة مع أنَّ الذي تلاها عليهم هو رسولُ الله ﷺ وهو رجُلٌ أمي ، ومعلوم أن « الإنسان الأميَّ قد ينطقَ بالكلمات . وقد ينظِّمُ الشعر والنثر والسجع .. ولكنه لا يستطيعُ أبداً أن يأتيَ بالحروف التي تتكوَّن منها الكلمات ..

ومن هنا كانت الحروفُ القرآنية : ألف . لام . ميم . كاف . ها . يا . عين صاد . إمعاناً في الإعجاز والتحدّي .. محمدٌ نبيٌّ أميٌّ . لا يمكنُ أن يعرف أسماءَ هذه

(١) المرجع السابق : ٢٨

الحروف أبداً . ولكنه جاءَ بأسماءِ هذه الحروف . . إثْباتاً بأنّ هذا ليس كلامَ محمد ﷺ . . »[1] .

لقد استخدم القرآنُ نفس الحروفِ والألفاظِ التي يستخدمها البشر ، ولكنْ في أسلوبٍ ومعانٍ يعجزُ عنها البشر .

وهذا إعجازٌ وتحدٍّ . إن مادة القرآن ليستْ من جنسٍ أعلى من مادة البشر . . بل هي من جنس كلام البشر . . الحروفُ هي الحروف . . والكلماتُ التي ينطقونَ بها هي نفسُ الكلمات المستخدمة . . وجاءَ بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهلِ والمتعلِّم . . ومسمَّياتٍ يستطيعُ أن ينطق بها المتعلم وحده . . [2] .

دقةُ اللفظِ والتعبير في القرآن :

يرى الشعراوي ـ ومعه الحقُّ فيما رآه ـ أنَّ ألفاظَ وعباراتِ القرآن دقيقةٌ غايةَ الدقةِ ، وأن كلَّ لفظٍ مختارٍ في العبارة القرآنية اختياراً خاصاً معجزاً ، وأنه لا يُغني عنه غيرُه . فلا حروفَ زائدة ، ولا كلمات مترادفة : « كلامُ الله سبحانه وتعالى يجب أن يكونَ في غاية الدقة . . بحيث يعبِّر عن الشيء تعبيراً كاملاً . فلا تجدُ حَرْفاً زائداً بلا معنى . . ولا كلمةً مترادفة . . إلى آخر ما يقالُ عن القرآن الكريم . . »[3] .

١ ـ ﴿ قُلْ سيروا في الأرض ﴾ :

وكمظهرٍ لدقةِ اختيارِ حروفِ وألفاظِ القرآن ، عرضَ الحكمةَ من التعبير بحرف « في » وذلكِ في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ سيروا في الأَرْضِ ، ثُمَّ انْظُروا كَيْفَ كان عاقِبَةُ المُكَذِّبين** ﴾ [سورة الأنعام : ١١] .

لماذا قال : سيروا في الأرض ، ولم يقل : سيروا على الأرض ؟ مع أنَّنا نسكن على الأرض ، ونسير عليها . .

إن حرف « في » يدل على « الظرفية » لأن الأرضَ ظرفُ المشي والسير . إن

(١) المرجع السابق : ٤٢

(٢) المرجع السابق : ٤٣ ـ ٤٤

(٣) المرجع السابق : ٤٥

الأرضَ التي أمرتنا الآيةُ بالسير فيها ، ليستْ هي الأرضُ بمفهومها الماديِّ فقط . أيْ ليست هي الكرةُ الأرضية بما فيها من ماءٍ ويابسة . . « ولكنَّ الأرض هي بغلافها الجويّ . فالغلافُ الجوي جزْءٌ من الأرض يدور معها ويلازمها ، ومكمل للحياة عليها .

الإنسانُ المعاصر عندما يطيرُ في الجو على ارتفاع ثلاثين ألْفَ قدم ، يكون قد طارَ في الأرض ، وليسَ خارجاً عن الأرض . فما دامَ في الغلافِ الجوي فهو في الأرض .

وهنا نعرفُ الحكمةَ من التعبيرِ بكلمة « في » دونَ كلمة « عَلى » فأنت عندما تطير في الجو فإنك « في الحقيقة تسيرُ في الأرض . . وليسَ على الأرض ، هذه حقيقةٌ علميةٌ لم يكن يدركُها العالَم وقت نزول القرآن . .

إنَّ الإنسانَ الذي يطيرُ في الجو يسيرُ في الأرض ، ولكنه لا يسيرُ على الأرض . إنه يسيرُ فيها ، بيْن غلافِها الجوي وبيْنَ سطحها . أي يسيرُ في وسطها ، بيْنَ غلافِها الجوي الذي هو جزءٌ منها ، وبين اليابسة التي هي جزء آخر . . .

وهكذا نجد دقةَ التعبير في القرآن في حرف . . ونجدُ معجزةَ القرآن في حرف[1] . .

٢ ـ الصبر : ﴿من عزم الأمور﴾ أو ﴿لَمِنْ عَزْمِ الأمور﴾ :

نعرضُ نموذَجاً آخر عرَضه الشعراوي لدقَّة اللفظِ في القرآن ، ومنْع الزيادةِ والترادفِ في حروفِه وكلماته .

قال تعالى بِشأن وصيةِ لقمان لابنه : **﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أصابك . . إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾** [لقمان : ١٧] .

وقال في موطنِ آخر يحثُّ على الصبر : **﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأولئِكَ ما**

---

(١) المرجع السابق : ٤٥ ـ ٤٦

عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيل . إنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَليم . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾
[سورة الشورى : ٤١ ـ ٤٣] .

والسؤال هو : لماذا زيدتْ « لامُ المزحلقة » في الآية الثانية : **﴿ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾** ؟

بعضُهم يكتفي بالقَولِ إنَّها للتأكيد . ولا يرى فَرْقاً بين « من عزم الأمور » وبين « لِمَنْ عَزِم الأمور » . فيعتبرُ الكلمتيْن مترادفتيْن . .

« ولكن المسلمَ حين يدقِّقُ في معاني القرآن ، يجدُ أن كلَّ حرف من القرآن قد تمَّ وضْعُه بحكمةٍ بالغة . . وأنه لا شيء اسمُه مترادفات . . وإنما لكل لفظٍ معنى يؤديه ، ولا يؤديه اللفظ الآخر » .

السياق في الآيتيْن هو الصبرُ على ما يصيب الإنسان في حياته . والذي يصيبُ الإنسانَ نوعان :

النوع الأول : مصائبُ ليس فيها غريم ، مثلُ المرض والجوع والألم ، وهذا النوع هيِّن لأنه لا يملك الإنسانُ ردَّه . والصبرُ على هذا النوع لا يحتاج لطاقةٍ كبيرة ليمارسَه الإنسان ويقومَ به . وهذا النوعُ هو الذي أشارتْ له الآية : **﴿ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابكَ . إنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾** ولذلك لم تُذكَر فيها : « لام المزحلقة » .

النوع الثاني : مصائبُ يوقعُها بالإنسان شخصٌ آخر ، غريمٌ له ، وله رغبةٌ نفسية في الانتقام منه ، وردَّ اعتدائه . والصبرُ على هذا النوع يحتاجُ إلى طاقةٍ كبيرة ، لأنه يضْبطُ فيه نفسَه وانفعالَه ، ويستعلي على الرغبة في الانتقام . وعندها يصبرُ الإنسان ويغفر . ويعفو عن غريمه ويصفح . وهذا النوعُ هو الذي أشارتْ له الآية الثانية : **﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزمِ الأمور ﴾** ولذلك ذُكرتْ فيها : « لامُ المزحلقة » .

لقد تحدَّثَ الله عن الصبر بنوعيْه ، وأعطى كلَّ نوع منهما ما يستحقُّه من التعبير . فاللامُ ذُكرتْ في النوع الثاني « للتأكيد . لتؤكِّد المعنى . . وتؤكِّد الفرْق بين

عزْم الأمور في الحالة الأولى . وعزْم الأمور في الحالة الثانية . . وهكذا نرى أن حرْفاً واحداً في القرآن يصنَعُ معجزة »[1] .

ونكتفي بالمثالَيْنِ السابقيْنِ من كلام الشعـراوي عن الدقَّـة المعجزة ، وتحليلِه للفروق بين الألفاظ القرآنية . ونُحيلُ على النماذجِ الأخرى التي ذكرها في كتابه .

منهـا : الحكمة من ذكْر ضمير « هو » وحذفه في قولِ إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَـإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي . إلاَّ رَبَّ العـالمين . الَّذي خَلَقَنِي ، فَهُـوَ يَهْـدِينِ . وَالَّـذِي هُـوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِـينِ ﴾[2] [سورة الشعراء : ٧٧ ـ ٨١] .

ومنها : الفرْقُ بين فِعْل « سَقَاهُمْ » في قوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [سـورة الإنسان : ٢١] وفعـل « أَسْقَيْنَاهُمْ » في قـوله : ﴿ وَأَنْ لَـوِ اسْتَقَـامُـوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقا ﴾[3] [سورة الجن : ١٦] .

ومنها : الفرقُ بين « لا يعلمون » و « لا يعقلون » . في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَــوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً ولاَ يَهْتَدون ﴾ [سورة المـائدة : ١٠٤] . وفي قـوله : ﴿ أَو لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[4] [سورة البقرة : ١٧٠] .

ومنهـا : الفرقُ بين « نـرزقهُم » و « نرزقكم » في قـوله تعـالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْـلاَق . نَحْنُ نَـرْزُقُكُمْ وَإِيَّـاهُمْ ﴾ [سـورة الأنعـام : ١٥١] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاق . نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[5] [سورة الإسراء : ٣١] .

ومنهـا : الحكمةُ في وصْف الله بـالعزة والحكمـة في سياق آيـةٍ تتحـدثُ عن العذاب والمغفرة . في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُك . وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

(١) المرجع السابق : ٤٧ ـ ٤٨
(٢) أنظر المرجع السابق : ٥٠ ـ ٥١
(٣) أنظر المرجع السابق : ٥٢ ـ ٥٣
(٤) أنظر المرجع السابق : ٥٤ ـ ٥٦ .
(٥) أنظر المرجع السابق : ٥٧ ـ ٥٨

﴿أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1] [سورة المائدة : ١١٨] .

وقد ختمَ الشعراويُّ كلامَه عن الإعجاز البلاغي وعن النماذجِ القرآنية التي أوردَها ، بقوله : « القرآن مليءٌ بالإعجاز . الإعجاز والدقة في التعبير . . اللفظُ في مكانه . . فإذا تغيَّرَ عن مكانه فإنما يريدُ الله أن يَلْفِتنا إلى معنى آخر . . إلى شيء آخر . . ليس هناك مترادِفات . . وليستْ هناك ألفاظٌ لا تتسمُ بالدقة . . وليس هناكَ كلمةٌ في غير موضعها . . وإنما دقةٌ متناهية في التعبير . . دقةٌ متناهية في البلاغة »[2] .

ب ـ الإعجاز العلمي عند الشعراوي :

بدأ الشيخُ الشعراويُّ كلامَه عن الإعجاز العلمي في القرآن بالإشارة إلى استمرارِ إعجازِ القرآن وتجدُّدهِ ، ومخاطبته للناس على اختلافِ ثقافاتهم ومستوياتِهم . وإشباعه لحاجاتهم ومتطلباتهم .

وبما أن العصرَ الحديث هو عصرُ التقدم العلمي ، فلا بد أنْ يرى المعاصرون في آيات القرآن إعجازاً علمياً ، وإشاراتٍ إلى حقائقَ علمية ، كشفَ عنها العلمُ المعاصر حديثاً[3] .

القرآن والنظريات العلمية :

تحتَ هذا العنوان بيَّن الشعراوي خطورةَ وخطأَ ربْطِ القرآن بالنظريّات العلمية . وردَّ على المسلمين الذين « ينْدفعون في محاولةِ ربْط كلامِ الله بنظريّات علمية مكتَشَفَة . . يثبتُ بعد ذلك أنها غيرُ صحيحة . . وهم في اندفاعهم هذا يتّخذون خطواتٍ متسرِّعة . . ويحاولون إثباتَ القرآن بالعلم . . والقرآنُ ليس في حاجة إلى العلم ليثبت . . فالقرآنُ ليس كتابَ علم . . ولكنه كتابُ عبادة ومنهجٍ . . »[4] .

لا يجوزُ أن « نتخذَ العلم دليلاً على صحةِ القرآن . . بل إن القرآنَ هو الدليلُ

---

(١) أنظر المرجع السابق : ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) المرجع السابق : ٦٤

(٣) المرجع السابق : ٨٧ ـ ٨٨

(٤) المرجع السابق : ٨٩



الحقيقيُّ على صحةِ أو عدمِ صحة العلم . فالعلمُ الذي يتناقضُ مع القرآن كـاذبٌ وغير صحيح ».

إن مظهرَ الخطإ والخطورةِ في ربط القرآن بالنظريات العلمية غير الثابتة يتجلَّى في موقف المفسِّر ، حيث يقـع المفسِّر وقتهـا « في حرج ، عنـدما يَثبتُ كـذبُ هذه النظريّة . . فهو لا يستطيع أن يغيِّر أو يبدِّل في كلام الله . . ومن هنا يجبُ أن نتروّى ، وأن ندرسَ بإمعان ، وننتظرَ، حتى تثبتَ الحقيقةُ العلمية ثبوتَ اليقين . . »[1] .

ويعتبرُ الشيخُ الشعر وي قولَه تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ** ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] دليـلاً على الإعجازِ العلمي في القرآن ، وأنه سيكتشفهُ العلماء في المستقبل : « ويجب أن نتنبهَ هنا إلى حَرْفِ السين في كلمة ﴿ **سَنُرِيهِمْ** ﴾ لأن معنـاها المستقبـل . . والمستقبلُ هنـا لا ينتهي . بل إن عَطاءَه مستمرٌ لهذا الجيل ، والجيل الذي بعده . . إلى يوم القيامة . وأعلَمَنا اللهُ أن هناك آياتٍ وحقائقِ سيُكْشَف عنها لكل جيل . . »[2] .

لماذا لم تُفسَّـرْ الآيات العلمية ؟ :

يتساءلُ الشيخ الشعراوي عن الحكمةِ من عدم تفسير القـرآنِ لآياتِـه العلمية ، وعدم تبيينِه وتفصيلِه لهـا علميّاً ، وعـدم تفسير الـرسول عليـه الصلاة والسـلام تلكَ الآيات تفسيراً علميّاً للصحابةِ الذين عاصروا نزول القرآن .

ويجيبُ بأنَّ التفسيرَ العلميَّ لتلك الآيات لم يكُنْ ضرورياً للصحابة ، ولا لِمَنْ جاءَ بعدهم . المهمُّ لهم هو أن ينتفعوا بها . وقد تحقَّقَ لهم ذلك الإنتفاع .

وحكمةٌ أخرى من عدم التفسير العلميِّ لتلك الآيـات في ذلك العصـر، وهي أن الحقائقَ العلميَّةَ فوقَ المستوى العقلي والعلمي والثقافي للمسلمين في عصر نـزولِ القرآن ، فلا تستوعبُ عقولُهم تلكَ الحقائق العلمية .

وفي هذا العصر ، بلغَ العلم الماديُّ القمةَ في التقدُّم والرقي ، وارتفعَ مستوى

---

(١) المرجع السابق : ٩٠

(٢) المرجع السابق : ٨٩

الناس العلمي والثقافي ، وصار بإمكانِ عقولهم فهمَ واستيعابَ الحقائق العلمية التي تضمنتْها الآيات ، ولهذا صارَ الباحثون والمفسِّرون المعاصرون يقدِّمون هذه المضامين العلمية للناس ، فتنال إعجابَهم وتأثُّرهم .

ويقررُ الشعراوي في هذا المقام أنه لا يمكنُ أن يتعارضَ القرآن مع حقائقِ العلم : « ونحنُ نؤكِّد لهم أن العلمَ الحديثَ قد أثبتَ أنه لا توجَدُ حقيقةٌ كونية واحدةٌ تتصادَم مع ما جاء في القرآن . . إن القرآنَ الكريمَ لا يتصادمُ مع قوانينِ الكون . . أو معَ خلْق الكون . . ولكنَّ هذا التصادمَ المزعومَ يأتي أحياناً عن حقيقةٍ قرآنية أسيءَ تفسيرُها ، لتبدو في غير معناها الحقيقي ، أو حقيقةٍ علمية كاذبةٍ يحاولُ الناس استغلالَها ضدَّ القرآن ! »[1] .

نماذج من تحليله للآيات العلمية :

قدَّم الشيخُ الشعراوي ـ أثناء كلامِه عن الإعجاز العلمي ـ نماذجَ لآياتٍ تحوي مضامينَ وحقائقَ علميّة ، وحلَّلها تحليلاً لطيفاً ميسَّراً مفهوماً ، وعرَض لإشاراتها العلمية عرْضاً مقنِعاً .

١ ـ النسبيّة في المشارق والمغارب :

قدَّم القرآنُ الكريم ثلاثَ آيات تدلُّ على ملْكيةِ الله لهذا الكون ، وما فيه مِنْ مشارق ومغارب ، ويبدو بيْن هذه الآيات تعارُضٌ ظاهريٌ موهوم .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ، لا إِله إلاّ هُو ، فَاتَّخِذْهُ وَكيلا . ﴾ [سورة المزمل : ٩] .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْن ﴾ [سورة الرحمن : ١٧] .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارِقِ وَالمَغارِبِ إِنّا لَقادِرون عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً منهم ﴾ [سورة المعارج : ٤٠ ـ ٤١] .

---

(١) المرجع السابق : ٩١

قرنت الآياتُ بين المشرقِ وبين المغرب : « لأنه لا يوجَدُ مشرقٌ بدون مغرب . كرويةُ الأرض تحتِّم هذا »[1] .

وقالت الآيات : ربُّ المشرق والمغرب . ولم تقل : ربُّ المشرق وربُّ المغرب : لأن « الشروقَ والغروبَ يتم في وقْتٍ واحد . أي أن الشمسَ تَغربُ على بَلَدٍ في نفس الوقت الذي تُشرقُ فيه على بلد آخر »[2] .

وليس بيْنَ الآيات تعارُض ولا تناقض . فالأرضُ كلُّها بمجموعها لها مشرقٌ واحد ومغربٌ واحد ، من حيث شروقِ الشمس عليها وغروبها عنها . ولهذا قالت الآية الأولى : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ بالإفْراد .

أما الآيةُ الثانية فقد جعلتْهما اثنيْن : مشرقيْن ومغربيْن ، لأن الكرة الأرضية : « مقسَّمَةٌ إلى جزأيْن . . نصفٌ مضيء . . ونصفٌ معتم . والنصفُ المضيءُ له مشرق ومغرب . . بينما النصفُ المعتم يسبحُ في ظلام دامس . . فإذا استدارت الكرةُ تماماً يواجِه النصفُ المظلمُ الشمسَ ، والنصفُ المضيءُ يصبحُ ظلاماً . فالكرة الأرضية عموماً لها مشرقان ومغربان ! .

والآية الثالثة عبرتْ عن ذلك بالجمع : ﴿ ربُّ المشارِقِ والمغارِب ﴾ لأن علْمَ الفَلَكِ الحديث يقرر أن كلَّ دولة في العالم لَها مشارق ومغارب : « زاويةُ الشروق تتغيّر ، وزاويةُ الغروب تتغيّر . . ولكنَّ الحسَّ لا يدرك ذلك . . بل إننا إذا نظرْنا إلى الكرةِ الأرضية نجدُ أنه في كل جزءٍ من الثانية مشرقٌ تشرقُ فيه الشمس على مدينة ، وتغيبُ عن مدينة أخرى . . أيْ أن هناك ملايينَ المشرقِ والمغرب لكل بقعة من الأرض . . والمشرقُ والمغربُ للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال السنة . . »

واختلافُ المشارق والمغارب يدلُّ على : « أنَّ الأرض كروية . فلو كانتْ مسطَّحة ، كان لا بدَّ أن تطلعَ الشمسُ من مشرقٍ واحد ، وتغيبَ من مغربٍ واحد . . » .



---

(1) المرجع السابق : ٢٣

(2) المرجع السابق : ٢٤

وهذه المشارقُ والمغارب التي تقررُها الآيات تدلُّ على « النِّسْبِيَّة » في الكـون وفي الزمن : « فمثَلاً عندما أصلّي الظهرَ، هناك أناسٌ في مكان آخر يصلون العصر . . وأناسٌ في مكان ثالث يصلّون المغرب . . وأناس في مكان رابع يصلّون العشاء . . وأناس في مكان خامسٍ يصلّون الفجر . . أي أنـه في الوقت الـواحد يؤذَّن لله على ظهْرِ الأرض الظهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ والفجـرُ . . إذن فاللهُ مـذكورٌ في كـل زمن ، وبجميعِ أوقات الزمن . . »[1] .

٢ ـ كرويةُ الأرض في قوله : ﴿ والأرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ :

قال تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ [سورة قَ : ٧] والمدُّ البسطُ . ونحن نرى الأرضَ مبسوطة أمامنا .

واعتبر الشعراوي هذا المدَّ والبسطَ للأرض دليلاً على أنها كروية ، وأنَّ القرآن يشيرُ إلى كرويَّتِها ، وأن هذا من الإعجاز العلمي فيه .

ووجْهُ دلالةِ مدِّ الأرض وبسْطِها على كرويتها أنك أينما تقفُ على الأرض تراها أمامك ممـدودَةً مبسوطـة : « الأرضُ مبسوطـةٌ أمامَ البشـر جميعاً في كـل موقـع همْ موجودون فيـه . . وهذا لا يمكنُ أن يحـدثَ إلا إذا كانت الأرضُ كـروية . . فلو أنَّ الأرض مسطحَّة أو مربَّعة أو مثلَّثة أو مسدَّسة ، أو في أيِّ شكلْ من الأشكال ، لوصَلْنا فيها إلى حافَّة . . . »[2] .

٣ ـ هل الليل يسبقُ أم النهار ؟ :

قـال تعـالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهـا أَنْ تُـدْرِكَ القَمَـرَ ، وَلا اللَّيْـلُ سـابِقُ النَّهار . . وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحون ﴾ [سورة يَس : ٤٠] .

كان العربُ المعاصرون لنزول القرآن يعتقدونَ أن النهارَ لا يسبقُ الليل ، وهي حقيقةٌ صادقة سكتَ عنها القرآن .

ولكنهم كانوا يعتقدونَ أن الليلَ يسبقُ النهار . وهذه فكرةٌ خاطئة باطلة . ولذلك

---

(١) المرجع السابق : ٢٣ ـ ٢٦

(٢) المرجع السابق : ٩٢ ـ ٩٣

جاءت الآيةُ لتصحِّحها لهم ولمَنْ جاء بعدهم ، فنفتْ أن يسبقَ الليلُ النهار : « ولا الليل سابق النهار » .

وقد تضمنت الآيةُ حقيقتيْن علميتيْن ، لم يكتشفهُما الناس إلا في العصر الحديث :

الشمسُ والقمرُ لا يسبقُ أحدُهما الآخر . لأنهما يتحركان في خطيْن متوازييْن لا يلتقيان أبداً .

والليلُ والنهار لا يسبق أحدُهما الآخر أيضاً ، لأنهما في خطيْن متوازييْن .

ثم نجد في هذه الآية دليلاً آخر على كرويّة الأرض : « إذن : لا النهارُ يسبقُ الليل . . ولا الليلُ يسبقُ النهار . . معنى ذلك أن الليلَ والنهار يوجَدان معاً في وقْت واحد على الأرض . . لأن النهارَ لا يسبقُ الليل . . والليلَ لا يسبقُ النهار . . وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت الأرض كروية .

لو كانت الأرضُ مسطّحة . . فإما أن تكونَ الشمس ساعةَ الخَلْق في مواجهةِ السطح ، وحينئذ يكونُ النهار قد وُجِدَ أوّلاً ، وإمّا أن تكون غيرَ مواجِهة للسطح فيكون الليلُ قد أتى أوّلاً .

ولكنَّ تصريحَ الآية بأنه لم يسبقْ أحدُهما الآخر ، يدل على أنهما خُلِقا معاً عند بدْءِ الخلق . . وهذا يعني أن الأرضَ كروية[1] .

٤ ـ الاحساسُ والجلد : ﴿ بَدَّلْناهُمْ جُلوداً غَيْرهَا لِيذوقوا العذاب ﴾ :

أشارَ القرآنُ إلى عذابِ الكفار في النار بقوله : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْليهِمْ ناراً . كُلَّما نَضِجَتْ جُلودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيْرَها ، لِيذوقوا العَذاب ﴾ [سورة النساء : ٥٦] .

وهذه الآيةُ تتضمنُ حقيقةً علمية لم تُكتَشَفْ إلا حديثاً . إن كلَّ أعصاب الإحساس موجودةٌ تحتَ الجلد مباشَرة . وهذه الأعصابُ هي التي تَشعرُ بالألم ،

---

(١) المرجع السابق : ٩٤ ـ ٩٥

وتجعلُ الإنسان يحسُّ به ، وتنقلُه بواسطةِ الجهاز العصبيِّ إلى المخ .

وقد وردتْ الإشارةُ إلى هذه الحقيقةِ العلمية في الآية في معرض الحديث عن الحكمة من تبديلِ جلودِ الكفار في النار : « إنَّ اللهَ كلما أرادَ أن يذيقَ الكفار العذابَ في النـار ، بدَّلَ جلودَهم التي احتـرقتْ ، وماتتْ فيهـا أعصابُ الاحسـاس ، بجلودٍ سليمة لم تحترق ، ليذوقوا العذابَ مرة أخرى . .

فحينَمـا يأتي الـطبُّ ليقول لَنـا : إن أعصابَ الجسم تَحْتَ الجلد مبـاشَرة . . نقول : إن الله قد أخبَرنا بهذه الحقيقة في القرآن ، منذ أربعةَ عشر قرناً »[1] .

٥ ـ الإعجاز القرآني في علم الأجنة :

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طين . ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكين . ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَة ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً . ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخر . فَتبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقين** ﴾ [سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

تحدثتْ هذه الآياتُ عن علم الأجنَّة ، وفصَّلتْ مراحلَ خلقِ الجنين في بـطن أمه ، وقدَّمَتْ في ذلك حقائقَ علمية لم تُكتشفْ إلا حَديثاً .

لم يتكلم أحدٌ عن هذه المسألةِ قبل القرآن ، أو في عصرِ نزوله ، أو بعدَه بفترة طويلة ، وحتى العصر الحديث .

• وهـذا الحديثُ القـرآني عن علمِ الأجنَّة دليـلٌ على أنَّ قائـلَ القـرآن هـو اللهُ سبحانه ، وليس أحداً من البشر . . وإلا فكيْفَ يأمَنُ أيُّ إنسان . . أيُّ بشر مهْما بلَغَ من العلم ، كيف يـأمَنُ أنه بعـد عَشَـرات السنين ، أو مئـاتِ السنين ، لن يـأتيَ من يناقِضُ حديثَه . أو يُثبتُ عدمَ صحتِه[2] ؟ .

خلاصةُ رأي الشعراوي في إعجاز القرآن :

نكتفي بهـذه النماذجِ الخمسـة من تحليلِ الشيـخ الشعـراوي لآيـاتٍ تحـوي

(١) المرجع السابق : ١٠٣

(٢) المرجع السابق : ١٢٧ ـ ١٢٨

مضامينَ علمية ، وبيانِه ما فيها من إعجازٍ علمي باهر . ونحيلُ القـارىء على كتابـه « معجزة القرآن » ليقف على تحليلاتِه لنماذجَ وأمثلةٍ أخرى .

ونُرجىءُ الكلامَ عن « الإعجاز النفسي » الذي أوردَهُ الشعراوي إلى كلامِنا عن « الإعجاز النفسي » باعتباره وَجْهاً من وجوه الإعجاز .

ونسجِّـل فيما يلي خـلاصَةً نـافعةً مـوجَزة لـرأيِ الشيخ الشعـراوي في إعجاز القرآن .

- قال : « القرآنُ عندما نزلَ كان له أكثرُ من معجزة :
تحدّى العربَ في بلاغتِهم . . ثم مزَّق حُجُبَ الغيبِ الثلاثة :

مزّق حجابَ الزمن الماضي . . وروى لنا بالتفصيلِ تاريخَ الرسل ، وحوادثَ مَنْ سَبَقَنا من الأمم .

ثم مزَّق لنا حجابَ المكان ، وروى لنا ما يدورُ داخل نفـوس الكفار ، ومـا يبيتونَه للمسلمين ، ولم يجرؤ أحدٌ منهم أن يكذِّب القرآن ، ويقول : لم تهمس نفسي بهذا .

ثم مـزَّق حجاب المستقبـل القريب . . وتنبـأَ بأحـداثٍ ستقـعُ بعـد شهـور ، وبأحداثٍ ستقعُ بعدَ سنوات . . وتحدّى . . وحدَثَ كلُّ ما أنبأ به القرآن .

ثم مـزَّقَ القرآنُ حجـابَ المستقبـلِ البعيـد . . ليعـطيَ الأجيـالَ القـادمة مِنْ إعجازِه ، ما يجعلُهم يصدِّقون القرآن ، ويسجدون لقائله ، وهو الله .

ولكنَّ القرآن نزَلَ في زمن : لو أنَّ هذه المعجزاتِ المستقبلية جـاءَتْ تفصيليةً لكفرَ عددٌ من المؤمنين ، وانصرفَ آخرون . ذلك لأن الكلامَ كان فوق طاقةِ العقول في ذلك الوقت . . ومن هنا ـ وحتى لا يخرجَ المؤمنُ عن إيمانه ـ ويستمرَّ الإعجاز . . جاء القرآنُ بنهايات النظريات ، بقمةِ نواميس الكون . . إذا تُليتْ على المؤمنين في ذلك الوقت ، مرَّتْ عليهم ، ولم ينتبهوا إلى مدلولهـا الحقيقي العلمي ، وإذا تُليتْ بعدَ ذلك على الأجيال القادمة عَرَفوا ما فيها مِنْ إعجاز . . وقالوا : هذا كلامٌ لا يمكن

أن يقولَه شخصٌ عاش منذُ آلاف السنين . . إذن فلا بدَّ أنَّ هذا القرآنَ حقٌّ من عند الله . . »(1)

الوجه الثالث « الإعجاز التشريعي » :

المقصود بالإعجاز التشريعي :

المقصودُ بالإعجاز التشريعي تشريعاتُ القرآن ونظُمه ومناهجُه . والمبادئُ التي قرَّرها ، والقيمُ التي دعا إليها ، والأسسُ التي أرساها ، والهدايةُ التي هدف إليها .

لقد تضمنَ القرآنُ الكريم تشريعاتٍ ومناهجَ ومبادئَ ونظُماً ، شملتْ كافةَ مجالاتِ الحياة ، سواءٌ حياةُ الفرد أو حياةُ المجتمع ، وسواءٌ الجانبُ العقيدي أو العبادي أو الأخلاقي أو الإجتماعي أو الإقتصادي أو السياسي أو الدولي أو الدستوري أو العسكري أو غير ذلك .

ولدى المقارنةِ بين ما أقرَّه القرآن من المبادىء والتشريعات في تلك المجالات والجوانب المختلفة ، وبين ما أقرتْهُ البشريةُ في تاريخها الطويل ، وما اهتدتْ إليه عقولُ عباقرتِها ومفكريها وعلمائها ، يظهر الفرقُ البعيد ما بين تشريعاتِ القرآنِ وتشريعاتِ البشر ، ومن ذلك نتعرَّفُ على الإعجاز التشريعي في القرآنِ .

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب : « الذينَ يدرسون النظُمَ الإجتماعية ، والأصولَ التشريعية ، ويدرسون النظامَ الذي جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرةَ فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضياتِ حياتها من جميع جوانبها ، والفرصُ المدخرةُ فيه لمواجهة الأطوار والتَّقلُّبات في يسرٍ ومرونة . . . كل أولئك أكبرُ من أن يحيطَ به عقلٌ بشري واحد ، أو مجموعةُ العقول في جيلٍ واحد ، أو في جميعِ الأجيال . . »(2) .



---

(1) المرجع السابق : ١٢٩

(2) الظلال ٣ : ١٧٨٥

مع تجربة سيد قطب حول موضوعات القرآن :

أشار سيد قطب إلى موضوعاتِ القرآن وتشريعاتِه المعجزة ، وإلى تجربتِـه هو معها ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وَإذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالوا : لَوْ لا اجْتَبَيْتَها . قُلْ : إنَّما أَتَّبِعُ ما يوحىٰ إلَيّ مِنْ رَبّي . هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون** ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٣] .

أشار إلى الإعجازِ التعبيري ، والإعجازِ التأثيري النفسي ، والإعجازِ الموضوعي والتشريعي .

أشار في الكلام عن الإعجاز الموضوعي والتشريعي إلى منهجِ القرآن العجيب في مخاطبةِ النفس الإنسانية بحقائقِ الوجود . وإلى منهجهِ العجيب وهو يتناول قضايا هذا الوجود . وإلى منهجِه العجيب وهو يأخذ بيد الفطرةِ الإنسانية خطوةً خطوة ويصعدُ بها إلى القمة السامقة . وإلى منهجه العجيبِ وهو يلمس الفطرةَ الإنسانية من حيث لا يَحتسبُ أحدٌ من البشر أن يكون هذا موضع لمسة .

أما المادةُ القرآنيةُ التشريعية ، أما تشريعاتُ القرآن ونظُمُه ومناهجُه ومبادؤه ، فهي القمةُ في الإعجاز التشريعي الباهر .

نظُم القرآن وتشريعاتُه « في النظرةِ الكليةِ في هذا الوجود ، وطبيعتِه ، وحقيقتِه ، وجوانبِه ، وأصلِه ، ونشأتِه ، وما وراءه من أسرار ، وما في كيانِه من خبايا ومكنونات، وما يضمُّه من أحياء وأشياء . . الموضوعاتُ التي تطرقُ جوانبَ منها « فلسفة ، البشر » .

في النظرةِ الكلية إلى « الإنسان » ونفسِه ، وأصلِه ، ونشأتِه ، ومكنوناتِ طاقاته ، ومجالاتِ نشاطه ، وطبيعةِ تركيبِه ، وانفعالاتِه واستجاباتِه ، وأحوالِه وأسرارِه . . الموضوعاتُ التي تطرقُ جوانبَ منها علومُ الحياة والنفس والتربية والإجتماع والعقائد والأديان . .

في النظرةِ إلى نظام الحياة الإنسانية ، وجوانبِ النشاط الواقعي فيها ، ومجالاتِ الإرتباط والاحتكاك ، والحاجاتِ المتجددة وتنظيمِ هذه الحاجات . .

الموضوعاتُ التي تطرقُ جوانبَ منها النظرياتُ والمـذاهبُ الإجتماعيـة والإقتصاديـة والسياسية . . »[1] .

وأشارَ سيد قطب إلى كثرةِ ووفرةِ نصوص القـرآن المعجزةِ في هـذه الجوانب والمـوضوعـات : « وفي كل حَقْـل من هذه الحقـول ، يجدُ الـدارسُ الـواعي لهـذا القرآن ، وَفْرَةً من النصوص والتوجيهات ، يحَار في كثرتِها ووفرتِها ، فوقَ ما في هذه الوفرة من أصالةٍ وصدقٍ وعمقٍ وإحاطةٍ ونفاسَةِ ! » .

أما تجربتهُ مع النصوصِ القرآنيةِ ذاتِ المضامين التشريعية المعجزة ، فقد أشار لها بقوله : « إن الذي يكتبُ هذه الكلماتِ ، قضى ـ ولله الحمدُ والمنَّة ـ في الصحبةِ الواعيةِ الـدارسة لهـذا الكتاب خمسـةً وعشرين عـاماً . يجـولُ في جنباتِ الحقـائق الموضوعية لهذا الكتاب ، في شتّى حقول المعرفةِ الإنسانية ـ ما طرقَتْه معارفُ البشر ومـا لم تطرقه. ويقرأ في الـوقتِ ذاتِه مـا يحاولُـه البشر من بعضِ هـذه الجوانبِ . . ويرى . . يرى ذلك الفيضَ الغامرَ المنفسحَ الواسعَ في هذا القرآن ، وإلى جانبه تلك البحيراتِ المنعزلةِ ، وتلك النُّقَرُ الصغيرة . . وتلك المستنقعاتُ الآسنة أيضاً ! .

. . . إنني لم أجدْ نفسي مرةً واحدة ـ في مواجهةِ هذه الموضوعات الأساسية ـ في حاجةٍ إلى نص واحدٍ من خارج هذا القرآن ـ فيما عدا قولِ رسول الله ﷺ وهو من آثار هذا القرآن ـ بل إن أيَّ قول آخر ليبدو هزيلاً ـ حتى لو كان صحيحاً ـ إلى جانب ما يجدُه الباحثُ في هذا الكتاب العجيب . »[2] .

من مزايا تشريعات القرآن المعجزة :

لقد توفَّر لتشريعات القرآن المعجزة مزايا خاصة فريدة :

١ ـ هي مظهرٌ لهداية القرآن . حيث أخبرَنا الله عن هدفٍ أساسي للقرآن ، وهو هدايةُ الناس إلى الله : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُـرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ﴾ [سورة الإسـراء : ٩].

٢ ـ هي حقٌّ وصـدقٌ وخيـرٌ وصـواب ، لأنهـا من عنـد الله العليم الحكيم : ﴿ صِبْغَةَ اللَّه . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَة ؟ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٨] .

---

(١) الظلال ٣ : ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ باختصار .

(٢) الظلال ٣ : ١٤٢٢ ـ ١٤٢٣ باختصار .

٣ ـ ونظراً لذلك فلا يجوزُ أن « نتعالَم » عليها ، أو أنْ ننقدَها ، أو أن نظنَّ عدمَ صلاحيتِها لنا في هذا العصر العلمي المتقدِّم . والقرآن يواجهُنا بهذا السؤال : ﴿ **قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّه ؟** ﴾ [سورة البقرة : ١٤٠] .

٤ ـ هي شاملةٌ لحياة الأفراد والجماعات ، حيث تتوزَّعُ مساحاتٍ شاسعةً من الحياة ، بل لا تدَعُ مجالاً إلا وتشملُه ، ولا جانباً إلا وتنظمُه . سواء في العقيدةِ أو العبادةِ أو الإقتصادِ أو السياسةِ أو الإجتماع أو الثقافةِ أو العلمِ أو حتى الفن . وعلى هذا يقول القرآن : ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ .** ﴾ [سورة الأنفال : ٢٤] .

٥ ـ واجبُ المسلم تجاهَها هو إلتزامُها وتطبيقُها ، ومراعاتُها ، فإن لم يفعل ذلك فلا يكونُ مسلماً . وعلى هذا قولُ الله تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حَتّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ . ثُمَّ لا يَجدوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّموا تَسْليماً .** ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

٦ ـ وهذا يعني إلغاءَ النظرةِ المزاجيَّة لتلك التشريعات ، تلك النظرةُ التي تقومُ على المزاج والهوى والمصلحةِ الشخصيةِ ، فلا يجوزُ للمسلم أن يأخذَ منها ما يتفقُ مع هواه ، وأن يختارَ ما يتفق مع مزاجه : قال تعالى : ﴿ **وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى اللَّهُ وَرَسولُهُ أَمْراً أَنْ يَكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً .** ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ **أَفَتُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعْض ؟ فما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إلّا خِزْيٌ في الحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذاب** ﴾ [سورة البقرة : ٨٥] .

٧ ـ إن هذا التشريعاتِ مظهرٌ من مظاهر « اليُسْرِ » الرّبّانيّ ، فالله قد أرادَ لنا الخير عندما شرعَها لنا ، واللهُ أراد بنا اليسر ولم يُرد بنا العسر ، والله لم يُرد أن يوقعَنا في الحرج ، والله يعلم طاقتَنا ، ولهذا لم يكلِّف النفس إلا وسْعَها ، والله يعلمُ أن كل هذه التشريعات تدخلُ ضمن الوُسع والطاقة والاستطاعة . والذين قد يمرّون بظروفٍ يعجزون فيها عن تنفيذِ التشريعات ، جعلَ الله لهم الرُّخص تيسيراً لهم ورحمةً بهم .

قال تعالى: ﴿**يُريدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ، وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسْر**﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى : ﴿ هُوَ اجْتَباكُمْ ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] .

٨ ـ وينتجُ عن كلِ ما سبق أن الأمةَ إذا طبقتْ تلكَ التشريعات والتزمتْها فهي منفذةٌ لشرعِ الله ، مطبقةٌ لحكم الله ، وهي في دينِ الله ، أما إذا لم تطبقْها كاملةً فهي في شرعِ الجاهلية ، لأنهما حكمان لا ثالثَ لهما : إمّا حكمُ الله وإمّا حكمُ الجاهلية ، إمّا هُدى وإمّا ضلال . قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يوقِنون ؟ ﴾ [سورة المائدة : ٥٠] .

فرْقٌ بعيد بين ما يريده الله لنا وبِنا من الخير بتشريعاتِ القرآن المعجزة ، وبين ما يريدُه لنا وبِنا الجاهليون أصحابُ الأهواء والشهوات : ﴿ يُريدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيَتوبَ عَلَيْكُمْ ، واللّهُ عَليمٌ حَكيم . وَاللّهُ يُريدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْكُمْ . وَيُريدُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَميلوا مَيْلاً عَظيماً . يُريدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعيفاً ﴾ [سورة النساء : ٢٦ ـ ٢٨] .

نماذج من الإعجاز التشريعي :

١ ـ الوضوءُ والتيمم والغسل :

أمر اللهُ المسلمينَ بالوضوءِ عند القيام إلى الصلاة ، وجَعَل الوضوءَ شرطاً للصلاة ، فإذا لم يتمكّنوا من استعمالِ الماء فعليهم التيمم . قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إِذا قُمْتُمْ إِلىٰ الصَّلاة ، فَاغْسِلوا وُجوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلى المَرافِقِ وَامْسَحوا بِرُؤوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْن . وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّروا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ، أَوْ لامَسْتُمُ النِّساء، فَلَمْ تَجِدوا ماءً فَتَيَمَّموا صَعيداً طَيِّباً ، فَامْسَحوا بِوُجوهِكُمْ وَأَيْديكُمْ مِنْه . ما يُريدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَج ، وَلكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم . لَعَلَّكُمْ تَشْكُرون ﴾ [سورة المائدة : ٦] .

وتشيرِ الآيةُ إلى الحكمةِ من هذا التشريع العبادي : ﴿ ما يُريدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ . وَلكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ . . ﴾

اشتـراطُ الوضـوء أو التَيمم ، واشتراطُ الإغتسـال للجنب . لأن الله يـريـدُ أن يطهِّرَنا ، وأن يتمَّ نعمتَه علينا ، وحتى نشكره سبحانه على نعمه الكثيرة .

أيْ أننا عندما نتوضأ أو نتيَّممُ أو نغتسلُ ، فإنما نشكر الله .

بعضُ المسلمين يـظنُّ أن الحكمةَ من تشـريع الـوضوء هي النـظافـة ، أي أنَّ المسلمَ ينظِّف أعضاءَ الوضوء قبل أدائه الصلاة .

ولسْنا معهم في ذلك . ليست النظافةُ هي الحكمة من الوضوء . فلو كانت هي المقصودة ، لكان البديلُ عن الماء عند فقده أو العجز عن استعماله محقِّقاً للنظافة ، أي لكانَ التيمم بالترابُ بهدف تنظيفِ أعضاءِ التيمم !

هل التيمم بالتراب يحقِّق النظافة ؟ هل مسحُ الوجه واليدين بالتراب أو الغبـار يحقق النظافة ؟

يقـول سيد قـطب عن حكمة الـوضوء والتيمم : « يبـدو أن حكمةَ الـوضوء أو الغسل ، ليستْ هي « مجرد » النظافة . وإلا فإنَّ البديلَ من أحدهما أو من كليْهما ، لا يحقِّق هذه « الحكمة » فلا بدَّ إذن من « حكمة » أخرى للوضوء أو الغسل ، تكونُ متحقِّقَة كذلك في التيمم !

ولا نريد نحن أن نجزم ، ولكننا نقول فقط : إنها ـ ربَّما ـ كانت هي الاستعدادَ النفسيَّ للقاء الله ، بعملٍ ما ، يفصِل بين شواغلِ الحياةِ اليومِيَّة العاديَّة ، وبين اللقاءِ العـظيم الكريم . . ومن ثم يقـومُ التيمم ـ في هذا الجـانب ـ مكانَ الغسـل أو مكان الوضوء .

ويبقى وراءَ هـذا علمُ الله الكـامـلُ الشـامـلُ اللطيف ، بـدخـائـل النفـوس ، ومنحنياتِها ودروبها ، التي لا يعلمها إلا اللطيف الخبير . . »[١]

وإذا ما حاولْنا تسجيلَ حكمةِ الإغتسال من الجنابة ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّروا** ﴾ فنقول : إنها ربمـا كانت حـركةً عمليـةً عن معنى نفسي : إن الإنـسان عنـدما يقضي

---

(١) الظلال ٢ : ٦٧٠

شهوتَه فإنه يحقّق حاجةً فطريَّة وَنفسيَّة أصيلةً في كيانه ، ثم إن كلَّ جزءٍ من أعضاءِ جسمه « يتلذَّذُ » عند قضاء الشهوة ويشاركُ في هذه العملية الجنسيَّة . ولعلَّه لأجل هذا المعنى كان الإغتسال لإزالة الجنابَة ورفْع الحدث . إنَّ الإنسانَ يغتسل « شكْراً » لله ، الذي يسَّرَ له قضاءَ شهوته ، وتلبيةَ الحاجة النفسية عنده .

وهو يغسلُ كلَّ جزءٍ من جسمه بالماء ، وكأنَّ كلَّ جزء من جسمه يشارك في « شُكْر » الله ، مشاركةً عمليَّةً مادية ، لأن كل جزءٍ شاركَ في الاستمتاع والتلذُّذ عند قضاء الشهوة .

ولعلَّه لأجل هذا المعنى ، خُتمتْ آيةُ الوضوء والغسل والتيمم بقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرون ﴾ ـ والله أعلم ـ .

٢ ـ تشريع الصيام :

صيامُ المسلمين في رمضان ـ وغيرِه من صيام التطوع ـ يحقِّق الحكمةَ الربانية من التشريع الإسلامي الميسَّر المعتدل .

فالواجبُ صيامُ شهرٍ من اثني عشر شهراً ، والصيامُ هو إمساكٌ عن الطعام والشراب والمفطِّرات طيلةَ النهار ، من طلوعِ الفجر إلى مغيبِ الشمس ، ويباحُ الأكل والشرب والجماع طيلةَ الليل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُمْ . . هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ، فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ . فَالآنَ باشِرُوهُنَّ وَابْتَغوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . وَكُلوا وَاشْرَبوا ، حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْر . ثُمَّ أَتِمّوا الصِّيامَ إِلى اللَّيل . . ﴾ [سورة البقرة : ١٨٧] .

الصيامُ عند غير المسلمين لا يتَّفق مع الفطرةِ الإنسانيةِ ، ولا مع الحاجاتِ المادية للإنسان ، ولا مع « بيولوجيا » الجسم الإنساني وأبعادِها الصحية .

فصيامُ النصارى طويل ، لكنه ليس إمْساكاً عن كلِّ الطعام والشراب في النهار ، بل هو صيامٌ عن المنتجات الحيوانية : من لحم وشحم ولبن وجبن ، وأكْلُ ما سوى ذلك من المُنتجات النباتية !

وصيامُ غيرهم من البوذيين تعذيبٌ لـلإنسان ، إذ هـو امتناعٌ عن كـل طعامٍ أو شرابٍ في ليلٍ ونهار !

بينما الصيامُ في القرآن إمتناعٌ عن كلِّ طعام أو شراب في النهار ، وفي هذا ما فيه من « أبْعادٍ » صحيَّـة للمعدةِ ولجسم الإنسـان . ثم إباحـةُ الطعـامِ والشراب في الليل ، وفي هذا تلبيةُ حاجةِ الجسم الإنساني للغذاء .

فالمسلم عندما يمتنعُ عن الطعام ، وعندما يقبـلُ على الطعـام ، يحقِّقُ فائـدةً صحية للمعدةِ وللجسم في الحالتيْن ، إضافةً إلى تحقيق العديدِ من الفوائدِ والحِكَمِ من أداءِ الصيام .

وقد يعجز بعض المسلمين والمسلمات عن صيامِ رمضان ، فجاءت الرخصةُ للمريض والمسافرِ بالفطر : **﴿ فَمَنْ شَهدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه ، وَمَنْ كانَ مَـرِيضاً أَوْ عَلى سَفَـرِ فعِدَّةٌ مِنْ أَيّـامٍ أخَر . . يُـريدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسْـر ، وَلا يُريـدُ بِكُمُ العُسْـر ، وَلِتُكْمِلوا العِـدَّة ، وَلِتُكَبِّـروا اللّهَ عَلى مـا هَـداكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُـرون ﴾** [سـورة البقرة : ١٨٥] .

الصيـام في القرآن يمثـل « الوسـطيـة الإسـلاميـة » في التشـريـعِ الإسـلامي المعجزِ .

٣ ـ تحريم الميتة والدم والخنزير :

حرَّم الله على المسلمين الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير : **﴿ إنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ ﴾** [سورة البقرة : ١٧٣] .

وهناك حِكَمٌ كثيرة من تحريمِ هذه المحرَّمات .

ولعل من الحِكَمِ في تحريم الميتـة والدم ، هي مـا أثبتَهُ الـطبُّ الحديثُ من تجمُّع الميكروبات والموادّ الضارَّة فيهما ، ولعلَّ هناك آفاتاً أخرى فيهما لم يكشفْهـا العلمُ الحديث حتى الآن .

أما الخنزير فإنه منفِّرٌ للطبع النظيفِ القويم ، وقد كشَفَ الطبُّ الحديثُ أن في لحْم الخنزير ودمِه وأمعائِه دودةً شديدةَ الخطورة (هي الدودةُ الشريـطيَّةُ وبـويضاتهـا

المتكيِّسة) علماً بأن وسائلَ الطهوِ الحديثة بحرارَتها العالية قد تُبيدِ تلك الدودةِ وبويضاتِها .

فإذا كان علْمُ الناس قد احتاجَ إلى قرونٍ طويلة ليكشف آفةً واحدة في لحم الخنزير ، فمَنْ ذا الذي يجْزمُ بأنه ليستْ هناك آفاتٌ أخرى في الخنزير لم يُكْشف بعدُ عنها ؟

أفلا تستحقُّ الشريعةُ التي سبقتْ هذا العلمَ البشري بعشراتِ القرون أن نثقَ بها ، وندعَ كلمةَ الفصْل لها ، ونحرِّمَ ما حرمَتْ ، ونحلِّلَ ما حللَتْ ، وهي من لدن حكيم خبير ! »[1] .

٤ ـ تحريم الربا :

حرَّم اللهُ الربا في آياتٍ صريحة ، وأعلنَ الحرب على المرابين ، وأخبر أنه يمحق الربا . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذّينَ آمَنوا اتَّقوا اللّهَ ، وَذَروا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا ، إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين . فَإنْ لَمْ تَفْعَلوا فَأْذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسولِه** ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٨ ـ ٢٧٩] .

ومع أن « الربا » هو السِّمةُ البارزةُ للإقتصاد العالمي المعاصر ، وقاعدةُ التعامل الإقتصادي بين الدول ، إلا أن التشريعَ الإسلامي هو الحقُّ والصوابُ في تحريم الربا ، واللهُ عليمٌ حكيم في محاربتِه وتحريمه . .

وأوضحُ ما تكون الحِكَمُ من تحريم الربا بروزاً ووضوحاً ، في هذا العصر .

الربا بلاءٌ وآفة ، والربا يدمِّر الإقتصادَ ، ويقطِّع الصلات ، ويوقِعُ العداوةَ والبغضاء بين الناس ، والربا يقضي على إنسانيةِ الإنسان وخلقِه وقلبِه ودينِه وإيمانِه .

والمرابون عصابةٌ من اللصوص ، مصّاصي دماءِ وأموالِ الآخرين ، وهم شياطينٌ ينشرونَ الفساد والأمراض ويدمِّرون الإقتصاد .

بل « إنَّ النظامَ الربويَّ نظامٌ معيب من الوجهةِ الإقتصادية البحتة . . . قال

---

(١) الظلال ١ : ١٥٦ .

الدكتور الألماني « شاخت » مديرُ بنك الرايخ الألماني سابقاً : إنه بعمليَّةٍ رياضيَّة - غير متناهية - يتضحُ أن جميعَ المال في الأرض صائرٌ إلى عددٍ قليلٍ جداً من المرابين ، ذلك أن الدائنَ المرابي يربحُ دائماً في كل عملية ، بينما المدينُ معرَّض للربح والخسارة . . ومن ثم فإن المالَ كلَّه في النهاية لا بد - بالحساب الرياضي - أن يصيرَ إلى الذي يربح دائماً ! وإنَّ هذه النظرية في طريقِها للتحقق الكامل ، فإن معظمَ مالِ الأرض الآن بملكهِ - ملكاً حقيقياً - بضعةُ ألوف ! أما جميعُ الملاّك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك والعمال وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أُجَراء يعملونَ لحسابِ أصحابِ المال ، ويجني ثمرةَ كدِّهم أولئك الألوف ! .

. . . ثم إن جميعَ المستهلِكين يؤدون ضريبةً غيرَ مباشرة للمرابين . فإنَّ أصحابَ الصناعات والتجار لا يدفعونَ فائدةَ الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوبِ المستهلكين ، فهم يزيدونَها في أثمانِ السلع الإستهلاكية ، فيتوزعُ عبؤُها على أهلِ الأرضِ لتدخلَ في جيوب المرابين في النهاية . أما الديونُ التي تقترضها الحكوماتُ من بيوت الأموال ، لِتقومَ بالإصلاحات والمشروعات العمرانيّة ، فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية . وبذلك يشتركُ كل فرد في دفع هذه الجزيةِ للمرابين . . . »(١)

٥ - التشريع الإسلامي حول الدَّيْن :

قال تعالى : ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا تَدايَنْتُمْ بدَيْنٍ إلَى أَجَلٍ مُسَمّى فَاكْتُبوه . وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالعَدْل . وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَه اللّه . فَلْيَكْتُبْ . وَلْيُمْلِلِ الَّذي عَلَيْهِ الحَقّ . وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّه . وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً . فَإنْ كَانَ الَّذي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ . وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ . فَإنْ لَمْ يَكونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأتانِ . مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداء . أَنْ تَضِلَّ إحْداهُما فَتُذَكِّرَ إحْداهُما الأُخْرى . وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إذا ما دُعوا . وَلا تَسْأَموا أَنْ تَكْتُبوهُ صَغيراً أَوْ كَبيراً إلى أَجَلِهِ . ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلّا تَرْتابُوا . إلّا أَنْ تَكونَ تِجارَةً حَاضِرةً تُديرونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

(١) أنظر الظلال ١ : ٣١٧ - ٣٢٣

جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبوها . وَأَشْهِدوا إذا تَبايَعْتُمْ . وَلَا يُضارَّ كـاتِبٌ وَلَا شَهيد . وَإِنْ تَفْعَلوا فَإِنَّهُ فُسوقٌ بِكُمْ . واتَّقُوا اللَّهَ . وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه ، واللَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلَيم . . . ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

آيةُ الدَّيْن ـ وهي أطولُ آية في القرآن ـ أوضحُ مثـالٍ على الإعجاز التشـريعي القرآني . ونكتفي بإثباتِ هذه الكلمات لسيدِ قطب عن إعجازِها التشريعي . .

قال : « وإن الإنسانَ ليقفُ في عَجَب وفي إعجابٍ أمامَ التعبيـرِ التشريعي في القرآن ، حيث تتجلّى الدقةُ العجيبةُ في الصياغة القانونية ، حتى ما يبدَّلَ لفظٌ بلفظ ، ولا تقدَّمُ فقرَةٌ عن موضعها أو تؤَخَّر . وحيثُ لا تطغىٰ هذه الدقةُ المطلَقة في الصياغةِ القانونية على جَمال التعبير وطلاوتِه . وحيثُ يربط التشريعَ بـالوجـدانِ الدِيني ربْـطاً لطيفْ المدخل عميقَ الإيحاء قويَّ التأثيـر ، دون الإخلالِ بتـرابطِ النص من ناحيـةِ الدلالة القانونية . وحيثُ يلحظُ كلَّ المـؤثِّـرات المحتملة في موقفِ طـرفيْ التعاقُـد ومـوقفِ الشهود والكتَّـاب ، فينفي هذه المؤثِّـراتِ كلِّهـا ويحتاط لكـل احتمـالٍ من احتمالاتها . وحيثُ لا ينتقـلُ من نقطةٍ إلى نقـطة إلا وقد استـوفى النقطةَ التشـريعية بحيث لا يعودُ إليها إلا حيثُ يقعُ إرتباطٌ بينها وبين نقطة جديدة . . .

إن الإعجاز في صياغةِ آياتِ التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغةِ آياتِ الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضحُ وأقوى . لأن الغرضَ هنا دقيقٌ يحرِّفُه لفظٌ واحد . ولا ينوب فيه لفظٌ عن لفظ . ولو لا الإعجازُ لما حقَّق الدقةَ التشريعية المطلقةَ والجمالَ الفنيَّ المـطلق على هذا النحـو الفريـد . ذلك كلُّه فـوقَ سَبْقِ التشريـعِ الإسـلامي بهـذه المبـادىءِ للتشريـع المدني والتجـاري بحـوالي عشـرةِ قـرون كمـا يعتـرفُ الفقهـاءُ المحدثون »[1] .

الوجه الرابع : الإعجاز النفسي :

البحوث النفسية المعاصرة :

شهدَ العصرُ الحديثُ تقدُّماً في كثير من العلوم والمعارف . ومن العلوم التي كثَرتْ حولَها البَحوثُ والدراسات : أحوال النفسِ الإنسانية .

(١) الظلال ١ : ٣٣٤ .

تحدثَ علماءُ نفسٍ غربيّون عن « النفس الإنسانيةِ » كثيراً ، وبينّوا صفاتِ النفس وأحوالَها وأغراضها وخفاياها ، وقاموا بدراساتٍ منوَّعة في « علِمِ النفس التحليلي » .

وتقدَّم العالم النفساني الشهير « سيجْموند فْرُويْد » باكتشافه النفسيّ المثير والخطير ، وهو «العقلِ الباطن» وكان اكتشافُه صحيحاً ورائعاً وعظيماً ، وأعجبَ الناس بنظريَّةِ « العقل الباطن » أيّما إعجاب !

وليس الخطأُ في اكتشاف « فرويد » عن العقل الباطن ، فهو حق وصحيح ، ولكن الخطأ في تحليلِه لذلك العقل الباطن ، وبيانِه لما يؤثّر عليه وفيه ، ولكيفية عمله وتوجيهِه لصاحبه ، حيث خرجَ من ذلك بنظريةٍ خطيرة وخاطئة ، وهي « التفسيرُ الجنسيُّ الشهواني » لذلك العقل الباطن ، ولمسيرةِ صاحبه الحياتيَّة الظاهرة ، بل التفسيرُ الجنسيُّ الشهوانيُّ للتاريخ البشري ، ودعا الناسَ إلى أن يستسلِموا لرغباتِ وتوجُّهاتِ « العقل الباطن » عندهم ، وهي رغباتٌ وتوجُّهاتٌ جنسية ، وأَنْ يمارسوا كلَّ ما يوحي لهم به ، لينجوا من الكَبْت والكآبة والقلق .

واستجابَ الغربيون لدعوة « فروُيْد » وصدَّقوا تحليلاتِه الخاطئة للعقل الباطن والنفس الإنسانية ، فانحطّوا عن مرتبة « الإنسانية » وتحوَّلوا إلى حياةٍ إباحيَّة شهوانية ، بل تحوَّلوا إلى حيوانية بهيمية ، تنفرُ منها حتى البهائم والحيوانات في الغابات !

وتوسعت الدراساتُ النفسيةُ المعاصرة ، وتعددت المدارسُ والنظرياتُ في التحليلِ النفسي ، وتخصَّصَ كثيرون في الطبِّ والعلاج النفسي ، وصدرت الكتبُ والأبحاثُ والمجلاتُ عن النفس الإنسانية .

القرآن والنفس الإنسانية :

كان من المنطقيِّ أن يتوجَّهَ علماءُ وباحثون مسلمون إلى القرآنِ الكريم ، ليتعرَّفوا على حديثه عن « النفس الإنسانية » وليواجِهوا افتتانَ الآخرين بدراساتِ وتحليلاتِ الغربيِّين النفسيّة .

ووجدَ هؤلاء في القرآن آياتٍ كثيرة ، تتحدثُ عن النفس الإنسانية ، وتعرضُ صفاتَها وأوصافها . قال رائد الدراسات النفسية الإسلامية المعاصرة الأستاذُ محمد

قطب : « والكتابُ حافلٌ بالآيات التي تصفُ النفسَ الإنسانية في مختلف حالاتِها : سويةً وشاذة ، صاعدةً وهابطة ، خيِّرةً وشريرة ، مقبلةً ومعرضة ، مؤمنةً وكافرة ، لاصقةً بالطين أو مرفرفةً في عالم النور . . »[1].

وقدَّم علماءُ وباحثون مسلمون تحليلاتٍ إسلاميةً لطيفةً للنفس الإنسانية ، استلْهَموا القرآنَ فيها ، وصدرت كتبٌ نفسيةٌ إسلامية جيدة ، سدَّتْ « ثغرةً » في الدراسات النفسية .

ونعتقدُ أن رائدَ الدراسات النفسية الإسلامية المعاصرة هو الأستاذ « محمد قطب » الذي دخلَ عالمَ الفكرِ الإسلامي من باب « التحليلِ النفسي » وكانت أولُ دراساته الإسلامية ، تتحدث عن النفس الإنسانية . وذلك كتابه « الإنسان بين المادية والإسلام » .

ولا يخلو كتابٌ من كتبهِ من الحديث عن النفس الإنسانية . لكنه أفرد للنفس كتاباً خاصاً هو : « دراسات في النفس الإنسانية » .

دعوةُ القرآن للتأمل في النفس :

دعا القرآنُ المؤمنين للتأمُّل في آيات الله في الكون ، وما فيه من سماءٍ وأرضٍ وظواهر وأشياءَ وأحداث ، كما دعاهم للتأمُّل في آيات الله في نفوسهم . قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾[سورة الذاريات : ٢٠ ـ ٢١].

« وهذا المخلوقُ الإنسانيُ هو العجيبةُ الكبرى في هذه الأرض ، ولكنه يغفلُ عن قيمته ، وعن أسرارِه الكامنة في كيانه ، حين يغفلُ قلبُه عن الإيمان ، وحين يُحرمُ نعمةَ اليقين .

إنه عجيبةٌ في تكوينهِ الجسمي . عجيبةٌ في تكوينه الروحي . عجيبة في ظاهره عجيبة في باطنه . وحيثُما وقفَ الإنسان يتأمل عجائبَ نفسه التقى بأسرار تدهش وتحيِّر . تكوينُ أعضائه ، ووظائفُها ، وطريقةُ أدائها لهذه الوظائف .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : ٥

والعجائبُ في النفس الإنسانية لا يحصرها كتاب . فالمعلومُ المكشوفُ منها يحتاج تفصيلُه إلى مجلّدات . والمجهولُ منها أكثرُ من المعلوم ، والقرآنُ لا يحصيها ولا يحصرها . ولكنه يلمس القلبَ هذه اللمسة ، ليستيقظ لهذا المتحفِ المعروض للأبصار والبصائر . وليقضي رحلتَه على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبُّر ، وفي متاعٍ رفيع ، يتأمَّل هذا المخلوقَ العجيب ، الكامنَ في ذاتِ نفسه وهو عنْه غافل مشغول .

وإنها للحظاتٌ ممتعةٌ تلك التي يَقضيها الإنسانُ يتأمَّلُ وجوهَ الخْلق وسماتِهم وحركاتِهم بعينِ العابد السائح الذي يجولُ في متحفٍ من إبداعِ أحسنِ الخالقين . فكيف بمَنْ يقضي عمرَه كلَّه في هذا المتاع الرفيع ؟ .

إن القرآنَ بمثلِ هذه اللمسة يخلقُ الإنسانَ خلقاً جديداً ، بحسٍّ جديد ، ويمتعُه بحياةٍ جديدة ، ويهبُه متاعاً لا نظيرَ له »[1] .

جانبان للإعجاز النفسي :

موضوعُ الإعجازِ النفسّي القرآني هو حديثُ القرآنِ عن النفس الإنسانية ، أو تأثيرُ القرآن في النفسِ الإنسانية .

والإعجازُ النفسي له جانبان :

الأوَّل : حديثُ القرآنِ عن النفس الإنسانيةِ ، وبيانُه لصفاتِها ، وتحليلُه لها ، وكشفُه لخباياها وخفاياها .

الثاني : تأثيرُ القرآن في النفسِ الإنسانية ، سواء كانت مؤمنةً أو كافرة ، وما ينتجُ عن هذا التأثير في النفس من نتائجَ وثمرات .

الأول : « معلوماتٌ » قرآنية عن النفس :

يخطىء من يظنُّ أن القرآنَ حوى « نظريةً » متكاملةً عن النفس الإنسانية ، واضحةَ المعالم ، بينةَ الأسس ، شاملةَ الجوانب . فالقرآن « ليس كتابَ نظريّات . . نفسيةٍ أو علميّة أو فلكية . . ولكنه يحوي التوجيهاتِ الكاملة ، الكافيةِ لإنشاءِ هذه النظريات . .

---

(١) الظلال ٦ : ٣٣٧٩ - ٣٣٨١ باختصار

إنه كتابُ تَـربيةٍ وتـوجيه . . وفي سبيـلِ هذا التـوجيه ، يكشفُ لـلإنسان عن بعضِ أسـرار نفسه وأسـرارِ الكون من حـولـه ، ويـدعـوه إلى دراسـةِ هـذه وتلك ، « ليَعرف » و «يتعَلَّم » ومن ثم يتجهُ الاتجاهَ الصحيح . . ».

إذن « ليسَ في القـرآن « نظريـة نفسيـة » مخـطَّطَة مبـوَّبَـة مبلورة ذات فصـول وتفصيلات . فليس من شأن القرآنِ وهو ينشِئُ النفوسَ ويربيها أن يضعَ « نـظرياتٍ » من هذا القبيل .

ولكن فيه مع ذلك « معلومات» عن النفس الإنسانية كثيرة وشاملة ، أكثرَ مما فيه عن أي «علْمٍ» آخر. .

وقد كان هـذا طبيعياً في كتـاب ، مهمتُه الأولى هـي التربيـةُ والتوجيه. كتابٍ يخاطب « النفس » ويوجِّهها.

وهــذه المعلومـاتُ ـ المنبَثَّــة ـ في ثنـايــا القـرآن ـ يمكن أن تُستــوحىٰ في استخلاصِ نظريـةٍ شاملة عن النفس . . تعمـلُ المشاهَـدةُ والتجربـةُ في توضيحِهـا ووضعِ تفصيلاتِها . . »[1].

نماذج من الإعجاز في «المعلومات» النفسية :

سنقـدِّم أمثلةً ونماذج للجـانبِ الأول من الإعجاز النفسي ، الـذي يتمثـل في حديثِ القرآن عن النفسِ الإنسانية ، وتقديمِه لنا معلوماتٍ نفسيةً صائبة ، تدلُّ على أنَّ القرآن هو كلامُ الله .

١ ـ الازدواجيةُ في الخلق الإنساني :

أشارَ القرآنُ ـ وهو يحدثُنا عن خلق آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ إلى أنَّ الإنسانَ خُلِقَ من طبيعةٍ مزدوجة ، يتمثل فيها عنصران أساسيان ماديّان . لهما أثرٌ عظيم على نفس الإنسان وتوجُّهها وسيرِها .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طين . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية : ٨ ـ ٩ باختصار .

مِنْ روحي، فَقَعُوا لَهُ ساجِدينْ ﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٢].

لقد خلقَ الله الإنسانَ من الطين ، ثم نفخَ فيه من روحِه ، فصار إنساناً حيّاً .

والطينُ يمثِّل الجانبَ الماديَّ الأرضي من كيان الإنسان .

والروحُ تمثِّل الجانبَ الروحيَّ المعنويَّ المشرقَ من كيان الإنسان .

الإنسان جسدٌ مخلوقٌ من طينٍ، وروحٌ تدبُّ وتتحركُ في ذلك الجسم . وهذه هي الازدواجيةُ في طبيعتِه وكيانه .

لا بد أن يلبيَ حاجاتِه المادية ، ويحقِّقَ رغباتِ جسمه المادية . كما أنه مطالَب أن يلبيَ حاجاتِه المعنوية ، ويحقِّقَ أشواقَهِ الروحيـة ، ويسمو على ضعفِـه المادي ، ويحلِّق نحو القممِ السامقة في عالم الفضائل .

وينشـأُ عن هذا الازدواج في طبيعـةِ الإنسـان : أنَّ بعضَ النفـوس تجنـحُ إلى المادة ، وتلتصقُ بالطِين ، وتغرقُ في الوحل ، وتنغمسُ في الشهوات ، وتغلقُ منافذَ الروح وأشواقَها وإشراقَها . فتكونَ كالأنعام بل أضل !

ولكنَّ بعضَ النفوس تتخذُ الجانبَ المادي الغليظَ فيها وسيـلة للسموِّ الروحي ، وتتخذُ من ذلك الجسم مرْكباً للإشراق والارتفاع ، وتحقِّقُ إنسَانيةَ الإنسان وكرامتَه في عالم القيم والفضائل والمُثُل(١).

٢ ـ الازدواجية في الاستعداد الإنساني :

وتنشأُ عن هذه الازدواجية في طبيعةِ خلْق الإنسـان ، ازدواجيةٌ أخـرى . وهي ازدواجيةٌ في الاستعدادِ الإنساني ، وفي قدرة الإنسـانِ على السيرِ في الـطريقِ الذي يريدُه ، سواءٌ كان حقّاً أم باطـلاً ، وفي قدرتِـه على الكسب والاكتساب، سـواءٌ في مجال الخير أو مجال الشرِ . . .

ومن الآيـاتِ الصريحـةِ التي تقرِّر هـذه الازدواجية في الاستعـداد الإنساني ، وتوحي بالأساس المأمون « للنَّظريةِ الإسلاميـةِ عن النفس الإنسانيـة » قولُـه تعالى :

---

(١) انظر مبحث «طبيعة مزدوجة» من كتاب «دراسات في النفس الإنسانية » لمحمد قطب.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها . فَأَلْهَمَها فُجورَها وَتَقْواها . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها . وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها ﴾ [سورة الشمس: ٧ ـ ١٠].

فاللّهُ خلقَ النفس ، وسوّاها في خلقها وصورتِها . وألهَمها فجورَها وتقواهـا . وجعل فيها القدرةَ على السير في طريقِ الفجور إنْ أرادتْه ، كما جعل فيها القدرةَ على الإرتفاع في آفاق التقوى إنْ أرادتْ . وبعضُ الناس يختارون طريقَ التقوى فينجحونَ في تـزكيةِ نفـوسهم وتطهيـرها ، ولـذلك يفلحـون ، وبعضُ الناس يختـارون طـريقَ الارتكاس والحيوانية والمعاصي والمحرمات ، وبذلك «يَدُسّون» أنفسُهم المشرقة في ركامٍ من القاذورات والابتـذال . وعندها يخيبون ويَخسـرون ، ويَقضون عَلى تلك الأنفس ، ويُحطِّمون إنسانيتهم ، ويدمِّرون ذواتهم .

٣ ـ الإنسان الكادح المكابد الضعيف :

قررَ القرآنُ أن الإنسانَ ضعيفٌ أمامَ الشيطانِ وإغوائِهِ وتزيينـه ووساوسِـه ، فقد ضعفَ آدمُ أبو البشر ـ عليه السلام ـ وتمكَّن الشيطان من إغرائِه بوسوسته له ، فأكَـل من الشجـرة التي نهاهُ عنهـا ناسيـاً عهدَ الله لـه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِـدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْـلِ ، فَنَسِيَ ، وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [سورة طه : ١١٥] .

وأخبرَنا القرآنُ عداوةَ الشيـطان وأسلحتَه في حـربِه لنـا ، وحذَّرَنـا منه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوّ ، فَاتَّخِذوهُ عَدُوّاً ، إِنَّما يَدْعو حِزْبَهُ لِيَكونوا مِنْ أَصْحابِ السَّعير ﴾ [سورة فاطر: ٦].

كمـا أخبَرنـا أن سلطانَ الشيطان عَلى جنـودِه وأتبـاعِـه ، وليس على عبـادِ الله الصـالحين : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَـهُ سُلْطانٌ عَلَى الّذينَ آمَنـوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتـوكَّلونَ . إِنَّمـا سُلْطَانُهُ عَلى الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكونَ ﴾ [سورة النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

ومـع ذلك أخبـرَنا القـرآنُ أن اللَّهَ خَلقَ الإنسانَ ضعيفـاً ، ضعيفٌ في حيـاتـه وكيانه ، ضعيفٌ أمام وساوس الشيطان ونزغاته ، ضعيفٌ أمام الفتنة والشهوة ، ولكنه يمكِنـهُ أن يستعليَ على ضَعْفه ، وأن يكـونَ قويـاً أمـام الإغـراءِ والإغـواءِ والفتنـة . ولا يكونُ هذا إلا بـوسيلةٍ واحدة ، هي أن يعـوذَ بالله ، ويلجـأَ إليه ، ويعتصمَ بـه ، ويلتزمَ بتشريعه ودينه : ﴿ يُـريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَيَهْـدِيَكُمْ سُنَنَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ،

وَيَتوبَ عَلَيْكُم ، وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيم . وَاللَّهُ يُريدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْكُمْ ، وَ يُريدُ الَّذِينَ يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ أَنْ تَميلوا مَيْلاً عظيماً . يُريدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعيفاً ﴾ [سورة النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

والإنسان مكابِدٌ ، وحياتُه كلُّها كَبَدٌ ومشقَّةٌ وعملٌ وسعي . قال تعالى : **﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسَانَ فِي كَبَد ﴾** [سورة البلد: ٤].

والإنسان كادح ، وحياتُه كلها كَدْحٌ وجهْد وتَعَب ونَصَب : **﴿ يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً ، فَمُلاقيه .. ﴾** [سورة الانشقاق: ٦].

حياةالإنسان كَبَدٌ وَكدْح .. « وتفترقُ الطرق ، وتتنوعُ المشاق : هذا يكدحُ بعضلاتِه ، وهذا يكدحُ بفكرِه . وهذا يكدحُ بروحِه . وهذا يكدحُ للقمةِ العيش وخرقةِ الكساء . وهذا يكدحُ ليجعلَ الألف ألفيْن وعشرة آلاف . وهذا يكدحُ لمُلْك أو جاه . وهذا يكدحُ في سبيل الله . وهذا يكدحُ لشهوة ونزوة . وهذا يكدحُ لعقيدةٍ ودعوة . وهذا يكدحُ إلى النار . وهذا يكدُح إلى الجنة . والكل يحملُ حمْلَه ويصعدُ الطريقَ كادحاً إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكونُ الكَبَدُ الأكبر للأشقياء ، وتكون الراحةُ الكبرى للسعداء .

إنه الكَبَد طبيعةُ الحياة الدنيا . تختلفُ أشكالُه وأسبابُه . ولكنه هو الكبد في النهاية . فأخسرُ الخاسرين هو من يُعاني كَبَدَ الحياة الدنيا لينتهي إلى الكَبَدِ الأشقِّ الأمرِّ في الأخرى . وأفلحُ الفالحين من يكدحُ في الطريق إلى ربه، ليلقاه بمؤهِّلات تُنهي عنه كَبَد الحياة ، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله »[1].

٤ ـ الإنسان والشهوات : بين الدوافع والضوابط :

قال تعالى : **﴿ زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ : مِنَ النِّساءِ وَالبَنينَ وَالقَناطيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالحَرْث . ذَلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا . وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم : لِلَّذينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتٌ**

---

(١) الظلال ٦ : ٣٩٠٩ ـ ٣٩١٠

تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَة ، وَرِضْوانٌ مِنَ الله ﴾ [سورة آل عمران: ١٤ ـ ١٥].

تمثلُ هاتان الآيتان خطيْن متقابليْن في النفس الإنسانية ، هما « الدوافع والضوابط »(١).

الدوافعُ لحياةِ الإنسان وتحقيقِ الخلافة في الأرض ، وتلبيةِ حاجاته الجسمية والنفسية . إنَّها الشهواتُ التي زُينتْ للإنسان ، والتي جعلَ اللَّهُ في فطرتِه وطبيعتِه ونفسيَّتِه محبَّتَها وطلبَها وممارسَتها .

ولكن هناك « ضوابط » لتلك الدوافع ، تضبطُ نظْرَةَ الإنسان لها ، ومحبتَه لها ، وممارسَتَهُ لها، وكسْبَه لها . إن الضوابط في مقابل تلك الدوافع « الشهواتِ» زينةِ الحياة الدنيا ، وبذلك يأخذُ الإنسانُ منها ما يكفي لاستمتاعِه بالدنيا وتحقيقِ خلافته في الأرض ، وهو في ممارستِه وأخْذِه منها ، ملتزمٌ بشريعةِ الله التي بينَتْ له ما يحلُّ وما يحرم من تلك الشهوات ، ووضحتْ له متى تكونُ محبتُها وممارستُها دوافعَ مأمونة ، ومتى تكونُ تلك المحبة والممارسة تدميراً له ولحياته .

ولذلك تدعو الآيتان الإنسان إلى التوجُّهِ لما هو خير ، والسيرِ بالدوافع « الشهواتِ المحبَّبة » لما هو خير . وهو طلبُ الجنات ، والحرصُ على نيْلِ نعيمها وأزواجها المطهرة ، والحصولُ على رضوان الله فيها(٢).

٥ ـ القرآن يمزِّق حاجز النفس البشرية :

ونأخذُ النموذج الخامس للإعجاز القرآني في «المعلومات النفسية » من الشيخ « محمد متولي الشعراوي ».

أشارَ الشعراويُّ إلى أنَّ القرآنَ مزَّق حواجزَ الغيب بالنسبة للإنسان ، وتمزيقُه لحواجزِ الغيب مظهرٌ من مظاهر إعجازه ، ودليلٌ على أنه كلام الله سبحانه .

---

(١) انظر فصل « الدوافع والضوابط » من كتاب « دراسات في النفس الإنسانية» لمحمد قطب .
(٢) انظر تفسير سيد قطب الرائع لهاتين الآيتين في الظلال ١ : ٣٧٣ ـ ٣٧٦

وحواجزُ الغيب التي مزَّقها القرآنُ ثلاثة :

١ـ حاجزُ المكان : أيْ أنَّ أشياءَ تحدثُ في نفس اللحظة . ولكنْ لا أعرفُ عنها شيئاً . لأنها تحدثُ في مكان . وأنا موجود في مكان آخر . .

٢ـ حاجزُ الزمان ، وهو نوعان :

حاجزُ الزمان الماضي : وهو كلامُ القرآن عن أخبارِ السابقين .

وحاجزُ المستقبل : وهو جزمُ القرآن بأشياءَ وأحداثٍ ستقع في المستقبل ، ووقوعُها كما أخبر القرآن .

وقد تكلَّمْنا عن هذيْن الأمريْن عند كلامِنا على « الإعجاز التاريخي » في قصص السابقين . وعلى « الإعجاز في الأخبار المستقبلية » .

٣ـ حاجزُ النفسِ الإنسانية : وهو ما يخفيهِ الإنسانُ داخل نفسه . حيث يكشفهُ الله للآخرين ، ويُطْلعهم على ذلك الحديثِ النفسي المكتوم .

ومن أوضحِ الأمثلةِ على هذا : كشفُ القرآن ما في نفوس المنافقين ، وإخبارُه للرسول ﷺ ما سيقوله المنافقون في نفوسهم . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذينَ نُهوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعودونَ لِما نُهوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسول ، وَإِذَا جاءُوكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيَقولونَ في أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنا اللَّهُ بِما نَقول . حَسْبُهُم جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المَصير ﴾ [سورة المجادلة : ٨].

أخبر القرآنُ بما قالَه المنافقونِ في أنفسهم ، عندما خالَفوا أمْرَ الرسول عليه الصلاة والسلام ، عندما حرَّفوا له التحية : « وَيَقولونَ في أَنْفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنا اللَّهُ بما نَقول » .

وسمعَ المنافقون هذه الآية ، وعجِبوا من إخبارِها عما في نفوسِهم وسكتوا ، لأنهم قالوا ذلك في نفوسهم ، ولو لم يقولوه في نفوسهم لكذَّبوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام ، ولأعلنوا أنه يقول كلاماً غيرَ صحيح . فالقرآن مزَّق حاجزَ نفوسهم . ودخَل داخَلها ، وأخبر عما يدور فيها . . وهل يُعقلُ أن يجزم رسولُ الله البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما يدورُ في نفوس أعدائه ، وتسليمِ الأعداء بذلك ، إنَّ هذا الإخبارُ

القرآني والجزمَ به والدخولَ إلى أعماق نفوس الكفار ، دليلٌ على أن القرآن هو كلامُ الله[1] .

وفي موضعٍ آخر مزَّق القرآنُ الحاجز في نفوس المنافقين ، وأخبر بما سيفعلونَه وجزَمَ به ، وسمع المنافقون ذلك الاخبارَ والجزْمَ القرآنيَّ ومع ذلك فعلوا وقالوا ما جَزَم به القرآن !

قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ . وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُم ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسيماهُم ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْل ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ** ﴾ [سورة محمد : ٢٩ ـ ٣٠] .

من علاماتِ المنافقين أنهم يلحَنون بأقوالهم . ومع ذلك جاءوا وخاطبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولحَنوا بأقوالهم .

ومن ذلك ما جزم به القرآن من أنهم سيأتونَ ويحلفونَ للرسول عليه السلام ، وهم كاذبون في حَلْفِهم : ﴿ **لَوْ كانَ عَرَضاً قريباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعوك ، وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّة ، وَسَيَحْلِفون بِاللَّهِ لَوِاسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُم ، يُهْلِكون أَنْفُسَهُم ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبون** ﴾ [التوبة : ٤٢] .

والسين في قوله « وسيحلفون» تدلُّ على أنَّ الفعل لم يتم ، وسمعَ المنافقون الآية قبل حلفهم ، وعجبوا من إخبارها عما سيقومون به ، قبل أن يقوموا به ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك ، ولم يمنَعوا أنفسهمُ من أن يقولوا ما أعلنَ الله أنهم سيقولونه .

ولو كان القرآن من عندِ غيرِ الله لما استطاع أن يصلَ إلى داخل النفس الإنسانية ، وأن يمزِّق حجُبهَا الداخليَّة ، وأن يجزمَ بما ستفعلُه قبل أن تفعلَه[2] !

الثاني : تأثير القرآن في النفس الإنسانية :

الجانبُ الثاني من جوانب الإعجاز النفسي هو « تأثيرُ القرآن » في النفس

(١) أنظر « معجزة القرآن » للشعراوي ١ : ١٠٨ ـ ١٠٩

(٢) أنظر المرجع السابق : ١١٠ ـ ١١٢

الإنسانية عندما تسمعُه . وتفاعُلُها معه ، حتى لو كانتْ نفساً كافرة . ويمكنُ أنْ نسميَ هذا «الإعجازَ في التأثير» .

إشارةُ القرآن إلى أثره في النفوس :

أشار القرآن في أكثرَ من آيةٍ إلى أثرِه في النفوس عندما تسمعُه ، بل إلى أثرِهِ في الجبال لو خاطبَها الله به ، كما أشارَ إلى إدراك الكفار لهذا الأثر ، ولذلك تواصَوْا على التشويش عليه ، ومَنْع الإخرين من سماعه ، حتى يَبْقوا هم الغالبين .

لو خاطبَ اللّهُ الجبلَ بالقرآن لأثّر فيه وتزلزل وتصدَّع : ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنا هذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّه . وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ** ﴾ [سورة الحشر: ٢١] .

أما الكفار فقلوبُهم أقسى من الجبل ، ولذلك لمّا سمعوا القرآنُ نفروا منه : ﴿ **وَإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَة حِجاباً مَسْتوراً . وَجَعلْنا عَلَى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوه ، وَفي آذانِهِمْ وَقْراً . وَإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرْآنِ وَحْدَه، وَلَّوْا عَلَى أَدْبارِهِمْ نُفوراً** ﴾ [سورة الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦] .

ولقد تواصى الكفارُ فيما بينهم على أن لا يَسمعوا القرآن ، وأن يُحدِثوا لغْواً وضجَّة وضوضاء عند تلاوة الرسولِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو المؤمنين له ، ليشوِّشوا على الآخرين : ﴿ **وَقالَ الّذِينَ كَفَروا لا تَسْمَعُوا لِهذا القُرْآن ، وَالْغَوْا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبون** ﴾ [سورة فصلت: ٢٦] .

أما القرآنُ فإنه «واثقٌ» من أثرِه في النفوس ، ؛ ولذلكَ طالَبَ المسلمين أن يتلوه على الكافر المستجير وأن يُسْمعوه إياه ليُسْلم : ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّه . ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه** ﴾ [سورة التوبة : ٦] .

وبالنسبة للمسلمين المؤمنين المخبِتين ، فإن القرآنَ يترُكُ على قلوبِهم ونفوسِهم وكيانِهم وحياتِهم أثراً بالغاً . أشار له القرآن بقوله : ﴿ **اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُم إلى**

ذِكْرِ اللَّهِ ، ذلِكَ هُدى اللَّهِ يَهْدي بِـهِ مَنْ يَشاء . وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَـا لَهُ مِنْ هـادٍ ﴾ [سورة الزمر: ٢٣].

تأثير القرآن في نفوس الكافرين :

أثبتت كتبُ التاريخ والتفسيرِ والسيرةِ نماذجَ كثيرةً من تأثيرِ القرآن في الكافرين ، نكتفي بهذا النموذجِ الذي أوردُه ابنُ هشام في السيرة :

إن أبا سفيان بنَ حرب . وأبا جهلِ بنَ هشام ، والأخنسَ بنَ شـريق ، خرجـوا ليلة ليستمعِوا من رسول الله ﷺ وهو يصلِّي من الليل في بيتِه . فأَخَذَ كلُّ رجلٍ منهم مجْلساً يستمعُ فيه ، وكلٌّ لا يعلمُ بمكانِ صاحبه . فباتوا يستمعونَ له . حتى إذا طلعَ الفجر تفرَّقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضُهم لبعض : لا تَعودوا ، فلو رآكم بعضُ سفهائِكم لأوقعْتُم في نفسِه شيئاً . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عادَ كلُّ رجل منهم إلى مجلسِه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثلَ ما قالوا أولَ مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلُّ رجل منهم مجلسَه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلعَ الفجرُ تفرَّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرحُ حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا .

فلما أصبحَ الأخنسُ بنُ شريق أخذ عصـاه ، ثم خرج حتى أتى أبـا سفيان في بيته . فقال : أخبرْني يا أبـا حنظلة عن رأيـك فيما سمعتَ من محمـد ﷺ فقال أبـو سفيان خيراً .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيتَه فقال : يا أبا الحكم : ما رأيُكَ فيما سمعتَ من محمد ﷺ؟ فقال: ماذا سمعت! تنازعْنا نحنُ وبنو عبد منـاف الشَّرَفَ ، أَطْعَموا فأطْعَمْنا ، وحمَلوا فحملْنا ، وأعطوا فأعطيْنا ، حتى إذا تجاذَيْنا على الرُّكَب ، وكنا كفَرَسَيْ رِهان قالوا : منّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء ! فمتى ندركُ مثل هذه ؟ والله لا نؤمِنُ به أبداً ، ولا نصدّقُه . . . »[1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

تأثيرُ القرآن في نفوس المؤمنين :

في مقدمة الذين أثَّر فيهم القرآن ، من نَزَلَ على قلبه القرآن ، محمدٌ ﷺ ، الذي كان يتأثَّرُ وهو يتلو القرآن ، ويتأثرُ وهو يسمع القرآن ، ويبدو التأثرُ دموعاً عزيزة تذرفُها عيناه الشريفتان .

ومن الأمثلةِ على تأثُّره وبكائِه لسماع القرآن ، ما رواه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : قال لي رسولُ الله ﷺ إقْرَأ عَلَيَّ ! قلت : أَقْرَأُ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أُنْزِل ؟ قال : نَعَم . إني أُحبُّ أَن أسمعَه من غيري . فقرأْت سورةَ النساء ، حتى أتيت على هذه الآية : ﴿ **فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيد ، وَجِئْنا بِكَ عَلَى هؤُلاءِ شَهيداً** ﴾ [سورة النساء : ٤١] فقال : حَسْبُكَ الآن . . فإذا عيناهُ تذرِفان . . ﴾[1] .

ولقد أثَّرَ القرآنُ في نفوس الصحابة تأثيراً عظيماً قادهم إلى الانتقالِ من الشرك والكفر والجاهلية إلى الإسلام .

ومن أَوضحِ الأمثلة على ذلك ، عمرُ بن الخطاب ، الذي كان سببُ إسلامه سماعَه القرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو قراءتَه صحيفةً فيها آياتٌ من القرآن عند أخته فاطمة .

فقد روى ابنُ هشام في السيرة في قصة إسلامِ عمر وذهابِه إلى أخته وزوجِها سعيد بن زيد ليبطشَ بهما لإسلامهما ، وأنه ضربَ أختَه وزوجَها سعيد بن زيد ليبطشَ بهما لإسلامهما ، وأنه ضرب أخته وشجَّ وجهها ، ثم رقَّ قلبُه وأخذَ الصحيفة التي فيها آياتٌ من القرآن من سورة طه : « فقرأَها . فلما قرأ منها صدْراً ، قال : ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه » وتوجَّه إلى الرسولِ عليه الصلاة والسلام فأسلم .

وأوردَ ابنُ هشام في الروايةِ الثانية عن إسلام عمر ، والتي رواها هو ، وحدَّث

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢ : ٥٤١

عن نفسه فقال : « كنتُ للإسلام مباعِداً ، وكنتُ صاحبَ خمر في الجاهلية ، أحبُّها وأُسَرُّ بِها ، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجال من قريش .

فخرجتُ ليلةً أريدُ جلسائي أولئك في مجلسهم ذلـك . فجئتُهم فلم أجدْ فيـه منهم أحداً . فقلتُ : لو أني جئتُ فلاناً الخمّار لعلي أجدُ عنده خمراً فأشربَ منها . فجئتُه فلم أجده .

فقلتُ : فلو أني جئتُ الكعبةَ فطفتُ بها سبعاً أو سبعين .

فجئت المسجد أريدُ أن أطوفَ بالكعبة ، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي .

فقلتُ حين رأيتُه : والله لو أني استمعتُ لمحمدٍ الليلة ، حتى أسمعَ ما يقول.

فقلتُ : لئن دنوتُ منه لا ستمعَ منه لأُرَوِّعَنَّه . فجئتُ من قِبَل الحِجْر ، فدخلتُ تحتَ ثيابِها ، فجعلتُ أمشي رويداً ، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلّي يقرأُ القرآن . حتى قمتُ في قبلَتِه ، مستَقْبِلَه ، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة .

فلما سمعتُ القرآن ، رقَّ له قلبي ، فبكيْتُ ودخلني الإسلامُ . فلم أزَلْ قَائماً في مكاني ذلك ، حتى انصرَف رسول الله ﷺ ، فتبعتُه وأسلمت »[1].

سيد قطب يروي عن تأثير القرآن فيه :

ونقدم نموذجاً آخرَ معاصراً لتأثيرِ القـرآن في نفوس المؤمنين ، ونختـارُ ما رواه سيد قطب عن نفسه ، وعن تأثير القرآن في نفسه.

قال في تفسيرِ سورة النجم :

« كنتُ بين رفقةٍ نسمر ، حين طرقَ أسماعَنا صوتُ قارىء للقرآنِ من قريب ، يتلو سورةَ النجم . فانقطعَ بيننا الحـديث ، لنستمعَ وننصت للقـرآن الكريم . وكـان صوتُ القارىء مؤثِّراً ، وهو يرتِّلُ القرآنَ ترتيلاً حسناً .

وشيئاً فشيئاً عشتُ معه فيما يتلوه . عشتُ مـع قلب محمد ﷺ في رحلتِـه إلى الملأ الأعلى . عشتُ معه وهو يشهدُ جبريلَ ـ عليه السلام ـ في صـورتِه المـلائكيَّة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٣٦٦ ـ ٣٧٥

التي خلقه الله عليها . ذلك الحادثُ العجيب المدهش ، حين يتدبرُه الإنسان ويحاول تخيُّلَه ! وعشتُ معه وهو في رحلته العلوية الطليقة . عند سدرةِ المنتهى ، وجنةِ المأوى .

عشتُ معه بقدْر ما يسعفُني خيالي ، وتُحلِّق بي رؤاي ، وبقدْرِ ما تطيقُ مشاعري وأحاسيسي .

وتابعْتُه في الإحساسِ بتهافُتِ أساطِيرِ المشركين حول الملائكة وعبادتِها وبنوَّتِها وأنوثَتِها . .

ووقفْتُ أمامَ الكائنِ البشري ينشأُ من الأرض ، وأمام الأجنَّة في بطون الأمّهات ، وعلمُ الله يتابِعُها ويُحيط بها . .

وارتجفَ كياني تحتَ وقْعِ اللمساتِ المتتابعة في المقطع الأخير من السورة : الغيبُ المحجوبُ لا يراه إلا الله ، والعملُ المكتوبُ لا يَنِدُّ ولا يغيبُ عن الحساب والجزاء . والمنتهى إلى الله في نهايةِ كل طريق يسلكُه العبيد ، والحشودُ الضاحكة . والحشودُ الباكية . وحشودُ الموتى . وحشودُ الأحياء . والنطفةُ تهتدي في الظلماتِ إلى طريقِها . وتخطو خطواتِها وتُبرز أسرارَها ، فإذا هي ذكَرٌ أو أنثى . والنشأةُ الأخرى . ومصارعُ الغابرين . والمؤتفكةَ أهوى ، فغشّاها ما غشّى !

واستمعتُ إلى صوتِ النذير الأخيرِ قبل الكارثة الداهمة : ﴿ **هٰذا نَذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى . أَزِفَت الآزِفَة . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَة** ﴾ .

ثم جاءت الصيحةُ الأخيرة ، واهتزَّ كياني كلِّه أمامَ التبكيتِ الرعيب ﴿ **أَفَمِنْ هَذا الحَدِيثِ تَعْجَبون . وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكون . وَأَنْتُمْ سَامِدونْ** ﴾ .

فلما سمعتُ : ﴿ **فَاسْجُدوا لِلّهِ وَاعْبُدوا** ﴾ كانَتْ الرجفة قد سرتْ من قلبي حقّاً إلى أوصالي . واستحالتْ رجفةً عضليَّة ماديَّة ذاتَ مَظهر مادي . لم أملك مقاومتَه . فظلَّ جسمي كله يختلجُ ، ولا أتمالكُ أن أثبته ، ولا أَنْ أكفكفَ دموعاً هاتنة ، لا أملكُ احتباسَها مع الجهدِ والمحاولة ! . . »[1] .

(١) الظلال ٦ : ٣٤٢٠ - ٣٤٢١

تأثير القرآن في نفوس غير العرب :

وسنبقى مع سيد قطب في روايتِه لِما حدثَ له مع سيدةٍ يوغسلافية وتأثُّرِها لدى سماعها من سيد آيات القرآن :

« إن الأداءَ القرآنيَّ يمتازُ ويتميز من الأداء البشرِي . . إن لهُ سلطاناً عجيباً على القلوبِ ليس للأداء البشري ، حتى ليبلغَ أحياناً أن يؤثرٌ بتلاوتِهِ المجرَّدة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً . . وهناك حوادثُ عجيبة . لا يمكن تفسيرُها بغير هذا الذي نقول ـ وإنْ لم تكنْ هي القاعدة ـ ولكن وقوعَها يحتاجُ إلى تفسير وتعليل . .

ولن أذكرَ نماذج مما وقعَ لغيري ، ولكنني أذكرُ حادثاً وقع لي ، وكان عليه معي شهودٌ ستة ، وذلك منذ حوالي خمسةَ عشرَ عاماً . .

كنا ستةَ نفر من المنتسبين للإسلام على ظهر سفينة مصرية ، تمخُر بنا عُبابَ المحيط الأطلسي إلى نيويورك ، من بينِ عشرين ومائةِ راكب وراكبة أجانب ، ليس فيهم مسلم . . وخطَرَ لنا أن نقيمَ صلاةَ الجمعة في المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلمُ ـ أنه لم يكن بنا أن نقيمَ الصلاةَ ذاتَها أكثرَ مما كان بنا حماسةً دينية ، إزاءَ مبشِّرٍ كان يزاول عملَه على ظهر السفينة ، وحاولَ أن يزاول تبشيرهُ معنا ! . . وقد يسَّرَ لنا قائد السفينة ـ وكان إنجليزياً ـ أن نُقيمَ صلاتَنا ، وسمحَ لبحارة السفينة وطهاتِها وخَدَمِها ـ وكلهم نوبيُّون مسلمون ـ أن يصليَ منهم معَنا ، مَنْ لا يكونُ في الخدمة وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرَحاً شديداً ، إذ كانت المرة الأولى التي تقامُ فيها صلاةُ الجمعة على ظهر السفينة .

وقمتُ بخطبة الجمعة وإمامةِ الصلاة ، والرّكاب الأجانب ـ معظمهم ـ متحلِّقون ، يرقُبون صلاتنا ! .

وبعد الصلاةَ جاءنا كثيرون منهم ، يهنِّئونَنا على نجاح القُدّاس !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! .

ولكن سيدةً من هذا الحشد ـ عرفْنا فيما بعد أنها يوغسلافيةِ مسيحية ، هاربةً من جحيم « تيتو » وشيوعيَّتِه ! ـ كانت شديدةَ التأثُّر والإنفعال ، تَفيضُ عيناها بالدمع ، ولا

تتمالَكُ مشاعِرَها . جاءت تشدُّ على أيدينا بحرارة ، وتقـول ـ في إنجليزيـة ضعيفة ـ إنهـا لا تملكُ نفسَها من التـأثُّر العميق بصـلاتِنا هـذه ، وما فيهـا من خشوعٍ ونـظام وروح ! . .

وليسَ هذا موضع الشاهد في القصة . . ولكن ذلك كان في قـولها : أيُّ لغـةٍ هذه التي كان يتحدثُ بها « قِسِّيسُكُمْ » ! فالمسكينةُ لا تتصورُ أن يقيمَ « الصلاة » إلاّ قسيس ـ أو رجلُ دين ـ كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة ! وقد صحَّحْنا لهـا هذا الفهم ! وأجبناها .

فقالت : إن اللغةَ التي يتحدثُ بها ذاتُ إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنتُ لم أفهم منه حرفاً . .

ثم كانت المفاجأةُ الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن ليسَ هـذا الموضـوع الذي أريدُ أن أسأل عنه . . إن الموضوعَ الذي لفَتَ حسِّي هو أن « الإمام » كانت تَرِدُ في كلامه ـ بهذِهِ اللغة الموسيقية ـ فقراتٌ من نوعٍ آخـر ، غيرِ بقيَّـة كلامـه ! نوعٍ أكثـرَ موسيقية وأعمقَ إيقاعاً . . هذه الفقراتُ الخاصةُ كانت تُحْدِثُ فِيَّ رعْشَةً وقشعريرة ! إنهـا شيءٌ آخر ! كمـا لو كـان ـ الإمام ـ مملوءاً من الـرّوح القُدس ـ حسب تعبيـرها المستَمدِّ من مسيحيتها ـ .

وتفكْرنا قليلاً . ثم أدركْنا أنها تعني الآياتِ القرآنية التي وردتْ في أثناءِ الخُطبة وفي أثناءِ الصلاة ! وكانت ـ مع ذلك ـ مفاجأة لنا تـدعو إلى الـدَّهشة ، من سيـدَةٍ لا تفهم مما تقول شيئاً . »[1] .

سرُّ تأثير القرآن في النفوس :

للقرآن تأثيرٌ عجيب على النفوس ، وسلطانٌ قوي على القلوب : « ويبقى وراءَ ذلك السرُّ المعجِزُ في هذا الكتاب العزيز . يبقى ذلك السلطانُ الذي له على الفطرة ـ متى خُلِّيَ بينَه وبينَها لحظة ـ وحتى الذين رانَتْ على قلوبهم الحُجُب ، وثَقُلَ فوقَهـا

---

(١) الظلال ٣ : ١٧٨٦ .

الركام ، تنتفضُ قلوبُهم أحياناً وتتململ ، تحت وطْأَة هذا السلطان ، وهم يستمعون إلى هذا القرآن !

إن الذينَ يقولون كثيرون . وقد يقولـون كلامـاً يحتوي على مبـادىءَ ومذاهبَ وأفكارٍ واتجاهات . . ولكنَّ هذا القرآن ينفردُ في إيقاعاتـه على فطرةِ البشـر وقلوبهم فيما يقول ! إنه قاهِرٌ غلَّاب بذلك السلطان الغلّاب . »[1] .

إن للقرآن سراً خاصاً على النفوس ، حتى ليبلغَ أن يؤثِّرَ بتلاوته المجَّردة على الذين لا يعرفونَ العربية ، وعلى العوامِّ الذين ـ عندما يسمعون إلى تلاوته ـ لا يطرقُ عقولَهم منه شيء ، ولكن يطرق قلوبَهم إيقاعُه ، ويظهر على ملامحِهم سـرُّه : « إنَّ كلَّ آية وكلَّ سورة تنبضُ بالعنصر المستكنِّ العجيبِ المعجز في هذا القرآن ، وتشي بالقوةِ الخفية المودَعَة في هذا الكلام . وإنَّ الكيانَ الإنساني ليهتزُّ ويرتجفُ ويتزايل ، ولا يملكُ التماسكَ أمامَ هذا القـرآن ، كلما تفتـحً القلبُ ، وصَفا الحس ، وارتفـعَ الإدراك ، وارتقَتْ حـساسيَّةُ التلقِّي والإستجابة . . وإن هـذه الظاهـرة لتزدادُ وضـوحاً كلما اتسعتْ ثقافةُ الإنسان . »[2] .

ويحـارُ العلماء في تعليـل هذه الـظاهـرة ، وفي بيـانِ سبب تـأثيـرِ القـرآن في النفوس ، وفي كشْفِ سِرِّ تأثيرِه ومصدره ، وتحديدِ الجزء من القرآن الذي يحقِّق لـه في النفوس التأثيرَ المعجزَ العجيب : « إن في هذا القرآن سِرّاً خاصاً ، يشعرُ به كلُّ مَنْ يواجِه نصوصَه إبتداء ، قبل أن يبحثَ عن مواضِعِ الإعجاز فيها . .

إنه يشعرُ بسلطانٍ خاص في عباراتِ هذا القرآن . يشعرُ أن هنالك شيئاً ما وراءَ المعاني التي يدرِكُها العقل من التعبيـر . وأن هنالـك عنصراً مـا ينسكبُ في الحسِّ بمجرد الإستماع لهذا القرآن . يدركُهُ بعضُ النـاس واضحاً ، ويـدركُه بعض النـاس غامضاً ، ولكنه على كل حال موجود .

هذا العنصرُ الذي ينسكبُ في الحِسّ ، يصعبُ تحديـدُ مصدرِه : أهـو العبارةُ

(١) الظلال ٣ : ١٤٢١

(٢) الظلال ٥ : ٢٨٠٥

ذاتُها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصورُ والظِّلال التي تشعُّها ؟ أهو الإيقاعُ القرآنيُّ الخاصُّ المتميِّزُ من إيقاع سائر القولِ المَصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصرُ كلُّها مجتمعة ؟ أم أنها هي وشيءٌ آخر وراءَها غيرُ محدود ؟ .

ذلك سرٌّ مودَعٌ في كل نص قرآني ، يشعرُ به مَنْ يواجه نصوصَ هذا القرآن إبتداءً . . ثم تأتي وراءَهُ الأسرار المدْرَكَة بالتَّدبُّر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله . »[1] .

الإمام الخطابي أولُ قائلٍ بالإعجاز في التأثير :

كثيرونَ من علماءِ البلاغة والتفسير والقرآن في القديم والحديث ، لاحظوا تأثيرَ القرآن في القلوب ، وأثَرَه في النفوس فاعتبروا ذلك التأثيرَ من وُجوه إعجازِ القرآن ، وعبَّروا عنه بعباراتٍ متفاوتة .

ولكن أوَّلَ مِنَ اعتبرَ هذا التأثيرَ القرآني وجْهاً خاصاً من وجوه الإعجاز هو الإمامُ أبو سليمان الخطابي ، الذي توفي سنة ٣٨٨ هـ ، فقد نصَّ عليه نصَّاً في رسالته « بيانُ إعجْازِ القرآن » فقال : « قلْتُ في إعجازِ القرآن وجْهاً آخرَ ، ذَهَبَ عنْهُ الناس ، فلا يكادُ يعرفُه إلا الشّاذُّ من آحادهم .

وذلك صنيعُه بالقلوب ، وتأثيرُه في النفوس .

فإنك لا تسمعُ كلاماً غيرَ القرآن ، منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرَعَ السمعَ خلصَ له إلى القلبِ من اللَّذَّةِ والحلاوةِ في حال ، ومن الرَّوْعةِ والمهابةِ في أخرى ، ما يخلُصُ منه إليه .

تستبشِرُ به النفوس ، وتنشَرِحُ له الصدور ، حتى إذا أخذَتْ حظَّها منه ، عادتْ مرتاعة قد عَراها الوَجيب والقَلق ، وتَغشَّاها الخوف والفَرَق . . تقشعِرُّ منه الجلود ، وتنزعجُ له القلوب . يحولُ بين النفس وبين مضمَراتِها وعقائِدها الراسخة فيها . .

فكَمْ من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجالِ العرب وفُتّاكها ، أقبلوا يريدونَ اغتيالَه وقتْله ، فسمعوا آياتِ القرآن ، فلم يلبثوا حينَ وقعتْ في مسامعهم أن يتحوَّلوا عن

---

(١) الظلال ٦ : ٣٣٩٩

رأيهم الأول ، وأن يركَنوا إلى مسالَمَته ، ويدْخُلوا في دينه ، وصارتْ عَداوتُهم موالاةً ، وكفرُهم إيماناً . »[1] .

ظاهرة « التناسق العددي » في القرآن :

القرآن متناسق :

القرآن متناسقٌ في كلِّ شيء . في سوَره وفي آياته ، في جمَله وكلماته وحروفه ، في ألفاظه وفي معانيه ، في أعداد كلماته وحروفه ، وفي غير ذلك .

ويدعو القرآنُ الناسَ إلى تدبُّره ، وإلى ملاحظةِ ظاهرةِ « التناسق والتوافق » فيه ، وإلى مقارنةِ ذلك بظاهرةٍ أخرى في أعمال البشر وهي « الإضطراب والتفاوت » ليخرجوا من ذلك بأن القرآنَ هو كلام الله : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآن ؟ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجدوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً** . ﴾ [سورة النساء : ٨٢] .

المراد بالتناسق العددي :

« التناسق العددي » مظهرٌ من مظاهر « التناسق الفنيِّ » الشاملة في القرآن .

والمراد بالتناسق العددي : التوافقُ والإنسجامُ في الأعداد القرآنية ، وفي عددِ استعمال القرآن لحروفٍ معيَّنة أو كلماتٍ محدَّدة . فحرفُ كذا مذكور كذا مرة ، وكلمةُ كذا مذكورة كذا مرة ،

وهذا التناسقُ العدديُّ موجود في الأسلوب القرآني ، ودورُ العلماء فيه هو ملاحظتُه والوقوفُ عليه ، واكتشافُه وتقديمُه للناس ، ليزدادوا يقيناً بأن القرآنَ كلامُ الله ، أو يقفوا على لطائفَ جديدة في الأسلوبِ القرآني ، وليستمتعوا بتذوُّق ذلك وتأمُّله .

إن العلماءَ القائلين بالتناسق العددي لا يؤلِّفونه ولا يصوغونه ولا يضعونه ، لأنهم لا يؤلِّفون كلماتِ القرآن وتراكيبه .

وهذا التناسق العددي يقومُ على لغة « الأرقام والترقيم » الحسابية ، ولذلك قد

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٧٠ .

يقعُ بعض العلماءِ في خطأٍ غير مقصود بسببِ الخطأِ في العدِّ والحساب .

ويختلف تعبيرُ العلماء عن « التناسق العددي » فمنهم مَنْ يسميه « التناسق العددي » ومنهم من يسميه « الإعجازَ العددي » ومنهم من يسميه « معجزةَ الأرقام والترقيم » ومنهم من يسميه « معجزةَ القرآن العددية » . وغير ذلك .

التناسق العددي وليس الإعجاز العددي :

لسْنا مع مَنْ يقول بالإعجازِ العددي ، ولا مع مَنْ يسمي التناسقَ العددي « الإعجاز العددي » .

إنَّ مَنْ يسمِّي هذا التناسقَ « الإعجازَ العددي » يعتبُره وجْهاً مستقلاً من وجوهِ إعجازِ القرآن . ويعتبرُ القرآن متحدياً بأعداده المعجزة الناسَ .

فهل التحدي قائمٌ بالأعداد القرآنية؟ وهل طالَبَ القرآنُ الجاحدين تأليفَ كلامٍ تتساوى أعدادُ حروفه وكلماته مع الأعداد القرآنية ؟ ومَنْ هم الذين تحدّاهم الله بذلك ؛ أهُمْ الكفارُ في عصرِ التنزيل ؟ أم الناسُ في القرن العشرين ؟ .

الأعدادُ القرآنيةُ المتناسقةُ المتوافقة لا تحدِّيَ فيها ، وليست وجْهاً من وجوه الإعجاز .

إننا نفضِّل تسميةَ ظاهرةِ الأعداد القرآنية المتناسقة باسم « التناسق العددي » .

هي ظاهرةٌ موجودة في الأسلوب القرآني ، فقد استخدَمَ القرآنُ حروفاً وكلمات منه وفْقَ تناسقٍ عدديٍّ وترتيبٍ حسابيّ ، وورودُها فيه على ما وردتْ به ، لم يأتِ مصادَفة ، ولكنه كان مقصوداً مُراداً . إن اللهَ العليمَ الحكيمَ الحسيبَ أوردَ تلك الحروفِ والكلماتِ وِفْق تلك الأعداد المتناسقة .

التناسق العددي من مظاهر الإعجاز البياني :

إن « التناسق العدديَّ » تابعٌ للإعجاز البياني ، ومظهرٌ من مظاهره ، إن وجودَه في القرآن ليس هدَفاً مقصوداً لذاتِه ، بل هو من لوازمِ استخدام القرآن لحروفه وكلماتِه المعجزة .

إنَّ التناسقَ العدديَّ القرآني يقومُ على أرقامٍ حسابية ، وهي أرقامٌ ماديَّةٌ تقود إلى الإعجاز البياني ، وليستْ معجزاتٍ مادية في القرآن ، كما قال الذين اعتبروها معجزاتٍ ماديةٍ خاصةً بوجْه ماديٍّ إعجازي ، هو « الإعجازُ العددي المادي »[1] .

وجْهُ دلالَتِه على الإعجاز البياني :

بما أن التناسق العدديَّ مظهرٌ من مظاهر الإعجاز البياني ، فما هو وجْهُ دلالتِه على الإعجاز البياني ؟ وما هي الصلةُ بينهما ؟

نتفقُ أوَّلاً على أنَّ ورودَ الأعداد القرآنية على ما وردتْ عليه ليس مصادفة ، وإنما وفْقَ حكمةٍ ربانية مقصودَة .

ونتفقُ ثانياً على أنَّ القرآن لَوْ كان من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام ـ أو غيره من البشر ـ لما وردتْ حروفُه وكلماتُه بذلك العدد المتناسِق المتوافق الذي وردتْ عليه في القرآن .

ثم وجود تلك الأرقام الحسابية العددية منذ نزول القرآن ، وبقاؤُها على أعدادِها حتى عصرِنا هذا ، عصرِ التقدم العلمي ، وعصر الحاسباتِ العلمية الإلكترونية ، دليلٌ على حَفْظِ الله للقرآن ، حيثُ لم تنلْه يدُ تبديلٍ أو تغيير أو تحريف .

إنَّ التناسقَ العددي في القرآن دليلٌ حسابيٌّ ماديٌّ رقميٌّ على مصدر القرآن ، وأنَّه كلام الله[2] .

التحدي والتزامات قرآنية ثلاثة :

وقد أشار الدكتور عدنان زرزور إلى ثلاثة التزامات ، الْتَزَمَهَا القرآن في أسلوبه وسوره وآياته ، وبيَّن الارتباط بينها ، وموضعَ « التناسق العددي » بيْنها ، والصلةَ بينَه وبيْن الإعجاز البياني .

الأول : التزامٌ بيانيّ : وهو التزامُ القرآن في أسلوبه كلِّه ، في كلِّ سوره وآياته ،

---

(١) انظر « علوم القرآن » لزرزور : ٢٤٨ ـ ٢٤٩

(٢) سنتكلم عن هذا بالتفصيل في دراسة قادمة بعنوان « أدلة مصدر القرآن وموقع الإعجاز بينها » بإذن الله

وتراكيبه وكلماتِه وحروفه ، درجةَ واحدة من البيان والفصاحة والبلاغة ، لم ينزلْ عنها مرّةً واحدة . وهذه الصورة الفريدة والدرجةُ العالية ، أسمى وأعلى وأرفعَ من أفصحِ بيانٍ بشري ، وبذلك تحقَّقَ للأسلوب القرآني إعجازٌ بيانيٌّ فريد .

الثاني : التزامٌ موضوعي : وهو يبدو في « المضمون » القرآني الذي عَرَضه الأسلوبُ القرآني . أيْ هو موضوعاتُ القرآن وعلومُه ومعارفُه ، وأخبارُه وحقائقُه وتشريعاته . والتي أدخَلَها باحثون ضمنَ الإعجاز ، وسموها « الإعجاز العلمي » و « الإعجاز الغيبي » و « الإعجاز التشريعي » و « الإعجاز النفسي » وغير ذلك .

الثالث : التزامٌ شكْلي : وهو التزام القرآن بمنظومةٍ عدديّةٍ معيَّنة في حروفه وكلماته .

وهذا الالتزامُ الشكليُّ توضِّحُه « لغةُ الأرقام والعقول الألكترونية » ويكتشفُه علماءُ يقومون بعملياتٍ حسابية طويلةٍ ودقيقة . ويقوم على العدِّ والإحصاء والحساب .

وهذه الالتزامات القرآنية الثلاثة ـ البياني والموضوعي والشكلي الرقمي الحسابي ـ أدلةٌ قاطعةٌ صادقة على مصدر القرآن وأنه كلام الله سبحانه .

والقرآن عندما تحدّى المنكرين الجاحدين . تحدّاهم بالالتزام الأوّل البياني ، حيث طالَبهم بالإتيانِ ببيان بشريٍّ في درجةِ ومستوى البيانِ القرآني .

ولم يكن التحدي بالإلتزام الثاني ، فلم يطلبْ القرآنُ منهم تقديمَ موضوعاتٍ وعلومٍ ومعارفَ وأخبار وتشريعات كتلك التي قدّمها القرآن .

كما لم يكنْ التحدي لهم بالالتزام الثالث ، فلم يطلبْ منهم استخدامَ حروفٍ وكلماتٍ وِفْقَ العدد الذي وردتْ عليه في القرآن .

ودلَّ على ذلك قولُه تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه . قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات** ﴾ [سورة هود : ١٣] .

والذي دلَّ على ذلك من الآية كلمةٌ واحدة ، هي كلمة « مفتريات » حيث تدلُّ

على إعفاءِ الجاحدين الذين تحدّاهم بالمعارضة من الالتزامِ الموضوعي ـ أو الإطار الموضوعي ، أو الصدقِ الموضوعي ـ فلم يطالبْهم بتقديمِ علومٍ ومعارفَ وأخبارٍ وتشريعاتٍ صادقة سامية . بل قِبلَ منهم تقديمَ عشر سور مفتريات . ومعنى مفترياتٍ مكذوبات مخترَعات غيرُ صحيحات ولا صادقات .

وتدلُّ كلمةُ « مفتريات » كذلك على إعفائِهم من الالتزامِ الثالثِ الشكلي ـ أو الإطار الشكليّ والتناسقِ العددي ـ.

واكتفتْ منهم بالالتزام الأول ـ الإطار البَياني البلاغي ـ وبذلك كانَ الالتزامُ القرآنيُّ البياني هو موضوعُ التحدي ، وهو وجْهُ إعجاز القرآن ، الذي عجزَ الجاحدون عن تقديمِهِ .

ولكنَّ الالتزاماتِ القرآنيةِالثلاثة ـ البياني والموضوعي والعددي ـ أدلةٌ صادقة ، وبراهينُ قاطعة، على أن القرآن هو كلام الله[1] .

التناسق العددي عند السابقين :

الْتفتَ السابقون إلى ظاهرةِ التناسقِ العدديِّ في الأسلوب القرآني ، واستخرجوا منها لطائفَ حسابيَّة طريفة .

وأوَّلُ مَنْ قرأتُ له كلاماً حولَها « أبو بكر الباقلاني » الذي توفي سنة ٤٠٣ هـ ـ حيثُ وَقَفَ أمامَ فواتح السور ، وحروفِها المقطعة ، وتوفُّر صفاتِ الحروف فيها ، وأظهرَ وجودَ ظاهرةٍ حسابية لطيفة فيها ، هي ظاهرة « التّنصيف »[2] .

وتكلمَ الإمامُ الزمخشري عن ظاهرة « التَّنصيف » في الأحرف المقطَّعة في فواتح السور ، ودلالتِها على « التناسق العددي » والإعجاز البياني القرآني ، ومصْدر القرآن الكريم[3] .

وكان كلامُه عنها بترتيبٍ وتنسيقٍ أكثرَ من الباقلاني .

---

(١) انظر « علوم القرآن » لزرزور : ٢٤٩ ـ ٢٥١

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني بتحقيق السيد أحمد صقر : ٤٤ ـ ٤٦

(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ١ : ١٠٠ ـ ١٠٥ .

وقد فصلْتُ القولَ في « التَّنصيفِ » في الأحرف المقطَّعة عند الكلام على « سرِّ الحرف » وارتباطِه بالإعجاز البياني القرآني .

وسنتكلم عن ظاهرة « التَّنْصيف » بعدَ قليل . بعون الله .

التناسقُ العددي عند المعاصرين :

أكثرَ المعاصرون من الكلامِ على التناسق العددي ، واستعانوا بالحاسبات الألكترونية لاستخراجِ لطائفَ عدديةٍ شيِّقة ، وقدَّموا نتائجَ حسابيةً رقمية طيبة .

ـ منهم مَنْ كان كلامُه متَّزناً ، ونظراتُه موضوعية ، ونتائجه معتدلة .

ومنهم مَنْ اتصفَ كلامه بالمبالغة والغلوِّ والتطرف ، فجاءَتْ نتائجه مسرفةً مردودة .

ومنهم من « وَظَّفَ » ظاهرةَ التناسق العددي ، توظيفاً خبيثاً باطلاً ، وصار يدعو إلى نِحْلةٍ باطلة ، وعقيدةٍ باطنية كافرة . وبنى عليها نتائجَ خطيرةً فاسدة .

ومنهم مَنْ كانت حساباتُه دقيقة موضوعية ، ومنهم من كانت حساباته باطلة ، تقوم على المغالطة والمزاجيّة والهوى .

ومِنْ خير مَنْ تكلمَ على « التناسق العددي » المرحوم عبد الرزاق نوفل ، فقد أصدَرَ كتابه « الإعجاز العددي في القرآن » في ثلاثِ حلقات . وقدَّم فيه أرقاماً حسابيةً لطيفة شيقة ممتعة ، كما أصدر حول نفس الموضوع كتابَ « معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم » .

إن معظمَ كلامِ المرحومِ نوفل عن الموضوع صحيح ، ومعظمَ أرقامه وحساباته صادقة ، ومعظمَ نتائجه طيبة ، وإنْ كنا لا نوافقه على تسميةِ التناسق العددي بالإعجاز العددي ، لما سبق أنْ بيَّنّاه .

أما الفريقُ الثاني صاحبُ الكلام الباطل ، والحسابات الخاطئة ، والبحثِ المزاجي ، والأرقامِ الباطلة ، والهدفِ الباطنيِّ الخبيث ، فيمثِّلُهم الدكتور « محمد رشاد خليفة » صاحبُ أكذوبة « الإعجاز العددي : عليها تسعة عشر » المعتنق للديانة

البهائية الكافرة . وسنعودُ له بعدَ قليل .

التناسق العددي وظاهرةُ « التقدير » العامة :

التناسقُ العددي في القرآن ناتجٌ عن ظاهرةِ « التقْدير » العامـة في الكون وفي القرآن .

أشارَ القرآن إلى أن الله قد خلَقَ كل شيء بقَدر ، وأوجد كل شيء بقدر ، فهو المقدِّر المحصي الحسيبُ سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر** ﴾ [سورة القمر : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرا** ﴾ [سورة الفرقان : ٢] .

وقال عن « تقْدير » أقواتِ وأرزاقِ الأرض : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً . ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِين . وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيها أَقْوَاتَها ، فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، سَواءً لِلسَّائِلِينَ** ﴾ [سورة فصلت : ٩ ـ ١٠] .

وقال عن تقْدير منازل القرآن : ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِل ، حتَّى عَادَ كَالعُرجونِ القَديم** ﴾ [سورة يٓس : ٣٩] .

وقـال عن التقديـر المتناسق بين المـاء النازل من السمـاء والنباتِ النـامي في الأرض : ﴿ **وَالأَرْضَ مَـدَدْنَاهـا ، وَأَلْقَيْنا فِيهَـا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنـا فِيهَـا مِنْ كُـلِّ شَيْءٍ مَوْزون ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِش ، وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِين . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزائِنُه ، وَما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لواقِحَ ، فَأَنْـزَلْنَا مِنَ السَّمـاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنين** ﴾ [سورة الحجر : ١٩ ـ ٢٢] .

فهذه الآياتُ تُشيرُ إلى أنَّ « التقدير » ظاهرةٌ عامة في خلْق الله ، فكلُّ شيءٍ وكل فعلٍ وكل أمرٍ وكل حدثٍ ، خَلَقَهُ الله « بِقَدَر » ولذلـك يبدو تـرجمةً عمليـةً لظاهـرة « التقدير » المتناسق والمتوازن في الكون والحياة والإنسان .

والتناسقُ العددي في القرآن ، في حقيقتِه مظهرٌ من مظاهر « التقْدير » الرباني المتناسق المتوازن .

فاللّهُ الحكيم المقدِّر المحصي الحسيب ، أورد الحروفَ في القرآنِ بقَدَر ، وأورد الكلمات في القرآن بقدر .

ثلاثة مظاهر للتناسق العددي :

تبدو ظاهرةُ التناسق العددي في ثلاثةِ مظاهر بارزة :

الأول : التناسقُ في الجَذْر الثلاثي للكلمات القرآنية .

الثاني : التناسقُ في استعمال الكلمات القرآنية .

الثالث : التناسق في ذكْر الحروف القرآنية .

المظهر الأول : التناسق في الجَذْر الثلاثي للكلمات القرآنية :

الأسماءُ والأفعالُ لها جَذْر . والجَذْرُ هو الأصلُ الذي اشتُقَّتْ منه تصريفاتُ واشتقاقاتُ واستعمالاتُ الكلمة . والكلمةُ القرآنية إمّا اسم ، وإمّا فعل ، وإمّا حرف .

ويبدو المظهرُ الأولُ للتناسقِ العدديِّ في جذور الكلمات القرآنية أيْ في الأسماء والأفعال القرآنية .

وقد قامَ بتجربةٍ حسابيَّة ميدانية على جذور الكلمات القرآنية الدكتورُ « علي حلمي موسى » ـ الحاصلُ على الدكتوراة في الفيزياء الذريَّة النظريَّة من جامعة لندن ـ .

استخدم الدكتور علي حلمي موسى الحاسب الألكتروني « الكمبيوتر » للمقارنَة بين جذور الكلمات ـ الأسماء والأفعال ـ في معاجم اللغة العربية الرئيسية ، وفي القرآن الكريم .

والمعاجمُ العربية التي أُحْصى جذور كلماتها ثلاثة : الصِّحاحُ للجوهري . وتاجُ العروس شرح القاموس للزبيدي . ولسانُ العرب لابن منظور .

وقد هدف الدكتور من عمله الوقوفَ على « غزارةِ المادَّة اللغوية التي استُعملت

في القرآن » وأجاب على بعض الأسئلة حول ذلك ، مثل : ما هو موقعُ ألفاظِ القرآن من اللغة العربية ؟ ما هي ألفاظُ اللغة الواردة في القرآن ؟ وما هي التي لم ترد ؟ وأيُّها ورد بكثرة ؟ وأيُّها ورد بقلّة ؟ وغير ذلك .

وفيما يلي بعضُ النتائج الرقميَّة التي خرج بها :

١ ـ عددُ ألفاظ القرآن هو : ٥١٨٩٩ لفظاً . والمرادُ بالألفاظ القرآنية ذات الجذر الأساسي : الأسماءُ والأفعال، دون الحروف .

٢ ـ ألفاظُ القرآن التي أُخذت من أصلٍ غيرِ ثلاثي ـ أيْ كانَ جذرُها أكثرَ من ثلاثةِ أحرف مثل : برزخ وخردل وسلسبيل هي : ١٦٧ لفظاً .

٣ ـ ألفاظُ القرآن ذاتُ الأصْل الثلاثي : ٥١١٧٥ .

٤ ـ بلغتْ نسبةُ الألفاظِ القرآنية ذاتِ الأصل الثلاثي إلى مجموع الألفاظ ٩٨ ٪ .

٥ ـ عند تصنيفِ الكلمات ذاتِ الجذور الثلاثية حسب الحرف الأوّل منها ، نجد أن أكثرَها استعمالاً ما بدأ بحرفِ الهمزة ، وعددها : ٨١٧٠ . ثم ما بدأ بحرف القاف : ٤٠٧٩ . وأقلها ما بدأ بحرف الثاء : ٢٥٣ .

٦ ـ عددُ الجذور الثلاثية للألفاظ المبدوءَةِ بحرف الهمزة هو : ٧٦ جذراً .

٧ ـ أكثرُ الكلمات المشتقَّة من الجذْر الثلاثي المبدوء بالهمزة استعمالاً . هي المشتقةُ من كلمة « أَلَه » حيث وردت : ٢٨٥٠ . وأقلُّها استعمالاً كلمة : أبق : التي لم ترْد إلَّا مرة واحدة في القرآن .

٨ ـ عددُ الجذور الثلاثية المبدوءة بحرف الهمزة في معجم « الصحاح » للجوهري ـ وهو من أصحِّ المعاجم العربية ـ هو : ١٨٧ .

٩ ـ نسبةُ الجذور الثلاثية المبدوءَة بالهمزة في القرآن إلى تلك الموجودة في معجم الصحاح هي : ٧٦ إلى ١٨٧ . أيْ أنَّ القرآن استخدم أكثر من ٤٠ ٪ من تلك الجذور .

١٠ ـ مجموعُ الجذورِ المبدوءَةِ بحرف السين في القرآن : ١٠٣ . ومجموعها في « الصحاح » للجوهري : ٢١٨ . فنسبة ما في القرآن منها هي : ٤٧ ٪ .

١١ ـ مجموعُ الجذور الثلاثية للكلمات القرآنيـة هو : ١٦٤ . ومجمـوع تلك الجذور الثلاثية في صحاح الجوهري هو : ٤٨١٤ . فنسبةُ الجذور الثلاثية في القرآن إلى الجذور الثلاثية في الصحاح هي : ٣٤ ٪ .

١٢ ـ استخدمَ القرآن أكثرَ من ثلث الجذور الثلاثية لـلألفاظ العـربية (٣٤٪). وهذه نسبةٌ عجيبة ، تستحقُّ التأمُّل .

إنَّ أيَّ أديب ـ مهْما بلغت قدرتُه الأدبية ومهارتُه اللغـوية ، لا يمكنـه استخدامَ أكثر من ٥٪ من اللغة ، ويستمـرُّ في استخدامِ هـذا العدد المحـدود في كل نتـاجه الأدبي والفكري .

فما معنى أن يستخدمَ القـرآنُ أكثر من ثلث الكلمـات العربيـة ؟ إنه ذو دلالـةٍ واضحة ـ أظهَرَهـا الحاسبُ الالكتـروني ـ على ظاهـرة التناسق العـددي في الجذور الأصْلية للكلمات القرآنية ، التي توصل إلى الإعجاز البياني الفريد .

١٣ ـ تفاوتَ استعمالُ القـرآن للجذور الثـلاثية لـلألفاظ ، والكلمـاتِ المشتقة منها . فاشتقاقاتُ جذر « أله » في القـرآن كثيرة ، حيث وردت في القـرآن : ٢٨٥٠ مرة .

بينما هناك جذورٌ ثلاثيَّة لم تُستعمل إلاَّ مرة واحدة مثل : بحث. جلس. خلع. زحف. سكت. صعد. طرح. غلق. فهم. لفظ. وجب. يقظ.

مع أن اشتقاقاتِ هذه الجذور واستعمالاتِها كثيرةٌ في اللغة العربية ، وفي نتاج الأدباء والمفكرين !

ومن هذه التجربة الحسابيّة الميدانية التي قام بها الدكتورُ علي حلمي موسى ، تَظهرُ لنا غزارةُ المادة اللغوية في القرآن ، حيث استخدمَ القرآنُ أكثرَ من ثلث أصول الكلمات العربية ، وهذا يستحيلُ أن يصدر عن بشر. ولذلك يستحيلُ أن يكون القرآن من كلام بشر ، فهو من كلام الله سبحانه .

لقد حفظَ القرآنُ اللغةَ العربية من الضياع ، فلولاه لتشعبَتْ اللغة إلى لهجات ، ولضاعَتْ الفصحى في خضمٍّ العاميّات[1] !!

الثاني: التناسقُ في استعمال الكلمات القرآنية :

يبدو هذا المظهرُ من مظاهر « التناسق العددي » في عدد ورود كلماتٍ وألفاظٍ في القرآن ، إذْ هناك تناسقٌ وتوازنٌ في عدد مرَّات ورودِ كلماتٍ قرآنية .

وقد التفت إلى هذا التوازن والتناسقِ المرحوم عبد الرزاق نوفل في كتابه « الإعجاز العددي في القرآن » بأجزائه الثلاثة . وفي كتابه « معجزةُ الأرقام والترقيم في القرآن الكريم » .

ومن الملاحظات التي أَبْداها المرحوم نوفل ، ما يلي :

١ ـ إذا كانت الأعدادُ الحسابية تقوم على « النِّظام العَشْري » ـ أي أن الأعداد تبدأ من الواحد وتنتهي بالعشرة ، وما فوق العشرة إنما يتركبُ منها لا من غيرها ـ فإن كلَّ الأعداد « العشْرية » مذكورة في القرآن .

وردَ القرآن أعداد : واحد، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة .

وهذه الأرقام هي أصولُ الأعداد وأسسُ المحاسَبات .

٢ ـ ورد في القرآن من النظام العِشْريني ثلاثةُ أعداد : أحد عشر ، إثنا عشر ، تسعة عشر .

٣ ـ ورد في القرآن كلُّ النظام المئويّ : عشرة . عشرون . ثلاثون . أربعون . خمسون . ستون . سبعون . ثمانون . تسعون .

٤ ـ وردَ بعضُ الأعداد المئوية المركَّبة من ثلاثة أرقام مثل: مئة. مائتان. ثلاثمائة .

---

(١) انظر خلاصة تلك التجربة القيمة في كتاب « معجزة القرآن العددية » لصدقي البيك : ٢٧ ـ ٣٢

٥ ـ ورد فيه بعض الأعداد الألْفيّة المركَّبة من أربعة أرقام . مثل : ألف . ألفان . ثلاث آلاف . خمسة آلاف .

٦ ـ ورد فيه أرقامٌ مركبة من خمسة : مثل : مائة ألف .

٧ ـ ورد فيه بعضُ المكسور مثل : النصف . الثلث . الربع . الخمس . السدس . الثمن .

٨ ـ وردَ فيه بعضُ الصِّفات العددية والترتيبات الرقميَّة . مثل : أوّل . ثاني . ثالث . رابع . خامس . سادس . ثامن[1] .

من ألوان التناسق العددي في الكلمات القرآنية :

ذكرَ عبدُ الرزاق نوفل بعضَ ألوان التناسقِ العددي في استعمال الكلمات القرآنية .

١ ـ التوازن والتساوي في عددِ ورود كلماتٍ متضادَّة مثل :

أ ـ وردت كلمتي : « الدُّنيا والآخرة » المتقابلتيْن في عدد متساوٍ حيث ذكِرتْ كل منهما : ١١٥ مرة .

ب ـ وردتْ كلٌّ من : « الشيطان والملائكة » : ٨٨ مرة .

جـ ـ وردتْ كلٌّ من : « الحياة والموت » : ١٤٥ مرة .

د ـ وردتْ كلٌّ من : « النفع والفساد » : ٥٠ مرة .

هـ ـ وردتْ كلٌّ من : « الصالحات والسيئات » : ١٦٧ مرة .

و ـ وردتْ كلٌّ من : « الضيق والطمأنينة » : ١٣ مرة .

ز ـ وردتْ كلٌّ من : « الرغبة والرهبة » : ٨ مرات .

٢ ـ اللون الثاني هو : التوازنُ والتساوي في عدد ورود كلمات متوافقة أو متقاربة في المعنى مثل :

---

(١) انظر الآيات التي ذكرت هذه الأرقام في « معجزة الأرقام والترقيم » لنوفل : ٥٣ ـ ٦٣

أ ـ البصر بجانب القلب والفؤاد. ورد كل منهما: ١٤٨ مرة.

ب ـ البعث بجانب الصراط. ورد كل منهما: ٤٥ مرة.

جـ ـ القرآن بجانب الوحي. ورد كل منهما: ٧٠ مرة.

د ـ الضالّون بجانب الموتى. ورد كل منهما: ١٧ مرة.

و ـ المسلمون والجهاد. ورد كل منهما: ٤١ مرة.

ز ـ الإسلامُ ومشتقّاتُه بجانب يوم القيامة. كل منهما: ٧٠ مرة.

ح ـ الإيمان ومشتقاته بجانب العِلم والمعرفة. كل منهما: ٨١١ مرة.

٣ ـ التناسقُ والتناسبُ بين الكلمات المتضادَّة أو المتقاربة، والفرْق بين هذا اللون وبين اللونيْن السابقين، أن التناسق فيهما كان متوازناً، أيْ عددُ ورود المرات كان متساوياً. بينما العددُ هنا متناسبٌ وليس متساوياً. وهذه بعض الأرقام:

أ ـ وردتْ كلمةُ «النبوة» في القرآن: ٨٠ مرة. وهذا خمسةُ أضعاف ورود كلمة «السنة» التي وردت: ١٦ مرة.

ب ـ وردت كلمة «الأبرار» ٦ مرات. بينما وردت كلمة «الفجار» ٣ مرات.

جـ ـ وردت كلمة «السِّر» ضعفَ ورود كلمة «الجهر». السر: ٣٢ مرة. الجهر: ١٦ مرة.

د ـ وردتْ «اليسر» ثلاثةُ أضعاف ورود «العسر» اليسر: ٣٦ مرة. العسر: ١٢ مرة.

هـ ـ وردتْ «فرعون» ضعف ورود «السلطان»: فرعون: ٧٤ مرة. السلطان: ٣٧ مرة.

و ـ وردتْ «المغفرة» ضعف ورود «الجزاء» المغفرة: ٢٣٤ مرة. الجزاء: ١١٧ مرة.

ز ـ وردَتْ كلمـة «شهر»: ١٢ مرة. بعدد شهور السنة.

ح ـ وردتْ كلمة «الأيام ويومين» ـ جمعاً ومثنى : ٣٠ مرة. بعدد أيام الشهر .

ط ـ وردتْ كلمة «يوم» مفردة: ٣٦٥ مرة. بعدد أيام السنة.

ي ـ ورد فعل الأمر «قل» أمراً من الله تعالى: ٣٣٢ مرة . بينما ورد فعل «قالوا» مسنداً إلى المخلوقين جميعاً من الملائكة والجن والإنس: ٣٣٢ .

وهكذا . وهكذا [1] !!

الثالث : التناسق العددي في الحروف القرآنية :

يبدو التناسقُ العدديُّ في الحروف القرآنية في عدد ورود الحرف في القرآن ، والصِّلة بين ذلك الحرف وبين السورة التي ورد في أولها.

كما يبدو في الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة .

ظاهرة « التَّنصيف » في الحروف المقطعة :

وقد بيَّن علماء سابقون لطائفَ طريفةً عن الحروف المقـطعة ، وبـاقي حروف العربية وصفاتِ تلك الحروف ، والسور القرآنية .

وقـد أشـارَ إلى ذلـك علمـاء سـابقـون، على رأسهم الإمـامـان البـاقـلاني والزمخشري .

وكلامُهما عن الأحـرف المقطَّعـة هو أهمُّ بيـانٍ للتناسق العـددي في الحروف القرآنية .

وسنذكر خلاصَته فيما يلي :

١ ـ عددُ الأحرف المقطعة في أوائل السور ـ بـدون المكرر ـ هـو أربعة عشـرة حرفاً ، مجموعة في عبارةٍ طريفة: « نَصٌّ حَكيمٌ قَاطِعٌ له سِرّ » وهذا العدد هو نصف عدد حروف الهجاء .

---

(١) أنظر تلخيصاً موجزاً لهذه الألوان في كتاب صدقي البيك « معجزة القرآن العددية » : ٣٣ ـ ٤٧

٢ ـ عددُ السور المفتتحة بتلك الأحرف هو : تسع وعشرون سورة على عدد حروف الهجاء ـ بزيادة حرف: «لا» ـ .

٣ ـ شملتْ هذه الأحرف خمسةً من حروف الهمس العشرة.

٤ ـ شملتْ هذه الأحرف تسعةً من حروف الجهر الثمانية عشر.

٥ ـ شملتْ هذه الأحرف أربعةً من حروف الشدة الثمانية .

٦ ـ شملتْ هذه الأحرف عشرةً من حروف الرخاوة العشرين.

٧ ـ شملتْ هذه الأحرف اثنين من حروف الإطباق الأربعة.

٨ ـ شملتْ هذه الأحرف اثني عشر من حروف الانفتاح الأربعة والعشرين.

٩ ـ شملتْ هذه الأحرف ثلاثةً من حروف الاستعلاء السبعة.

١٠ ـ شملتْ هذه الأحرف أحد عشر من حروف الاستفال الواحد والعشرين.

١١ ـ صيغتْ هذه الأحرف على صيغ تركيب الكلمة العربية ـ فالكلمة العربية إمّا مكوّنة من حرف، أو حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة.

ومن صيغ هذه الأحرف: ق. طه. ألم. ألمص. كهيعص(١) .

التناسق العددي مع رقم تسعة عشر:

ذكر القرآن العددَ «تسعة عشر» مع ما ذكر من عَشَرات الأعداد الأخرى ـ وقد أشرنا إلى الأعدادِ المذكورة في القرآن قبل قليل عند كلامِنا عن التناسق العددي في استعمالِ الكلماتِ القرآنية ـ.

ولكنَّ العدد «تسعة عشر» استهوى كثيرين من المعاصرين، بينما لم يستهوِهم غيرُه من الأعدادِ القرآنية!

ووقفَ بعضُهم أمامَه، واستخرَج بعض اللطائف في التناسق العددي في الحروف القرآنية، وسجَّلَ في ذلك أرقاماً صحيحة، كما سجَّل أحياناً أرقاماً خاطئة.

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني : ٤٤ ـ ٤٦ . والكشاف للزمخشري ١ : ١٠٠ ـ ١٠٥ ومبحث « سرّ الحرف » من هذا الكتاب .

لكن كان بحثُه من منطلَقٍ صحيح، ونيةٍ سليمة، ورَبَط بين هذا الرقم وبين الإعجاز العددي الذي قال به.

من هؤلاء الباحثين المرحومُ عبد الرزاق نوفل، والسيد صدقي البيك.

كما وقفَ أمامَ العدد «تسعة عشر» أحدُ المغْرضين الخبثاء، ووظَّفه توظيفاً شيطانياً، ودعا به لعقيدته الباطلة، ونِحْلَتِه الفاسدة، وتلاعَبَ في الأرقام القرآنية، ونظرَ فيها نظرةً مغْرِضة، تقوم على الهوى والمزاجية، ذلكم هو البهائيُّ الدكتور «محمد رشاد خليفة» الذي سنعود له بعد قليل، بعون الله.

من الظواهر الصحيحةِ في الصِّلَة بيْن رقم «تسعة عشر» وبين عددِ ورودِ بعضِ الأحرف القرآنية ـ وبخاصةٍ تلك الواردة في أوائل بعض السور:

١ ـ سورة القلم افتُتحتْ بحرف نون. ووردَ هذا الحرف في السورة (١٣٣) مرة. وهو من مضاعفات رقم (١٩): ١٩ × ٧ = ١٣٣[1].

٢ ـ سورق «ق» افتُتحتْ بحرف «قاف» وقد ورد فيها: (٥٧) مرة وهذا من مضاعفات رقم (١٩): ١٩ × ٣ = ٥٧.

ومن اللطائف في هذا المجال أن هناك آية في سورة «ق» كأنها توحي بذلك. فقد ورد فيها عن قوم لوط قوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ [ق: ١٣].

والعجيبُ أن كلمةَ «قوم لوط» وردت في القرآن اثنتي عشرة مرة. فلماذا في سورة «ق» عدل عن «قوم لوط» إلى «إخوان لوط»؟

لوْ وَرَد في سورة «ق» «قوم لوط» لذُكِر حرف «قاف» فيها (٥٨) مرة. وهذا لا يَقْسم على رقم (١٩)!![2].

٣ ـ ورد حرف «ق» في سورة «الشورى» ضمن خمسة أحرف افتُتحتْ بها

---

(١) انظر «معجزة القرآن العددية»: ٥٣

(٢) معجزة القرآن العددية نقلاً عن «عليها تسعة عشر» لرشاد خليفة: ٥٣.

السورة . وقد ورد حرف «ق» في سورة « الشورى » (٥٧) مرة . وهذا من مضاعفات رقم (١٩) : ١٩ × ٣ = ٥٧[١].

٤ ـ سورة « يٓس » افتُتحتْ باثنين من الحروف المقطَّعة : الياء والسين . ورد حرف الياء فيها (٢٣٧) مرة . وورد حرف السين فيها (٤٨) مرة . فمجموع ورود الحرفين هو (٢٨٥) . وهو من مضاعافات رقم (١٩) : ١٩ × ١٥ = ٢٨٥[٢] .

نكتفي بهذه النماذجِ الأربعةِ من الصلة بين رقم (١٩) وبين الحروف المقطَّعة في أوائل السور . ونضْرِبُ الذكْرَ عَنْ باقي الأمثلة التي أوردها الدكتورُ البهائي « محمد رشاد خليفة » لأننا لا نوافقه على معظم ما جاء فيها ، ولأنَّ طريقتَه فيها ليستْ علميَّة ولا منهجية فأحياناً يُقَسّم ، وأحياناً يَجمع ثم يُقَسّم ، وأحياناً يضْربُ ثم يُقسِّم ، وأحياناً يكون عدُّه طبيعياً ثم يقسِّم ، وأحياناً يكون عده عكْسيًّا ثم يقسِّم ، وأحياناً يرجِّح قراءة على أخرى ثم يقسِّم . المهم عنده هو أن يكونَ ناتجُ القسمة من مضاعفات رقم (١٩) أو يكونَ الرقم هو (١٩) ولا تهمه الطريقةُ التي يخرج منها برقم (١٩) البهائي الساحر !!

ونورد فيما يلي ظواهرَ أخرى تتفق مع رقم (١٩) :

١ ـ عددُ سورِ القرآن (١١٤) سورة : ١٩ × ٦ .

٢ ـ عدد بسملاتَ القرآن (١١٤) بسملة : ١٩ × ٦ .

٣ ـ ترتيبُ سورة العلق ـ أول ما نزل من القرآن ـ بين سور القرآن هو (٩٥) : ١٩ × ٥ .

٤ ـ عددُ حروف سورة العلق (٢٨٥) : ١٩ × ١٥ .

٥ ـ عددُ كلماتِ أوَّلِ خمسِ آيات نزولاً في مطلع سورة العلق هو (١٩) كلمة .

٦ ـ عددُ حروف تلك الآيات الخمس (٧٦) : ١٩ × ٤ .

---

(١) معجزة القرآن العددية نقلاً عن « عليها تسعة عشر » لرشاد خليفة : ٥٣ .
(٢) المرجع السابق : ٥٥ .

٧ ـ عددُ آيات سورة العلق ـ أول سورة نزولاً ـ (١٩) آية .

وهناك تناسقٌ آخر بَيْنَ عدد رقم (١٩) وبين الأعداد المذكورة في القرآن :

١ ـ مجموعُ عددِ الأعداد الواردة في القرآن ـ صحيحة أو كسوراً بدون تكرار ـ هو (٣٨) : ١٩ × ٢ .

٢ ـ مجموعُ عدد المرات التي وردت فيها الأعداد الصحيحة مكرَّرة في القرآن هو (٢٨٥) : ١٩ × ١٥ .

٣ ـ حاصلُ جمع مجموع الأعداد الصحيحة في القرآن بدون تكرار هو (١٦٢١٤٦) : ١٩ × ٨٥٣٤[١] .

الدكتور محمد رشاد خليفة وبدعتُه التسع عشرية :

ظهرَ الدكتور « محمد رشاد خليفة » على الناس في مطلع السبعينيات ـ عام ١٩٧٢ بالضَّبط ـ بفكرةٍ جديدة زَعَمَ أنها نظريةٌ جديدة حول الإعجاز العددي القرآني . استخدم فيها الحاسِبَ الالكتروني ، وفصَّلها في كتابيْن له :

الأول : رسالةٌ صغيرة بعنوان « عليها تسعة عشر » وهي خلاصةُ نظريته أو بدعته ، وقد ألْقاها في الكويت على صورة محاضرة عام ١٩٧٨ ، وأُعجبَ بها سامعون كثيرون ، وتنافستْ المجلات على نشرها ، وتطوعتْ دورُ النشرِ بتصويرها ، وتبرَّع محسنونَ بتوزيعها مجاناً ، وأثيرتْ حولَها ضجَّةٌ إعلاميّة كبيرة ، شاركَ فيها كثيرون بحسن نية !

الثاني : كتاب بعنوان « دلالاتٌ جديدة في القرآن » وهو أوسعُ من الرسالة السابقة ، وفيه مزيدُ تفصيل في الأمثلة والنماذج[٢] .

من هو رشاد خليفة :

وُلِدَ الدكتور محمد رشاد خليفة في « كفر الزيات » في مصر عام ١٩٣٥ . ونالَ

---

(١) انظر مبحث « مظهر إعجازي جديد » في كتاب البيك « معجزة القرآن العددية » : ١٠٦ ـ ١١١
(٢) انظر فكرة إعجاز القرآن » للحمصي : ٢٧٩ ـ ٢٨١ .

شهادة البكالوريوس في الزراعة من مصر عام ١٩٥٧ . ثم سافرَ إلى أمريكا ، وحصَلَ من جامعة « كـاليفورنيـا » على الدكتـوراه في الكيمياء الحيـويَّة عـام ١٩٦٤ . وصارَ مدرِّساً في جامعة كاليفورنيا وجامعة أريزونا . وعمِل خبيراً للتنمية الصناعية في الأمم المتحدة .

وقـد تزوَّج أمـريكيةِ وحصَـل على الجنسيـة الأمـريكيـة ، واستقـرَّ في مـدينـة « توسان » بولاية « أريزونا ». وكان يقومُ بالإمامة في مسجد مدينة « توسان ».

وأخيراً وفَّرَتْ له أمريكا في مدينة «توسان» مسجداً ـ أو مركزاً ، أو معبـداً ، أو وكراً ـ لينطلِقَ منه بدعوتِه.

ويدينُ « محمد رشاد خليفة » بالدين البهائي ـ والبهائيـون : كفّار مـرتدّون عن الإسلام ! ـ.

وتطورتْ دعوتُه الغربية الباطلة ، حيث مرتْ بعدةِ مراحل :

١ ـ لمَّا كان في مصر كان يصرِّح لمعارفه بآراءَ شاذة . فقد روى أحدُ معارفه ـ وهو السيِّد محمـد إبراهيم مصـطفى ـ في «روز اليوسف » ـ عـدد ٢٩٦١ تاريـخ ١١ مارس ١٩٨٥ ـ أن رشاد خليفة كان يقول له : إنه لا يعترف بالسُّنَّة ، ولا بـالأحاديث التي في الصحيحيْن أو غيرِهما ، وكلُّ الأحاديث فيها من رواية الشياطين .

ولا يعترفُ من الشهادتيْن إلا بلا إله إلا الله ، ويرى أن ذِكْرَ « محمد رسول الله» شركٌ بالله .

ويرى أن كلماتِ الأذان يجب أن تكون فقط : أربع مـرات : الله أكبر ، ثم : لا إلــه إلّا الله . ويجب حـذف « محمــد رســول الله» من الأذان . وكــذلــك من « التحيات » في الصلاة .

ويرى أن المسلمين اتَّخذوا من قبر رسول الله ﷺ صنماً أعظم[1] .

٢ ـ اعتنقَ الديانةَ البهائيةَ الباطنيَّةَ ، وأراد إثبات أساسِها الباطل من القرآن .

---

(١) كتاب « تسعة عشر ملكاً » للمستشار حسين ناجي : ١٧٣

فمعلومٌ أن تلكَ الديانة الكافرة الباطلة تقوم على العدد : تسعة عشر. وهذا الرقمُ هو عندهم كلُّ شيء . فرقم «١» يرمز إلى شيطانِهم الذي يؤلِّهونه «عبد البهاء» ورقم «١٩» يرمز إلى الشياطين الثمانية عَشر الذين كانوا أوّلَ مَنْ آمَنوا به . فهم ثمانية عشر ، وهو واحد ، فالمجموع هو « تسعة عشر » وهو الرقم المقدس عندهم ، وهو سرٌّ من أسرارهم الباطنية .

وقد جعل الشيطانُ « عبدُ البهاء » هذا الرقمَ أساسَ كلِّ تشريعاتهم : سنتُهم تسعة عشر شهراً . وشهرُهم تسعةَ عشر يوماً . وشهرُ الصوم عندهم هو شهر «العلاء» وهو آخر شهر في سنتهم . وطبعاً صومهم : تسعة عشَر يوماً ، وينتهي الصوم عندهم ، ويبدأ العيد في (٢١) آذار ـ الذي خدَعونا به ، وجعلونا نحتفلُ به على أنه عيد الأم ـ وركعات الصلاة عندهم في اليوم تسع ، فمجموعها في السنة : ٣٦١ × ٩ = ٣٢٤٩. أي : ١٧١ × ١٩ . ومهرُ الزوجة عندهم (١٩) مثقالاً من الذهب . إلى غير ذلك من الخرافات التسع عشرية[1] .

فجاءَ الدكتورُ البهائي رشاد خليفة إلى القرآن ، وابتدعَ فريته « التسع عشرية » لدعْم عقيدتِه البهائية .

٣ ـ وقعَ رشاد خليفة في سلسلةٍ من التخبُّطات ، زعم في بعضها أن القيامة ستقوم سنة (١٧١٠ هـ) وأنه استخرجَ هذا من الحروف المقطَّعة الأربعة عشر في القرآن .

٤ ـ وصلَ الأمرُ به ـ في نهاية المطاف ـ إلى ادعاءِ أنه رسولُ الله للأمريكيين وللعالم في القرن العشرين ، وأن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين، وليس خاتم المرسلين !!

وصار ينشرُ النشرات والمنشورات إلى الأمريكيين يبشرُ فيها برسالته الجديدة[2] .

---

(١) انظر فصل « رقم ١٩ شعار البهائية » من كتاب « تسعة عشر ملكاً » : ٣١ ـ ٣٨ .

(٢) فيما يلي نص منشور من منشوراته إلى الأمريكيين الذي يعرِّف فيه برسالته : =

٥ ـ مركزُه ـ أووَكْرُه ـ في مدينة « توسان » لنشْر تخبُّطاتِه ، زاره الأستاذ « يوسف العظم » ووَقَف على أباطيله وترَّهاتِه ، وممّا قاله عنه : « في بيتٍ ذي غرف متعددة ، وقاعةٍ اتَّخذها مكاناً للصلاة ، التقيتُ بالرجلِ وبعضِ مَنْ حوله ، وسمعتُ منه الكَثير ، وخرجتُ بانطباع أكّدَ لي كلام الشباب عنه أنه «مسيلمة الكذاب »، حين علمتُ أن أتْباعَهُ يعتقدون بنبوَّتِه، وإنَّ له كُتباً، ينزلها «حواريّوه» منزلَة القرآن ـ بل أعظم ـ كما يعتقدون ، لأنَّ الرجل في نظرهم ذو بصيرة وعلم ، يخوِّلانه أن « يصحِّح » بعضَ ما ورد في القرآن ، أو أن ينبِّه إلى أخطاءٍ وردتْ في الأحاديث الصحيحة ـ كما يَدَّعي .

وهم يعتقدونَ أن «رشاد خليفة » قادرٌ على معرفةِ كثيرٍ من الخفايا والأسرارِ ،

= مرفق مع هذه الرسالة الدلائل والبراهين القرآنية على أن الله سبحانه وتعالى قد بعثني لأنذركم من كارثة رهيبة محققة ، وأن أبيّن لكم طريق النجاة . . .

﴿ وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً . ﴾ [سورة الإسراء ١٥] . .

ان العالم الإسلامي والعالم العربي على شفا كارثة عظمى لا تخطر على بال . . . . وطريق النجاة هو الالتزام بالقرآن كل القرآن ولا شيء غير القرآن . . .

لقد نجح الشيطان في خداع المسلمين حتى آمنوا واقتنعوا قناعة لا تتزحزح أن محمداً كان « خاتم المرسلين » رغم أن هذه الفكرة الشيطانية الكاذبة تتعارض مع القرآن الكريم الذي جاء به محمد . . إن محمد خاتم النبيين لأنه جاء بخاتم الرسالات . . ولكنه لم يكن خاتم المرسلين . . . ولهذا حذرنا القرآن الكريم :

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . ﴾ : [سورة غافر ٣٤]

لقد منّ الله عليّ بالبرهان القاطع أن القرآن الكريم هو رسالة الله للناس كافّة . . كما منّ الله سبحانه وتعالى عليّ بأسرار القرآن ، مثل الطريقة الصحيحة للصلاة . . . فالصلاة كما يؤديها المسلمون اليوم حابطة لأنها صلاة المشركين وليست صلاة المسلمين ، ومثل الطريقة الصحيحة لإيتاء الزكاة . . . ومثل موعد قيام القيامة . . .

فإذا أردتم النجاة ، في الدنيا والآخرة ، فإنني أدعوكم إلى النظر الجدّي إلى رسالتي هذه ، وإختبار الأدلّة والبراهين التي منّ الله سبحانه وتعالى عليّ بها . . . ومن اهتدى فانما يهتدي لنفسه . . . .

الدكتور رشاد خليفة
رسول الله

والإطلاع على كثيرٍ مما يغيبُ عن أذهانِ الكثيرين . وإن له طُقوساً خاصة في الصلاة ، يتّبعُها مَعَ مَنْ يؤمُّهم ويصلي بهم .

وخلال حوارِنا مع بعض أتباعه ، دخلتْ علينا فتاة ، سلَّمتْ ، وتنحَّتْ جانباً ، لتبدأَ الصلاة في العاشرة صباحاً على ملأٍ من القوم ، فقلتُ : لعلها تصلِّي تحية المسجد .

ولكني وجدتُها على حالٍ لا يجوز أن يكونَ حالَ مسلمة في صلاة أو في غير صلاة . . بنطالٌ ضيّق يلتصقُ بجسمها ، يخيَّلُ للرأي أنها قد لَبستْهُ تحتَ الجلد لا فوقَه ! وقميصٌ بلا أكمام ، وبصدْرٍ مكشوف ، وشعْرٍ مسدَل على أكتافها .

إن حالتَها تلك قالَ لها عنها مَنْ تُؤمِن به ـ رشاد خليفة ـ تناسبُ طبيعةَ المرأةِ العاملة في البلدان الصناعية ، ولا داعي للإحتشام لا داخل الصلاة ولا خارجها . .

وقد يسَّرتْ لرشاد خليفة المطابعُ الأمريكية أن ينشرَ كتبه ، ووَضعتْ في أمريكا تحتَ تصرُّفه بعضُ الجمعيات باسم حرية الفكر ، من المال ، يغرف منه متى يشاء ، ليدعو إلى دينٍ إنساني جديد ، ليس فيه من الإسلام إلا ما يثيرُه المأفون رشاد خليفة من شبهات ! ![1].

نقضُ بدعتهِ التسعِ عشرية :

كان بحثُ الدكتور رشاد خليفة حولَ الإعجاز العددي يقومُ على المزاجيّةِ والهوى ، واستخدَمَ في ذلك الحاسِب الألكتروني .

لقد جعلَ رشادَ خليفة نصْبَ عينيْه هدفاً محدَّداً ، قبل الدخول إلى إحصاءِ الحروف القرآنية . وهو خدمَةُ رقم (١٩) الساحر ، الذي تُبنى عليه عقيدتُه البهائية ، والاستشهادُ له من القرآن الكريم ، عن طريقِ عدِّ حروفه وكلماته .

إن المهمَّ عنده هو نتيجةُ أيَّةِ عمليةٍ حسابية للأعداد القرآنية تَقسم على رقم (١٩) . فهو أحياناً يجمعُ بين رقميْن ، أو عدة أرقام ، وهو أحياناً يضْربُ أرقاماً مع

---

(١) جريدة الدستور الأردنية : عدد : ٧٧٣٢ . الأحد : ١٩٨٩/٢/٢٦ .

أرقام . وهو أحياناً يطْرَح أرقاماً من أرقام ، وهو أحياناً يجمعُ بعض الأرقـام ويضربُ بعضها ببعض ، وينظرُ في نتيجة الجمع والضرب ، وهو أحياناً يعدُّ من أولَ القرآن ، وأحياناً يعدُّ عدّاً عكسيّاً من آخر القرآن . . المهمُّ هو أن تكون أيةُ نتيجةٍ حسابية تقسم على رقم (١٩) .

ولا ننكرُ أنَّ بعضَ عملياتِهِ الحسابية صحيحة ، لأنها لغةُ أرقـام . لكنها ـ رغْم صحتِها ـ لا تشهدُ للعقيدة البهائية في رقم (١٩) .

ورغم أن المسلمين استقبلوا بـدعةَ رشـاد خليفة ـ أو نـظريتَـه حـولَ الإعجـاز العددي التسعةَ عشـري ـ بقبولٍ وإعجـاب ـ لدى غـالبيتِهم ـ إلا أن قلةً من الباحثين نقَضوها وردُّوها .

ممن قَبلَها في عمومِها ، وأبدى ملاحظاتٍ جزئية عليهـا ، ولـم يفطن لهـدفِها البهائيِّ الخبيثِ : الدكتورُ عدنـان زرزور في كتابـه « علوم القرآن »[1] والسيـدُ نعيم الحمصي في كتابه « فكرة إعجاز القـرآن » حيث سجَّلَ عليهـا في كتابـه اثنتي عشرة ملاحظةً طيبة[2] .

وبعدما تطورتْ دعوةُ رشاد خليفة الخبيثة الخطيرة ، واتَّضَحَ للمسلمين إنحرافُه وكفُره وضلالُه ، شنَّـت جريدةُ «المسلمون» الدولية الصـادرة في لندن الحـرب عليه وعلى بدعتِه الإعجازية العددية ، وكتبَ فيهـا علماءُ من مصـر والسعوديـة وغيرهـا ، ونقضوا تلك البدعة ، وبيَّنوا ما فيها من أخطاء ، وخدمتَها لدين البهائية الباطل .

وخصَّص لهذه البدعة البهائية المستشارُ «حسين ناجي محيي الدين» كتاباً خاصاً ، نَقَضَها وفنَّدها فيه ، وهـو كتاب « تسعـةَ عشر مَلَكـاً وبيانُ أن فـرْيَةَ الإعجـاز العددي للقرآن خدعةٌ بهائية »وهو كتابٌ طيِّبٌ قيّم ، وهو أجودُ كتاب في نقْضِ هذه البدعة .

ومن فصول الكتاب : رقم (١٩) شعارُ البهائية وسرٌّ من أسرارها . أعدادُ فواتح سور القرآن دليلٌ قديم للبهائيين . العدد (١٩) ليس سـرّاً خاصـاً بالقـرآن . لم ينفردْ

---

(١) انظر « علوم القرآن » لزرزور : ٢٤٨ ـ ٢٥١

(٢) انظر «فكرة إعجاز القرآن » للحمصي : ٢٧٩ ـ ٢٩٣

رقم (١٩) بذكْره في القرآن من دون الأعداد . كلُّ ما يجوزُ على رقم (١٩) يجوز على أي رقم آخر . كذبُ ومغالطاتُ وتضليلاتُ رشاد خليفة . لا علاقةَ بين البسملة وحروفِ الفواتح وبيّن جهنم . جهنمُ حق وعليها تسعةَ عشر ملكاً لا حرفاً(١) .

أهمُّ نقْض لأساس تلك البدعة :

لا يتسع المجال للنقدِ التفصيلي لبدعةِ رشاد خليفة ، ونحيلُ على ملاحظاتِ السيد نعيم الحمصي في « فكرة إعجاز القرآن » ونحيلُ على الجهدِ المبارَك الذي بذله المستشار حسين ناجي في « تسعة عشر ملكاً » .

ونوجِّه نقضيْن لأساسيْن وقاعدتيْن لتلك البدعة .

لقد بَنى رشاد خليفة بدعته ـ أو نظريَّتَه ـ على أساسيْن ، وهما باطلان ، لا يشهدان لما يُريد ، فإذا كان الأساسُ باطلاً ، كان كل ما بُنيَ عليه باطلاً ، لأن كلَّ ما بني على الباطل باطل .

الأول : البسملة ليست تسعة عشر حرفاً :

الأساس الأول : أنَّ حروفَ البسملة تسعة عشر حرفاً . وهذا خطأ .

هناك ثلاثُ طرُقٍ لعدِّ حروفِ القرآن ، ولعدِّ حروف البسملة ، ورشاد خليفة في عدِّه لحروفها لم يتفق مع أية طريقةٍ من الطرق الثلاثة :

الطريقة الأولى : العدُّ الصوْتي : أيْ يَعدُّ حروفَ الجملةِ ويَجمعها على أساسِ النطق بها . وفي العدِّ الصوتي يُحسَبُ الحرفُ المشدَّدُ حرفيْن . وحروفُ البسملة وفْق هذه الطريقة ثمانيةَ عشر حرفاً ، وليس تسعة عشر. [ب/ س/ م/ ل/ ل/ ا/ هـ/ ر/ ر/ ح/ م/ ا/ ن/ ر/ ر/ ح/ ي/ م].

الطريقةُ الثانية : العدُّ وفْقَ الرسم العثماني ، الذي كُتب به المصحف زمن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) صدر الكتاب في طبعته الثانية عام ١٩٨٥ ـ ١٤٠٥ عن : الزهراء للاعلام العربي ـ مصر . بتقديم الشيخ حسنين مخلوف وتعقيب الدكتور عبد الصبور مرزوق ، وتقويم وزارة الأوقاف بالكويت .

إن البسملة ـ وفْقَ هذه الطريقة ـ عشرونَ حرفاً ، وليس تسعة عشر ! وذلك لأن الصحابةَ وضعوا ألفاً صغيرة فوق « الرحمٰن » إشارة إلى اعتبار حرف الألف فيها . [ب/ س/ م/ ا/ ل/ ل/ هـ/ ا/ ل/ ر/ ح/ م/ ا/ ن/ ا/ ل/ ر/ ح/ ي/ م] .

وقد زعمَ رشاد خليفة أنه عدَّ حروفَ البسملة وفْقِ هذه الطريقة ، ولكن فاتَه اعتبارُ ألف « الرحمن » حرفاً ـ كما قررَ علماءُ القراءاتِ والرسمِ والضبط القرآني .

الطريقةُ الثالثة : العدُّ وفْقَ الرسم الإملائيِ الحديث الذي تُكتبُ به البسملة .

وحروف البسملة وفق هذه الطريقة ، واحدٌ وعشرون حرفاً . بزيادة « الألف» في كلمة « الله » [ا/ ل/ ل/ ا/ هـ][1] .

الثاني : « عليها تسعة عشر » ملكاً :

أما الأساسُ الثاني الذي بنى عليه رشاد خليفة ضلالتَه ، فهو أنَّ قوله تعالى : ﴿ **عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر** ﴾ يعودُ على البسملة ، ويصرِّح بأن حروفَها تسعة عشر ، وأنها حارسةٌ بذلك على القرآن !

واعتبارُ أن البسملةَ هي المقصودةُ بقوله : ﴿ **عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر** ﴾ باطل . فقد أجمع المفسرون على أنَّ المراد به هو جهنم .

قال تعالى : ﴿ **ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدوداً . وَبَنين شُهوداً . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزيد كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآياتنا عَنيدا . سَأُرْهِقُهُ صَعوداً . إنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر . فَقالَ إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر . إِنْ هٰذا إِلاّ قَوْلُ البَشَر . سَأُصْليهِ سَقَر . وَمَا أَدْراكَ ما سَقَر . لا تُبْقي وَلا تَذَر . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَر . عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر . وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إلاّ ملائِكَة ، وَمَا جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إلاّ فِتْنَةً لِلّذينَ كَفَروا ، لِيَسْتَيْقِنَ الّذِينَ أُوتوا الكِتاب ، وَيَزْدادَ الّذِين آمَنوا إيماناً ، وَلا يَرْتابَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ وَالْمُؤمِنون ، وَلِيَقولَ الّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرون : ماذا أَرادَ اللّهُ بهذا**

(١) انظر تعقيب الدكتور عبد الصبور مرزوق على كتاب المستشار حسين ناجي : ١٦٧ ـ ١٦٨ .

مَثلًا ؟ كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاء • وَيَهْدي مَنْ يَشاء ! وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلّا هُو ، وَمَا هِيَ إلّا ذِكْرى لِلْبَشر . . ﴾ [سورة المدثر: ١١ ـ ٣١].

لا صلةَ بين البسملةِ وبيْن «التسعة عشر» فالرقمُ صريحٌ في الملائكة حرّاسِ جهنم ، ومن الأدلَّةِ على ذلك :

١ ـ الآياتُ تتحدثُ عن موقِفِ «الوليد بن المغيرة» من القرآن وزعْمه أنه سحْر ، ونُصْحِهِ قريشاً أن تنشرَ هذا بَيْنَ الناس في موسم الحج ، فتهددُه الآياتُ بجهنم وبَسَقَر ، وبحرّاسِها من الملائكة ، وتخبرُ أنَّ عددَ هؤلاء الحرّاس عليها هو : تسعة عشر .

وقدْ أشارَ المفسِّرون إلى قصةِ الوليد بن المغيرة ، وإلى نزول هذه الآيات .

وأشاروا إلى أنَّ أبا جهل جعل قولَه تعالى عن زبانيةِ جهنم « عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر » فرصةً للسخرية والتنكيت ، فقال لقريش : إن حرّاس جهنم تسعة عشر مَلَكاً ، وأنتم كثيرون ، أيعجَزُ تسعةَ عشرَ رجلاً منكم عن صرْع أولئك التسعةَ عشر ملكاً ؟ فأنزلَ اللَّهُ بعد هذا قولَه ﴿ وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إلّا مَلائِكَة ، وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إلّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَروا »[1] .

٢ ـ الهاءُ في قوله « عليها تسعة عشر » تعودُ على « سقر » المذكورة سابقاً ، وهذا بإجماع المفسِّرين جميعاً . وفي هذا تصريحٌ من القرآن بأن « التسعة عشر » هُمُ الملائكة الذين على « سقر » .

٣ ـ الآيةُ التي بعدَها ، حَصَرَت المرادَ بالعدد ، وأنه الملائكة ، ﴿ وَما جَعَلْنا أصحابَ النّار إلا ملائكة ﴾ أي أنَّ سقر « عليها تسعة عشر » مَلَكاً .

٤ ـ بيانُ الحكمةِ من ذكْرِ عددِ الملائكة ﴿ وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُم إلّا فِتْنَةً للَّذِينَ كَفَروا ﴾ فإضافةُ العدَّةِ للضمير المذكرَّ « عَدَّتَهم » دليل آخر على أنهم الملائكة حراس جهنم ، وليس أحرف البسملة .

---

(١) انظر تفسير الطبري . مجلد ١٠ جزء ٢٩ : ٩٥ ـ ١٠٢

٥ ـ قوله ﴿ وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلّا هو ﴾ يشيرُ إلى أن التسعة عشر مَلَكاً الذينَ على جهنم ، جنودٌ لله ، ولا يعلمُ جنود الله إلَّا هو سبحانه[1] .

وبانهيارِ بدعةِ الدكتور رشاد خليفة وبطلانِها ، نعرفُ أنَّ النظريَّة التسع عشـرية الإعجازية ما هي إلَّا إشاعةٌ بهائية ، ردّدَها ذلك الدكتور البهائي الدَّعي ، لينصرَ دينه البهائي الباطل .

ومعَ ذلك تبقىٰ هذه البدعة مِثالاً بارزاً واضحاً لتهجُّم المغْرِضين الباطنيين على القرآن ، وتحريفِهم لمعانيه ودلالاتِه ، وفضْحِ ألاعيبهم وإبطال مكائدهم ، وصَدَقَ الله القائل : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْض ، كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثال ﴾ [سورة الرعد : ١٧].

ولعلَّنا بهذه المناسبة نحذِّر مِنَ التحريفاتِ لمعاني القرآن ، ومِنْ خوضِ الذين لا يعلمون في معاني القرآن . ولعلَّنا نطَالبُ بصدْقِ التعامل مع القرآن ، والتزوُّدِ بالعلمِ القرآني الأصيل ، الذي يميِّز بين الحق والأباطيل، حتى لا نُخدع بالاشاعات وفاسدِ الأقاويل !!

---

(١) انظر فصل « لا علاقة بين البسملة وبين جهنم » وفصل « جهنم حق وعليها تسعة عشر ملكاً » من كتاب حسين ناجي « تسعة عشر ملكاً . » .


www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

« الخاتمة »

وبعد :

فإننا بعدَ هذه الدراسةِ المتواضعةِ لإعجازِ القرآن ، بفصولِها الأربعة ، نقفُ لنقرِّر هذه الحقائق اليقينيةَ الصادقة حول الإعجاز :

إن القرآنَ الكريمَ معجز ، وإن إعجازَه لكلِّ المخلوقين على اختلافِ الزمان والمكان ، وإن هذا الإعجازَ مستمرٌ حتى يرث الله الأرض وَمَنْ عليها ، وإنَّ هذا الإعجازَ متجدِّد ، بحيثُ يجدُ فيه اللاحقون ألواناً ووجوها وإضافاتٍ ونماذجَ وأمثلةً جديدة ، وإن التقدمَ في العلم والاكتشافِ والاختراع والمعرفة يزيدُ القرآن إعجازاً ، ويزيدُ المؤمن يقيناً بالمصدر الرباني للقرآن الكريم .

وإن النظرَ في « إعجاز القرآن » ودراستِه ، ليس هدفاً بحدِّ ذاته ، وإنما هو كلُّه وسيلةٌ إلى غاية ، إذِ الهدفُ منه إثباتُ مصْدَر القرآن ، وأنه كلامُ الله ، وليس من كلام محمد ﷺ .

ولذلك يكونُ البحث في الإعجاز لإثباتِ هذه الحقيقة ، والنتيجةُ التي يخرجُ بها كلُّ باحثٍ في الإعجاز هي : القرآنُ معجز ، لأنه كلام الله .

وكم أخطأ مَنْ عَكس هذه الحَقيقة وقال : القرآنُ معجز ، لأنه كلامُ الله . إذ الأصل إثباتُ أنه معجز ، فإذا ثبتَ إعجازُه ثبتَ أنه كلام الله . أمَّا أنْ نُحيلَ على مصْدره الرباني إثباتاً لإعجازه ، فهذا خطأٌ في البحث ، يُضْعفُ قضيةَ الإعجاز .

وإنَّ القرآن عندما تحدَّى الجاحدين تحدَّاهم بأمْرٍ يقْدِرون عليه ، وطالبهم بالإتيانِ به ، وهذا التحدي إنما كانَ بأسلوب القرآن وبيانِه وبلاغتِه ، وهذا هو الذي

عجزوا عنه ، ولهذا كان الإعجازُ البيانيُّ هو الوجه الوحيد لإعجاز القرآن ، أما وجوهُ الإعجاز الأخرى فهي تبحث في مضامينِ القرآن وموضوعاتِه ، وهذه المضامينُ لم تكن مقصودةً بالتحدي ، ولم يطالَب الجاحدون بالإتيان بها . . وهذه المضامينُ والموضوعاتُ القرآنية استطاعتْ البشريةُ في عصرها العلمي المتقدِّم الحديث أن تصلَ إليها ، وأن تكتَشِفَها ، وأن تأتيَ بمثلها ، وأن تُدركَ تعليلَها والحكمةَ منها . فهي ليس فيها تحدٍّ ، لأنه لو كان فيها تحدٍّ لوجبَ عجزُ البشريةِ عنها ، فكيفَ وقدَ اكتشفَتْها وأَتَتْ بها ؟

إن مضامينَ القرآن ـ على الحقيقة ـ هي أدلةٌ يقينيةٌ صادقةٌ على مصْدر القرآن ، وأنه كلام الله ، أدلةٌ منفصلةٌ مستقلَّة ، تقفُ شاهدةً على مصدر القرآن بجانبِ الدليل الباهر ـ وهو إعجازُ القرآن ـ، وليستْ وجوهاً من وجوهِ الإعجاز ، متفرعةً عنه . ولا تُعتبرُ وجوهاً للإعجاز إلا من باب « التجوُّزِ والتسامحِ والتنازلِ والتسليم الجدلي »! لأنَّ التحديَ من لوازمِ الإعجاز ، وهذه المضامينُ ليس فيها تحدٍّ .

وقد جرَيْنا في هذه الدراسة ، على التجوُّزِ والتسامحِ والتنازل . وتابَعنا جمهورَ الناظرين في الإعجاز ، باعتبارِ وجوهِ إعجازٍ أخرى بالإضافة إلى « الإعجاز البياني » أيْ الإعجازُ في المضمون القرآني : الإعجاز الغيبي ، والعلمي ، والتشريعي ، والنفسي . .

لأنَّ هدفَ هذه الدراسة أكاديميٌّ لطلبةِ الجامعاتِ وكلياتِ المجتمع .

وقد نعودُ قريباً ـ بعون الله ـ إلى الكلام الموضوعي عن « أدلةِ مصدر القرآن وموقعِ الإعجاز منها » ونقدِّمُ ما لَدَيْنا من أدلَّةٍ وشواهدَ على ما نقول ، ونناقشُ أدلَّةَ وشواهدَ الجمهور من الدارسين . . .

وقبلَ أن نضعَ القلم : نتوجَّهُ إلى الله وحدَه بهذا العمل ، ونرجو أنْ يكون في ميزانِ الحسنات يوم القيامة ، ونعوذُ بالله من فتنة القول والعمل .

والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثبت المراجع

١ ـ إحياء علوم الدين .

لأبي حامد الغزالي ـ بعناية محمد الخضر حسين .

طبعة دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ .

٢ ـ الإعجاز البياني في القرآن ومسائل نافع بن الأزرق .

الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ .

دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

٣ ـ الإعجاز في نظم القرآن .

الدكتور محمد السيد شيخون .

مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .

٤ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

مصطفى صادق الرافعي .

دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة التاسعة ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣ .

٥ ـ البداية والنهاية .

لابن كثير .

مكتبة المعارف ـ بيروت . الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

٦ ـ البرهان في علوم القرآن .

بدر الدين الزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧ .

٧ ـ بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ .
د . فتحي أحمد عامر .
دار النهضة العربية ـ القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٧٤ .
٨ ـ بينات المعجزة الخالدة .
الدكتور حسن ضياء الدين عتر .
دار النصر بحلب . الطبعة الأولى ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ .
٩ ـ تحصيل نظائر القرآن .
الحكيم الترمذي . تحقيق حسني نصر زيدان .
الطبعة الأولى : ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩ .
١٠ ـ تسعة عشر ملكاً : بيان أن فرية الإعجاز العددي للقرآن خدعة بهائية .
المستشار : حسين ناجي محي الدين .
الزهراء للإعلام العربي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥ .
١١ ـ التصوير الفني في القرآن .
سيد قطب .
دار الشروق ـ بدون تاريخ .
١٢ ـ التعريفات .
للشريف علي بن محمد الجرجاني .
طبعة مصورة عن طبعة المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ .
١٣ ـ تفسير القرآن الحكيم ـ تفسير المنار ـ .
محمد رشيد رضا .
دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية .
١٤ ـ تناوب حروف الجر في لغة القرآن .
الدكتور محمد حسن عواد .
دار الفرقان ـ عمان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ .
١٥ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : للرماني والخطابي والجرجاني .
تحقيق : محمد خلف الله أحمد . ومحمد زغلول سلام .

دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ١٩٦٨ .
١٦ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
ابن جرير الطبري . تحقيق أحمد ومحمود شاكر .
دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ .
١٧ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن . وبهامشه تفسير القمي النيسابوري .
ابن جرير الطبري .
دار الفكر ـ بيروت : ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .
١٨ ـ جواهر القرآن ودرره .
أبو حامد الغزالي .
دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الخامسة ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ .
١٩ ـ حول إعجاز القرآن .
علي العماري .
سلسلة الثقافة الإسلامية . عدد : ٤٤ . حزيران ١٩٦٣ . القاهرة .
٢٠ ـ دراسات في النفس الإنسانية .
محمد قطب .
دار الشروق : ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤ .
٢١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور .
جلال الدين السيوطي .
دار الفكر ـ بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ .
٢٢ ـ دلائل الإعجاز .
عبد القاهر الجرجاني . تحقيق وتعليق وترقيم محمود شاكر .
مكتبة الخانجي ـ القاهرة : ١٩٨٤ .
٢٣ ـ الدين والدولة : في إثبات نبوة محمد ﷺ .
علي بن ربن الطبري .
المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة ـ بدون تاريخ .
٢٤ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى .

القاضي عياض بن موسى اليحصبي . تحقيق علي محمد البجاوي .
دار الكتاب العربي ـ بيروت : ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ .
٢٥ ـ صحيح الإمام مسلم .
مسلم بن الحجاج النيسابوري . بعناية محمد فؤاد عبد الباقي .
دار الفكر ـ بيروت : ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ .
٢٦ ـ صحيح الإمام مسلم .
بشرح الإمام النووي .
المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة . بدون تاريخ .
٢٧ ـ الظاهرة القرآنية .
مالك بن نبي . تقديم : محمود شاكر .
دار الفكر . بيروت ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ .
٢٨ ـ علوم القرآن .
الدكتور عدنان زرزور .
المكتب الإسلامي .
٢٩ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري .
ابن حجر العسقلاني . ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
دار المعرفة ـ بيروت . مصورة عن طبعة السلفية .
٣٠ ـ الفروق في اللغة .
أبو هلال العسكري . تصحيح عادل نويهض .
دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٧ .
٣١ ـ فكرة إعجاز القرآن .
نعيم الحمصي . تقديم محمد بهجة البيطار .
مؤسسة الرسالة . الطبعة الثانية ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ .
٣٢ ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن .
ابن قيم الجوزية .
دار الكتب العلمية ـ بيروت . بدون تاريخ .

٣٣ ـ في ظلال القرآن .
سيد قطب .
دار الشروق . الطبعة الثالثة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ .
٣٤ ـ الكتاب المقدس .
العهد القديم والعهد الجديد .
دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٨٤ .
٣٥ ـ الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة .
البروفسور موريس بوكاي .
دار المعارف بمصر ١٩٨٣ .
٣٦ ـ الكشاف .
جار اللهَ الزمخشري .
دار الفكر ـ بيروت . بدون تاريخ .
٣٧ ـ لسان العرب .
ابن منظور الأفريقي .
دار صادر ـ بيروت . بدون تاريخ .
٣٨ ـ مباحث في إعجاز القرآن .
الدكتور مصطفى مسلم .
دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ .
٣٩ ـ مسند الإمام أحمد .
أحمد بن حنبل ـ وبهامشه كنز العمال .
دار الفكر ـ بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .
٤٠ ـ مشاهد القيامة في القرآن .
سيد قطب .
دار الشروق . بدون تاريخ .
٤١ ـ معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم .
عبد الرزاق نوفل .

دار الكتاب العربي . بيروت : ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ .
٤٢ ـ معجزة القرآن : الكتاب الأول .
محمد متولي الشعراوي .
مكتبة دار التراث الإسلامي ـ القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٨٨ .
٤٣ ـ معجزة القرآن العددية .
صدقي البيك .
مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق . الطبعة الأولى ١٤٠١ ـ ١٩٨١ .
٤٤ ـ معجم مقاييس اللغة .
أحمد بن فارس . تحقيق عبد السلام هارون .
دار الفكر ـ بيروت . الطبعة الأولى ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ .
٤٥ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل .
القاضي عبد الجبار الأسد آبادي .
دار الكتب المصرية ١٣٨٠ ـ ١٩٦٠ .
٤٦ ـ المفردات في غريب القرآن .
الراغب الأصفهاني . تحقيق محمد سيد كيلاني .
مكتبة مصطفى الحلبي ١٣٨١ ـ ١٩٦١ .
٤٧ ـ الموافقات في أصول الشريعة .
أبو إسحاق الشاطبي . شرح عبد الله دراز .
دار المعرفة ـ بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ .
٤٨ ـ النبأ العظيم .
الدكتور محمد عبد الله دراز .
القاهرة ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩ .
٤٩ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب .
الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي .
دار الفرقان ـ عمان . الطبعة الأولى ١٩٨٣ .
٥٠ ـ نظرية النظم عند عبد القاهر .

الدكتور درويش الجندي .
مكتبة نهضة مصر ـ ١٩٦٠ .
٥٠ ـ النقد الأدبي : أصوله ومناهجهُ .
سيد قطب .
دار الشروق . بدون تاريخ .
٥١ ـ النماذج الإنسانية في القرآن .
أحمد محمد فارس .
دار الفكر ـ بيروت . بدون تاريخ .
٥٢ ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز .
فخر الدين الرازي . تحقيق د . إبراهيم السامرائي . ود . محمد بركات أبو علي .
دار الفكر . عمان ١٩٨٥ .




www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المحتوى

الفصل الثاني

الفصل الثالث
الإعجاز في الأسلوب القرآني

الفصل الرابع
الإعجاز في المضمون القرآني


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي مكتبة الأقصى ـ عمان ١٩٨١ .

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ـ دار الفرقان ـ عمان ١٩٨٣ .

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٨٥ .

٤ ـ مدخل إلى «في ظلال القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٨٦ .

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٨٦ .

٦ ـ في ظلال القرآن: في الميزان ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٨٦ .

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن ـ مكتبة المنار ـ الزرقاء ١٩٨٥ .

٨ ـ في ظلال الإيمان ـ مكتبة المنار ـ الزرقاء ١٩٨٦ .

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن ـ دار القلم ـ دمشق ١٩٨٧ .

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات ـ دار القلم ـ دمشق ١٩٨٧ .

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن .

الأول: من قصص بني إسرائيل ـ دار القلم ـ دمشق ١٩٨٨ .

١٢ ـ مع قصص السابقين في القرآن .

الثاني: قصص سورة الكهف ـ دار القلم ـ دمشق ١٩٨٩ .

١٣ ـ مع قصص السابقين في القرآن .

الثالث ـ دار القلم ـ دمشق ١٩٨٩ .

١٤ ـ البيان في إعجاز القرآن ـ دار عمار ـ عمان ١٩٨٩ .

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية
(٦٥٩/ ١٠/ ١٩٨٩)